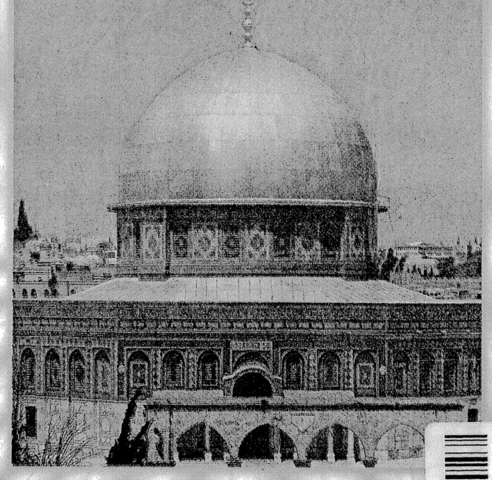
بنو إسرائيل

الجزء الأول

التاريـــــــخ

منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام





: الدكتور
ومى مهران
والشرق الأدني القديم
جامعة الاسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦

بنو إسرائيل

الجزء الأول

التاريــــخ

منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسي عليهما السلام

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

١٩٩٩

دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتير ـ الأزاريطة

الاسكندرية



والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وآله

إهـــــداء

إلى الذين هم أعز على من نفسي
إلى أولادي أحمد ضياء الدين وإبراهيم والحسين
وإلى ابنتي آمال وأمل

تقـــــــديم

تحتل فلسطين - أو أرض كنعان كما كانوا يدعونها قديماً - مكانة دينية بارزة بين دول الشرق الأدنى القديم، فلئن كان موسى - كليم الله - قد ولد في مصر، ونشئ في القصر الفرعوني[١]، حيث تثقف بالثقافة المصرية، «وتهذب بكل حكمة المصريين[٢]»، ثم تلقى وحى ربه فى أرض كانت - وماتزال وستظل إن شاء الله أبد الدهر - أرضاً مصرية[٣].

ولئن كان حبيب الله ورحمة العالمين وخاتم النبيين جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - قال ما قاله الكليم على أرض الحجاز الطاهرة، فإن المسيح كلمة الله وروحه - ولد فى بيت لحم وربى فى الناصرة من أرض كنعان، ثم شهدت فلسطين كل معجزات المسيح التى منحها إياه ربه الكريم، ففيها علمه ربه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وفيها بعث ﴿رسولا إلى بنى إسرائيل﴾[٤].

وفى فلسطين «بيت المقدس» تلك المدينة التى يقدسها العرب جميعاً - من مسلمين ومسيحيين - بل هى رمز البشرية المتدينة على اختلاف مللها ورسلها ومذاهبها، يقدسها اليهود لأن لهم فيها ذكريات دينية وسياسية، ويقدسها المسيحيون لأنها موطن المسيح ومبعث هدايته، ولأن بها كنيسة القيامة التى إليها يحجون.

---

(١) انظر: التوراة (خروج ٢ : ١-١٠)؛ سورة القصص: آية ٧-١٤.

(٢) الإنجيل، أعمال الرسل ٧ : ٢٢

(٣) سورة القصص، آية: ٢٩-٣٠.

(٤) انظر: سورة آل عمران: آية ٤٨-٤٩؛ وكذا : تفسير الكشاف ١/٣٦٢-٣٦٤ (القاهرة ١٩٦٤)، تفسير الطبرى ٣/٨٣-٨٦، دار المعارف بمصر)، تفسير الطبرسى ١/٨٤-٨٨ (بيروت ١٩٦١)، تفسير البحر المحيط ٢/٤٦٣-٤٦٥، تفسير النسفى ١/٢١٧، تفسير القرطبى ص ١٣٣٥-١٣٣٦ (دار الشعب - القاهرة ١٩٦٩) ، تفسير ابن كثير ٢/٣٥-٣٦ (دار الشعب، القاهرة ١٩٧١)، تفسير المنار ٣/٢٤٩، ٢٥٠ (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٣).

ويقدسها المسلمون لأن الله شاءت إرادته أن يخصها بالعديد من الأنبياء والمرسلين - ابتداءً من أبيهم إبراهيم حتى عيسى بن مريم عليهم السلام - ولأن فيها أولى القبلتين[١]، وثالث الحرمين الشريفين[٢]، ولأن بها مسرى جدنا النبيّ الأعظم محمد - ﷺ - وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿سبحان الّذى أسرى بعبْده ليلاً من المسْجدِ الحرَامِ إلى المسْجدِ الأقصى الّذى باركنا حوله﴾[٣]

وفى القرن الحالى يخرج اليهود من قمائمهم من بقاع الأرض المختلفة، مستغلين غفلة الأمم عن أهدافهم التوسعية، وفرقة وضعفًا كتبهما الاستعمار على أمة العرب، فضلا عن تواطئ من الذين أريد لهم أن يكونوا أوصياء على فلسطين، وعون غير محدود من هؤلاء الذين وقفوا إلى جانب المنظمات الصهيونية، وهكذا قامت «إسرائيل» معتمدة على مزاعم يهود من

(١) انظر : سورة البقرة آية ١٤٢-١٤٤، وكذا تفسير الطبرى ١٢٩/٣-١٨٤، تفسير ابن كثير ٢٧٣/١-٢٨٠، تفسير القرطبى ص ٥٣١-٥٥٠، تفسير المنار ٧/٢، ١٢-١٣ (القاهرة ١٩٧٢)، صحيح البخارى ٢٥/٦-٢٧ (دار الشعب ١٣٧٨هـ) ، صحيح مسلم ١٦٠/٢-١٦٢ (دار الشعب ١٩٧١) ، مسند الإمام أحمد ٢٤٦/٥-٢٤٧ (القاهرة - طبعة الحلبى)، الهيثمى: مجمع الزوائد ١٣/٢، السيوطى، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١٤٣/١-١٤٧ (طهران ١٣٧٢هـ)، ابن كثير- السيرة النبوية ٣٧٢/٢-٣٧٧ (طبعة الحلبى - القاهرة ١٩٦٤)، ابن هشام، سيرة النبيّ ﷺ (طبعة الحلبى - القاهرة، ١٩٥٥)، ص ٥٥٠.

(٢) انظر صحيح مسلم ٥٤١/٣ دار الشعب ١٩٧٢، الزركشى: كتاب إعلام الساجد ص ٢٨٧، عبد اللطيف مشتهرى: المسجد الأقصى، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٣٣-٣٧.

(٣) سورة الإسراء: آية ١، وانظر: تفسير القرطبى، ص ٣٨١٩-٣٨٢٨ تفسير ابن كثير ١٣١/٥-١٣٧ ، وعبد الله محمود شحاته، تفسير سورة الإسراء ص ٢١، ٤٧ (الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ١٩٧٥)، ابن هشام، سيرة النبيّ ﷺ ٣٩٦/١-٤٠٣، ابن كثير ، السيرة النبوية ٩٣/١-١٠٨، صحيح البخارى ٦٦/٥-٦٩، ٦-١٤٠، صحيح مسلم ٣٨٧/١-٤٠٢، فتح البارى ١٥٩/٧-١٧٢، محمد الغزالى، فقه السيرة ص ١٣٤-١٤٧ (القاهرة ١٩٦٥)، محمد محمد أبو شهبة: السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة (٤٢١/١-٤٤٥) (القاهرة: ١٩٧٠) ، محمد حسين هيكل: حياة محمد ﷺ ص ١٨٩-١٩٥ (القاهرة ١٩٦٥) عماد الدين خليل : دراسة فى السيرة ص ١١٠-١٢٤ (بيروت ١٩٧٤).

أن الله قد أعطاهم أرض الميعاد هبة مقدسة منه لشعبه المختار، ومستغلة فى ذلك نصوصًا كتبها يهود الأسر البابلى فى التوراة، هذا فضلا عن أنهم شغلوا يومًا ما - ولفترة قصيرة - مكانًا فى فلسطين، يوم أن اهتبلوا فرصة الاضطرابات التى سادت المنطقة الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط إبان غزو شعوب البحر لها، وما صاحب ذلك من اضمحلال الدول الكبرى فى الشرق القديم، مما أدى فى نهاية الأمر إلى اختلال التوازن القائم حين ذاك، والذى استغله اليهود فى إنشاء دويلة فى جنوب سورية القديمة (فلسطين).

ومع ذلك فإن تاريخ العبرانيين السياسى لا يمثل إلا فترة قليلة الأهمية، إذا قورن بتاريخ الإمبراطوريات الكبرى فى الشرق الأدنى القديم، ولا تصح مقارنته - بحال من الأحوال - إلا بمشابهه من تاريخ شعوب سامية صغرى، عاشت فى المنطقة، ولم تستطع كالعبرانيين، أن يكون لها يومًا ما صوت ما - مهما قل أثره - ومع ذلك فقد اقتضت طبيعة الأشياء أن يظل للموقف التاريخى - الذى أتاح للعبرانيين فرصة ضئيلة - أثره فى الأحداث التى تقلبت عليهم، ثم فى اضمحلالهم الذى لم يكن منه بد، بعد أن نهضت دول الشرق الكبرى من كبوتها.

ورغم ذلك، فإن اليهود - ويا للعجب - يحيطون أنفسهم فى العصر الحديث بهالة تجعل منهم شيئًا له اعتباره، لم يكن يومًا من الأيام يعتد به بين معاصريهم، فهم - بفضل التراث الذى قدموه للعالم فتقبله مدى قرون طويلة، دون أن يضعه على بساط البحث - استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم. وكأنما شغلوا فى تاريخ هذا الشرق حيزًا، أو كأنما كان لهم فى حياته دور، والواقع أنهم لم يكونوا كذلك أبدًا، ذلك لأن معاصريهم حجبوهم، وهم لم يستطيعوا أن يفتحوا بلدانًا، ولم يقووا على غزو أقاليم جديدة يكوّنون من ورائها دولة تستطيع أن تقف على قدم المساواة مع غيرها من الدول[1].

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم - الجزء الثالث - الإسكندرية ١٩٦٩، ص ١٧٩.

هذا فضلا عن أن اليهود لم تكن لهم فنون ولا صناعة، ومن هنا كان تأثيرهم فى تاريخ الحضارة صفراً، حتى ليرى بعض الباحثين أنهم لم يستحقوا - بأى وجه أن يعدوا من الأمم المتمدنة، ذلك لأنهم - فيما يرى جوستاف لوبون[١] - ظلوا بدويين أفاقين، مفاجئين سفاكين، مولعين بقطعانهم، مندفعين فى الخصام الوحشى، فإذا بلغ الجهد منهم، ركنوا إلى خيال رخيص، تائهة أبصارهم فى الفضاء، كسالى خالين من الفكر كأنعامهم التى يحرسونها، والذى يقرأ تاريخ الشرق الأدنى القديم يعرف أن معاصريهم قد حجبوهم، وأن فلسطين - أو أرض الميعاد كما يحلوا لهم أن يسموها - لم تكن غير بيئة مختلفة لليهود، فالبادية كانت وطنهم الحقيقى.

ورغم كل هذا، فإن اليهود استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بفضل التوراة، تراثهم المكتوب، ذلك الذى تسلمته المسيحية من بعدهم فنقلته إلى من اعتنقوها، وكان الإيمان به جزءاً من الإيمان[٢] بها، ولولا ذلك فربما كان لا يقدر للتوراة مثل ذلك.الانتشار الذى لاقته بعد ظهور الأديان السماوية اللاحقة[٣]. وفى الواقع أنه ما برحت جمهرة المسيحيين تأخذ التاريخ اليهودى - كما ورد فى التوراة - قضية مسلماً بها، وإن تأثرت كثيراً بعداء اليهودية للسيد المسيح، وبفكرة أن الله قد وسَّع عهده فأصبح يشمل البشرية بأسرها عوضًا عن شعب بالذات، وأن رسالة اليهودية قد استنفدت بظهور المسيح عليه السلام.

ومع ذلك كله، ورغم عداء اليهودية للمسيحية والإسلام، فقد أضفى ظهورهما عليها أهمية واعتباراً ما كانت لتحظى به لولاهما، بل لقيض

(١) جوستاف لوبون، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٦٧، ص .

(٢) انظر فى ذلك مثلا ما جاء فى الإنجيل على لسان المسيح عليه السلام، حيث يقول: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل»(إنجيل متى: ١٧/٥)، وانظر سورة آل عمران، آية : ٥٠، سورة المائدة : آية ٤٦.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٧٩.

للجماعة اليهودية أن تعيش فى ظل حجب الغموض والإبهام لا يبالى أحد بها[١].

وعلى أى حال، فلا يهمنا هنا، ونحن نكتب تاريخ اليهود، أن تكون التوراة - تراث اليهود المكتوب - كتاباً مقدساً أو لا تكون، فذلك شأن من يرونها فى نصها الراهن على هذا النحو أو ذاك، ولكن الذى يهمنا - كمؤرخين - ألا تكون كتاب تاريخ، يحاول فرض مضمونه على الحاضر والمستقبل، كما فرضه على الماضى، وإذا كان ما يعزى للتوراة من قيمة تاريخية لا يجد سنداً إلا فيما يزعم لها من قداسة، فالذى لاشك فيه أن هناك علاقة بين قيمة التوراة ككتاب تاريخ، وقيمتها ككتاب مقدس، ذلك أنه كلما تدعمت قيمتها ككتاب مقدس، تضاءلت الريبة فى صدق ما تضمنته من وقائع، وسهل وصول هذه الوقائع إلى يقين الناس، على أنها من حقائق التاريخ التى لا ينبغى الشك فيها، ولا مناص من التسليم بها[٢].

وقد أدركت اليهودية هذه الحقيقة فأحسنت استغلالها إعلامياً فى الغرب المسيحى، لدعم ما زعمت أنه حقها فى إنشاء دولتها «إسرائيل»، ومن هنا كانت كلمة مندوب إسرائيل فى هيئة الأمم المتحدة غداة الاعتراف بها فى ١١ مايو ١٩٤٩: «قد لا تكون فلسطين لنا على أساس حق سياسى أو قانونى، ولكنها حق لنا على أساس روحانى، فهى الأرض التى وعدنا بها، وأعطانا إياها الله»[٣].

ومن هنا كانت ضرورة دراسة التوراة - بل من هنا علينا - كما يقول المؤرخ الإنجليزى سايس - إن أردنا أن نفهم تاريخ العبرانيين على حقيقته، أن

---

(١) فؤاد محمد شبل، مشكلة اليهود العالمية، ص ١٠ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٠)

(٢) صبرى جرجس، التراث اليهودى الصهيونى ، ص ٥١، ٥٨-٥٩، القاهرة ١٩٧٠.

(٣) أبكار السقاف، إسرائيل، وعقيدة الأرض الموعودة، ص ٤٦٧، القاهرة، ١٩٦٧

نعالجه كما يعالج تاريخ أى شعب، إن من كتبوا التوراة كانوا بشراً مثلنا، وهم كمؤرخين لا يختلفون عن نظائرهم من معاصريهم فى الشرق، إنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل أن تخطئه، إن الكاتب فى العصر الحديث يجب أن يفهم أنه يتحدث كما يتحدث عالم الآثار أو المؤرخ، إنه يتقبل من الناحية الدينية بغير تحفظ ما وضعته قوانين الكنيسة كأسس للإيمان والعقيدة، وليس من بينها على أى حال ما يمنعه من أن يناقش التوراة مناقشة حرة دون تمييز[١]. وهو الأمر الذى حاولنا ـ جهد الطاقة ـ أن نقوم به، رغم اختلاف وجهة نظرنا مع الأستاذ سايس فى كثير مما أشار إليه.

هذا وقد وضعنا نصب أعيننا فى هذه الدراسة «البحث عن الحقيقة» أيًا كانت، مهتدين فى ذلك بهدى القرآن الكريم، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يأيها الَّذينَ آمنوا كونُوا قوَّامينَ لله شهداءَ بالقسْط، ولا يَجْرمنَّكُم شنَآنُ قومٍ على ألاَّ تعدلُوا اعْدلُوا، هو أقربُ للتقوى واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبير بمَا تعملونَ﴾[٢]، ومن هنا وحتى لا نقع كثيراً فيما وقع فيه البعض ممن حاولوا أن يكتبوا عن تاريخ اليهود، فلم يقدموا لنا إلا كلمات أشبه بالخطب، أو كتابات لا تعرف نصيباً من منهج أو من موضوعية أو من إخلاص أحياناً ـ كان ما قدمناه فى هذه الدراسة إنما يعتمد فى الدرجة الأولى على التوراة[٣] ـ كتاب اليهود الدينى والتاريخى ـ ثم على كتاب من غير المسلمين فى الدرجة الثانية.

(١) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق، ص ٢٧٣ ؛ وانظر:

. A.H. Sayce Early History of the Hebrews

(٢) سورة المائدة، آية : ٨، وانظر تفسير الطبرى، ١٠/٩٥-٩٧ (دار المعارف القاهرة ١٩٥٧)، تفسير ابن كثير ٣/٥٧-٥٨ ؛ تفسير القرطبى، ص ١٢٠٦-١٢٠٧، تفسير مجمع البيان ٦/٤٤-٤٦ (بيروت ١٩٦١)، تسير الكشاف ١/٦١٢-٦١٣، تفسير روح المعانى ٦/٨٣، فى ظلال القرآن ٦/٩٩-١٠٢ (بيروت ١٩٧٣)، الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٣/١٤٧-١٤٨ (القاهرة ١٩٧٤)، تفسير المنار ٦/٢٢٥-٢٢٧ (القاهرة ١٧٧٣).

(٣) التوراة ـ أو التورة ـ كلمة عبرانية تعنى الهداية والإرشاد ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) والتى تنسب إلى موسى عليه السلام، وهى جزء من =

وليس هذا يعني ـ بحال من الأحوال ـ أن نستبعد وجهة النظر الإسلامية، وآراء الكتاب المسلمين، فذلك أمر لا يتفق ومنهج البحث العلمى الجاد من ناحية، كما أن الأمانة الملقاة على عاتقى والمسئولية التى أتحملها أمام الله والوطن، فضلا عن العلم نفسه من ناحية أخرى، لا يتيح لى أن أترك القراء الكرام ـ والشباب منهم بصفة خاصة ـ يتمزقون دينيًا ونفسيًا، حول ما تثيره التوراة من تهم بذيئة حول الأنبياء الكرام[1] ـ ويا للعجب فهم أنبياء اليهود ـ وحول ما يثيره التلمود من تهم دنيئة حول المسيح ـ عليه السلام[2] ـ فضلا عن أن الطعن فى الأنبياء الذين اصطفاهم الله هداة للبشر، لا يتنافى تنافيًا مطلقًا مع ما هم عليه فى الدين والخلق فحسب، بل إنه ـ والعياذ بالله ـ طعن فى حكمة الله التى اختارتهم عن علم، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[3].

=

العهد القديم، والذى يطلق عليه تجاوزاً اسم التوراة من باب اطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى، والتوراة أو العهد القديم تميزاً له عن العهد الجديد ـ كتاب المسيحيين المقدس ـ هو كتاب اليهود الذى يضم إلى جانب تاريخهم عقائدهم وشرائعهم، ويقسمه أحبار اليهود إلى ثلاثة أقسام: الناموس والأنبياء والكتابات.

(١) انظر: تكوين ١٢ : ١٠-٢٠، ١٩ : ٣٠-٣٨، ٢٠ : ١-١٨، ٢٥ : ٢٧-٣٣؛ ٢٦ : ١-١١؛ ٢٧ : ١-٤٦؛ ٣٥ : ٢٢، ٣٧ : ١٢-٣٠، خروج ٣٢ : ٢-٥، صموئيل ثان ١١ : ٢-٣٩؛ ١٣ : ١-٣٩؛ ١٦ : ٢-٢٣.

(٢) انظر على سبيل المثال : كتاب أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٢٧١/٣؛ صبرى جرجس، المرجع السابق، ص ١٠٢-١٠٣، مقالنا: التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧٠، الإسكندرية ١٩٧٢، ص ١٧-١٨، ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٧٢.

(٣) سورة الأنعام، آية : ١٢٤، وانظر : تفسير الطبرى ٩٥/١٢-٩٦، تفسير الكشاف ٤٨/٢-٤٩، تفسير الفخر الرازى ١٧٥/١٣-١٧٦ (القاهرة ١٩٣٨)، تفسير روح المعانى ٢١/٨-٢٣ (دار إحياء التراث العربى ـ بيروت) تفسير القرطبى ص ٢٥١٥-٢٥١٦؛ تفسير أبى السعود ٢٨٠/٢؛ تفسير الطبرى ١٨٥/٧-١٨٨؛ تفسير ابن كثير ٣١٣/٣-٣٢٦؛ تفسير الجواهر ١٠٢/٤، تفسير المنار ٣٢/٨-٣٥

وانطلاقـًا من هذا كله، فـإن هذه الدراسـة لم تكن مـتـأثرة بشيء إلا بكلمة حق تقال لهم أو عليهم، ولم تكن متقيدة بتلك الهالة التي فرضتها التوراة على قرائها، إلا أن يكون لها سند من تاريخ، أو عماد من منطق، أو تكئة من حق.

وهكذا تحكي الصفحات التالية قصة يهود، ما أخفينا فيها من حسنة لهم، وجدنا لها سنداً من التاريخ الصحيح، وما سطرنا عليهم من سيئة إلا وكانت التوراة ـ كتابهم المقدس ـ هي دليلنا نقدمها نصًا، حتى، وإن طال هذا النص أحيانًا، حتى لا يخيل للمتفلسفين والمخدوعين أننا نكتب عن يهود، بوازع من دين ـ هو أعز علينا من أنفسنا، وليس لنا من أمنية عند الله أعز من أن يميتنا عليه ـ وبوازع من وطن ـ هو أحب إلينا من الدنيا وما فيها، نشرف بالانتساب إليه، ونتيه فخراً على الدنيا أننا ننتمي إلى ترابه ـ .

ومن هنا فكل ما نرجوه لهذه الدراسة أن يكون فيها بعض من نفع، حتى تطمئن نفوسنا إلى أننا قد أدينا بعضًا من واجبنا، وفي الوقت نفسه نكون قد وضعنا لبنة صغيرة في هذا الفرع من الدراسات الهامة ـ بل والضرورية ـ في هذه الفترة الحاسمة من التاريخ. ذلك لأننا نعتقد أنه من ألزم ضروريات النصر أن تعرف الأمة ـ أي أمة ـ ذاتها معرفة حقيقية، كما عليها أن تعرف عدوها معرفة حقيقية، كذلك، ولن يتأتى لها ذلك على الوجه الصحيح عن طريق كتابات ترضي أهواء كاتبيها، بل ولن يتأتى لها ذلك حتى عن طريق المعرفة العسكرية، والتي ليست على أي حال مجرد مجموعات مجيشة من الرجال، جهزوا بالسلاح الحديث، ومرسوا بالتدريب على أفانين القتال، وإنما هي أيضًا تخطيط دقيق يعتمد أولا وأخيراً على دراسات واسعة شاملة لعديد من أبواب المعرفة، لعل من أهمها دراسة الإنسان نفسه بنوازعه الظاهرة والخفية

وإذا كان صحيحًا أننا لا نستطيع أن ندرس أمة من الأمم من واقعها المعاصر فحسب، بل لابد من العودة إلى أعماق تاريخها لمعرفة المنابع الحقيقية التى أمدتها بتصورها للحياة، وإذا كان ذلك ضرورياً مع أى شعب، فهو أكثر ضرورة مع الشعب الإسرائيلى، لأننا لا نعرف شعبًا فى التاريخ الإنسانى كله حافظ على قديمه كما حافظ عليه هذا الشعب، وهو لا يصدر فى كل شأن من شئونه إلا عن فهم لهذا القديم وإيمان به[١].

ومن هنا فإن المؤرخين والمفكرين والكتاب لمطالبون بأن يخرجوا لنا المؤلفات الجادة - بعيداً عن الاستثارات الزاعقة - فتعالج هذه القضية من نواحيها جمعيًا، وأنها من الغزارة بحيث لن يقدر لواحد فرد - مهما حصل من علم، وأضفى عليه من حصافة ورصين رأى - أن يلم بالعديد المتداخل من زاخر جوانبها، وإن كان مما لا شك فيه أن أهمها جميعًا أصول العقيدة اليهودية، أو على الأصح «العقيدة الإسرائيلية» - فأى هوة عميقة تلك، تفصل بين الاثنين - وكيف انبثقت أول ما انبثقت فى ضوء من هجرة «الخروج» إلى أرض كنعان، وكيف تسللت إليها من بعد تلك التيارات الآجنة التى حادت بها عن الجادة إلى مناقع التعصب، فتستخلف تلك البذور الخبيثة التى منها الآن معالفها وفيها غذاؤها ونماؤها[٢].

وموضوع هذا الكتاب دراسة لتاريخ اليهود وحضارتهم فى العصور القديمة وقد جعلت طبعته هذه فى خمسة أجزاء، الأول والثانى يتحدث عن التاريخ اليهودى القديم حتى نهاية القوم فى فلسطين ككيان سياسى وقومى على أيدى الرومان فى عام ١٣٥م إبان عهد الإمبراطور هدريان (١١٧-١٣٨م)، والثالث والرابع والخامس إنما خصص لحضارة يهود فى تلك العصور الخالية، وذلك بعد أن كانت طبعته الأولى فى عام ١٩٧٣م،

(١) عبده الراجحى، الشخصية الإسرائيلية، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٨، ص ٦.

(٢) حسين ذو الفقار صبرى، إنما الأمور بأصولها - المجلة ، العدد ١٥١، يوليو ١٩٦٩، ص ٤-١٥.

مقصورة على التاريخ اليهودى حتى نهاية دويلة يهوذا وسقوط أورشليم فى عام ٥٨٧ق.م، فضلا عن دراسة للتوراة نفسها، وبدهى أن الهدف من ذلك إنما هو تقديم دراسة متاملة للتاريخ والحضارة اليهودية طوال العصور القديمة.

وتمثل هذه الدراسة الأجزاء من ١٥ إلى ١٩ من سلسلة «دراسات فى تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم» عقدت العزم ـ بعد أن استخرت الله سبحانه وتعالى ـ على أن تكون كالآتى:

١ ـ مصـــــر، الجزء الأول	الإسكندرية ١٩٨٨
٢ ـ مصـــــر، الجزء الثانى	الإسكندرية ١٩٨٨
٣ ـ مصـــــر، الجزء الثالث	الإسكندرية ١٩٨٨
٤ ـ الحضارة المصرية القديمة، الجزء الأول	الإسكندرية ١٩٨٩
٥ ـ الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثانى	الإسكندرية ١٩٨٩
٦ ـ تاريخ العرب القديم، الجزء الأول	الإسكندرية ١٩٩٤
٧ ـ تاريخ العرب القديم، الجزء الثانى	الإسكندرية ١٩٩٤
٨ ـ الحضارة العربية القديمة	الإسكندرية ١٩٨٨
٩ ـ بلاد الشام	الإسكندرية ١٩٩٠
١٠ ـ تاريخ السودان القديم	الإسكندرية ١٩٩٤
١١ ـ المغرب القديم	الإسكندرية ١٩٩٠
١٢ ـ العراق القديم	الإسكندرية ١٩٩٠
١٣ ـ التاريخ والتأريخ	الإسكندرية ١٩٩١
١٤ ـ المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم)	بيـــــروت ١٩٩٤
١٥ ـ بنو إسرائيل، التاريخ، الجزء الأول	الإسكندرية ١٩٩٧
١٦ ـ بنو إسرائيل، التاريخ، الجزء الثانى.	الإسكندرية ١٩٩٧
١٧ ـ بنو إسرائيل ، الحضارة، الجزء الأول.	الإسكندرية ١٩٩٧
١٨ ـ بنو إسرائيل، الحضارة ، الجزء الثانى.	الإسكندرية ١٩٩٧
١٩ ـ بنو إسرائيل، النبوة والأنبياء، الجزء الخامس.	الإسكندرية ١٩٩٧

وعـوداً على بدء، إلى اليـهـود. حيث نرى أنهم الأمـة الوحـيـدة التي كتبت تاريخها بيدها. وبحسب هواها، ثم زعمت أن هذا التاريخ قد أنزل من السماء، وأنه فوق الجدل والنقاش، مصير من لا يصدقه أو يناقشه علميًا عقاب الله في الدنيا والآخرة، بل وقد نجحوا نجاحًا لا يبارى في إيهام مئات الملايين من البشر على مدى الأحقاب والعصور بذلك، هذا فضلاً عن أن القوم عندما كتبوا تاريخهم هذا، إنما قد أغاروا على المأثورات الشعبية للأمم القديمة التي عرفوها، وأضافوا إليها من بقايا الفلكلور الذى حفظته ذاكرتهم من بداوتهم الأولى، فنسجوا من ذلك كله أسطورة اختلطت فيها حكمة الحكماء وشرائع الأنبياء بحكايات الأبطال الخرافيين، وترجمات تكاد تكون حرفية لملاحم من أمم أقدم منها[١].

ومن هنا فالرأى عندى، أن مقومات هذه الدراسة ـ إن أردناها جادة عميقة ـ أربع، لعل أولها : دراسة جادة أمينة للتوراة ـ كتاب اليهود الدينى والتاريخى ـ ثم دراسة عميقة متأنية لتاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم ـ وبخاصة مصر والشام والعراق ـ ففى مصر عاش اليهود فترة التكوين الأولى، وفى مصر لقى بنو إسرائيل العذاب المهين، وعلى أرض مصر أنزلت الأسفار الأولى من التوراة، ثم كان الخروج إلى أرض كنعان، حيث عاشوا هناك حينًا من الدهر، أخذوا فيه ما شاء الله لهم أن يأخذوا من حضارات الكنعانيين والآراميين وغيرهم، وأخيراً كان الأسر الآشورى فى عام ٧٢٢ق.م ثم البابلى فى عام ٥٨٧ق.م إلى العراق، حيث كتبوا هناك ـ وعلى ضفاف الفرات ـ توراتهم، بما يتفق وأهواؤهم ويتلاءم وميولهم العنصرية، ومتأثرين فى الوقت نفسه بالحضارات السومرية والاشورية والبابلية التى كانوا يعيشون فى ظلالها.

---

(١) حسن ظاظا وآخرون، الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة ١٩٧١، ص ١٣.

وأما ثالث المقومات، فهو دراسة للإسلام، أو على الأقل إلمام تام بمصدره الأساسى ـ القرآن الكريم ـ ذلك لأنه ليس هناك كتاب سماوى ـ حتى التوراة نفسها ـ قد فصل الحديث عن بنى إسرائيل، وأفاض فى وصف يهود وأحوالهم وأخلاقهم، وأبان مواقفهم من الأنبياء، كما فعل القرآن الكريم، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿إِنَّ هذا القرآنَ يَقُصُّ على بنِى إسرائيلَ أكثرَ الَّذِى هُمْ فيه يَخْتَلِفُونَ﴾[1]

هذا وقد حاول فريق من المستشرقين أن لا يعتبر القرآن الكريم فيما قصّه من أخبار مصدراً تاريخيًا يمكن الاعتماد عليه، وذلك لخلو هذه الأخبار من التفاصيل، ومما يحددها فى الزمان والمكان ـ فى بعض الأحايين ـ وعدم اتفاق بعضها مع ما جاء فى كتب العهد القديم والجديد (التوراة والإنجيل)، وكتب التاريخ القديم[2].

غير أن هذا لا ينفى صدق القرآن وصحة أخباره، صحيح أن القرآن الكريم لم ينزل كتاباً فى التاريخ يتحدث عن أخبار الأمم، كما يتحدث عنها المؤرخون، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للتى هى أقوم[3]، ولكنه صحيح كذلك، أنه رغم أن هدف القرآن فى قصصه، ليس التأريخ لهذا القصص، وإنما عبراً تفرض الاستفادة بما حل بالسابقين، فإن هذا القصص إنما هو الحق الصراح، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ومَنْ أصدقُ منَ اللهِ حديثاً[4]﴾، ويقول ﴿إنَّ هذا لهو القصصُ الحقُّ﴾[5] ويقول ﴿نحنُ نقصُّ

(١) سورة النمل: آية ٧٦؛ وانظر: تفسير الكشاف ٣٨٢/٣-٣٨٣ (دار الكتاب العربى ـ بيروت)، تفسير الطبرى، ٢٤٦/٢٠-٢٤٩؛ تفسير روح المعانى ١٧/٢٠؛ تسير الفخر الرازى ٢١٥/١٤-٢١٦؛ تفسير النسفى ٣٠/٤؛ تفسير القرطبى، ص ٤٩٤٧.

(٢) التهامى نقرة، سيكولوجية القصة فى القرآن ـ رسالة دكتوراة ـ تونس ١٩٧٤، ص ٢٢١.

(٣) عن أهداف القرآن ومقاصده، انظر: تفسير المنار ٢٠٦/١-٢٩٣.

(٤) سورة النساء، آية : ٨٧.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٦٢.

عليكَ نبأَهُم بالحقِّ﴾[١]، ويقـول ﴿تلكَ آياتُنَا نتلوها عليكَ بالحقِّ، فبـأى حديثٍ بعد اللهِ وآياتِهِ يؤمِنُونَ﴾[٢]

ومن ثم فليس هناك من شك فى أن القرآن الكريم، كمصدر تاريخى، إنما هو أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق، فهو موثوق السند [٣]، ثم هو قبل ذلك وبعده كتاب الله الذى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد﴾[٤]. ومن ثم فلا سبيل إلى الشك فى صحة نصه[٥] بحال من الأحوال، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل، فقد دون فى البداية بإملاء الرسول ـ ﷺ ـ وتلى بعد ذلك أمامه وحمل تصديقه النهائى قبل وفاته[٦]، ولأن القـصص القـرآنى إنما هو من أنبـاء وأحـداث تاريخية لم تلتبس بشىء من الخيال، ولم يدخل عليها شىء غير الواقع[٧]، ثم إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد تعهد بحفظه دون تحريف أو تبديل ﴿إنَّا نحنُ نزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا له لحافِظُونَ﴾[٨]، ومن ثم فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها،

---

(١) سورة الكهف، آية : ١٣.

(٢) سورة الجاثية، آية : ٦.

(٣) قدّم المؤلف دراسة مفصلة فى فصل مطول عن «القرآن الكريم» فى كتابه «دراسات فى التاريخ القرآنى»، الجزء الأول، الفصل الأول.

(٤) سورة فصلت، آية: ٤٢. وانظر: تفسير روح المعانى ١٢٧/٢٤-١٢٨؛ تفسير القرطبى، ص٥٨١٠- ٥٨١١؛ تفسير الطبرى ١٢٤/٢٤-١٢٥ (طبعة الحلبى، القاهرة، ١٩٥٤)؛ تفسير البيضاوى ، ٣٥٠/٢ (القاهرة، ١٩٦٨)؛ تفسير ابن كثير، ١٧١/٧.

(٥) طه حسين، الأدب الجاهلى، القاهرة، ١٩٣٣م، ص ٦٨.

(٦) محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، الكويت ١٩٧٤، ص ٤٩.

(٧) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآنى، القاهرة ١٩٦٤، ص ٥٢.

(٨) سورة الحجر، آية : ٩؛ وانظر: تفسير الطبرى، ٨٦٦/١٤ (مطبعة بولاق، ١٣٢٨هـ)؛ تفسير النيسابورى ٧/١٤-١٠ (نسخة على هامش الطبرى)؛ تفسير الكشاف ٥٧٠/٢؛ تفسير الطبرى، ١١/١٤-٢٤؛ تفسير الدر المنثور ، ٩٤/٤-٩٥ (طهران ١٣٧٧هـ)، تفسير الفخر الرازى ١٥٨/١٩-١٥٩؛ تفسير ابن كثير ٤٤٤/٤-٤٤٥.

بل وكلها إلى حفظ الناس[١]، فقال تعالى ﴿والربَّانيُّونَ والأحبارَ بما استُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ﴾[٢] أى بما طلب إليهم حفظه.

ومن هنا فقد حاولت جهدى فى هذه الطبعة أن يظهر الأثر القرآنى فيها بوضوح، وذلك بالإشارة إلى ما جاء فى القرآن الكريم عن الأحداث التى سوف نتعرض لها خلال صفحات هذه الدراسة.

وأخيراً تأتى اللغة العبرية، وما أشد حاجتنا إلى دراستها فى المعاهد المتخصصة، فضلا عن وجود علماء متخصصين فيها، وما أقلهم بين أبناء العروبة حتى الآن.

وإننى لأحمد الله كثيراً، إذ مَنَّ علىَّ بفضله، فأعاننى على دراسة التوراة، وما أشق قراءتها، فضلا عن الدراسة نفسها، وبدهى أننى لا أزعم لنفسى فضل الدراسة العميقة، ولكننى بذلت جهدى أن أتفهم نصوصها، كما أنه من حسن الحظ أن تخصصى إنما كان فى التاريخ القديم، إذ قضيت حتى الآن أكثر من أربعين سنة متواصلة فى دراسة تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.

وأما ثالث المقومات ـ وأعنى به دراسة الإسلام ـ ومصدره الأساسى القرآن الكريم ـ فربما كان حظى فيه أسعد من غيره بكثير، فلقد كان من فضل الله علىَّ أن شرفنى بحفظ القرآن الكريم فى بلدى «البصيلية» (مركز إدفوا بمحافظة أسوان)، ولم أتجاوز العاشرة من عمرى بكثير، ثم استمرت صحبتى لكتاب الله منذ أيام الصبى هذه وحتى الآن، فقد تابعت دراسته فى مدرسة المعلمين بقنا، ولم تبعدنى دراستى الجامعية بعد ذلك عنه أبداً، هذا فضلا عن تنشئة أبى وأمى لى تنشئة دينية.

---

(١) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم ـ نظرات جديدة فى القرآن، الكويت، ١٩٧٠، ص ١٢-١٤.

(٢) سورة المائدة، آية : ٤٤. وانظر : تفسير الطبرى، ٣٤١/١٠-٣٤٤؛ تفسير ابن كثير، ١٠٩/٣؛ تفسير المنار ٣٢٩/٦؛ تفسير القرطبى، ص ٢١٨٥-٢١٨٦.

ولعل هذا كله يجعلنى غير متطفل على ميدان هذه الدراسة، كما أنه فى الوقت نفسه إنما يفرض علىّ أن أتقدم بأجزل الشكر، وأطيب آيات الثناء، لهؤلاء الذين أعطونى كل هذه المقومات العلمية لإخراج هذه الدراسة إلى حيز النور.

إلى أبى وأمى، أصحاب الفضل الأول، واليد الطولى علىّ طول حياتى.

وإلى أساتذتى فى التاريخ القديم:

إلى السادة الأساتذة الأجلاء، الدكتور عبد المنعم أبو بكر، والدكتور مصطفى الأمير، والدكتور أحمد فخرى - طيب الله ثراهم.

وإلى أساتذتى الأجلاء: الدكتور نجيب ميخائيل والدكتور رشيد الناضورى والدكتور محمد أبو المحاسن عصفور طيّب الله ثراهم، والدكتور عبد العزيز صالح والدكتور محمد جمال الدين مختار، أطال الله فى عمرهما، وأفادنا بعلمهم، ووفقهم إلى خدمة وطنهم.

وإلى أساتذتى الأجلاء بقسم التاريخ، وإلى أستاذ الدكتور حسن ظاظا، وإلى أساتذتى فى البصيلية: الأستاذ السايح عبد القادر حمّاد، والأستاذ عبد الرازق محمد سعيد دبش، والأستاذ عبد الرضى مدنى، وإلى كل زملائى وإخوانى فى بلدى الحبيب - البصيلية - وإلى تلميذى الأستاذ الدكتور أحمد سليم الأستاذ بكلية الآداب.

ولعل من الأفضل هنا أن أستأذن أساتذتنا الأجلاء أعضاء اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين فى الجامعات المصرية فى التاريخ القديم والآثار، فى تسجيل الفقرات الخاصة بالطبعة الأولى من هذا الكتاب. والتى صدرت فى عام ١٩٧٣م - فى التقرير الذى كتبته اللجنة الموقرة فى ١٩٧٤/٦/٢٧م، والتى كانت تتكون من السادة الأساتذة الأجلاء:

١ - السيد الأستاد الدكتور **رشيد الناضوري**

أستاد تاريح مصر والشرق الأدنى القديم وعميد كلية الآداب - حامعة الإسكندرية

مقرراً

٢ - السيد الأستاذ الدكتور **عبد المنعم أبو بكر**

أستاد الآثار والحضارة القديمة - وعميد كلية الآداب - جامعة القاهرة (سابقاً)

عضواً

٣ - السيد الأستاذ الدكتور **عبد العزيز صالح**

أستاد الآثار والحضارة القديمة - وعميد كلية الآثار - جامعة القاهرة عضواً

٤ - السيد الأستاذ الدكتور **محمد جمال الدين مختار**

رئيس هيئة الاثار المصرية (السابق) - وأستاذ التاريح القديم - بجامعة حلوان

عضواً

٥ - السيد الأستاذ الدكتور **محمد أبو المحاسن عصفور**

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم - بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

عضواً

تقول اللجنة الموقرة، بعد أن استعرضت فصول الكتاب العشرة، فصلا فصلا: «وليس من شك فى أن المؤلف قد استطاع فى كتابه هذا، أن يتحدث عن شعب إسرائيل منذ البداية إلى النهاية، معالجًا كل الموضوعات الغامضة، معتمداً على ما كتب - سواء من العلماء الأوربيين أو العلماء العرب - مستعينًا باستمرار بما ورد فى الكتب السماوية (التوراة والإنجيل والقرآن) عن كل معضلة من المعضلات التاريخية، وصفحات الكتاب مليئة بالمراجع، كما أن أسلوب العرض الذى اتبعه يدل بوضوح على أنه قد استوعب تمامًا كل جنباته، إنه كتاب شامل وضع النقط على الحروف، وملأ مكانًا فى مكتبة كل قارئ، سواء المثقف أو طالب العلم».

«هذا ويتضح من الكتاب كذلك أن الدكتور محمد بيومى مهران يتجه اتجاهاً واضحًا نحو دراسة متاملة لتاريخ بنى إسرائيل، وما صاحب عقيدة اليهود، واستقرار معتقديها فى فلسطين من أحداث، أخذت أقلام بعض المؤرخين فى وضعها فى إطار مغالى فيه».

«لقد استطاع المؤلف فى كتابه هذا أن يبحث هذا التاريخ من زاوية علمية واستعرض كل الأحداث، مقدمًا كل الآراء فيها، وجعل فى نهاية الأمر هذا التاريخ سهلا مقروءاً، كما انتفع سيادته بآيات القرآن الكريم فى تأريخه لحضارة المنطقة، وهذا اتجاه محمود».

وبعد: فإننى الآن لست بمستطيع أن أفعل شيئًا، سوى أن أقدم لأساتذتى الأجلاء أعضاء اللجنة الموقرة، هذه الطبعة الجديدة من كتابى هذا، والتى يفصلها عن الطبعة الأولى سنوات خمس، بذلت جهدى ـ قدر استطاعتى ـ أن أكمل ما فى الطبعة الأولى من نقص، وأن أرجع إلى مراجع لم أستطع الحصول عليها، أو أنها لم تكن قد ظهرت إلى النور، إبان الطبعة الأولى، فضلا عن الإفادة من آيات القرآن الكريم، ومن أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ ومن كتب التفسير، وغيرها من المصادر الإسلامية، بصورة لا شك أنها أوضح، وبطريقة أظن أنها أفضل من تجربتى الأولى.

وأملى فى الله كبير، فى أن تنال هذه الدراسة بعض الرضى

﴿وما توفيقى إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أُنيبُ﴾

بولكلى ـ رمل الإسكندرية فى [التاسع عشر من المحرم عام ١٣٩٨ هـ — الأول من يناير عام ١٩٧٨ م]

دكتور

محمد بيومي مهران

الباب الأول
دراســـات تمهيدية

الفصل الأول
العبرانيون والإسرائيليون واليهود والصهاينة

لعل من الأفضل قبل أن نستطرد فى الحديث عن الإسرائيليين وتاريخهم، أن نحدد أصول كلمات «عبرانى» و«إسرائيلى» و«يهودى» وأخيراً «صهيونى» والتى تتردد اليوم ككلمات مترادفة.

١ ـ عبرانى:

وهى فى العبرية «عبرى» والجمع «عبريم» وقد اشتقت كلمة «عبرى» فى الأصل من الفعل الثلاثى «عبر» بمعنى قطع مرحلة من الطريق، أو عبر الوادى أو النهر، أو عبر السبيل شقها[١]. والعِبْر ـ بكسر العين وسكون الباء ـ اسم موجود فى اللغة العبرية بكسرتين خفيفتين. ومعناها ـ كما هو فى اللغة العربية ـ الجهة الأخرى التى يستلزم الوصول إليها اجتيازاً وعبوراً، وقد استعمل فى العبرية: عبر الوادى، بمعنى الناحية الأخرى منه، وعبر جدول صغير، مثل الأرنون، وعبر نهر مثل الأردن، وعبر بحر مثل البحر المتوسط[٢].

وكان إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ أول من وصف بها، وإن اختلفت الآراء فى سبب هذا الوصف، فهناك من يرى أن إبراهيم قد عرف بالعبرانى حين نزح بأسرته من العراق إلى كنعان، حيث عبروا النهر ـ نهر الأردن أو نهر الفرات لا ندرى أيهما المقصود تماماً ـ ذلك لأن كلمة نهر فى التوراة كانت تطلق على كل الأنهر الكبيرة، دون أن يضاف إليها ما يميزها بعضها عن بعض[٣].

---

(١) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، القاهرة ١٩٢٩، ص ٧٧.

(٢) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، الإسكندرية ١٩٧١، ص ٧١؛ وانظر: صموئيل أول ٣١: ٧؛ قضاة ١١: ١٨؛ تكوين ٥٠: ١٠؛ إرميا ٢٥: ٢٢.

(٣) إسرائيل ولفنسون، المرجع السابق، ص ٧٧.

غير أن أستاذنا الدكتور حسن ظاظا يرى أنه الفرات، وأن حادث العبور يرجع إلى يعقوب ـ وليس إلى إبراهيم، وذلك حين انفصل عن صهره «لابان» ثم اشترط الأخير ألا يعبر يعقوب النهر أبداً[١].

ولكن المعروف أن إبراهيم إنما كان أول من دعى «عبراني» فى التوراة[٢] ومن ثم فإن كثيراً من العلماء ـ ومنهم ابن الصلتى وابن العبرى والدكتور كلفن ـ يرجحون أن التسمية ناتجة عن عبور إبراهيم نهر الفرات، هذا فضلا عما جاء فى سفر يشوع عن هذه التسمية[٣]، وأخيراً فإن اللفظة لم تظهر إلا بعد اجتياز إبراهيم نهر الفرات، فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن التاريخ يحدثنا أن إبراهيم إنما قد عبر الفرات قبل يعقوب بزمن طويل، لكان لهذا الرأى من الوجاهة أكثر من سابقه.

وهناك رأى ثان يذهب إلى أن كلمة «عبرى» إنما هى نسبة إلى «عابر» الذى ينحدر من «سام» أكبر أبناء نوح، أصل الجنس البشرى فى التوراة بعد الطوفان[٤]، ونقرأ فى سفر التكوين من التوراة أن «بنى نوح سام وحام ويافث» وأن «سام أبو كل بنى عابر[٥]»، ولكن هناك ما يقف عقبة فى طريق الأخذ بهذا الرأى، ذلك أن إبراهيم لو شاء أن ينتسب إلى أحد

---

(١) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص ٧١؛ الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص ١٧-١٨.

(٢) تكوين ١٤ : ١٣؛ محمد بدر، الكنز فى قواعد اللغة العبرية، القاهرة ١٩٢٦، ص ٢٩، ٣٢، ٥١؛ حبيب سعيد، خليل الله فى اليهودية والمسيحية والإسلام، القاهرة، ص ١٤؛ وكذا:
Merrill F. Umger, Unger's Bible Dictionary, Chigcago, 1970, p. 465.

(٣) يشوع ٢٤ : ٢؛ الأب إسحاق ساكا، معنى التسميات للشعوب السامية، مجلة العربى، الكويت، يونيو ١٩٦٦، ص ١٥١-١٥٢.

(٤) تقوم نظرية التوراة هذه على أن الطوفان قد عمّ الأرض كلها، ولكن هناك اتجاه إلى أن الطوفان كان محلياً فى المنطقة التى كان يعيش فيها نوح وقومه (انظر: محمد بيومى مهران، دراسة حول قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة، مجلة كية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس، الرياض ١٩٧٥، ص ٣٨٣-٤٥٧).

(٥) تكوين ١٠ : ١، ٢١.

أجداده، لكان من البديهى أن ينتسب إلى سام أشهر أجداده، ولظهرت هذه التسمية قبل عبوره الفرات، وهو بعد فى أرض عشيرته.

وهناك فريق ثالث يرى أن كلمة «عبرى» لا ترجع إلى حادثة بعينها أو شخص بعينه، وإنما ترجع إلى الموطن الأصلى للعبرانيين، وهو الصحراء، إذ أن القوم إنما كانوا فى الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التى لا تستقر فى مكان، ومن هنا فإن كلمة عبرى مثل كلمة بدوى، أى ساكن الصحراء أو البادية[١]. ولكن هذا الرأى يناقضه أن هذه التسمية إنما اختص بها العبرانيون دون غيرهم من الأمم السامية، والتى لا تختلف عنهم فى موطنهم الأصلى.

وأيًا كان الأمر، فإن كلمة «عبرى» هذه تقابلها عند الفراعين كلمة «عابيرو» وعند البابليين «خابيرو»، وهم الذين جاء ذكرهم فى رسائل العمارنة[٢]، ومن ثم فقد ذهب فريق من العلماء - ومنهم هول[٣] وأوسترلى[٤] و«وولى»[٥] وأولبرايت[٦] ودريتون وفانديه[٧] وباهور لبيب[٨] وأحمد بدوى[٩] وميك[١٠]- إلى أعوام قليلة مضت، يؤكد فى ثقة أن هؤلاء

---

(١) إسرائيل ولفسون، المرجع السابق، ص ٧٧.

(٢) انظر مثلا:

S.A.B. Mercer, The Tell El-Amarna Tablets, II, Toranto, 1939, p. 721, 727; J.A., Kundtzon Und, O.Weber, Die El Amarna Tafeln, II, Leipzig, 1915, p. 877.

(٣) H.R.Hall, The Ancient History of the Near East, London, 1963, p. 406-407.

(٤) W.O.E. Oesterley, Egypt and Israel in the Legacy, Oxford, 1947, p. 222.

(٥) L. Woolley, The Beginnings of Civilization , N.Y., 1965, p. 492, 512.

(٦) W.F. Al Bright, From the Stone Age to Christianity, N.Y., 1959, p. 182.

(٧) دريوتون، فانديه، مصر، ترجمة عباس بيومى، القاهرة ١٩٥٠، ص ٤٦٤.

(٨) باهور لبيب، لمحات من الدراسات المصرية القديمة، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٤٤.

(٩) أحمد بدوى، فى موكب الشمس، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٥٠، ص ٧٤٣.

(١٠) T.J. Meek, Hebrew Origins, N.Y., 1936, p. IF.

الخابيرو إنما هم العبرانيون فى التوراة، ولكن هذا الأمر لا يتقبله اليوم سوى قلة من العلماء[١].

وهكذا رأينا الدكتور جون ويلسون يذهب إلى أن هؤلاء الخابيرو أو العابيرو، على الرغم من أن كلمة «عبرى» مشتقة منها، إلا أنهم لم يكونوا من بنى إسرائيل، والأرجح أن الكلمة إنما كانت اسمًا لقبائل بدوية ممن كانوا يقطنون شرق الأردن[٢]، ويرى «إدوارد دروم» أن العلاقة بين اللفظين مشكوك فيها، فلفظة «خبيرو» صفة معناها الرفيق أو الحليف أو الشريك، أما «عبرى» فإنها مشتقة من الفعل السامى الشائع فى العربية «عبر» بمعنى اجتاز[٣].

ويرى الحاخام الدكتور أبشتين أن توحيد العبرانيين بالجوالين من العابيرو أو الخابيرو أمر بعيد الاحتمال[٤]، والأمر كذلك بالنسبة إلى «جاك فنجان»[٥] و«تيودور روبنسون»[٦] و«جورج روكس»[٧]، وينفى «الكسندرشارف» العلاقة بين الخابيرو والعبرانيين، بل ويرجح كذلك أن الاسمين يرجعان إلى أصلين مختلفين، وإن وجد بينهما تشابهًا فى بعض الحروف مما دعا بعض المستشرقين إلى أن يربطوا بينهما ربطًا لغويًا[٨].

وهكذا يستبعد الكثير من المؤرخين توحيد العبرانيين بالعابيرو أو الخابيرو

(١) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaous, Oxford, 1964, p. 2-3.

(٢) J.A., Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 121.

(٣) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٧١ وكذا:

E. Dharme, La Religion des Hebreux nomades, N.S.E. Bruxelles, 1937, p. 75-85.

(٤) Rabbi Dr. Isidore Epstein, Judaism 1970, p. 13-14.

(٥) Jack Finegan Light From the Ancient Past, The Archeological Background of Judalism and Christianity, I Princeton, 1969, p. 118.

(٦) تيودور روبنسون، إسرائيل فى ضوء التاريخ، ص ٢٠٨.

(٧) G. Roux Ancient Iraq, 1966, p. 316.

(٨) ألكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٤٤.

بل إن «أولبرايت» الذى نادى بالتوحيد، يرى أنه مازال أمراً غير مؤكد، ولانستطيع أن نتخذه أساساً لأية نتيجة تاريخية[١].

وعلى أى حال، فإن اسم الخابيرو هذا لم يطلق على شعب بعينه، ولم يكن الخابيرو طائفة لها لغتها الخاصة أو جنسيتها الخاصة، بل كانوا - على ما يبدو - قوماً أرخوا لساقهم العنان، يتألفون من سلالات مختلفة، ويحمل معظمهم أسماء سامية، ولكنهم أحياناً يدعون لأنفسهم صلات لغوية أخرى، هذا فضلا عن أن نصوص «بوغازكوى» و«نوزى» يفهم منها أن الكلمة مرادفة لكلمة الجنود الرحل الذين يستأجرهم قادة الجيوش لقاء أجر، أو طمعاً فى الغنائم، ولم يكونوا حتى مرتزقة نظاميين[٢]، وبالاختصار فهم يمثلون اصطلاحاً شاملا أطلق على «المنبوذين» أو العصابات التى لا تنتسب إلى أية مجموعة جنسية محددة، يظهرون فى النصوص المصرية كأسرى آسيويين يستخدمون فى المحاجر[٣]. وأما متى ظهر الخابيرو فى التاريخ، فهناك ما يشير إلى أن اسمهم قد تردد فى بعض الوثائق المسمارية التى يرجع زمان تدونيها إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد[٤].

وأيّاً كان الأمر، فإن الكنعانيين كانوا أول من أطلق على إبراهيم الخليل - عليه السلام - لقب «العبرانى»[٥] ثم صار لقبًا لبعض نسله من بعده، ثم تابع المصريون[٦] - فالفلسطينيون[٧] - الكنعانيين فى ذلك، هذا

(١) W.F. Albright, Akkadian Letters, in ANET, Princeton, 1966, p. 486, no. 13.

(٢) سليم حسن، مصر القديمة ، الجزء الرابع، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٩٥-١٩٦

(٣) E. Chiera, AJSL, XLIX, 1932, p. 117-124; Spieser, AASOR, XIII, p. 35-36;

J. Wilson, The Eperu of the Egyptian Inscriptious, AJSL, XL, p. 575-285.

A. H.Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 203.

(٤) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٧٤٣.

(٥) تكوين ٣٩: ١٤.

(٦) تكوين ٣٩: ١٤، ٤١: ١٢؛ خروج ١، ٦:١، ١٩.

(٧) صموئيل أول ٤: ٦، ١٣: ١٩، ٤٩: ٣.

وقد استعمل العبرانيون أنفسهم هذه التسمية، مفرقين بها بين بنى جلدتهم وبين غيرهم من الشعوب[١]، وإن كانوا يفضلون دائماً لفظة «إسرائيليين»[٢] خاصة بعد أن استوطنوا كنعان وعرفوا المدنية والحضارة.

هذا وقد استعملت التوراة فى أغلب الأحايين كلمة «عبرانيين» عند الإشارة إلى بنى إسرائيل فى مصر[٣]، ثم تغير مدلول اللفظة منذ سبىّ الأسباط العشرة إلى «نينوى» على أيام العاهل الأشورى «سرجون الثانى» فى عام ٧٢٢ق.م، وتشتيتهم فى البلاد، وتسمى الشعب «يهوذا» نسبة إلى السبط الأقوى، وبطل استعمال لفظة «عبرانيين» التى كانت تدل على كل الشعب وأخذت معنى جديداً، وذلك حين تتشت العبرانيون جميعًا بين الشعوب، ثم سرعان ما نسوا لغتهم العبرية، وفى نفس الوقت دخل كثير من الوثنيين اليهودية وعدّهم اليهود منهم.

ولكن اليهود أرادوا أن يميزوا بين اليهود الأصليين وبين الدخلاء، ومن ثم فقد أصبحت لفظة «عبرانى» تدل على اليهود المقيمين فى فلسطين، وكذا اليهود المغتربين الذين حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم القديمة، أما اليهود المتغربون الذين فقدوا لغتهم العبرية وعاداتهم القديمة، وكذا الدخلاء فى اليهودية، فلم يحسبوا إلا يهوداً، وهؤلاء لا يحق لهم الاشتراك فى نعم الشعب الخاصة[٤].

٢ ـ إسرائيلى:

تنسب كلمة «إسرائيلى» إلى «إسرائيل» وهو الاسم البديل ليعقوب،

---

(١) تكوين ٤٣: ٣٢؛ تثنية ١٠: ١٢؛ صموئيل أول ١٣: ٣؛ إرميا ٣٤: ٩.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٥٩٦/١ (بيروت ١٩٦٧)

(٣) تكوين ٣٩: ١٤، ٤٠: ١٥، ٤١: ١٢؛ خروج ١: ١٩، ٢: ٧، ١٣ وكذا:
M. Noth, The History of Israel, 1965, p. 113.

(٤) مراد كامل، الكتب التاريخية فى العهد القديم، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٤–١٥.

عليه السلام، بل هو اسم أمره الربُّ أن يتخذه بدلا من اسمه الأصلى «يعقوب» على رأى[١] وبواسطة ملاك «يهوه» على رأى آخر[٢]، وسواء أكان هذا أو ذاك، فإن اليهود يعتقدون أن الله هو الذى منح يعقوب هذا الاسم بعد النصر الذى اكتسبه جدهم الأعلى على إله عند مخاضة يبوق[٣] ـ الأمر الذى سنشير إليه بالتفصيل فيما بعد.

واسرائيل: كلمة عبرية يختلف البحّاث فى معناها وهى مكونة من «إسرا» بمعنى عبد أو صفوة، ومن «إيل» بمعنى الإله أو الربّ أو الله، وبذا يكون معنى إسرائيل «عبد الله» أو «صفوة الله»[٤]، وإن رأى البعض أنها بمعنى «ليحكم إيل، أو إيل يحكم[٥]»، بينما يتجه فريق ثالث إلى أنها تعنى «يجاهد مع الله»، أو «الله يصارع[٦]» أو «الأمير المجاهد مع الله[٧]» أو جندى الربّ[٨]» أو «الله يجاهد أو يبقى»[٩].

---

(١) تكوين ٣٥: ٩-١٣.

(٢) تكوين ٣٢: ٨؛ وكذا: M.F. Unger, ob.cit., p. 541.

(٣) تكوين ٣٢: ٢٢-٣٢. وكذا:

Adolphe Lods, Israel form its Beginning to the Middle of the Eight Century, London, 1962, p. 155.

(٤) محمد سيد طنطاوى، بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٦؛ عفيف عبد الفتاح طيارة، اليهود فى القرآن، بيروت ١٩٦٦، ص ١٠١؛ وانظر: تفسير ابن كثير ٢١٨/١؛ تفسير الدر المنثور ٦٣/١؛ تفسير الطبرى، ٥٥٣/١.

(٥) فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق، الجزء الأول، ص ١٩١ (بيروت ١٩٥٨)

(٦) قاموس الكتاب المقدس، الجزء الأول، ص ٦٩ (بيروت ١٩٦٤)، وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 45.

(٧) ف.ب. ماير، حياة يعقوب، ترجمة: مرقس داود، ص ١١٠، (القاهرة ١٩٥٨)، وانظر: تفسير المنار ٢٤٠/١.

(٨) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٩) و.ج. دى بورج، تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة: زكى سوس، ص ٦٥، (القاهرة ١٩٦٥).

على أن هناك فريقًا رابعًا إنما يذهب إلى أن المعنى الذى تتجه إليه تلقائيًا أذهان جمهرة اليهود، إنما هو «كان قويًا ضد الله[١]»، ولعل قريبًا من هذا ما يراه آخرون من أنها بمعنى «المنتصر على الإله»، وذلك لأن يعقوب إنما قد انتصر على الإله الذى صارعه[٢]، ثم أخذوا يدعون بعد ذلك أن الانتصار لم يكن على الله، بل إلى الله، غير آبين بالتناقض الذى وقعوا فيه[٣]، وأخيرًا فمن الغريب أن «دى بورج» يرجح أن إسرائيلى وعبرى إنما كانا فى الأصل اسمين لعشائر[٤].

وأيًا كان الأمر، فلقد ورث أبناء يعقوب كنية أبيهم هذه، ومن ثم أصبح يطلق عليهم اسم «إسرائيل» كمرادف لبنى إسرائيل، حتى منذ أيام يعقوب نفسه[٥]، ثم صار علمًا عليهم منذ خروجهم من مصر وحتى آخر أيام شاؤل [٦] ـ أول ملوك إسرائيل ـ وليس إلى ما بعد موت سليمان ـ عليه السلام ـ فيما يرى البعض، ذلك لأن بداية الانفصال إنما كانت فى أعقاب موت «شاؤول» مباشرة (حوالى عام ١٠٠٠ق.م)، حين انضمت القبائل الجنوبية إلى داود[٧] بينما انضمت القبائل الشمالية إلى «ايشعبل» بن شاؤل، الذى سمى نفسه «ملك إسرائيل»[٨] ومنذ ذلك الوقت استمر هذا

(١) حسين ذو الفقار صبرى ، توراة اليهود، المجلة ، العدد ١٥٧، يناير ١٩٧٠، ص ٤٥ وكذا:
La Sainte Bible , Paris, 1961, p. 40.

(٢) إسماعيل راجى الفاروقى، أصول الصهيونية فى الدين اليهودى، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٧.

(٣) و.ج. دى بورج ، المرجع السابق، ص ٦٥.

(٤) تكوين ٣٤: ٧.

(٥) M.F. Unger, op.cit., p. 541

(٦) قاموس الكتاب المقدس، الجزء الأول، ص ٦٩.

(٧) صموئيل ثان ٢ : ٤ ؛ وكذا:
H.R.Hall, op.cit., p. 427; M. Noth, op.cit , p. 131-183.

(٨) صموئيل ثان ٢ : ٨-١٠ ؛ وكذا:
K.M. Kenyon, Archacology in the Hol Land , London, 1970, p. 240.

التحديد لاسم إسرائيل معمولا به فى المجال السياسى، وبقيت كل من إسرائيل ويهوذا ككيان مستقلين[١].

وتظهر هذه التفرقة بين إسرائيل ويهوذا فى الإحصائيات التى كان يقوم بها داود [٢]، ولكن التفرقة إنما تصبح على صورة أوضح ـ وبصفة نهائية بعد موت سليمان (حوالى عام ٩٢٢ق.م)، وانقسام دولته إلى دويلتين ـ الواحدة فى الشمال، وتدعى إسرائيل، والأخرى فى الجنوب. وتدعى يهوذا ـ وأما بعد العودة من السبى البابلى (حوالى عام ٥٣٩ق م)، ورغم أن العائدين كانوا بصفة رئيسية من يهوذا، فإنهم قد انتحلوا اسم «إسرائيل» كمرادف لشعب إسرائيل [٣] أو بدل « بنى إسرائيل»[٤] ولكنهم كانوا «يهوذا» فى «الأبوكريفا» [٥]، وفى العهد الجديد.

وأما مصطلح «إسرائيل» فى العهد الجديد، وعند المسيحيين بصفة عامة، فيقصد به الكنيسة المسيحية المثلى، أو جماعة المؤمنين الحقيقيين بالمعنى الدينى، وهم يمثلون جميع الشعوب وكل الأجناس[٦].

(١) M. Noth, op.cit., p. 183-184.

(٢) صموئيل ثان ٢٤: ٩.

(٣) عزرا ١٠: ٥.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ٦٩/١-٧٠؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 541.

(٥) الأبوكريفا، استعملت لفظة أبو كريفا فى اللغة اليونانية الكلاسيكية الخاصة بالكتاب المقدس، بمعنى خفى وبمعنى غامض أو سر، وفى العصر المسيحى استعملت الكلمة للدلالة على الكتب التى حوت تعاليم خفية مستورة لا يعرفها إلا الأقلون المختارون، ثم تطور معناها بمرور الزمن إلى باطل ومزيف؛ ومن ثم فقد أصبحت تعنى الكتب الدينية المصنوعة التى لم ترد أصلا فى التوراة، تمييزاً لها عن أسفار التوراة المنزلة وكانت الأبوكريفا (الأسفار المزيفة) من وضع يهود فلسطين، إذ كان معظمها مكتوباً باللغة العبرية أو الآرامية، وقليل منها كتب بالإغريقية؛ وكان «إيرونيموس» أول من استعمل كلمة أبوكريفا فى عام ٤٢٠م بمعناها الفنى المعروف اليوم (انظر: مصطفى عبد العليم، اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٢١؛ حبيب سعيد، المدخل إلى الكتاب المقدس، القاهرة، ص ١٨٤؛ وكذا:
C.C. Torrey, The Apoctyphal Literatuıe, New Haven, 1948, p. 357.

(٦) مراد كامل، المرجع السابق، ص ١٩.

وأما فى القرآن الكريم فإن اسم «إسرائيل» لم يذكر إلا مرتين[١]. إلى جانب الاسم الشائع «بنو إسرائيل» الذى تكرر إحدى وأربعين مرة[٢] للدلالة على قوم إسرائيل.

٣ ـ يهودى:

الهود: جمع هائد، وهو التائب، وهاد الرجل: أى رجع وتاب، وتهود إذا دخل فى اليهودية، وهو هائد، والجمع هود. والهود: اليهود، وتجمع على يهدان، من الهوادة، وهو المودة أو اللين، وما يرجى به الصلاح، أو التهود: وهو التوبة والرجوع إلى الحق[٣].

هذا وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الإسرائيليين إنما سموا «يهودا»، حين تابوا عن عبادة العجل، ثم لزمهم هذا الاسم لقول موسى ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾، أى رجعنا وتضرعنا[٤]، وذهب آخرون إلى أن التسمية إنما كانت لأنهم كانوا يتهودون، أى يتحركون عند قراءة التوراة[٥]، هذا ويرجح بعض الباحثين نسبة يهودى إلى يهوذا ـ رابع أبناء يعقوب ـ أو إلى مملكة يهوذا بمقارنتها بمملكة إسرائيل[٦].

---

(١) انظر: سورة آل عمران، آية : ٩٣؛ سورة مريم، آية : ٥٨.

(٢) انظر: سورة البقرة، آيات: (٤٠، ٤٢، ٨٣، ١٢٢، ٢١١، ٢٤٦)؛ آل عمران (٤٩-٩٦)؛ المائدة (١٢، ٣٢، ٧٠، ٧٢، ٧٨، ١١٠)؛ الأعراف (١٠٥، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨) يونس (٩٠، ٩٣)؛ الإسراء (٢، ٤، ١٠١، ١٠٤)؛ طه (٤٧، ٨٠، ٩٤)؛ الشعراء (١٧، ٢٢، ٥٩، ١٩٧)؛ النمل (٧٦)؛ السجدة ٢٣؛ غافر ٥٣؛ الزخرف ٥٩؛ الدخان ٣٠؛ الجاثية ١٦؛ الأحقاف ١٠؛ الصف ٦، ١٤.

(٣) تفسير ابن كثير ١٤٨/١؛ تفسير القرطبى، ص ٣٦٨؛ تفسير الكشاف، ١٤٦/١؛ تفسير الطبرى ١٤٣/٢؛ جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، (بيروت ١٩٦٨)؛ ابن دريد، الاشتقاق ١٢٢/١ (القاهرة ١٩٥٨)؛ الفيروز آبادى، القاموس المحيط، ٣٦٢/٢ (القاهرة ١٩٥٢).

(٤) الشهرستانى، الملل والنحل، الجزء الثانى، ص ١٥ (القاهرة ١٩٦٨) وانظر: تفسير الطبرى، ١٥٢/١٣-١٦٠ (دار المعارف، القاهرة ١٩٥٨).

(٥) محمد سيد طنطاوى، المرجع السابق، ص ٨.

(٦) ملوك ثان، ٦/١٦، ٢٥ : ٢٥؛ إرميا ٣٢ : ١٢، ٣٨ : ١٩، ٤٠ : ١١، ٤١ : ٣، ٥٢ : ٢٨؛ تفسير القرطبى، ص ٣٦٨ (القاهرة ١٩٦٩) وكذا: M.F.Unger, op.cit., p. 588.

وقد اختلفت الآراء حول بداية استعمال هذا الاسم، فهناك من يرجعه إلى أيام موسى (أى القرن الثالث عشر ق.م) ـ كما رأينا ـ وهناك من يرجعه إلى أيام داود (١٠٠٠-٩٦٠ق.م) وسليمان (٩٦٠-٩٢٢ق.م) حين كانت الغلبة على الإسرائيليين لسبط يهوذا، وإن كانت التوراة[١] لم تذكره قبل أيام «أحاز» (٧٣٥-٧١٥ق.م) ملك يهوذا، وأخيراً فهناك فريق تأخر به إلى أيام الفرس (٥٣٩-٣٣٢ق.م).

وعلى أى حال، فلقد شاعت هذه التسمية أثناء السبى البابلى (٥٨٧-٥٣٩ق.م) حتى غدت لقبا لكل الأمة[٢]، وذلك لأن الأسباط العشرة التى كانت تتكون منها دويلة إسرائيل قد ضاعت فى زوايا النسيان منذ السبى الأشورى فى عام ٧٢٢ق.م،ولأن دولتهم التى دمرها العاهل البابلى «نبوخذ نصر» فى عام ٥٨٧ق.م، كانت معروفة باسم «يهوذا»، وعرفوا حينئذ ببنى يهوذا، وقيل للواحد منهم يهودى، ثم اتسمت هذه الكلمة فأصبحت لفظة يهود، أعم من بنى إسرائيل، لأن كثيراً من أجناس العرب والروم والفرس وغيرهم صاروا يهوذا، ولم يكونوا من بنى إسرائيل[٣].

وهكذا أطلق الإسرائيليون وأهل يهوذا على أنفسهم لفظ «يهوذا»، وكذلك على كل من دخل فى ديانتهم، تمييزاً لهم عن غيرهم ممن لم يكونوا على هذا الدين.

وعلى أى حال، فإن اسم «يهوذا» نفسه. قريب من اسم إله الشعب «يهوه» وتختلف عن كلمة «عبرانى» و«إسرائيلى»، فهى لا تدل على الإيمان بالله والتمسك بالعادات القديمة مثل «عبرى» أو على فخر شخصى مثل «إسرائيلى»، وإنما كان لفظ يهودى يدل على ذلة الشعب وخضوعهم

---

(١) ملوك ثان ١٦ : ٦٠.

(٢) استير ١٠٥٤٣، ٤، ١٠، ١٣، ٤ : ٣، ١٤، ٨ : ٣، ٧، ١١، ١٦، ٩ : ١-٦، ١٢، ١٥، ١٩، ٢٠، ١٠ : ٣؛ مكابيين ثان ١٧٠٩، يوحا ٩٠٤؛ أعمال الرسل ١٨ : ٢، ٢٤.

(٣) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، الجزء الأول، ص ٨٧، القاهرة، ١٣٢٥هـ.

لحكام البلاد التى سكنوها، وخجلهم بعد أن انفصلوا عن إخوانهم[١].

وانطلاقًا من هذا كله، ولما تثيره كلمة «يهودى» من اشمئزاز فى نفوس سامعيها أصبح اليهود يطلقون على أنفسهم لفظ «الساميين»، نظراً لأنهم يتكلمون اللغة العبرية التى هى إحدى اللهجات السامية، والواضح أن هذه التسمية غير صحيحة، فقد كان أسلافهم يتكلمون الآرامية قبل أن يستقروا فى فلسطين ويتخذوا الكنعانية لغة لهم[٢]، وعندما ظهروا بمصر ـ ولأول مرة ـ ربما كانوا يتكلمون اللغة المصرية[٣]، كما أننا نعرف من ثنايا التوراة أن الإسرائيليين كانوا قبل العبرية التى اقتبسوها من الكنعانيين بعد تسللهم إلى أرضهم ـ كما أشرنا أنفاً ـ كانوا يتكلمون لغة الشعوب المضيفة لهم[٤].

٤ ـ صهيونى:

بقيت لفظة حديثة تستعمل الآن بكثرة، ونعنى بها «الصهيونية» نسبة إلى «صهيون»، وهواسم جبل يشرف على مدينة القدس، جاء ذكره للمرة الأولى فى التوراة كموقع لحصن يبوسى احتله داود، وسماه «مدينة داود»، ثم أتى إليها بتابوت العهد، فأخذت قداسة خاصة عند اليهود، بل إن داود إنما نجح بعمله هذا فى أن يجعل من أورشليم ليس مركزاً للحياة السياسية فحسب، وإنما مركزاً للحياة الدينية كذلك[٥].

---

(١) مراد كامل ، المرجع السابق، ص ١٥

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٢.

(٣) محمد عبد القادر محمد، الساميون فى العصور القديمة، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٠٨

(٤) فؤاد حسنين، الثورة الهيروغليفية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٤.

(٥) صموئيل ثان، ٥٠٧، ٦: ١-٢٣، ٨: ١٧-١٨؛ ٢٠: ٢٥-٢٦؛ أخبار أيام أول ١١: ٥؛ قاموس الكتاب المقدس، ٥٥٨/٢؛ وكذا:

R A.S. Macalister, The Topography of Jerusalem, in CAH, III, 1965, p. 345-346; L.Waterman, in JNES, 6, 1947, p. 162; M.Noth, op.cit., p. 190-191.

وعلى أى حال، فمن كلمة «صهيون» هذه اشتقت «الحركة الصهيونية»، والتى كانت الهدف الأساسى منها ـ بل والوحيد كذلك ـ إنما هو إعادة اليهود إلى فلسطين، كما يقول إسرائيل كوهين[١].

وإذا رجعنا إلى كلمة «صهيون» نفسها، لم نجد لها أصلا متفقًا عليه فى اللغة العبرية، وأكثر الشراح يرجحون أنها عربية الأصل، لها نظير فى اللغة الحبشية، وأنها من المادة الصون والتحصين وكانت فعلا من حصون الروابى العالية[٢].

وهناك من يفترض أنها كلمة مستعارة من العيلاميين ـ عن طريق البابليين ـ بمعنى «معبد»، إلا أن هذا الفرض إنما يصطدم بصعوبات عدة، منها (أولا) أننا لا نملك أية أدلة تشير إلى قيام علاقات خاصة بين فلسطين وبابل وعيلام فى تلك الفترة، ومنها (ثانيًا) أنه لا يوجد أى دليل على استعمال هذه الكلمة فى اللغة البابلية أو الآشورية فى ذلك الوقت المبكر، الذى كانتا قد انفصلتا فيه عن السومرية[٣].

ومنها (ثالثًا) أن الكلمة العيلامية تعنى «معبد»، بينما تعنى كلمة «صهيون» أصلا، القلعة أو الحصن، ثم اتسع مفهومها الجغرافى فيما بعد ليضم تل المعبد، ثم أصبح الاسم فى زمن متأخر نسبيًا يطلق على كل التل فى جنوب شرق أورشليم، ومن جهة أخرى، فإن كلمة صهيون ـ على ما يبدو ـ ترجع إلى ما قبل الإسرائيليين، حيث أن الحصن كان معروفًا بهذا الاسم قبل أن يستولى عليه داود، ويطلق عليه اسمه [٤].

---

(١) محمود شتيت خطاب، أهداف إسرائيل التوسعية فى البلاد العربية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٢؛ وكذا: Israel Cohen, A Short History of Zionism, N.Y., 1951.

(٢) عباس العقاد، الصهيونية العالمية، القاهرة ١٩٦٨، ص ١١؛ وكذا:
P. Haupt, AJSL, 26, p. 219.

(٣) S. Yeivin, The Sapulchers of the Kings of the House of David, JNES, 1948, p.40.

(٤) Ibid, p. 40-41.

وأخيراً، فهناك من يذهب إلى أن الكلمة «حورية» ومن ثم فقد فسر «حصن صهيون» بمعنى «حصن الماء»، أى الحصن الذى يحمى مورد ماء أورشليم[١].

هذا والكلمة تكتب فى العبرية تارة بالسين، وتارة بالزاى، وعلى أى حال، فقد كان لصهيون هذه عند يهود الأسر البابلى شأن عظيم، حتى أصبح الحنين إلى صهيون رمز الحنين إلى عودة المملكة الغابرة، وتحولت الوعود الإلهية[٢] فى كتبهم تحولا جديداً مع السياسة، فانحصرت فى ذرية داود ـ عليه السلام ـ ليخرج منها من غير ذوى الذرية من اليهود[٣].

ويختلف المفكرون فى نظرتهم إلى الحركة الصهيونية، فذهب فريق منهم إلى أنها حركة سياسية ـ وليست دينية ـ نشأت منذ الأسر البابلى حين أصبح الحنين إلى صهيون رمزاً لعودة المملكة الغابرة [٤] ـ كما أشرنا آنفاً ـ واستغل رجال الدين اليهودى الفرصة، ولتظل النار مشتعلة، فقد أصدروا فى أثناء فترة السبى هذه فتوى تبيح لكل يهودى أن يعلن عن امتلاكه لأربعة من الأفدنة الوهمية فى فلسطين[٥]، ويقول «فيلون» (حوالى٦١-١٤١م) ـ فيلسوف الإسكندرية اليهودى ـ أن اليهود يحسبون وطناً لهم كل أرض عاشوا فيها، وعاش فيها آباؤهم وأجدادهم من قبلهم، إلا أنهم ينظرون إلى أورشليم ـ مقر هيكل الله المقدس ـ كأنها حاضرتهم الكبرى[٦].

(١) Ibid., p. 41.

(٢) انظر عن هذه الوعود: محمد بيومى مهران، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة فى مقالين بمجلة الأسطول، العدد ٦٦، ٦٧، الإسكندرية، ١٩٧١.

(٣) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ١١.

L.T. Brandies, on Zioism, N.Y., 1942, p. 24-6; N. Bentwich, Palestine, London 1934, p. 60.

(٤) يورى إيفانوف، احذروا الصهيونية، ترجمة ماهر عسل، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢٩؛ وكذا.

Salo W., Baron, A Soical and Religions History of the Jews, N.Y., 1957, p.27.

(٥) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ١٣.

(٦) نفس المرجع السابق، ص ٢١، ٢٣.

وظل الأمر كذلك حتى ذهب الأمل فى نجاح الحركة الصهيونية السياسى، فانقطعت العلاقة بينها وبين معناها الجغرافى، وبقى أمرها هكذا حتى القرن الثامن عشر الميلادى، لم تتجاوز تعلق اليهود الروحى بنصوص التوراة وطقوس الأعياد والاحتفالات الدينية، وكانت دوافع رغبة قسم من اليهودفى العودة إلى فلسطين دينية محضة.

وجاء القرن التاسع عشر الميلادى واثار مسألة القومية اليهودية، لأن القومية كانت على كل لسان فى البلاد التى يكثر فيها اليهود - وبخاصة بولونيا ورومانيا وأسبانيا وهولنده - فخطر لليهود أن يطالبوا لهذه القومية بوطن تساعدهم الدول على احتلاله، ومن ثم بدأ اليهود يفكرون فى الوطن القومى، بل سرعان ما اندفعوا إلى فكرة «الدولة اليهودية»، ولم يقنعوا بالوطن لمجرد السكنى والتعمير[(١)].

ومن هنا ظهرت الحركة الصهيونية الحديثة، كحركة سياسية - وليست دينية - قامت فى شرق أوروبا من جراء اضطهاد اليهود فى روسيا وبولنده وألمانيا، بقصد إسباغ صلة القومية السياسية على العنصر اليهودى، ومن هنا كانت الصهيونية فى القرن التاسع عشر الميلادى تطوراً لما كان يسمى بالمشكلة اليهودية فى أوروبا[(٢)].

وأما أول دعوة صهيونية فى العصر الحديث، فقد كانت على وجه التحديد فى مايو ١٨٥٤م، حيث عقد الحاخام اليهودى الأكبر فى بريطانيا اجتماعًا فى «حديقة هايدبارك» دعا فيه إلى الصهيونية - التى لم تكن معروفة وقت ذاك، وكان الهدف من ذلك تجميع اليهود وإعاشتهم فى مكان ما.

---

(١) J. Parker, A History of the Jewish People, 1964, p. 172-4.

(٢) حسن صبرى الخولى، فلسطين، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٦.

وفى عام ١٨٦٣، أصدر «موريس هيس (١٨١٢-١٨٧٥م) كتابه «روما وأورشليم»، دعا فيه إلى حرية اليهود التى رأى أنها لا تتوفر إلا فى فلسطين ـ أرضهم الموعودة [١] ـ ثم توالت بعد ذلك كتابات المفكرين اليهود من أمثال «ليوبنسكر» الذى كتب «التحرر الذاتى» فى عام ١٨٨٢م، ونادى فيه أن وسيلة التحرر إنما هى أرض يملكها اليهود، سواء أكانت على ضفاف الأردن أو المسسبى[٢]، وهكذا بدأ اليهود يبذلون كل الجهود ـ السرية والعلنية، المشروعة وغير المشروعة ـ لإيجاد هذه الأرض، حتى انتهى الأمر بأن حصل الدكتور «حاييم وايزمان» (١٨٧٤-١٩٥٢)، على «وعد بلفور» المشهور فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧م، وأصبح أول رئيس لدولة إسرائيل، التى أعلنت فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٤٨م.

وأما أصحاب الرأى الثانى، فلا يرون فى الصهيونية إلا حركة دينية، وأن الصهيونية واليهودية توأمان لا يمكن أن يفترقا، هما شىء واحد دون جدال أو مغالطة، ولعل مما يقوى حجج هذا الفريق أن فكرة الصهيونية الوطنية قد نبتت بذورها من المزمور(١٣٧)، حيث جاء فيه : «إن نسيتك يا أورشليم، تنسى يمينى، ليلتصق لسانى بحنكى، إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم أفراحى»[٣].

بل إن سفر أشعياء ليدعوهم إلى العمل من أجل مجد صهيون، حيث يقول: «من أجل صهيون لا أسكت، ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد، فترى الأمم برك وكل الملوك مجدك، وتسمين باسم جديد يعينه فم الربّ»[٤].

(١) انظر: Mores Hess, Rome and Jerusalem, N.Y., 1945.

(٢) انظر: Don Peretz, the Middle East Today, U.S.A., 1963, p. 246.

(٣) مزمور ١٣٧: ٥-٦.　　(٤) أشعياء ٦٢: ١-٢.

وأما سفر حزقيال ـ وصاحب كسابقة من فترة السبى ـ فيرى أن الرب سيعيد عظام الإسرائيليين ويكسوها لحمًا ثم تحل فيها الروح. وتقوم على أرجلها مكونة جيشًا عظيمًا جداً، ثم يستمر السفر فى روايته قائلا: «يا ابن آدم هذه العظام هى كل بيت إسرائيل، ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. قد انقطعنا، لذلك تنبأ وقل لهم: هكذا قال السيد الربّ، ها أنذا أفتح قبوركم يا شعبى، وآتى بكم إلى أرض إسرائيل[١]».

ثم يأتى كتابهم «التلمود»[٢] فيقرر: «أن اليهودى الذى يرحل عن فلسطين ويغادرها لاحق له فى إكراه زوجته إذا هى رفضت أن ترافقه إليها»، ومن هنا جاء الأمثال اليهودية التى تمجد السكنى بفلسطين، وصار اليهود ينهون احتفالهم السنوى بهروب موسى، عليه السلام، من فرعون عبر سيناء إلى فلسطين بصلاة تدعو إلى اللقاء فى العام التالى فى أورشليم[٣].

وفى القرن التاسع عشر الميلادى يقول «تيودور هرتزل» (١٨٦٠-١٩٤٠م) ـ أبو الصهيونية الحديثة ـ «إن فلسطين التى نريدها هى فلسطين داود وسليمان». ثم يخلفه فى قيادة الصهيونية «حاييم وايزمان» فيربط بين

---

(١) حزقيال ٣٧: ١-٢؛ وانظر: حسن ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل ص ٧-٨.

(٢) التلمود، كلمة عبرانية تعنى التعليم أو المعرفة، وهو التوراة الشفهية التى قام أحبار اليهود بتسجيلها كتابة فيما بعد، ومن هنا كان التلمود ـ ولا يزال ـ موضع التبجيل بالإضافة إلى أنهم يعدونه موسوعة ضخمة لا غنى عنها فى دراسة اليهودية، موسوعة تتضمن الدين والشريعة والتاريخ والتأملات الميتافيزيقية والعلوم الطبيعية والفلك والقصص الشعبى، ممتزجة جميعًا بألوان مختلفة من الفكر الخرافى، ويرجع التلمود فى نشأته أساساً إلى أن المكتبة ورجال الدين المقيمين فى المعابد والمدارس الفلسطينية والبابلية هم الذين ألفوا أسفار الشريعة الضخمة المعروفة بالتلمود الفلسطينى، والتلمود البابلى، وكانوا يقولون إن موسى لم يترك فقط لشعبه شريعة مكتوبة تحتويها الأسفار الخمسة، بل ترك أيضاً شريعة شفوية تلقاها التلاميذ عن المعلمين ووسعوا فيها جيلا بعد جيل (انظر مثلا: التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧، ص ٥-٢١؛ صبرى جرجس، المرجع السابق، ص ٨٨).

(٣) Don Peretz, op.cit., p. 245.

الصهيونية واليهودية ربطًا لا فكاك منه، وذلك حين يقول: «إن يهوديتنا وصهيونيتنا متلازمتان متلاحقتان، ولا يمكن تدمير الصهيونية بغير تدمير اليهودية».

ويقول «مالى غولان» ـ أحد المفكرين الدينيين فى إسرائيل ـ «لقد قامت الدولة لتحقيق وجود واستمرار الدين اليهودى، وفى الوقت التى تكف فيه الدولة عن خدمة هذا الهدف، تفقد قيمتها ومعناها، لقد عاش الدين اليهودى والشعب اليهودى قروناً طويلة بدون دولة يهودية، ويمكن استمرارها بدون دولة».

بل إن «هرتزل» إنما يقف فى«بال» بسويسرا عندما انعقد، برياسته فى ٢٩ أغسطس ١٨٩٧م ـ ولمدةثلاثة أيام ـ أول مؤتمر صهيونى عالمى، وقف ليعرف ماهية الصهيونية وما تستهدفه من حركتها، فقال: «إن العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها عودتنا إلى اليهودية، وأن هدف الصهيونية هو تنفيذ النص الوارد فى التوراة بإنشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين»[1].

وفى الواقع أن الرأيين متكاملان، لا متعارضان، فالصهيونية ـ فيما أظن ـ قد بدأت منه الأسر البابلى (٥٨٧–٥٣٩ق.م) حين بدأ اليهود يكتبون توراتهم على ضفاف الفرات، ويسجلون فيها ما أرادوه من وعود، ويحددون فيها ما طمع فيه جشع عقول مريضة من يهود فى أرض الشرق العربى، خلف ستار من قول «ظهر الربّ» و«قال الربّ»، و«أقسم الربّ».

وليس يهمنا هنا أن تكون التوراة كتاباً مقدساً أو لا تكون، فذلك شأن من يرونها فى نصها الراهن على هذا النحو أو ذاك، ولكن الذى يهمنا ألا تكون كتاب تاريخ يحاول فرض مضمونه على الحاضر ـ كما فرضه على الماضى ـ وإذا كان ما يعزو للتوراة من قيمة تاريخية، لا يجد سنداً له إلا فيما

(١) انظر: Arthur Hestzberg, The Zionist Idea, A Historical Analysis and Review, N.Y., 1959.

يزعم لها من قداسة، فالذى لاشك فيه أن هناك ثمة علاقة بين قيمة التوراة ككتاب تاريخ، وقيمتها ككتاب مقدس، ذلك أنه كلما تدعمت قيمتها ككتاب مقدس، تضاءلت الريبة فى صدق ما تضمنته من وقائع وسهل وصول هذه الوقائع إلى يقين الناس على أنها من حقائق التاريخ التى لا ينبغى الشك فيها ولا مناص من التسليم بها، وقد أدركت الصهونية هذه الحقيقة فأحسنت استغلالها إعلامياً فى الغرب المسيحى لدعم ما زعمت أنه حقها فى إنشاء دولة إسرائيل [1].

وأيًا كان الأمر، فلقد نفث يهود الأسر البابلى أنفاسًا من قدسية فى نصوص ما سموه «أرض الميعاد» ثم ناولوها عبر الأجيال إلى هؤلاء الصهاينة الذين يحملون اليوم هذه الأسطورة (أسطورة أرض الميعاد)، ويقدمونها للعالم على أنها الحجة الشرعية التى تمنحهم فى أرضنا العربية حقًا روحيًا، وعلى أنها وعد من الله سبق لخليله إبراهيم ـ عليه السلام [2].

ولكن هذه الوعود ظلت أضغاث أحلام تراود عقولاً مريضة من يهود، حتى أتى القرن التاسع عشر الميلادى، وبدأت المناورات السياسية تلعب دورها ـ من جانب الصهيونية من ناحية، ومن جانب دول الاستعمار الطامعة فى شرقنا العربى، من ناحية أخرى ـ ذلك لأن اليهود ـ دائمًا وأبداً ـ يستغلون الدول، والدول بدورها تستغلهم، وبدأ اليهود يحاولون جاهدين أن يقنعوا شعبنا العربى بخاصة ـ والشعوب الإسلامية بعامة ـ أن اليهودية تختلف عن الصهيونية، فبينما الأولى حركة دينية صرفة، فإن الثانية حركة سياسية صرفة كذلك، وهم فى الوقت نفسه يستغلون التوراة استغلالاً إعلاميًا واسعًا فى الغرب المسيحى لدعم ما يزعمون أنه حقهم فى إنشاء دولة لهم فى فلسطين ـ كما أشرنا آنفاً.

---

(١) صبرى جرجس، المرجع السابق، ص ٥٨-٥٩.

(٢) انظر: تكوين ١٢: ٧، ١٣: ١٤-١٨، ١٥: ١٨، ١٧: ٤-٨، ٢٨: ١٢-١٥، خروج ٩٠ ٣-٩؛ ٣٣: ١؛ تثنية ١١: ٢٣-٢٤؛ عدد ٣٤: ١-١٢.

ومن هنا كانت كلمة مندوب إسرائيل فى هيئة الأمم المتحدة يوم أن طلب الاعتراف بها فى مايو ١٩٤٩م. «قد لا تكون فلسطين لنا على أساس حق سياسى أو قانونى، ولكنها حق لنا على أساس روحانى، فهى الأرض التى وعدنا بها وأعطانا الله إياها»(١).

وهكذا اعتمدت الصهيونية على ما نسجته حول أسطورة «أرض الميعاد» من نسيج حاكته من سحب الماضى المتوغل فى القدم، وجعلت سداه «عقيدة الأرض الموعودة»، ولحمته تغلغل هذه العقيدة الدينية ورسوخها فى صدر كل فرد من أفراد الجماعة اليهودية. وهذه سواء أخفاها اتقاء وتستراً، أم جاهر بها تيهًا وتفاخراً، هى القائلة: بأن أرض فلسطين قدمنحت لبنى إسرائيل منحة إلهية وملكاً أبدياً، لتكون عاصمة لمملكة يهودية قاعدتها كل الرقاع المترامية فى إطار الفرات والنيل.

ومن ثم فالمشكلة دقيقة وحرجة، لاستناد الفكر الصهيونى فى دعوته إلى المصدر الدينى المحض، ولاستمداده مادته من المدد العاطفى البحت، بل ولاعتماد الصهيونية العالمية اعتماداً كلياً على هذين المصدرين، مستهدفة من وراء ذلك امتلاك العالم عن طريق امتلاك فلسطين أولا، ومن بعدها بلاد الشرق الأوسط، لتقيم على أنقاضها الإمبراطورية اليهودية التى حلم بها «تيودور هرتزل» والتى رسم رقعتها على صفحات كتابه «الدولة اليهودية»(٢) الذى أصدره فى عام ١٨٩٥م، والذى كان بمثابة حجر الأساس فى إنشاء دولة إسرائيل حيث جاء فيه : «إن فلسطين هى وطننا التاريخى الذى لا ننساه».

وبقينا أن حجة الصهيونية بادعائها الحق فى امتلاك فلسطين، إنما هى حجة لا تقوم إلا على أساس من القول بأن أرض فلسطين هى الوطن

---

(١) إيكار السقاف، المرجع السابق، ص ٤٩٧.

(٢) انظر: Theodor Herzel, The Jewish State, N.Y., 1904.

التاريخى لبنى إسرائيل، وأنها قد منحت لهم منحة إلهية وأبدية، وهذه الحجة لاتعتمد على أساس سياسى أو سند قانونى، وإنما على مجرد دعوى دينية[١].

وهكذا ارتبطت الحركة الصهيونية ـ استناداً على العقيدة الدينية اليهودية ـ بمطلبين أساسين، لم تتخلل عنهما هذه الحركة فى يوم من الأيام، ولن تتخلى عنهما فى حال من الأحوال، أولهما: الحصول على ما يسمى بأرض الميعاد، أو أرض إسرائيل، على أساس من النيل إلى الفرات، وثانيهما: إعادة الشعب اليهودى إلى أرضه التاريخية، لأن الحياة فى المنفى ـ أى فى خارج فلسطين ـ مخالفة للدين اليهودى، والحياة الطبيعية للشعب اليهودى[٢]، بل إن «دافيد بن جوريون» أول رئيس لحكومة إسرائيل ـ ليرى: «أن كل يهودى لا يعود إلى أرض الميعاد محروم من رحمة إله إسرائيل».

والرأى عندى، أن الحركة الصهيونية إنما هى حركة سياسية تعتمد فى أغراضها على نصوص دينية، بل إن الدين مازال هو الحجة لجمع اليهود، بل هو الحجة التى يعلنونها للعالم كله كمبرر لإقامة دولة إسرائيل، وفى المكان الذى قامت فيه، ومن هنا كان من الصعب أن نفرق بين اليهودية والصهيونية، وأعنى باليهودية هنا، كما أراد اليهود أن يكون كتابها، وليس كما أنزله الله سبحانه وتعالى على كليمه موسى عليه السلام.

ومن هنا، فإن «إيلى ليفى أبو عسل[٣]» إنما يقسم مراحل تطور الصهيونية إلى أربعة مراحل: الأولى: زمن موسى عليه السلام (زمن التوراة)، والثانى زمن عزرا الكاهن (زمن إعادة بناء الهيكل، الذى بدأ فى عام ٥٣٧ق.م) والثالث زمن المكابيين حتى عصر هرتزل (من القرن الثانى ق.م ـ إلى القرن التاسع عشر الميلادى): زمن التلمود، والرابع العصر التالى لموت

(١) أبكار السقاف، المرجع السابق، ص ١٩-٢٠.

(٢) محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٣) إيلى ليفى أبو عسل، يقظة العالم اليهودى، القاهرة ١٩٣٤، ص ١٦

هرتزل (ويبدأ من ١٩٠٤-١٩١٧ ـ أى من موت هرتزل إلى تصريح بلفور).

وهكذا كان موسى ـ فيما يعتقد إيلى ليفى أبو عسل ـ أول من شيد صرح الصهيونية، ووطد دعائمها ونشر مبادئها السياسية، وأن الصهيونية الآن ليست إلا حلقة متصلة حلقاتها بعضها ببعض اتصالا مستمسكًا وثيقًا ومتواثقة أجزاؤها تماسكًا محكمًا شديدًا[1].

وسواء أصح هذا أم لم يصح، فإن الصهيونية حركة سياسية تستمد أصولها من الفكر الصهيونى النابع من عقائد التوراة وشرائع التلمود، كما تستمد حيويتها من ارتباط الفكر اليهودى بعقائد دينية وعنصرية ثابتة فى أذهانهم[2].

وانطلاقًا من هذا كله، لعلنا الآن نستطيع أن نحدد ـ بحذر ـ الفترة التى ساد فيها كل اسم من الأسماء السابقة (عبرانى وإسرائيلى ويهودى وصهيونى) فاسم «العبرانيين إنما ساد الفترة فيما بين إبراهيم وموسى، عليهما السلام، كما أصبح اسم «الإسرائيليين» علمًا على الفترة التى بدأت بخروج بنى إسرائيل ـ أو طردهم ـ من مصر، ذلك لأن رهط موسى إنما كانوا أول من أطلق عليهم اسم «بنى إسرائيل». وذلك فى سفر الخروج الذى تتحاشى نصوصه كلية ذكر كلمة «عبرانى»، وهى التى كانت علمًا على القوم طيلة سفر التكوين، فيه قصر اسم إسرائيل على شخص بعينه هو «يعقوب»[3]، ولم تنسحب قط على أى من أقوام.

واستمر الأمر كذلك حتى قيام مملكة داود (١٠٠٠-٩٦٠ق.م). وبصفة خاصة حتى موت سليمان (حوالى عام ٩٢٢ق.م)، حيث ظهر

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٦.

(٢) نفس المرجع ، ص ١٨؛ انظر: ابراهيم خليل، إسرائيل والتلمود، ص ٢٢-١٢٣.

(٣) تكوين ٤٩ : ٢؛ حسين ذو الفقار صبرى، توراة اليهود، ص ١٤ (المجلة العدد ١٥٧، يناير ١٩٧٠)؛ وانظر: Max Dimont, Jews, god and History, N.Y., 1962, p. 41.

الاسمان (إسرائيل ويهوذا) جنباً إلى جنب، وبقيا كذلك حتى تدمير دويلة إسرائيل على يد العاهل الآشورى «سرجون الثانى» فى عام ٧٢٢ق.م، ثم ترك المجال لاسم «اليهود» حتى القرن التاسع عشر الميلادى، حيث بدأ اسم «الصهيونيين» يظهر إلى الوجود كاسم مرادف لليهود.

وليس هذا يعنى ـ بحال من الأحوال ـ تحديداً دقيقاً للأسماء المختلفة التى عرف بها اليهود طوال تاريخهم، ودقة انطباقها على هذه الفترات من التاريخ اليهودى، ذلك لأن هذه الأسماء إنما قد تداخلت فى بعضها البعض الآخر فى كثير من المراحل، ومن ثم فقد عرف اليهود تحت أكثر من اسم واحد فى فترة واحدة من تاريخهم.

لقد عرف اليهود ـ بادئ ذى بدء ـ باسم «العبرانيين» ثم سرعان ما ظهر للوجود اسم «الإسرائيليين» بجانب اسم العبرانيين، وإن كان الاسم الأخير يكاد يختفى منذ أيام المملكة، ليظهر بدلا منه اسم «اليهود»، وليعرف القوم به، وباسم الإسرائيليين فى نفس الوقت، وإن كانوا قد عرفوا باليهود فى الغالب الأعم وبقى الأمر كذلك حتى ظهر اسم «الصهيونيين» فى العصر الحديث ـ وإن كان يرجع فى جذوره الأولى إلى أيام السبى البابلى ـ ومع ذلك لم يطمس اسم «الصهيونيين» غيره من الأسماء ـ باستثناء اسم العبرانيين الذى أصبح نادر الاستعمال ـ ومن هنا كان تقسيمنا للمراحل التاريخية تقسيماً مجازياً، فليست هناك فترة من التاريخ فيما بعد «يعقوب» عرف فيها الإسرائيليون باسم واحد.

الباب الثاني
عصر الآبـــاء الأوائـــل

الفصل الأول
إبراهيم: أبو الأنبياء

١ ـ إبراهيم بين التوراة والقرآن العظيم:

إن دراسة تاريخ اليهود القديم لا يمكن أن تتأتى لنا على الوجه الصحيح، إلا عن طريق دراسة تاريخ أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فالخليل هو الذى يزعم اليهود أنهم إليه ينتسبون[١]، والخليل هو الذى يزعمون أنه فضلهم على غيرهم من ذريته[٢] والخليل هو الذى يزعمون أنه أمر بذبح جدهم إسحاق ـ عليه السلام [٣] ـ ثم يربطون بين حادث الفداء الفذ هذا وبين اختيار الشعب الموعود، وبالحذف والإثبات فى سيرة أبى الأنبياء يعملون على أن يتصل إبراهيم بذرية إسحاق وينقطع عن ذرية إسماعيل، أو بعبارة أخرى يعملون على المفاضلة بين العرب واليهود، وانطلاقًا من هذا، فالخليل هو الذى يرجعون إليه ـ فى الدرجة الأولى ـ أسطورة أرض الميعاد، ويزعمون أنهم ورثته فيما وعده الله «من الفرات إلى النيل» دون غيرهم من كل ذريته[٤]، سواء أكانوا أبناء هاجر[٥] أو قطوره[٦].

على أن صورة أبى الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى القرآن، إنما تختلف عنها فى التوراة، فبينما تحرص التوراة على ذكر حياة إبراهيم

---

(١) تكوين ١٧ : ١٨-٢١ ؛ ٥ : ١٩-٢٣.
(٢) ٢١ : ١١-١٣.
(٣) ٢٢ : ١-١٩
(٤) ١٥ : ١٨، ١٧ : ١٨-٢١، ٢٥ : ٥-٦.
(٥) ١٦ : ١٥.
(٦) ٢٥ : ١-٢

وما فيها من حل وترحال، فضلا عما وعده الله وذريته بالاستخلاف في الأرض، فإن القرآن الكريم إنما يحرص على أن يقدم لنا الخليل ـ عليه السلام ـ على أنه إنما كان وحده أمة من الأمم، جامعًا لكل الفضائل النبيلة، يقول سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ إبراهيمَ كانَ أُمةً قانتًا لله حَنِيفًا ولم يكُ من المُشْرِكِينَ، شاكرًا لأنعمه اجتباهُ وهداهُ إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ، وءاتيناه في الدُّنيا حسنةً وإنَّه في الآخرةِ لَمِنَ الصَّالحينَ﴾[1]، ومن هنا كان الخليل في القرآن الكريم الأسوة الحسنة للمؤمنينَ جميعًا ﴿قد كانت لكُم أُسْوةٌ حسنةٌ في إبراهيمَ والَّذينَ معه﴾[2].

وينظر القرآن الكريم إلى إبراهيم الخليل، على أنه أبو الأنبياء، فكل كتاب أنزل من السماء، على نبيٍّ من الأنبياء بعد إبراهيم فمن ذريته وشيعته[3]، وهذه مرتبة لإبراهيم لا يعلو عليها أية رتبة، ذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما قد أخرج من صلبه أنبياءً بررة حملوا الراية وتوارثوا المشعل، فكان منهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وكان يحيى واليسع وزكريا وإلياس، وكان داود وسليمان ويوسف وهارون، وكان موسى وعيسى ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يقول سبحانه وتعالى ﴿وتلْكَ حُجَّتُنَا ءاتيناها إبراهيمَ على قومه نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاءُ إنَّ ربَّكَ حَكيمٌ عليمٌ، ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ كلاً هدينا ونوحًا هدينا مِنْ قبلُ، ومن ذريته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا

(١) سورة النحل، آية: ١٢٠-١٢٢؛ وانظر: تفسير القرطبي، ص ٣٣١٣-٣٨١٥؛ تفسير ابن كثير، ٥٣٠/٤-٥٣١.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٤؛ وانظر: تفسير روح المعاني، ٦٩/٢٨-٧٢؛ تفسير الفخر الرازي، ٣٠٠/٢٩-٣٠١، تفسير الطبري ٦٢/٢٨-٦٣؛ تفسير الطبرسي ٤٧/٢٨-٤٨؛ تفسير الكشاف ٩٠/٤؛ تفسير القاسمي ٥٧٦٥/١٦-٥٧٦٦ (طبعة الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٧) تفسير القرطبي ص ٦٥٣٥، تفسير ابن كثير، ١١٣/٨.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ١٦٧/١ (بيروت ١٩٦٥).

ويحيى وعيسى وإلياس كُلٌّ من الصالحين، وإسماعيلَ واليَسَعَ ويونُسَ ولوطًا، وكلاً فضّلْنا على العالمين، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صِراطٍ مُستَقيم[1]﴾.

وإذا كان الإسلام فى لغة القرآن ليس اسمًا لدين خاص، إنما هو اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء[2]، فإن إبراهيم الخليل إنما هو الذى أعطى المسلمين اسمهم، يقول سبحانه وتعالى، ﴿وما جعلَ عليكم فى الدِّينِ منْ حرجٍ ملّةَ أبيكُم إبراهيمَ هو سمّاكُم المُسْلمينَ منْ قبل﴾[3]. بل إن القرآن إنما يقولُ لرسولِ الله ـ ﷺ ـ ﴿ثم أوحينا إليكَ أنْ اتّبعْ ملّةَ إبراهيمَ حنيفًا﴾[4].

وإبراهيم الخليل ـ فى القرآن الكريم ـ أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصًا من بين سائر الأنبياء فى آيتين من القرآن الكريم، وهما قوله تعالى: ﴿وإذْ أخذْنَا منْ النبيّينَ ميثاقَهم ومنْكَ ومنْ نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى ابن مريمَ وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا﴾[5]. وقوله سبحانه وتعالى ﴿شرعَ لكُم منَ الدِّينَ ما وصّى به نوحًا والّذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أنْ أقيمُوا الدِّينَ ولا تفرّقوا فيه﴾[6].

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٣-٨٧؛ وانظر: تفسير الطبرى ٥٠٤/١١-٥١٣؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم، ٥٧/٤؛ تفسير ابن كثير ٢٩٠/٣-٢٩١؛ تفسير المنار، ٤٨٥/٧-٤٩١؛ ويلاحظ أن لوط ذكر من ذرية إبراهيم، وهو فى الواقع ابن أخيه، فقد دخل فى الذرية تغليبًا، انظر: تفسير ابن كثير، ٢٩١/٣).

(٢) محمد الراوى، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص ٥١؛ وانظر: محمد عبد الله دراز، الدين ـ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، القاهرة ١٩٦٩، ص ١٨٣.

(٣) سورة الحج، آية: ٧٨؛ وانظر تفسير القرطبى، ص ٤٤٩١-٤٩٩٣.

(٤) سورة النحل، آية: ١٢٣؛ وانظر تفسير القرطبى، ص ٣٨١٤-٣٨١٥؛ تفسير ابن كثير، ٥٣٠/٤-٥٣١.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٧؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٥٢٠٨-٥٢٠٩.

(٦) سورة الشورى، آية: ١٣؛ وانظر: تفسير ابن كثير، ١٨٢/٧-١٨٣؛ تفسير القرطبى، ص٥٨٢٩-٥٨٣٠.

وإبراهيم ـ فى نظر المسلمين ـ أفضل الرسل إطلاقًا ـ بعد محمد ﷺ ـ وليس أدل على هذه الأفضلية من أن المسلمين يصلون على إبراهيم وآله ويباركونهم، كما يصلون على نبيِّهم محمد وآله ويباركونهم، حتى أن النبيَّ ـ كما جاء فى صحيح الإمام مسلم (٢٠٤-٢٦١هـ) ـ عندما سئل: كيف نصلى عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا اللهم صلى على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما صليتَ عليِ إبراهيمَ وآل إبراهيمَ، وباركْ على محمدٍ وعليِ آلِ محمدٍ، كما باركتَ على إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ إنَّك حميدٌ مجيد»[١]، وهكذا يكرر المسلمون هذا الدعاء يوميًا خمس مراتٍ ـ على الأقل ـ فى صلاتهم.

٢ ـ اسم الخليل ونسبه:

تروى التوراة أن الخليل ـ عليه السلام ـ إنما كان يدعى «أبرام»[٢] حتى التاسعة والتسعين من عمره، فيتغير اسمه إلى إبراهيم (أبراهام)[٣]، وأما «أبرام» فبمعنى «الأب الرفيع» أو «أبو الرفعة»، أو «الأب الكريم»، وأما إبراهيم فبمعنى «أب لجمهور من الأمم»[٤]، وإن كان هناك من يرى أن اسم «أبرام» يتألف من «أب» و«رام»، وأن «رام» هنا بمعنى «أحب» فاسم أبرام يعنى إذن «محبوب الله»، وهو وصف يوافق تلقيبه بخليل الله، ويستبعد «مرجليوت» أن تكون «رام» من مادة الرفعة كالرامة التى تطلق على القرية فى البناء العالى[٥].

(١) صحيح مسلم بشرح النووى، ٤٧/٢-٥٠ (دار الشعب بالقاهرة، ١٩٧١)

(٢) انظر مثلا: سفر التكوين (١١: ٢٧، ٢٩، ٣١) (١٢: ١، ٤-٧، ٩، ١٠، ١٤، ١٦-١٨) (١٤: ١٣، ١٤، ١٩، ٢٢، ٢٣) (١٥: ١-٣، ١٣، ١٨) (١٦: ١-٣)، ٥، ٦، ١٥) (١٧: ١-٣)

(٣) تكوين ١٧ : ١-٦.

(٤) تكوين ١٧ : ٤؛ وانظر: محمد بدر، الكنز فى قواعد اللغة العبرية، ص ٣٩؛ حبيب سعيد، المرجع السابق، ص ٢٧؛ محمد حسنى عبد الحميد، أبو الأنبياء ـ إبراهيم الخليل، القاهرة، ١٩٤٧، ص ١٢.

(٥) عباس محمود العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١٣٣، (دار الهلال، القاهرة).

هذا وتذهب دائرة المعارف البريطانية إلى أن الاسمين «أبرام» و«أبراهام» أطلقا بمعنيين على شخص واحد، هو إبراهيم، وأن «أبرام» أطلقها الأموريون «أهل بابل» التى هى موطن إبراهيم[١]، وأن أبراهام أطلقها الكنعانيون «أهل كنعان» التى سكنها إبراهيم بعد ذلك، وأنه يوجد فى تلك البلاد أسماء مشابهة تمام المشابهة لهذه التسمية منها «أبارام» و«أبام راما» و«أباراهام»[٢].

وعلى أى حال، فإن اسم إبراهيم من الأسماء التى تنبئ عن نشأة دينية، لأنه على أرجح معانيه يفيد معانى «حبيب الله» ولعل التغيير الذى طرأ على اسم أبرام إنما استحدث لكى يفيد معنى «حبيب الله» بدلا من «حبيب الإله»، الذى كان يعبده أبوه فى معابد الوثنية[٣].

ونقرأ فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين أنه «أبرام بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح»[٤]، وأن إبراهيم له أخوان، الواحد ناحور، والآخر هاران، وأن هاران قد أنجب لوطًا ثم مات قبل أبيه فى أرض ميلاده ببلاد الكلدانيين[٥].

ويختلف القرآن الكريم عن التوراة فى اسم والد الخليل، فقد جاء فى سورة الأنعام أن أباه إنما كان يدعى آزر، حيث يقول سبحانه وتعالى ﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزرَ أتتَّخذُ أصنامًا آلهة﴾[٦]

(١) انظر فيما يأتى موطن الخليل، والآراء التى دارت حوله.

(٢) محمد حسنى عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٣.

(٣) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٤) تكوين ١١: ١٠-٢٦.

(٥) تكوين ١١: ٢٧-٢٨.

(٦) سورة الأنعام، آية: ٧٤؛ وانظر: تفسير الطبرى، ٤٦٥/١١-٤٦٩؛ تفسير النسفى ٥٣/٢؛ تفسير الكشاف، ٢٩/٢-٣٠؛ تفسير البحر المحيط، ١٦٣/٤-١٦٤؛ تفسير مجمع البيان، ٣٢١/٢-٣٢٢؛ تفسير التبيان للشيخ الطوسى، ١٧٤/٤-١٧٥ (بيروت ١٩٦٤)؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم، ٥٦/٤؛ تفسير البيضاوى، ٣١٧/١؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، ٢٣/٣؛ تفسير الفخر الرازى، ٣٤/١٣-٤٠؛ تفسير الخازن، ١٢٢/٢-١٢٣؛ تفسير البغوى، ١٢٢/٢-١٢٣ (على هامش الخازن)؛ تفسير المراغى، ١٦٧/٧-١٦٩ (القاهرة ١٩٧٤)؛ تفسير القاسمى، ٢٣٦٨/٦- ٢٣٧٠؛ تفسير القرطبى ص ٢٤٥٧-٢٤٥٩؛ تفسير المنار، ٤٤٤/٧-٤٥٤؛ تفسير ابن كثير ٢٨٢/٣-٢٨٤.

ويبدو أن بعض المفسرين والمؤرخين نظروا إلى التوراة، وكأنها السند الصحيح[١]، ومن ثم فقد حاولوا تأويل الآية الكريمة بما يخرجها عن صريح اللفظ، محاولين بذلك أن يقضوا على التناقض بين ما جاء فى القرآن الكريم وما ذهبت إليه التوراة ومن ثم فقد ذهب فريق منهم إلى أن «آزر» إنما هو اسم لصنم كان يعبده تارح والد إبراهيم، وكان سادنًا له، وهذا قول بعيد عن الصواب من جهة اللغة العربية، وذلك لأن العرب لا تنصب اسمًا بفعل حرف الاستفهام فلا تقول: أخاك أكلمت؟ وهى تريد: أكلمت أخاك؟[٢]

وهناك فريق آخر إنما يذهب إلى أن كلمة «آزر» كلمة ذم، بمعنى أعرج أو مخطئ أو معوج أو خرف وما إلى ذلك[٣]، إلا أن صدور مثل هذا من ابن لأبيه ـ لا سيما إذا كان الابن نبيًا ـ شىء يأباه المنطق، فضلا عن أنه أمر لا يتفق وخلق إبراهيم، والذى كان من صفاته الحلم والأدب الجم، وقد أشار القرآن الكريم فى عدة مواضع إلى محاسنته لوالده وبره به، وتوجيهه الدعوة إليه فى حكمة واتئاد، فليس يصح فى الأذهان بعد هذا أن يخاطب إبراهيم والده مبادئًا بالإهانة، مفاجئًا بالتقريع والعدوان، فيقول: يا خاطئ أو يا خرف أو غير ذلك، أفمن يرد على والده عندما أصر على عبادة الأصنام بقوله: ﴿سلامٌ عليك سأستغفرُ لكَ ربِّى إنَّهُ كانَ بِى حَفيًّا﴾[٤]، يحقر ذلك

---

(١) انظر: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ٩٤/١؛ تاريخ الطبرى، ٢٢٣/١؛ أبو الفداء، المرجع السابق، ص ١٣؛ تاريخ اليعقوبى، ٢٣/١-٢٤؛ تاريخ ابن خلدون، ٣٣/٢؛ المقدسى، كتاب البدء والتأريخ، ٤٧/٣؛ المسعودى، مروج الذهب، ٥٦/١؛ تفسير القرطبى، ص ٢٤٥٨؛ تفسير الطبرى، ٤٦٥/١١-٤٦٩؛ تفسير روح المعانى، ١٩٤/٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٥٢/١-٥٥؛ تفسير ابن كثير ٢٨٢/٣-٢٨٣؛ البداية والنهاية ١٤٢/١.

(٣) تفسير الطبرى ٤٦٧/١١؛ معانى القرآن للفراء ٣٤٠/١.

(٤) سورة مريم: آية: ٤٧

الوالد بنسبة صفات مهينة إليه، إن إبراهيم لم يخرج فى كل خطوات دعوته ومراحل جهاده عن حدود الإجلال لوالده والتوقير له والتوسل إلى الله أن يغفر لذلك الوالد، لهذا كله لم يكن العقل ليسيغ تفسير كلمة «آزر» وفق ما ذهب إليه بعض المفسرين من القول بأنها كلمة ذم لوالد إبراهيم، هذا فضلا عن أن الكلمة نكرة والموصوف معرفة[١].

ويتردد الإمام الطبرى (٢٢٤-٣١٠هـ) فى الاسم، فهى مرة تارح، ومرة آزر، وإن كان يرجح الرأى الثانى[٢]، ويكاد مساق ابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ) لا يختلف عن مساق الطبرى[٣].

هذا وهناك فريق ثالث يرى أن آزر أبو إبراهيم، وهو نفسه تارح - مثل إسرائيل ويعقوب، فيكون له اسمان أى أن تارح اسم العلم، وآزر وصف له[٤]، على أن هناك فريقًا رابعًا يرى أن آزر هو عم الخليل، وليس أباه، إذ لو كان آزر أبا إبراهيم لم يقل سبحانه وتعالى ﴿لأبيه آزر﴾، لأن العرب لا تقول: أبا فلان إلا للعمِّ دون الأب الحقيقى، وهذا الاتجاه مردود، لأن ظاهر القرآن يرد عليه، ولاسيما محاورة إبراهيم مع أبيه[٥]، ومع ذلك فهناك فريق كبير

---

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص٧؛ دائرة المعارف الإسلامية ٥٢/١-٥٥؛ تفسير الطبرى ٤٦٢/١١؛ تفسير ابن كثير ٢٨٢/٣؛ تفسير روح المعانى ١٩٤/٧-١٩٥؛ محمد حسنى عبد الحميد: المرجع السابق ص١٤؛ تفسير القرطبى ص٢٤٥٨.

(٢) تاريخ الطبرى، ٢٣٣/١-٢٣٥، تفسير الطبرى ٤٦٥/١١-٤٦٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٩٤/١-١٠٠ (بيروت ١٩٦٥)

(٤) تفسير القرطبى ص٣٤٥٨؛ اقشسز لبظيأس ٤٦٥/١١-٤٦٦، ٤٦٨-٤٦٩؛ تاريخ ابن خلدون ٣٣/٢؛ المسعودى: مروج الذهب ٥٦/١؛ دائرة المعارف الإسلامية ٥٤/١؛ تفسير المنار ٤٤٨/٧.

(٥) أنظر: سورة مريم، آية: ٤١-٥٠؛ الأنبياء، آية: ٥١-٥٢؛ الشعراء، آية: ٦٩-٨٦؛ الصافات، آية ٨٣-٨٧؛ الزخرف، آية ٢٥-٢٦؛ الممتحنة، آية ٣؛ دائرة المعارف الإسلامية ٥٤/١؛ تفسير المنار ٤٤٨/٧.

العلماء يجمعون ـ أو يكادون ـ على أن آزر إنما هو أبو إبراهيم طبقاً لصريح القرآن[١].

هذا وقد ذهب المؤرخ المسيحى اليونانى «يوسبيوس» (٢٦٤=٣٤٩م) ـ والذى لقب بـ «أبى التاريخ الكنسى»، وبـ «هيرودوت النصارى»[٢] ـ إلى أن أبا الخليل إنما كان يدعى «آثر» وزعم بعض الباحثين ـ ومنهم سنكلر تسد بل ـ أن للاسم أصلا فى الفارسية القديمة بمعنى النار[٣].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن التوراة تروى الأسماء والأعلام أحياناً على روايات متعددة، فإذا أضفنا إلى ذلك أن إبراهيم كان قد انحدر إلى أرض كنعان من اشور، واعتقد شرّاح الكتب الإسرائيلية فى غير موضع أن الآباء الأولين إنما كانوا ينسبون إلى بلادهم وأممهم، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا نسب إبراهيم إلى آشور، فمن الجائز جداً أن يكون تارح وآزر لفظين مختلفين لاسم واحد، سواء أكان هذا الاسم علماً على رجل أو على الجد القديم الذى تنسب إليه أمة آشور، وكثيراً ما تنسب إلى اسم جد قديم، كما يقال فى النسبة إلى عدنان وقحطان.

ثم يعقد الأستاذ العقاد ـ طيّب ثراه ـ بعد ذلك مقارنة بين اسم آشور ـ والتى تكتب أحياناً آزور ـ وبين «آزر» يخلص منها إلى أن القول فى نسبة إبراهيم إلى آزر بمعنى «أسور» أقرب إلى الصواب، من القول بأن أباه سمى تارحاً من الحزن أو الكسل، وليس عليه دليل من وقائع التاريخ والجغرافية ولا من الاشتقاق[٤].

---

(١) تفسير الفحر الرازى ٧٢/٣؛ تفسير البحر المحيط ١٦٣/٤-١٦٤؛ تفسير الطبرى ٤٦٨/١١-٤٦٩؛ تاريخ الطبرى ٢٣٤/١-٢٣٥؛ تفسير روح المعانى ١٩٤/٧-١٩٥؛ تفسير الجواهر ٥٦/٤.

(٢) W. Smith, A Dictionary of the Bible, III, p. 107.

(٣) عباس العقاد: المرجع السابق ص٤٥

(٤) نفس المرجع السابق، ١٣٥-١٣٦

وبعد هذا كله، فإليك الحديث الصحيح، يروى الإمام البخارى (١٩٤-٢٥٦هـ) فى صحيحه، عن أبى هريرة عن جدنا ومولانا وسيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصنى، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك»[1].

وهكذا يبدو بوضوح أن ما جاء فى القرآن الكريم يتفق مع الحديث النبوىّ الشريف، وأن الأدلة العلمية الحقة كلها معه، وأن آزر إنما هو اسم والد أبى الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأن تأويلات المفسرين والمؤرخين ممن حاولوا ذلك لا داعى لها.

وأما قوم إبراهيم، فهناك من يجعلهم من المجموعة الأرامية التى تزوج منها إسحاق ويعقوب[2]، وسواء أصح هذا أم لا، فإن قوم إبراهيم كانوا قد خرجوا من الجزيرة العربية التى نشئوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة، ولعل فى تفكير إبراهيم إسكان زوجته هاجر وابنه إسماعيل منها فى منطقة مكة المكرمة هربًا من ضرتها العجوز سارة، لم يكن على الأرجح بمحض الصدفة، ذلك أن الصدفة لم يكن لها محل فى تنظيم مثل هذه الخلافات العائلية عند رؤساء العشائر الأقدمين، وإن كان إبراهيم قد اختار مكة، فما لاشك فيه أنه شخصيًا كانت له صلات قرابة وصلات حلف وذمة مع سكانها، وإلا لما اختار هذا المكان القفر البعيد مأوى لزوجته وابنه[3].

---

(١) صحيح البخارى: باب «قوله تعالى: ﴿واتخذ الله ابراهيم خليلاً﴾»، الجزء الرابع ص١٦٩ (دار الشعب ـ القاهرة ١٣٧٨هـ)؛ تفسير ابن كثير ٢/٢٨٤؛ البداية والنهاية ١/١٤٢؛ تفسير المنار ٧/٤٤٩.

(٢) أنظر: E Sellin, Geschichte des Israelitirch - Judischen Voelkeru, p 16-26

(٣) حسن ظاظا: الصهيونية العلمية وإسرائيل ص٢٦-٢٧.

على أننا لا نستطيع أن نوافق على ذلك كله، فأما أن قوم إبراهيم من المجموعة الآرامية فذلك أمر تتفق عليه آراء كثير من العلماء، فضلا عن نصوص التوراة نفسها[١]، وأما أن إبراهيم قد أسكن زوجته وولده فى هذه المنطقة النائية والقفر كذلك ـ لأن له صلات قرابة وصلات حلف وذمة بسكانها، فذلك أمر يحتاج إلى إعادة نظر، لأن إبراهيم قد قام برحلته إلى الحجاز امتثالا لأمر الله ورغبة فى نشر الإيمان بالله فى بيئة جديدة وفى مناخ جديد، بعد أن قام بذلك فى العراق وفى سورية وفى مصر، ثم تمهيداً للمهمة الكبرى ـ بناء بيت الله الحرام ـ وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ منَ البيتِ وإسماعيلُ، ربَّنَا تقبَّلْ منَّا إنَّكَ أنْتَ السَّميعُ العليمُ﴾[٢]

هذا فضلا عن أن مكة لم يكن بها سكان قبل إبراهيم، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ربَّنَا إنِّى أسكنتُ منْ ذُرِّيَّتِى بوادٍ غيرِ ذى زرْعٍ عنْدَ بيتِكَ المُحرَّمِ، ربَّنَا ليقيموا الصلاةَ فاجعلْ أفئدةً منَ النَّاسِ تهوِى إليهم وارزقْهم منَ الثَّمراتِ لعلَّهم يشكُرُونَ﴾[٣]

ومن هنا فقد ذهبت آراء إلى أن تاريخ مكة المكرمة إنَّما يرجع إلى أيام

---

(١) تكوين، ٢٤: ٤٠، ٧، ١٠، ٢٥: ٢٠، ٢٨: ٢، ٥، تثنية ٢٦: ٥

(٢) سورة البقرة، آية ١٢٧؛ وانظر: تفسير الطبرى ٣/٥٧-٧٣؛ تفسير الكشاف ١/٣١١، تفسير روح المعانى ١/٣٨٣-٣٨٤، تفسير البحر المحيط ٣٨٩، تفسير النسفى ١/٧٤، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١/١٢٥-١٣٧، (طبعة طهران ١٣٧٧هـ)؛ تفسير القرطبى ٢/١٢٠-١٣٦ (القاهرة ١٩٦٧)، تفسير أبى السعود ١/١٢٤-١٢٥، فى ظلال القرآن ١/١٠٩-١١٢(دار الشروق ـ بيروت ١٩٧٣)

(٣) سورة إبراهيم، آية ٣٧، وانظر تفسير روح المعانى ١٣/١٣٦-١٤٢، تفسير مجمع البيان ١٣/٤٢٢-٢٢٠، تفسير الكشاف ٢/٣٨٠؛ تفسير ابن كثير ٤/١٤١-١٤٢، تفسير القرطبى ص ٣٥٩٧-٣٦٠٣ (دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠)؛ تفسير الجلالين ص٢٢٧ - ٢٢٨ (دار الشعب القاهرة ١٩٧٠)

داود[١] _ عليه السلام _ (١٠٠٠–٩٦٠ق.م)، وذهبت آراء أخرى إلى أنه إنما يرجع إلى القرن الأول قل الميلاد، بينما ذهب فريق ثالث إلى أنه إنما يرجع إلى القرن الثانى الميلادى[٢]، بل إن بعض المؤرخين العرب إنما يذهب إلى أن تأسيس مكة المكرمة إنما كان فى منتصف القرن الخامس الميلادى[٣].

والرأى عندى أن المدينة المقدسة إنما ترجع فى سكناها إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، بعد أن أقام فيها الخليل وولده إسماعيل _ عليهما السلام _ أول بيت وضع للناس _ الأمر الذى ناقشناه فى كتابنا «دراسات فى تاريخ العرب القديم»[٤]_ .

وأياً ما كان الأمر، فإن إبراهيم الخليل إنما كان عربيًا خالصًا من سلالة العرب التى يطلق عليها المؤرخون المسلمون «العرب العاربة»[٥]، والتى يرتفع نسبها إلى «سام بن نوح» عليه السلام، كما سوف يكون «أبو العرب الإسماعيلية» (أو المستعربة كما يطلق عليها أحيانًا) والذين هم أبناء ولده إسماعيل، وهو بهذا جد العرب قبل أن يكون جد اليهود.

---

(١) أنظر: R. Dozy , Die Israeliten zu mekka, 1864, p. 15

(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٣/١وكذا ؛ جواد على ١٢/٤. وكذا:
Garalb De Gaury Rulers, of mecca, London, 1951, p. 24

وكذا:
Ptolemy, Vr, 7, 32 Caussin De Perceval, Essai Sur L' Histoire des Arabes avaut l' Islamisme. 1, paris, 1847, p. 174.

وكذا R. Dozy,op-cit. p. 13.

(٣) حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام السياسى _ الجزء الأول _ القاهرة ١٩٦٦ ص٤٥ ؛ وانظر: القلقشند فى ؛ صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء _ الجزء الرابع _ من ١٥٠ (القاهرة ١٩١٣).

(٤) محمد بيومى: دراسات فى تاريخ العرب القديم: ص٣٩٤–٣٩٨ (أصدرته جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية _ الرياض ١٩٧٧).

(٥) نفس المرجع السابق ص١٥٥–١٦٢ (طبقات العرب).

٣ - موطن الخليل عليه السلام:

تجمع التقاليد العبرية على أن مسقط رأس الخليل عليه السلام إنما كان فى مدينة «أور»، والتى دعوها «أور الكلدانيين»، طبقًا لروايات عديدة فى أسفار التوراة[١] وهكذا آمن المفسرون من اليهود القدامى بأن الموطن الأصلى لسلفهم الأعلى «إبراهيم الخليل»، إنما كان فى منطقة الفرات الأدنى، ولم يكن أحد يعرف «أور» هذه - وإن كانت كلمة الكلدانيين تشير بالتأكيد إلى ميزوبوتاميا - حتى تم اكتشاف المدينة فى القرن الماضى (١٨٥٤م) فى مكان «تل المقير» - على مبعدة ١٩٢ كيلا إلى الشمال من مدينة البصرة الحالية، ١٦ كيلاً شرقى نهر الفرات فى العصر الحاضر، فى منتصف المسافة تقريبًا بين بغداد والخليج العربى - وتدل الاكتشافات التى تمت فى «أور» على أن المدينة كانت فى بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، مدينة عظيمة يسكنها كثير من الأغنياء الذين ابتنوا لأنفسهم منازل من الآجر المحروق[٢].

ويرى «سيرليو ناردوولى» أن إبراهيم الذى أتى إلى «حاران» - وتقع على نهر بلخ على مبعدة ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات، وإلى الغرب من تل حلفا، وعلى مبعدة ٤٤٨ كيلا إلى الشمال الشرقى من دمشق - [٣] من أور الكلدانيين، إنما قد ولد فى أحد المنازل الرئيسية فى أور، ثم نشأ بها، ثم يخلص «وولى» إلى أن الأب العبرانى الذى أمضى سنيه الأولى فى مثل هذه الحياة إنما كان مواطنًا فى مدينة عظيمة، وأنه قد ورث تقاليد حضارة عريقة عظيمة، وأن المنازل الرئيسية تكشف الراحة - فضلا عن الفخامة - ومن هنا

---

(١) تكوين ١١ : ٢٨، ١٥ : ٧، نحميا ٩ : ٧.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ١٢٨/١ . وكذا:

Werner keller ,the Bible As History, 1967, p. 42.

وكذا M.F.Unger, unger's Bible Dictionary, chicago. 1970, p. 1126-1127

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٢٧١/١. وكذا: M. F. unger, op - cir, p, 455

يذهب «وولى» إلى أن إبراهيم لم يكن بدوياً بسيطاً، وإنما كان مواطناً فى مدينة عظيمة فى الألف الثالثة قبل الميلاد[١].

هذا وقد أوضحت الحفائر البريطانية التى أجريت فى «أور» فى الفترة فيما بين عامى ١٩٢٢، ١٩٣٤م وكذا الوثائق المسمارية التى اكتشفت فى مواقع أخرى ـ أن أور إنما كانت تعيش فى أوفر درجات الرخاء من حوالى عام ٢٠٦٠ وحتى عام ١٩٥٠ق.م[٢]، عندما دمرت بواسطة الغزو العيلامى[٣]

على أن هناك وجهاً آخر للنظر، يذهب إلى أن مدينة «أور» التى ورد ذكرها فى التوراة على أن إبراهيم الخليل قد قدم منها، ليست فى بابل، ولا تقع على الخليج العربى، بل هى من إقليم العراق الأعلى فى منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات[٤].

ويعتمد أصحاب هذا الاتجاه على أن هناك أدلة أخرى فى التوراة نفسها تشير إلى مكان آخر، غير أور المشهورة فى منطقة الفرات الأدنى، منها (أولا) أن إبراهيم عندما أرسل خادمه العجوز «اليعازر الدمشقى» من كنعان إلى مدينة أخيه ناحور ليحضر زوجة لولده إسحاق، إنما دعى مكان ناحور هذا ـ والذى استقر فيه بشمال ميزوبوتاميا ـ بأنه أرضه ومقر عشيرته[٥]، كما دعاه كذلك «بيت أبيه» و«أرض ميلاده»[٦].

(١) Werner keller, the Bible As Dictionary. archaeology Confirms of the Book of Books, Thirteenth Impression, 1967, p. 42.

(٢) وانظر عن هذا (CAH, I. Part, II, p- 998, The Sumerian Period التاريخ حيث يوضع فى عام ٢٠٠٦ ق.م.

(٣) W.F. Albright, The Bblical Period, From Abraham to Ezra, N.Y, 1963, p. 4.

(٤) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص١٨٣، حسن محمود. حضارة مصر والشرق القديم ـ الساميون القدماء ص٣٤٩ (القاهرة) وكذا: A.Lods, op.cit., p. 163-166

(٥) تكوين ٣٤: ٤٠.

(٦) تكوين ٢٤: ٧. وكذا:

J. Finegon, Light from the Ancient Past, The Archaeological Background of Judaism and Christianity, I, Princeton, 1969, p. 70.

ومنها (ثانياً) أن المدينة التى قصدها يعقوب ليجد فيها الحمى عند خاله «لابان» من غضب أخيه، عيسو» بعد حادث البركة المشهور[١]، إنما كانت حاران[٢] قرب أديسا[٣]، ومنها (ثالثاً) أنه بعد استيلاء الإسرائيليين على الأرض المقدسة، نرى يشوع يخاطب الشعب بهذه الكلمات «آباؤكم سكنوا فى عبر النهر، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور[٤]»، ولما كانت مدينة أور قد اكتشفت على الضفة اليمنى للفرات، فإن من ينظر إليها من كنعان يرى أنها تقع على نفس جانبه، وليس على الجانب الآخر من النهر[٥].

ويتساءل «كيلر»: هل كان «وولى» متأنياً فى استنتاجه هذا؟ وما هو الدليل الذى قدمته بعثته الحفرية؟ وما الدليل على أن تارح وابنه قد عاشا حقيقة فى مدينة أور المشهورة؟

إن الرحلة المبكرة من أور الكلدانيين إلى حاران ـ ما عدا اكتشاف المدينة نفسها ـ ليس لها أساس أثرى، ويعلن الأستاذ «وليم فوكسويل أولبرايت» الحقيقة الجديرة بالاعتبار، وهى أن «الترجمة الإغريقية»[٦] للتوراة لا تذكر «أور» أصلا، وإنما نقرأ بدلا عنها ما هى طبيعى أكثر «أرض

---

(١) تكوين ٢٧ : ١-٤٦.

(٢) تكوين ٢٧ : ٤٣-٤٤، ٢٨ : ١٠.

(٣) يشوع ٢٤ : ٢.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 166.

(٥) W. Keller, op.cit., p. 42-44.

(٦) الترجمة الإغريقية أو السبعينية (سبتواجنتا Septuaginta): وهى التى قام بها اثنان وسبعون عالما من يهود فلسطين فى الإسكندرية بأمر بطاليموس الثانى ـ وإن وذهب رأى إلى أنهم من يهود الإسكندرية ـ فى سبعين يوما، على أن هناك من يرى أن هذه الترجمة لم تشمل إلا على أسفار موسى الخمسة، وأن بقية الأسفار إنما تمت فيما بين عامى٢٥٠، ١٥٠ق.م، كما أن الترجمة السبعينية لم تقتصر على أسفار العهد القديم العبرى، وإنما شملت أسفار أخرى عرفت بأسم «أبو كريفا» (أنظر فؤاد حسنين: التوراة الهيروغليفية ـ القاهرة ١٩٦٨ ص٢٧، مصطفى العبادى: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى القاهرة ١٩٦٦ ص١١٢ - ١١٣، مصطفى عبد العليم، اليهود فى عهد البطالمة والرومان ـ القاهرة ١٩٦٨ ص١١٥، ١٢٣)

الكلدانيين»، والتى تعنى أن انتقال موطن إبراهيم الأصلى إلى أور، ربما كان أمراً ثانوياً، وأن ذلك لم يكن معروفاً فى القرن الثالث ق.م.

وقد بزغت «أور» من الماضى المظلم كعاصمة للسومريين ـ أصحاب واحدة من أقدم حضارات ميزوبوتاميا ـ ومن المعروف أن السومريين[1] ليسوا ساميين كالعبرانيين، وعندما تدفق غزو القبائل السامية من الصحراء حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م، وكانت مواجهته الأولى فى الجنوب مع مزارع أور الواسعة ومنازلها وقنواتها، ومن المحتمل أن ذكريات هذه المرحلة العظيمة التى شملت أراضى الهلال الخصيب ـ متضمنة أور ـ قد أدت إلى أن تذكر فى التوراة.

هذا ويؤكد البحث المضنى ـ وبخاصة الاكتشافات الأخيرة ـ أن

---

(١) السومريون: يتفق الباحثون على أن السومريين جنس غير سامى، وأن لغتهم غريبة لاتشبه اللغات السامية، ولا يعرف الباحثون زمن مجيئهم إلى وادى الرافدين، وإن ذهب البعض إلى أن ذلك ربما كان فى فترة مبكرة من الألف الرابعة قبل الميلاد، وقد اختلفت الآراء فى موطنهم الأصلى، فقد ذكرت أساطيرهم أنهم جاءوا من الجنوب، ومن ثم ذهب رأى إلى أنهم جاءوا من الجنوب، ومن ثم ذهب رأى إلى أنهم مهاجرون من منطقة ما تقع فيما بين شمال الهند وبين أفغانستان وبلوخستان عن طريق الخليج العربى وجزيرة البحرين بعد أن استقروا فى غربى إيران فترة ما، وذهب رأى آخر إلى أنهم من التخوم الغربية لجنوب السهل الميزوبوتامى والمواجه للصحراء ورأى فريق ثالث أنهم من المنطقة الشمالية من التخوم الشرقية (جنوب ديالى) وذهب فريق رابع إلى أنهم بدو مما وراء القوقاز أو بحر قزوين، وذهب فريق خامس ألى أنهم جاءوا من آسيا الصغرى، بينما ذهب فريق سادس إلى أنهم جاءوا من السند، بل لقد اتجه فريق سابع إلى أنهم من الأقوام التى قطنت العراق فى عصور ما قبل التاريخ، وأن حضارتهم أصيلة فى العراق، بل ويمكن تسمية أهل حضارة «العبيد» بالسومريين، على الرغم من عدم معرفتنا للغة أهل حضارة العبيد (انظر أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم ص٢٨، عبد العزيز صالح: مصر والعراق ص٣٨٦، طه باقر: مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ـ١ ص٨٩-٩٠، محمد عبد اللطيف تاريخ العراق القديم: ص١٦٤-١٦٩، وكذا:

E. A. Speiaer, The Sumerian Problem Reviewed AJA,1948, p. 156-164

وكذا: (S. N. Kramer, The Sumerians, chicago, 1970)

إبراهيم الخليل، عليه السلام، لم يكن أبداً مواطناً فى عاصمة السومريين، لأن ذلك يتعارض مع كل الأوصاف التى أعطتها التوراة لأنماط الحياة التى عاشها ربُّ العائلة إذ كان إبراهيم ساكن خيام ينتقل بقبيلته من مرعى إلى آخر، ومن بئر إلى أخرى وهو لم يعش كمواطن فى مدينة عظيمة، وإنما كان يعيش حياة بدوية صرفة، ومن هنا كان الاتجاه إلى أن الموطن الأصلى لأبى الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى حاران، وليس فى أور[1].

وهكذا، فإن هناك رأيين، فيما يختص بموطن إبراهيم الخليل الأصلى، وكل منهما يعتمد فى الدرجة الأولى على نصوص التوراة، والتضارب بين نصوص التوراة أمر معروف، ونظائره كثيرة[2].

ومع ذلك فيبدو لى أن الرأى الذى يجعل من «حاران» ـ وليس من أور ـ موطناً للخليل عليه السلام، ربما كان أقرب إلى الصواب، وذلك لأسباب كثيرة منها (أولا) أن نصوص سفر التكوين[3] صريحة فى نسبته إلى حاران ولذلك يجب أن نفهم «من أرضك ومن عشيرتك» على أنها تشير إلى ميزوبوتاميا وحاران، وليس إلى بابل وأور، هذا فضلا عن أن نص سفر التكوين (٢٤: ٤، ٤٠) إنما يشير بوضوح إلى أن موطن إبراهيم الخليل إنما كان فى حاران.

ومنها (ثانياً) أن الترجمة السبيعينية ـ كما أشرنا من قبل ـ تحذف من النص كلمة «أور» وتستبدلها، بأرض الكلدانيين، ولكن حتى الإشارة إلى الكلدانيين قد توقعنا فى خطأ من ناحية التسلسل التاريخى، وذلك لأن الكلدانيين قوم ساميون أتوا إلى بابل الجنوبية حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، ثم نجحوا آخر الأمر فى تكوين الإمبراطورية الكلدانية ـ أو الدولة البابلية

(١) I.E. Pstein, op.cit., p. 21-22.

(٢) انظر الفصل الثانى من الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

(٣) تكوين ١٢: ١ـ٥.

الجديدة (٦٢٦-٥٣٩ق.م) ـ وكان من البدهى أن يعطى كتبة التوراة المدينة الاسم الشائع (أور الكلدانيين) فى أيامهم.

وهناك لوحة أكدية من «أوجاريت» (رأس الشمرا) يكتب فيها الملك الحيثى «خاتوسيل الثالث» (١٢٧٥-١٢٥٠ق.م) إلى ملك أوجاريت «تكميا» يسأله عن حالة تجاره الذين يتاجرون مع أوجاريت وقد دعى هؤلاء التجار «مواطنون من أورا»، ولما كان الاسم «أورا» يمكن أن يكون بسهولة «أور» فى العبرية، فهذا أثبت وجود مدينة أخرى باسم «أور»، ربما كانت بالتخمين فى مكان ما فى الشمال الغربى، وأن هذه المدينة يمكن أن تكون «أور الكلدانيين»، وهذا يتطلب وجود كلدانيين فى شمال غرب ميزوبوتاميا، كما هو الأمر فى ميزوبوتاميا السفلى، وأن هذا الأمر قد سبق أن قرره «أكسينفون» (حوالى عام ٤٣٠-٣٥٥ق.م) حيث يذكر أن الكلدانيين كانوا سداً منيعاً فى الطريق إلى أرمينيا وأنهم جيران الآراميين[١].

ويفترض بعض الباحثين أن «أور» هذه كانت من مجاورات «حاران»، ويعتمد هذا الفرض على أن هناك فقرة فى «المصدر اليهوى»[٢] قد وضعت «كاسد» ـ الجد الأعلى للكاسيديم ـ فى هذه المنطقة، وجعلته من أبناء ناحور[٣]. وبما أن الكاسيديم[٤] أو الكلدانيين كانوا لزمن طويل بدواً يعيشون

(١) جون إلدر: الأحجار تتكلم، ترجمة عزب زكى ص٤٣-٤٤؛ وكذا:
Jack Finegan, op.cit., p. 70-71.

(٢) المصدر إليهوى: هو أحد مصادر التوراة الأربعة (اليهوى والألوهيمى والتثنية والكهنوتى) ويرمز له بالحرف J وهو الحرف الأول من «Jahwist» وربما ألف حوالى عام ٨٥٠ق م فى يهوذا، وسمى باليهوى نسبة إلى اسم العلم «يهوه».

(٣) تكوين ٢٢: ٢٢

(٤) الكاسديم: أو كسديت، اسم أطلقه اليهود على المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية التى عرفت أيام الحضارة النصرانية باسم «سوريت» أو سوربين، وذلك حين بدأ اسم الأراميين يصبح له مدلول وثنى غير مستحب بعد انتشار المسيحية هناك، ومن ثم فقد سمى القوم أنفسهم بالإسم اليونانى «سوريين» بالنسبة للشعب و«سريانى» بالنسبة للغة (محمد بدر: الكنز فى قواعد اللغة العبرية ص٥٢، حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص١١٥-١٢١، فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص١٨٤-١٨٥).

على حياة السلب فى الصحراء الغربية، وعلى حدود فلسطين[١]، وأن أور لم تذكر بين المدن التى كانت مهداً لإمبراطورية «نمرود» ـ أى بين المراكز القديمة لحضارة ميزوبوتاميا السفلى [٢]، ومن ثم يكون الافتراض الآخر أن الكاتب الكهنوت أول من ذكر «أوركاسديم»، وفى هذه الحالة فإنه يصبح من الصعب الاعتقاد أنه حددها فى بابل السفلى[٣].

ومن هنا، فمن الأفضل أن تكون أور ـ طبقًا لهذا الكاتب الكهنوتى ـ فى مجاورات حاران، وبالذات إلى الشرق منها طبقًا لتقاليد محلية ترجع إلى القرن الرابع الميلادى، ولعل «امينانوس مرسيلينوس» (٣٣٠-٤٠٠م) كان يعنيها فى إشارة له من نفس التاريخ إلى قلعة تضع بين سنجار والدجلة[٤].

ومنها (ثالثًا) أن إبراهيم وعشيرته حين استقروا فى كنعان كانوا على اتصال بحاران وبأقربائهم فيها، بعكس أور التى لانعرف لهم صلة بها بعد ذلك. بل ليس هناك ما يشير إلى أى تأثير لهذه المدينة على حياة الآباء الأولين، فمثلا هناك المذابح الحجرية غير المنحوتة التى استعملها العبرانيون ولم يستعملها السومريون[٥].

ومنها (رابعًا) أن مدينة حاران تعتبر المدينة الرئيسية فى منطقة «فدان آرام»، والتى ربما كانت الاسم المبكر لآرام النهرين ـ مركز الاستقرار الآمورى الجديد ـ ولعل هذا هو السبب الذى دفع البعض إلى القول بوجود قرابة من نوع ما بين العبرانيين والآراميين، ذلك لأن الأجداد الأول

---

(١) أيوب ١ : ١٧

(٢) تكوين: ١٠ : ١٠

(٣) Adolphe Lods, Israel From its Beginnıng to the Middle of the Eight Century, London, 1962, p. 165.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 165-166.

(٥) Sir Leonard Woolley, The Beginning of Civilization, N.Y., 1165, p. 514.

المعروفين لإسرائيل كانوا قد انخرطوا فى ميزوبوتاميا الشمالية، وأن أقرباء إبراهيم يمكن أن يوحدوا فى الغالب بمواطن المجموعة الآرامية التى تزوج منها إسحاق ويعقوب، وأن الأعراف الصحيحة الواضحة فى تقاليد البطارقة تظهر نفس لحمة النسب هذه، وبالمثل فإن كل التقاليد الميزوبوتامية البدوية تتجه إلى فلسطين[1]. هذا فضلا عن أن أسلاف أبناء يعقوب آراميون من جهة الأم، وهناك عبارة فى سفر التثنية تسمى أبا العبرانيين آراميا[2]. أضف إلى ذلك أن سفر التكوين ـ الذى يروى بدء التاريخ العبرى ـ مملوء بصيغ ومفردات آرامية[3]، بل إن أثر اللغة الآرامية لم يكن مقصوراً على سفر التكوين، وإنما امتد كذلك إلى أسفار عزرا[4]، ونحميا وأستير، وأسفار الأنبياء يونان وحجى وزكريا وملاخى[5] ودانيال[6]، فضلا عن سفر الجامعة وبعض المزامير التى أضيفت إلى مزامير داود[7]، إلى جانب آيات من سفر إرميا[8]، وأخيراً، وكما يظن، فإن أسلاف العبرانيين إنما كانوا يتكلمون الآرامية قبل دخولهم فلسطين وتحدثهم بالكنعانية[9].

ومنها (خامسًا) أن أسماء «سروج وتارح وناحور وهاران»، أسماء بابلية، مما يشير إلى ميزوبوتاميا كموطن لهم، هذا فضلا عن أن إبراهيم كانت له عشيرة، مما قد يشير إلى أنه بدوى أو نصف بدوى، وكان البدو الميزوبوتاميون يهبطون الدجلة فى الشتاء متجولين حتى «شط الحى» ـ على مقربة من أور ـ وليس يبعيد أن تكون عشيرة إبراهيم إنما كانت تفعل الشىء

---

(١) J. Gray, Israel in Near Eastern Mythology, N.Y., 1965, p. 104.

(٢) تثنية ٢٦ : ٥ (٣) تكوين ٣١ : ٤٧

(٤) انظر: سفر عزرا، من الإصحاح الرابع إلى السادس

(٥) محمد بدر: المرجع السابق ص٣٤

(٦) انظر: سفر دانيال: من الإصحاح الثانى إلى السادس.

(٧) محمد بدر: المرجع السابق ص٣٤ (٨) انظر إرميا ١٠ : ١١

(٩) نجيب ميخائيل المرجع السابق ص٣٢

نفسه[١]. وربما من هنا قد أتت الصلة بأور.

ومنها (سادسًا) أن بعض أسماء آباء إبراهيم وأسرته مثل «فالج وسروج وناحور وتارح»، والأمر كذلك بالنسبة إلى أسماء بعض المدن فى المنطقة. بل إن اسم «حاران» نفسها، قريب من اسم أخ لإبراهيم، وهناك مدينة أخرى باسم «ناحور» ورد ذكرها كثيراً فى آثار آشور ومارى (تل الحريرى)، هذا فضلا عن أن والد إبراهيم يسمى «تارح» - كما تدعوه التوراة - وقد اكتشفت اسم مدينة تعرف بـ «تل التوارحى» أو «التوارخى»، أما جده «سروج» فهناك مدينة بنفس الاسم إلى القرب من حاران، ومن هنا فإن وحدة الاسم قد تأتى مصادفة فى حالة شخص واحد، ولكن أن تكون متفقة فى أربعة أسماء على الأقل فى حيز محدود، فهذا شيء آخر[٢].

ومنها (سابعًا) أن «سير ليوناردو ولى» - وهو واحد من أشد المتحمسين للنظرية التى ترى فى أور موطنًا لإبراهيم - يرى أن أور وحاران هما مدينتا إله القمر، حيث يسود سلطانه الدينى فيهما. وأنه كان يعبد فى أور تحت اسم «نانار» Nannar، بينما عبد فى حاران تحت اسم «تارح»[٣]، فلو كانت أور هى الموطن الأصلى لإبراهيم لأخذ أبوه اسم الإله فيها، ولم يأخذ اسمه فى حاران، مما يدل على صلة القوم بحاران، وليس بأور.

وانطلاقًا من هذا كله، فإننا نوافق الرأى الذى يذهب إلى أن حاران - وليست أور - هى موطن إبراهيم.

---

(١) Historical Atlas of the Holy Land, N.Y., 1959, p. 52.

(٢) جون الدر: المرجع السابق ص٤٤-١٢٥؛ عباس العقاد: المرجع السابق ٦٨. وكذا:

The Westminester Historical Atlas to the Bible, philadelphia, 1946 p. 26-27

(٣) L. Woolley, Abraham, Recent Discoveries and Hebrew Origins, London, 1963 p. 27-117

وكذا: The Beginnings of Civilization, N.Y., 1956, p. 492

ومن الغريب المدهش أن بعض الكتاب المسلمين إنما يعتبرون حاران ـ مدينة هاران أخى إبراهيم، وأنها قد حملت اسمه[١]، والأمر كذلك بالنسبة لبعض الكتاب المحدثين ومنهم الذين رأوا فى حاران موطناً للخليل عليه السلام[٢].

هذا وقد ذهبت بعض آراء المؤرخين المسلمين[٣] إلى أن موطن الخليل ـ عليه السلام ـ إنما كانت فى «حوران» [٤] وإن ذهبت آراء أخرى إلى غير ذلك[٥] فقد روى ابن الأعرابى أن رجلا سأل الإمام علي بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وكرّم الله وجهه ـ فقال: أخبرنى يا أمير المؤمنين عن أصلكم معاشر قريش، قال: نحن قوم من كوثى، فقال قوم إنه أراد كوثى التى ولد بها إبراهيم، وتأولوا فى هذا قول الله ـ عزّ وجل ـ ﴿مِلَّةَ أبيكُم إبراهيم﴾[٦]، وسواء أصحت هذه الرواية أم داخلها التحريف، فإنها تشير دون شك إلى صلة قريش ـ أبناء إبراهيم ـ بكوثى فى العراق.

٤ ـ عصر الخليل عليه السلام:

لم يقتصر الخلاف بين العلماء على موطن الخليل عليه السلام ـ ونسبه، وإنما تعداه كذلك إلى عصره. فيرى «أونجر[٧]» أن الخليل إنما قد

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان ـ الجزء الثانى ـ ص٢٣٥ (بيروت ١٩٥٥).

(٢) محمد بدر: المرجع السابق ص٢٧.

(٣) تاريخ الطبرى ٢٢٣/١؛ محمد بن سعد، الطبقات الكبرى ـ الجزء الأول ص٢١ (دار التحرير ـ القاهرة ١٩٦٨).

(٤) حوران: هى حورانو فى الأشورية، وباشان فى التوراة، وأرانتيس فى آداب اليونان والرومان، وأن جبل الدروز يدخل الآن فى حوران. انظر D. D. Luckendill, ARAB, I, 1927, 672, 721

(٥) تاريخ الطبرى ٢٣٣/١، ابن الأثير ٩٤/١؛ أبا الفداء ١٣/١؛ ياقوت ٤٨٧/٤ـ٤٨٨؛ الريخ اليعقوبى ١٣/١؛ تاريخ ابن خلدون ٣٥/٢

(٦) البكرى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ـ ج ٤، ص١١٣٩ (القاهرة ١٩٥١).

(٧) M. F. Unger. cit, p. 10-14

عاش فى الفترة (١٢٦١-١٩٨٦ق.م) ثم يحاول بعد ذلك أن يضع تاريخًا محددًا لكل حدث من الأحداث فى حياة أبى الأنبياء، فيرى أنه إنما ولد فى عـام ١٢٦١ق.م على أيام الملك «أور ـ نامـو»[١] مؤسس أسرة أور الثالثة (٢٠٧٠-١٩٦٠ق.م)[٢] وأنه قد هزم الملوك الخمسة الذين أسروا ابن أخيه «لوط» عند «دان» ـ تل القاضى الحالية. على مبعدة ثلاثة أميال غربى «بانياس» قرب منابع الأردن[٣] ـ ثم طاردهم حتى مجاورات دمشق، حوالى عـــام ٢٠٧٠ق.م، ثم رزق بولدإسماعيل ـ جد العرب ـ حوالى عام ٢٠٧٦ق.م، وبولده إسحاق ـ جد اليهود ـ حوالى عام ٢٠٦١ق.م، وأن حادث الفداء الفذ، إنما كان فى عام ٢٠٢٦ق.م، ثم مات ـ عليه السلام ـ فى حوالى عام ١٩٨٦ق.م[٤].

ويرى «آرثر ويجال»[٥] أن إبراهيم خرج من مصر على أيام «أمنمحات الأول» وأن الإشارة إلى أن الأسيويين فى «نبوءة نفرتيتى[٦]»، إنما يقصد بها

(١) أور ـ نامو: وحكم فى الفترة (٢١١٣-٢٠٩٦ق.م) ـ على رأى بعض الباحثين ـ بعد أن ثار على «أوتو خيجال» ملك الوركاء مؤسسا أسرة أور الثالثة، وله عدة نقوش فى أور والوركاء ولارسا ونيبور، كما امتد نفوذه إلى المدن الأكدية شمال نيبور، ومن ثم فقد حمل لقب «ملك سومر وأكد» وازدهرت أور فى عهده إلى درجة كبيرة.

(٢) هناك من يذهب إلى أن حكم الأسرة إنما كان فى الفترة (٢١٣٥-٢٠٣٥ق.م)... وهكذا.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٣٧٥/١ وكذا: M. F. unger, op. cit, p. 239

(٤) M. F. unger, op. cit, p. 10-14

(٥) A. Weigall, A History if the Pharaohs, 2, London. 19122, p. 40

(٦) نبوءة نفرتى: كتب هذه البردية نفرتى ـ وهو كاهن مرتل من بوباستس (قرب الزقازيق) فى عهد الأسرة الثانية عشر ـ وربما فى عهد مؤسسها امنمحات الأول وإن نسبت إلى عهد «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، وتصف التبوءة حالة البلاد السيئة إبان عهد الثورة الإجتماعية الأولى، وتدفق الأسيويين على الدلتا وسيطرتهم عليها، ثم الإعلان عن الملك الجديد (أمنتحاب الأول) وكيف أنه سوف يخلص البلاد من الشرور ويطرد الأسيويين من الدلتا.

هذا والبردية محفوظة بمتحف، لينجراد، وقد عثر عليها «جولينشف» فى عام ١٩١٣، ثم قام بنشرها، وكذلك نشرها جاردنر وارمان وبرستد وويلسون وغيرهم . انظر:

=

هذا الحادث بعينه، فإذا تذكرنا أن أمنمحات الأول قد حكم مصر فى الفترة (١٩٩١-١٩٦٢ق.م)[1]، وأن الخليل ـ طبقًا لرواية التوراة[2] ـ كان فى الخامسة والسبعين من عمره، حين هاجر من حاران إلى كنعان، ثم من كنعان إلى مصر بعد فترة إقامة لا ندرى مداها على وجه التحقيق، فمعنى هذا أن الخليل ـ عليه السلام ـ قد ولد حوالى منتصف القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد.

وأما أطلس «وستمنستر» التاريخى، فيحدد عصر الخليل فيما بين عامى ٢٠٠٠، ١٧٠٠ق.م، وأن حمورابى قد أتى فى ختام هذه الفترة، على أساس أنه استطاع أن يستولى على «مارى» فى عام ١٧٠٠ق.م[3]، هذا فى الوقت الذى حددت فيه موسوعة «وستمنستر» ـ اعتماداً على تقدير الأسقف يوشر ـ مولد الخليل بعام ١٩٩٦ق.م[4].

وأما السير ليونارد وولى، فيرى أن أبا الأنبياء إنما كان معاصراً لعصر «لارسا» أعنى فيما بين عامى ١٩٢٠، ١٧٠٠ق.م مستشهداً فى ذلك بما دونه العهد القديم (التوراة)، وبتحقيق كلمة «عابيرو» التى يرى أنها قد استعملت فى ذلك للدلالة على العبرانيين[5].

ويرى «كيلر» أننا إذا تتبعنا التواريخ التى أعطتها التوراة، فإننا سوف نجد

=

A.H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 100-106; A. Erman, LAE, 1927, p. 100-100; J.A, Wilsin, ANET, 1966, p. 444-446; J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y. 1939, p. 200-206.

(١) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 196, p. 439.

(٢) تكوين ١٢ : ٤

(٣) Westminester Historical Atlas to the Bible, p. 234

(٤) عباس العقاد: المرجع السابق ص٦٩، قاموس الكتاب المقدس ١٢/١

(٥) L. Woolly, op. cit, p. 492, 612

أن إبراهيم قد ترك موطنه الأصلى فى حاران قبل خروج بنى إسرائيل من مصر بحوالى ٦٤٥ سنة، ثم تجولوا فى الصحراء فى اتجاه الأرض المقدسة تحت قيادة موسى - عليه السلام - فى القرن الثالث عشر ق.م. وهذا التاريخ قد تأكد بواسطة علم الآثار، ومن ثم فإن الخليل - طبقًا لذلك - يكون قد عاش حوالى عام ١٩٠٠ق.م(١).

وأما «جورج روكس»(٢) فيرى أن الرحلة التى قام بها إبراهيم الخليل إلى كنعان قد تمت حوالى عام ١٨٥٠ق.م، أو بعد ذلك بقليل، وهذا يعنى أن الخليل عليه السلام قد ولد فى الربع الأخير من القرن العشرين قبل الميلاد، ويحدد «جاك فنجان» عام ١٩٠٠ق.م، كتاريخ لدخول إبراهيم أرض كنعان، وأنه قد ترك ميزوبوتاميا فى عصر الغزو الآمورى والعيلامى(٣)، وأن الاضطرابات التى حدثت هى التى اضطرته إلى الرحيل من موطنه الأصلى(٤).

هذا إلى أن هناك من يعين تاريخ إبراهيم فى زمن متوسط بين أوائل القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ويجعلونه معاصراً لدولة الرعاة «الهكسوس» فى مصر(٥)، ودولة العموريين فى العراق، وأن

(١) W. Keller, The Bible As History, 1967, p. 69

(٢) Georges Roux, Ancient Iraq, (penguin Books), 1966, p. 215

(٣) تشير وثائق العراق القديم إلى أن البلاد قد تعرضت فى أخريات عهد «أبى - سين» (٢٠٢٩-٢٠٠٦ق.م) آخر ملوك أسرة أور الثالثة، لغزو عيلامى - منتهزاً فرصة ضغط الأموريين من الغرب - هاجم أرض سومر، وحاصر العاصمة أور، وانتهى الأمر بالإستيلاء عليها وتخريبها وأسر مليكها، وسقوط أسرة أور الثالثة، الأمر الذى عده السومريون كارثة عظمى انظر؛ محمد عبد اللطيف: المرجع السابق ص٣٢٣-٣٣١؛ وكذا:

W. Hinz, CAH, I, Part, II p. 658-q; The Sumerians, Chicago, 1970, p. 333

(٤) J. Finegan, Light from the Ancient Past, I, Princeton, 1968, p. 72-73.

(٥) انظر عن «الهكسوس» محمد بيومى مهران: دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم الجزء الثالث - حركات التحرير فى مصر القديمة، ص١٠٠-٢٢٣ (دار المعارف - القاهرة ١٩٧٦).

ولادة الخليل فى هذه الفترة ترجحها النتائج التى تمثلت فى سيرته، عليه السلام، وكلها دلائل على تنازع السيطرة، وتنازع العقائد، واضطراب الأمور، والاضطرار إلى الرحلة الدائمة من أور إلى آشور، وإلى فلسطين ثم مصر، فبيت المقدس، ثم إلى صحراء الجنوب، وتقترن زلازل الطبيعة وزلازل السياسة، فلا يستقر لأحد من المقيمين فى ديارهم قرار، فضلا عن القبائل الرحل فى طلب المرعى وطلب الآمان[١].

وهناك فريق من العلماء حاول الربط بين الخليل وبين حمورابى الملك البابلى المشهور، بصلة من نوع ما عن طريق «أمرافل» ملك «شنعار»[٢]. الذى هزمه إبراهيم عند محاولته إنقاذ ابن أخيه «لوط»، وهكذا رأى بعض الباحثين أن «أمرافل» الذى تقول عنه التوراة أنه «ملك شنعار فى تلك الأيام[٣]»، هو «أمربال» والد حمورابى الذى كان يجلس قبله على عرش بابل[٤].

على أن فريقًا آخر إنما يرى أن «أمرابل» الذى حارب إبراهيم الخليل، إنما هو حمورابى نفسه[٥]، أو على الأقل فيما يرى آخرون ـ ومنهم جاك فنجان[٦] وهربرت ويلز[٧] ـ أن أبا الأنبياء إنما كان يعيش فى نفس ذلك الوقت الذى كان يعيش فيه حمورابى فى بابل، بل إن أستاذنا الدكتور

---

(١) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٢) يرى شراح التوراة أن «شنعار» معاصر لإبراهيم (تك ١٤ : ١) وقد أخذ بعض اليهود فى السبى إلى هذه المنطقة (إشعياء ١١ : ١١، زكريا ٥ : ١١ وانظر: قاموس الكتاب المقدس ١/٥٢٥)

(٣) تكوين ١٤ : ١.

(٤) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثانى، ص ٢٣٤؛ وكذا:

W. M.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1927, p. 17.

(٥) S. Smith, Early, History of Assyria to 1000B.C., London, 1928, p. 70-71.

(٦) J. Finehan, op.cit., p. 73.

(٧) H.G. Wells, A Short History of the World, 1995, p. 74.

نجيب ميخائيل إنما يؤرخ هذه المرحلة بعام ١٩٦٠ق.م، وهى فيما يرى - تعاصر حمورابى، كما تعاصر كذلك «سنوسرت الأول» (من الأسرة الثانية عشرة المصرية)، ذلك لأن إبراهيم قد عاصر حمورابى، كما عاصر سنوسرت الأول ثامنمحات الثانى على التوالى[١].

وهناك فريق ثالث - ومنهم لوثر كلارك - يرى أن عصر حمورابى متأخر زمنيًا عن عصر الوقائع التى تنسب إلى «أمرافل» بمائة سنة أو أكثر، وأن أمرافل وحمورابى لا يدلان على شخص واحد، وأن الغور العميق الذى تملأه أمواج البحر الميت أقدم جداً من الوقت الذى قدر لخراب المدن المذكورة فى قصة إبراهيم[٢].

على أن هناك فريقًا من الباحثين إنما يحاول توحيد إبراهيم الخليل بـ «دمقى اليشو»، ذلك لأن «دويرتى» إنما يترجم اسم «دمقى اليشو» بحبيب الله، من «المقة» بمعنى الحب، و«الإيل» بمعنى الله وضمير الإضافة - ثم جاء «جون فلبى» فظن أن هذا الاسم يطابق فى الزمن والصفة اسم الخليل إبراهيم، وأن الخليل كان ملكًا من الملوك الذين حكموا جنوب العراق، عند الخليج العربى (الخليج الإسلامى)، ذلك لأن الأقوال متواترة بمقام الخليل هناك فى أور الكلدانيين، ولأن اسم «دمقى اليشو» ورد فى الآثار البابلية بين عدة ملوك يسمون بملوك الشاطئ، أو ملوك الأرض البحرية، وهو اصطلاح لهم يطلقونه على العرب من سكان تلك الجهات[٣]، وقد حدد «ديلابورت» لهذه الأسرة - أسرة أرض البحر (أو ملوك الأرض البحرية) - الفترة (١٩٣٥-١٧٦١ق.م)[٤].

---

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٩٦.

(٢) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ٦٤.

(٣) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ١٣٤ وكذا:

J.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947.

(٤) ل. ديلابورت، بلاد ما بين النهرين، ترجمة محرم كمال، ص ٧٤.

هذه هى مختلف آراء الكثير من العلماء والباحثين الذين تعرضوا لتاريخ أبى الأنبياء ـ سيدنا إبراهيم عليه السلام ـ وأنه لأمر جد صعب ـ كما يبدو بوضوح ـ أن نفضل رأيًا على آخر، وذلك لعدم وجود نصوص نطمئن إليها (أولاً)، ولعدم وجود آثار تشير بوضوح إلى تاريخ الخليل (ثانيًا)، وأما ثالث الأسباب فإنه يتصل بذلك الرأى الذى حدد ٦٤٥ عامًا، الفترة بين دخول إبراهيم كنعان، وخروج بنى إسرائيل من مصر، إذ أن هذا الرأى إنما اعتمد على نص التوراة العبرى، ولكننا ـ فى الوقت نفسه ـ لو أخذنا بنص التوراة السبعينى، فإن دخول إبراهيم إلى كنعان يجب أن يكون قبل الخروج بحوالى ٤٣٠ سنة، وليس ٦٤٥ سنة إذ يضيف هذا النص السبتاجونى كلمة واحدة تختزل فترة إقامة بنى إسرائيل فى مصر إلى النصف.

وأما الآراء التى حاولت الربط بين إبراهيم وحمورابى، فيقف فى طريقها ما استقر عليه العلماء الآن من أن حمورابى إنما كان يعيش فى الفترة (١٧٢٨-١٦٨٦ق.م) [1]، فلو افترضنا أن إبراهيم كان يعاصر حمورابى على الأقل، وطبقًا لنص التوراة ـ العبرى أو السبعينى ـ فإن مدة إقامة الإسرائيليين فى كنعان إنما كانت ٢١٥ سنة، وهذا يجعل تاريخ دخولهم إلى مصر فى حوالى عام ١٥١٣ق.م، وهو تاريخ يقع فى أخريات أيام الملك المصرى «تحوتمس الأول»(١٥٢٨-١٥١٠ق.م)، وبعد طرد

---

(١) فى الواقع أن هناك خلافًا كبيرًا بين العلماء حول التواريخ، وبخاصة فى الفترة فيما بين قبل الميلاد، وعلى سبيل المثال فإن تاريخ حمورابى (وهو الشخصية المشهورة) يبين لنا مدى الصعوبة فى التأريخ لهذه الفترات المبكرة وهكذا يقدم لنا العلماء هذه التواريخ لعصر حمورابى (١٨٤٨-١٨٠٦ق.م)، (١٧٩٢-١٧٥٠ق.م) (١٧٩١-١٧٤٩ق.م)، (١٧٤٢-١٦٨٦ق م)، (١٧٣٠-١٦٨٥ق.م) (١٧٢٤-١٨٦٢ق م)؛ انظر: محمد عبد القادر، الساميون فى العصور القديمة، ص٢٥١، القاهرة ١٨٦٨.

الهكسوس (حوالى عام ١٥٧٥ق.م)[1] من مصر، بأكثر من نصف قرن، والذين يفترض دخول الإسرائيليين مصر على أيامهم، هذا فضلا عن أنه على الرغم مما يذهب إليه بعض الباحثين من أن اسم أمرافل، قريب من اسم حمورابى، فإن الأمر مايزال مجال مناقشة واعتراض من جانب العلماء، كما أن اسم أمرافل هذا، لا يزال حتى الآن يصعب تعيين صاحبه، كما يصعب كذلك تعيين زملائه الآخرين الذين جاء ذكرهم فى سفر التكوين[2].

وأما الرأى الذى يوحد الخليل عليه السلام بذلك المدعو «دمقى اليشو»، وماذهب إليه «جون فلبى» من أن أبا الأنبياء كان ملكاً من الملوك، الأمر الذى لم يقل به كتاب من الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل والقرآن العظيم) - وهى دون شك مصادرنا الأصلية عن الخليل، عليه السلام، هذا فضلا عن أن الرأى الذى يجعل من حاران - وليس من أور - موطناً للخليل، والذى سبق أن ارتضيناه، إنما يقف عقبة كؤود فى سبيل قبولنا لهذه الفكرة، وأخيراً فإن هذه الفكرة نفسها إنما تجعل هجرة أبى الأنبياء بسبب استيلاء الكاشيين على بابل - أو حتى العيلاميين على أور - وليس من أجل دعوة التوحيد، التى حمل لواءها طوال حياته، ومن ثم فإنها تتعارض وما جاء فى القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم عليه السلام.

ولهذا كله، وانطلاقاً منه، فليس أمامنا سوى أن نفترض - حدساً عن

---

(١) ق.م (هول) ٥٧٥ق.م (نجيب،اردنر، عصفور)، ١٥٧ق.م (فخرى ويلسون)، ١٥٦٧ ق.م (هيز)، ما بين عامى ١٥٥٢ق.م (رد فورد): انظر كتابنا: حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٢٧-١٣٩، ٢١١.

(٢) يضع المؤرخون لذلك عدة تواريخ مختلفة، تتراوح فيما بين أعوام ١٥٨٠ (١٥٨٠ يوبوت، بدوى)، ١٥٧٨ ق.م (هول) ١٥٧٥ق.م (نجيب، جاردنر، عصفور)، ١٥٧٠ق.م (فخرى ويلسون)، ١٥٦٧ ق.م (هيز)، ما بين عامى ١٥٥٢، ١٥٤١) (ردفورد: انظر كتابنا: حركات التحرير فى مصر القديمة، ص ١٣٧-١٣٩، ٢١١.

(٣) تكوين ١٤: ١.

غيـر يقين ـ أن الرأى الذى يجعل إبراهيم الخليل يعيش حوالى عام ١٩٠٠ق.م، أقرب إلى الصواب من غيره، على أساس أن بنى إسرائيل قد خرجوا من مصر ـ أو طردوا منها ـ فى أخريات القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فى عصر الملك المصرى «مرنبتاح» (١٢٢٤-١٢١٤ق.م) ـ كما سوف تثبت فيما بعد ـ وأنهم دخلوا مصر على أيام الهكسوس، حوالى عام ١٦٥٠ق.م، ولما كانت مدة إقامتهم فى مصر ـ كما تحدد التوراة ـ ٤٣٠ سنة[١]، فإن قدوم إبراهيم إلى كنعان إنما كان حوالى ١٨٥٠ق.م، وعلى هذا ـ وطبقًا لرواية التوراة التى تجعل هجرة الخليل إلى كنعان وهو فى الخامسة والسبعين من عمره[٢] ـ فإنه يكون قد ولد حوالى عام ١٩٤٠ق.م، ولما كان قد عاش فى هذه الدنيا ١٧٥سنة[٣]. فإنه يكون قد عاش فى الفترة (١٩٤٠-١٧٦٥ق.م)، وإذا أخذنا ببعض الروايات الإسلامية التى تذهب إلى أنه بقى فى هذه الدنيا ٢٠٠ سنة[٤]، فإنه يكون قد عاش فى الفترة (١٩٤٠-١٧٤٠ق.م).

وانطلاقًا من هذا، وتخرجًا منه، فإن إسماعيل عليه السلام قد عاش فى الفترة (١٨٥٤-١٧١٧ق.م) لأن الخليل قد رزق به وهو فى السادسة والثمانين من عمره[٥]، وأنه قد عاش ١٣٧ عامًا[٦]، وأن إسحاق قد عاش فى الفترة (١٨٤٠-١٦٦٠ق.م)، وذلك لأن أبا الأنبياء قد رزق وقد أكمل المائة من عمره[٧] وأنه عاش ١٨٠ عامًا[٨]، وأن يعقوب قد عاش فى الفترة

---

(١) خروج ١٢: ٤٠.
(٢) تكوين ١٢: ٤٠.
(٣) تكوين ٢٥: ٧.
(٤) تذهب بعض الروايات الإسلامية أنه عاش ١٧٥، أو ٢٠٠ سنة (انظر: ابن كثير، البداية والنهاية ٥٦/١-٥٧؛ المقدسى، البدء والتأريخ ٥٣/٣).
(٥) تكوين ١٦: ١٦.
(٦) تكوين ٢٥: ١٨.
(٧) تكوين ١٧: ١٧.
(٨) تكوين ٣٥: ١٨.

(١٧٨٠-١٦٣٣ق.م) على أساس أنه قد ولد لإسحاق، وهو فى الستين من عمره[١]، وأنه عاش «مائة وسبعًا وأربعين سنة[٢]»، وأن الإسرائيليين قد دخلوا مصر حوالى عام ١٦٥٠ق.م، حين كان يعقوب فى الثلاثين بعد المائة من عمره[٣].

وهكذا نستطيع أن نستنتج من ذلك كله أن أبا الأنبياء - إبراهيم الخليل عليه السلام - قد دخل مصر على أيام الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م) وربما فى عصر «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨-١٨٤٣ق.م[٤]) وأن الإسرائيليين قد دخلوا مصر على أيام الهكسوس (١٧٢٥-١٥٧٥ق.م).

٥ - هجرات الخليل عليه السلام:

يروى سفر التكوين أن هجرة إبراهيم بدأت من أور الكلدانيين[٥]، على اعتبار أنها الموطن الأصلى له - وهو أمر سبق أن ناقشناه وخلصنا منه إلى أن حاران - وليست أور - هى الموطن الأصلى لأبى الأنبياء، عليه السلام.

وعلى أى حال، فإن التوراة تنسب هذه الهجرة إلى «تارح» أبى إبراهيم نفسه كما أنها تجعل كنعان هدف الرحلة من أور، وأن حاران لم تكن أكثر من محطة وقوف يستريح فيها المهاجرون أيامًا أو سنين عددًا.

هذا ويرجع بعض الباحثين أسباب هذه الهجرة إلى أن «أور» إنما كانت فى زمن إبراهيم قد فقدت شهرتها وطغت عليها «بابل»، فبارت تجارتها، ورسب الطين فى مرفئيها، وباتت الحياة فيها قلقة غير مستقرة، مما حمل أهلها على مغادرتها والارتحال شمالا، ومن هنا رحل إبراهيم من أور

---

(١) تكوين ٢٥ : ٢٦.
(٢) تكوين ٤٧ : ٢٨.
(٣) تكوين ٤٧ : ٩.
(٤) A. Gardiner, op cit., p. 439.
(٥) تكوين ١١ : ٣١.

إلى حاران[١]، وتقول تعليقات «ابنجدون» أنه ربما كان من أسباب هذه الهجرة اضطراب سياسى فى جنوب العراق، أصابت جرائره معيشة أهل أور، فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة فى مدينة أور[٢].

ويرى أستاذنا الدكتور رشيد الناضورى أن هجرة إبراهيم عليه السلام، تتصل اتصالا وثيقًا بالأحداث التاريخية التى كانت سائدة فى جنوب بلاد الرافدين فى بداية الألف الثانى قبل الميلاد، حيث كان عصر الاحتلال الأمورى والعيلامى _ أو كما يطلق عليه عصر إيسين ولارسا، وهو المرحلة التاريخية التى حدثت أثناءها عدة تحركات بشرية، مثل تحركات العناصر العيلامية من «سوسة» بعيلام، وتحركات العناصر الآمورية من سورية بحذاء نهر الفرات، مما أدى إلى ازدياد ظاهرة الصراع السياسى والحضارى بين حكومات المدن السومرية والآكدية وتلك العناصر الوافدة، وكان ذلك من الأسباب المباشرة التى أدت إلى هجرة إبراهيم عليه السلام وجماعته إلى حاران[٣].

وهكذا ترجع هجرة الخليل _ فى نظر بعض العلماء _ إلى الأسباب الاقتصادية والسياسية فى نفس الوقت، كما أنها من أور، ولم تكن من حاران، هذا فضلا عن الغزو العيلامى الذى أنهى حكم الملك السومرى «إيبى _ سين» (٢٠٢٩-٢٠٠٦ق.م)، آخر ملوك أسرة أور الثالثة [٤]، إنما كان واحداً من أسباب هذه الهجرة.

وليس هناك من شك فى أهمية الأسباب السياسية والاقتصادية فى

---

(١) حبيب سعيد، المرجع السابق، ص ٨.

(٢) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ٦٢.

(٣) رشيد الناضورى، المدخل فى التطور التاريخى للفكر الدينى، ص ١٧٣-١٧٤، (بيروت ١٩٦٩)

(٤) محمد عبد اللطيف، تاريخ العراق القديم، ص ٣٢٣-٣٣١، (الإسكندرية ١٩٧٧) وكذا:

S. N. Kramer, The Sumeriens (Chicago and London, 1970), p. 333; W. Hinz, Persia, 2400-1800 B.C., in CAH, I, Part II, Cambridge, 1971, p. 658-9.

الهجرات بصفة عامة، غير أن الأمر بالنسبة إلى هجرة أبى الأنبياء، إنما هو جد مختلف، وهنا فعلينا أن نتذكر ـ بادئ ذى بدء ـ أن إبراهيم الخليل لم يكن ملكاً من الملوك وإنما كان رسولا نبيًا، هذا فضلا عن هجرة رجل بأسرته، لا تعنى فى كل الأحوال اضطراب الأمور فى البلد الذى هاجر منه، إلا إذا كانت هناك هجرة جماعية من هذا البلد.

ومن ثم فالرأى عندى أن هجرة إبراهيم عليه السلام، لم تكن لأسباب سياسية أو اقتصادية، وإنما كانت لأسباب دينية، كانت هجرة نبىٌّ يرى أن يبشِّر بدعوة التوحيد فى مكان آخر، غير هذه الأرض التى لم تتقبل دعوته بقبول حسن.

ويقص علينا كتاب الله الكريم، كيف بدأ إبراهيم دعوته مع أبيه بلهجة تسيل أدباً ورقة، يهديه بها صراطاً مستقيماً، فأشار إلى الأصنام مبيناً أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا ترى، ولا تشعر بعابد يعبدها أو عاص يعصاها، ثم بين لأبيه أنه ليس مخترعًا للدعوة، وأنها من لدن علىٍّ قديرٍ، وأنه قد تلقى من العلم ما لم يتلق أبوه، وأنه لا ضرر عليه إذا اتبع ملة ولده أو عمل برأيه، واختتم نصحه برجاء تقدم به إلى والده، أن يحذو حذوه، ويسلك سبيله، وإلا فالطريق التى يسلكها غير طريق الهدى، هى طريق ملأى بالأشواك، وهى طريق الشيطان الرجيم[١].

ولكن أباه رفض الدعوة، بل وهدَّده إن لم ينته عن دعوته هذه ليرجمنَّه وليهجرنه مليًا، وكان آزر فى ذلك مغمضًا عينيه عن اعتبارات النبُوة، متجاهلا إياها، فاستنكر النصيحة، وسفَّه الرأى وسخَر من الشرْعة الجديدة، فما كان من الخليل ـ تأدباً مع أبيه وحدباً عليه ـ إلا أن يدعَو لَه بالمغفرة، وأن ينتظر إجابة دعوته إلى حين.

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة مريم: ﴿واذْكرْ فى الكِتَابِ إبْرَاهيمَ

(١) محمد حسنى عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٣١.

إِنَّهُ كانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾(١)

وهذا يدل بوضوح على أن هناك بين إبراهيم وأبيه خلافًا عميق الجذور، تأدى بالوالد أن يأمر ابنه بالهجرة، حيث لا أمل فى اتفاق، ولكن سرعان ما تتأزم الأمور بين الخليل وقومه إلى الحد الذى لا يجد القوم مخرجًا منه، إلا أن يلقوا بإبراهيم فى نار أوقدوها لإحراقه، وهنا يفقد إبراهيم الأمل فى إيمان القوم، فيقرر الهجرة ﴿وقالَ إِنِّى ذاهبٌ إلى ربِّى سيهدين﴾(٢)

ولم يجد إبراهيم من بين القوم من يؤمن به إلا ابن أخيه لوط، يقول سبحانه وتعالى ﴿فآمنَ له لوطٌ وقال إِنِّى مهاجرٌ إلى ربِّى إنه هو العزيز الحكيمُ﴾ (٣)

ويكتب الله ـ جلَّ وعلا ـ لخليله عليه السلام ـ وكذا لابن أخيه لوط ـ النجاة من القوم الكافرين، بعد أن أعدوا العدة لإحراقه، ﴿قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتَكُم إنْ كُنتُم فاعلينَ، قلنَا يا نارُ كُونى بردًا وسلامًا على إبراهيمَ، وأرادوا به كَيْدًا فجعلناهم الأَخسرينَ، ونجَّيناهُ ولوطًا إلى الأرض التى باركْنَا فيهَا للعالَمين﴾(٤).

(١) سورة مريم، آية: ٤١-٤٨؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٤١٤٩-٤١٥٢.

(٢) سورة الصافات، آية: ٩٩؛ وانظر: تفسير ابن كثير، ٢٢/٧-٢٣؛ تفسير القرطبى، ص٥٥٤١-٥٥٤٣.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٢٦؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٥٠٥٥-٥٠٥٦.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٦٨-٧١؛ وانظر: تفسير البيضاوى، ٧٦/٢-٧٧؛ تفسير القرطبى، ص ٤٣٤٣-٤٣٤٥ (دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠).

وليس فى هذه الآيات الكريمة ما يشير إلى هجرة أبى إبراهيم معه، ولو آمن أبوه به ثم هاجر معه، لكان ذلك حدثًا هامًا جديرًا بالتنصيص عليه، تكريماً له ولإبراهيم فى نفس الوقت، ولم يكن ابن أخيه لوط أقرب إليه من أبيه حتى ينال وحده شرف الهجرة ومثوبة التوحيد[1].

بل إن القرآن الكريم يشير بصراحة ووضوح إلى أن إبراهيم إنما قد تبرأ من أبيه، بعد ما تبين له أنه عدو لله، ﴿وما كانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاه، فلمَّا تبيَّنَ له أنه عدوٌ لله تبرأَ منه إنَّ إبراهيمَ لأواه حليمٌ﴾[2] هذا فضلا عن أن القرآن الكريم إنَّما قد أمر المسلمين أن يقتدوا بإبراهيم والذين معه، إلا في استغفاره لأبيه، يقول سبحانه وتعالى ﴿قدْ كانت لَكُمْ أسوةٌ حسنةٌ فى إبراهيمَ والَّذينَ معه إذْ قالوا لقومهم إنَّا برءآؤا منكُم وممَّا تعبدُونَ منْ دونِ الله، كفرنَا بكُم وبدَا بيننا وبينكُمُ العَداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تؤمنوا بالله وحدهُ، إلا قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستَغْفرنَّ لَكَ وما أملكُ لَكَ منَ الله شيئًا، ربَّنَا عليكَ توكلْنَا وإليكَ أنبْنَا وإلَيْكَ المصيرُ﴾[3]

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أمرين ـ يختلف القرآن فيهما عن التوراة ـ الواحد، أن أبا إبراهيم لم يهاجر أبداً مع النبىّ الكريم ـ فضلا عن عدم الإيمان به ـ والآخر، أن الهجرة إنما كانت ﴿إلى الأرضِ التى باركنا فيها للعالمين﴾، وليست هذه الأرض بحال من الأحوال «حاران»

---

(١) محمود محمد عمارة، اليهود فى الكتب المقدسة، ص ١٢-١٣ (القاهرة، ١٩٦٩).

(٢) سورة التوبة، آية: ١١٤؛ وانظر: تفسير الطبرى، ٥١١/١٤-٥٣٦ (دار المعارف، القاهرة ١٩٥٨)، تفسير القرطبى، ص ٣١١٥-٣١١٥؛ تفسير ابن كثير ١٥٨/٤-١٦٠؛ تفسير المنار، ٤٥/١١-٤٩؛ مسند الإمام أحمد ١١٦/٢ (طبعة دار المعارف).

(٣) سورة الممتحنة، آية: ٤؛ وانظر: تفسير الفخر الرازى (٣٠٠/٢٩-٣٠١؛ تفسير الألوسى ٦٩/٢٨-٧٣؛ تفسير الطبرى، ٦٢/٢٨-٦٣؛ تفسير الطبرسى ٤٧/٢٨-٤٩؛ تفسير الزمخشرى، ٩٠/٤ «تفسير القاسمى» ٥٧٦٥/١٦-٥٧٦٦؛ تفسير القرطبى ص ٦٥٣٥، تفسير ابن كثير ١١٣/٨.

(حران)[١]، وإنما هي موضع خلاف بين المفسرين، فيما بين مكة المكرمة وبيت المقدس ومصر[٢]، وكلها أماكن حط الخليل رحاله فيها بعد هجرته من حاران، فإذا تذكرنا أن موطن الخليل كان في حاران، لتبين لنا بوضوح أن هجرة أبي الأنبياء هذه، إنما كانت من حاران إلى كنعان فمصر فالحجاز فكنعان مرة أخرى، ومن ثم فلا صلة لهذه الهجرة بأور، التي في منطقة الفرات الأدنى.

وعلى أي حال، فإننا نستطيع القول أن هجرة إبراهيم لم تكن لأسباب سياسية أو اقتصادية، وإنما كانت لأسباب دينية تتصل بدعوة التوحيد التي حمل لواءها جدنا الأكبر، أبو الأنبياء إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بخاصة، وأن حاران كانت أثناء هذه الهجرة (حوالي عام ١٨٦٥ق.م)، وطوال القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، مدينة مزدهرة، وتقع على طريق التجارة القادمة إليها من الشرق والغرب، أضف إلى ذلك أن الخليل إنما كان يقيم المحاريب لله العليّ القدير ـ كما سنرى ـ مما يدل على أن الأسباب الدينية لعبت دوراً هاماً في هجرته.

ولعل من الغريب أن التوراة لم تشر إلى الأسباب الحقيقية لهجرات الخليل عليه السلام، أو كما يقول «شاهين مكاريوس»[٣] أن التوراة لم تأت على السبب الصريح لمهاجرة إبراهيم أرض آبائه، وإنما يؤخذ مما جاء فيها من مواضع متفرقة أنه فضل ذلك كي يعبد الله عملا بما أنزل عليه من الوحي، وهذا يطابق ما جاء في القرآن من أنه إنما غادر أهله وبلاده لأنهم كانوا

---

(١) ذهب «كعب الأحبار» (وكان يهودياً فأسلم) إلى أنها «حران» ـ وهو في هذا إنما يتبع رواية التوراة.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ص ٤٣٤٥؛ تفسير البيضاوي، ٧٦/٢-٧٧؛ ابن كثير، قصص الأنبياء ـ الجزء الأول ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد، ص ١٩١-١٩٢ (دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٨)

(٣) شاهين مكاريوس، تاريخ الأمة الإسرائيلية، دار المقتطف، القاهرة، ١٩٠٤، ص ١٥.

عبدة أصنام، وكان يعبد الله فخاصمهم وارتحل عنهم إلى حيث يبيت فى مأمن منهم وحيث تتسنى له عبادة الحق دون معارضة أو خصام.

وأيا ما كان الأمر، فإن الرحلة قد بدأت إلى كنعان، ولا تشير التوراة ـ من قريب أو بعيد ـ إلى أماكن حط الخليل فيها وركبه رحالهم أثناء هجرتهم هذه حتى وصلوا إلى «شكيم» ـ والتى يحتمل أنها تل بلاطة شرق نابلس الحالية ـ وإن كان المؤرخ اليهودى المشهور «يوسف بن متى»[1] يذهب إلى أن إبراهيم كان ملكا فى دمشق، وأن «نقولا» الدمشقى يقول فى الكتاب الرابع من تاريخه إن «ابراميس» (إبراهيم) حكم فى دمشق، وكان مغيراً قدم من أرض بابل من البلاد التى تسمى بلاد الكلدانيين، ولم يمض عليه زمن طويل حتى هجرها وقومه إلى كنعان[2].

وليس لدينا من دليل على هذه الرواية من الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل والقرآن العظيم)، وإن ورد فى التوراة اسم «اليعاذر الدمشقى» ـ وهو وكيل بيت إبراهيم ـ وإن أشار المؤرخون المسلمون إلى رواية ابن عباس من أن إبراهيم قد ولد بغوطة دمشق، فى قرية يقال لها «برزة» فى جبل يقال له

(١) ولد يوسف بن متى أو «يوسفيوس فيلافيوس» فى أورشليم عام ٣٧م، وتوفى فى روما عام ٩٨ (أو ١٠٠م)، وكان قد أرسلته المحكمة اليهودية العليا (السنهدرين) إلى روما عام ٦٤م للدفاع عن الأحبار الذين سجنهم المفوض الرومانى، ثم عاد إلى القدس بعد أن نجح فى مهمته واشترك فى ثورة ضد الرومان انتهت بأسره، إلا أن القائد الرومانى «فسباسيان» أنقذه، ثم صحب ابنه «تيتوس» إلى القدس، ثم عاد إلى روما حيث حمل اسم «فلافيوس» باعتباره عبداً حرره سيده فسباسيان، ثم منح حقوق المواطن الرومانى.

وهناك فى روما كتب كتبه المعروفة، وأشهرها «آثار اليهود» Antiquities of the Jews و«الحروب اليهودية The Jewish Wars فى سبعة أجزاء بالآرامية وقد ترجمت إلى اليونانية، ثم كتب «تاريخ اليهود القديم» فى عشرين جزءاً منذ بدء الخليقة وحتى عام ٦٦م (انظر: سبينوزا: رسالة فى اللاهوت والسياسة، القاهرة ١٩٧١، ص ١٦٧، فيليب حتى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ١، ص ٣٥٢-٣٥٣؛ وكذا: Encyclopaedia Biblica II, p. 153.

وكذا: Harvey, The Oxfrod Companion to Classical Literature, p. 228.

(٢) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ٩٧؛ حبيب سعيد، المرجع السابق، ص ١٥.

«قاسيون» وإن ذهب الحافظ ابن عساكر إلى أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام[1]. وكل ذلك يدل على أن هناك علاقة ما بين إبراهيم ودمشق - وإن كانت وصلت إلينا من مصادر متأخرة - وعلى أى حال، فإن إبراهيم قد اختار - طبقاً لرواية التوراة[2] - فى ريادته الأولى لأرض كنعان الطريق الشاق والموحش، إذ كان متجولا فوق التلال نحو الجنوب ولعل السبب فى ذلك أن حواف البلاد المليئة بالأشجار إنما تقدم للغريب ملجأ وملاذاً فى الأرض الأجنبية عنه، بينما هى تقدم الخلاء الواسع المرعى بكثرة لقطعانه ورعاته، وعندما أراد الخليل عليه السلام أن يستقر فى بادئ الأمر، إنما فضّل أن يكون ذلك فوق هضبة، ذلك لأنه - بأقواسه ومقاليعه - لم يكن فى حالة تمكنه من أن يخاطر بالصدام مع الكنعانيين، الذين كانوا - بسيوفهم وحرابهم - أكبر من ند له، ولم يكن إبراهيم بعد مستعداً للمغامرة بعيداً عن الهضاب[3].

وأياً كان الأمر، فقد نزل إبراهيم عند «شكيم» فى مكان «بلوطة مورة» بين جبل عيبال وجرزيم، وهناك بنى مذبحاً للربّ - أو قل مكاناً لعبادة الإله الواحد الأحد - وقد ظلت تلك الشجرة (البلوطة) أجيالا طويلة موضع التوقير، وربما تحرش الكنعانيون بالخليل عليه السلام، ومن ثم فقد كان ينتقل من مكان لآخر، فانتقل أولا إلى المنطقة الجبلية بين بيت إيل - وتقع على مبعدة ١٢ ميلا إلى الشمال من أورشليم - و«عاى» - وتوحد بالتل على مبعدة ١٢ ميلا إلى الشمال الغربى من أريحا - فيضرب خيامه هناك، ويقيم مذبحاً للربّ، ثم يرتحل ارتحالا متوالياً نحو الجنوب[4].

---

(١) الإمام أبو الفدا إسماعيل بن كثير، قصص الأنبياء، الجزء الأول، ص ١٦٨، القاهرة ١٩٦٨، البداية والنهاية فى التاريخ، الجزء الأول، ص ١٤٠ (بيروت ١٩٦٥).

(٢) تكوين ١٢ : ٦-٩

(٣) M.F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 10.

(٤) تكوين ١٢ : ٦-٩؛ تثنية ١١ : ٣٠؛ قضاة ٩ : ٧؛ قاموس الكتاب المقدس ١/٥١٤، ٢/٥٩١ (بيروت ١٩٦٤، ١٩٦٧) وكذا: M. Unger, op.cit., p. 10, 139.

٦ - الرحلة إلى مصر:

يقيم أبو الأنبياء - ما شاء الله له أن يقيم - فى كنعان، ثم يرحل عنها صوب أرض النيل الطيبة، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان، ومصر كانت - دائماً وأبداً للبدو الكنعانيين - وبخاصة فى أوقات القحط، ملاذهم، وغالباً منقذهم الوحيد، فحينما كانت الأرض تجف فى أوطانهم، كانت أرض الكنانة الطيبة تقدم لهم المرعى والمأوى، وكان النيل بفيضانه المنتظم يتعهد بذلك[١].

وهكذا تروى التوراة أن الخليل عليه السلام، قد أقبل من حيث كان يقيم فى فلسطين على مصر، يطلب فيها الشبع والرى من بلاد ضربها القحط والجفاف، وعندما أشرف على التخوم المصرية - وطبقًا لرواية سفر التكوين من التوراة - فإنه قد اتفق مع «سارة» زوجه، على أن تقول أنها أخته، وليست زوجته، ذلك لأن المصريين إن علموا أنها زوجه قتلوه، وأما إن كانت أخته فمن أجلها أكرموه.

وحدث ما توقعه إبراهيم، وبرت سارة بوعدها، وأخذت إلى بيت فرعون ونال إبراهيم خيراً بسببها، إذ أسبغ فرعون عليه بسببها وافر نعمه، من غنم وبقر وحمير وإماء وأتن وجمال، إلا أن المصائب سرعان ما توالت على فرعون وبيته، مما اضطره إلى أن يستدعى إبراهيم ويؤنبه على فعلته هذه، وطبقًا لرواية التوراة، فقد خاطبه قائلا: «لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك، لماذا قلت إنها أختى حتى أخذتها لتكون لى زوجة، ثم سرعان ما يصدر فرعون أمره بطرد إبراهيم وامرأته من مصر، وإن سمح له بأن يأخذ ما كان قد أعطاه إياه من قبل[٢]»

---

(١) تكوين ١٢: ١٠؛ وكذا: W. Keller, op cit., p. 87.

(٢) تكوين ١٢: ١٠-٢٠

ويعلم الله ـ وتشهد ملائكته ـ إن نفسى تتأفف من مجرد التعليق على هذه الفرية الدنيئة التى يلصقها كاتب التوراة بأبى الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فتلك فعلة لا يقبلها على نفسه أحط الناس خلقاً، فضلا عن أن يكون ذلك نبىٌّ الله وخليله العظيم، ومع ذلك فإنِّى مضطر إلى مناقشتها، والمضطر قد يركب الصعب من الأمور.

ولعل أهم ما يوجه إلى هذه الرواية الكذوب من نقد، إنما يتلخص فى نقاط منها (أولاً) أن التوراة نفسها إنما تحدثنا أن الخليل قد جاء إلى كنعان وهو فى الخامسة والسبعين من عمره، وأن سارة إنما كانت فى الخامسة والستين[١]، وأنهما أقاما فى أرض كنعان ـ ما شاء الله لهما أن يقيما ـ ثم هاجرا إلى مصر، فهل كانت سارة ـ وقد جاوزت السبعين من عمرها بسنين عدداً ـ تفتن الرجال، فضلا عن أن يرى ملوك مصر المترفين أنها من آرابهم؟

ومنها (ثانيًا) أن التاريخ ما حدثنا أن ملوك مصر كانوا يأخذون النساء من أهليهم غصبًا، ولكنه حدثنا أن عقوبة الزنا كانت عندهم من أقسى العقوبات وأشدها ضراوة، حيث كان يكتب على الزانى والزانية ـ كما جاء فى بردية وستكار ـ الموت. غرقًا أو حرقًا، ففى روايتها عن علاقة شاب بامرأة كاهن، أن الشاب قد افترسه تمساح من صنع الكاهن نفسه، وأن المرأة اللعوب إنما قد اقتيدت إلى ساحة فى شمالى القصر، حيث أُحرقت علناً، وألقى رمادها فى النهر[٢]، ولعل ذلك إنما كان عقاب الزانية المحصنة.

ومنها (ثالثًا) أن الخليل عليه السلام، ربما كان يعرف من اللغة المصرية القديمة ـ بحكم انتشارها فى البلاد التى قدم منها ـ طائفة من

---

(١) تكوين ١٢ : ٤، ١٧ : ١٧.

(٢) سليم حسن، الأدب المصرى، القديم، الجزء الأول، ص ٧٧-٧٩ (القاهرة، ١٩٤٥)، وكذا:

G. Letebvre, Romans et Contes Egyptiens de L' Epoque, Paris, 1949, p. 70-77.

عباراتها وألفاظها تعينه على شئونه فى مصر، حين أقبل عليها، فإذا كان ذلك صحيحًا - وهذا مجرد افتراض، لا يصل إلى حد اليقين - فإ الخليل عليه السلام لم يحرج على مألوف المصريين فيما كانوا به يتحدثون، فقد كانوا يطلقون على الزوجة فى لغتهم - فضلا عن لفظ المرأة حمة وست حمة - لفظ «الأخت» (سونة = ولعلها تشبه اللفظ العبرى «صنو»)، وكان ذلك نوعًا من التعبير عن المحبة والإعزاز، وما ندرى لعل إبراهيم حين أقبل على مصر، فلقى الناس قد آثروا التورية والتعريض فوصف زوجته سارة على مألوفهم بأنها «سونة» بمعنى الزوجة أو الأخت، حيث وقع أو أوقع فى روع المصريين بلكنته الأجنبية، وما عسى أن رأوا من معاملته لسارة إنما قصد المعنى الأصلى للفظ الأخت، لا إلى المعنى المجازى له[1].

ولعل هذا الاتجاه فى تفسير القصة إنما هو قريب مما ذهب إليه مفسرو الإسلام، حين حرصوا على نفى الكذب عن أنبياء الله وتنزيههم عن الوقوع فيه، وقالوا إن الكذب حرام إلا إذا عرض، ومن أمثلة العرب قولهم: إنّ فى المعاريضِ لمندوحة عن الكذب[2].

هذا ويفسر ابن كثير قول إبراهيم بأنها «أخته» أى فى دين الله، وأما قوله - كما فى حديث البخارى وأحمد - إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك»، فيعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك»، ويتعين حمله على ذلك لأن لوطًا - عليه السلام - كان معهم، وهو نبى[3].

ومنها (رابعًا) أنه ليس صحيحًا أن ملك مصر قد منح إبراهيم جمالا،

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف، مصر فى القرآن والسُّنة، ص ٢٩-٣٠ (دار المعارف، مجموعة اقرأ، القاهرة، ١٩٧٣).

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٩.

(٣) ابن كثير، قصص الأنبياء، الجزء الأول، ص ١٩٣-١٩٨؛ وانظر: صحيح البخارى، ١٧١/٤ (طبعة دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٨هـ).

ذلك لأن الجمال وقت ذاك، إنما ظلت على التحقيق غريبة على المصريين، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر يومئذ من قبائل الساميين، فلقد أقبلت قبيلة «أبشاى» أو قافلته، تسوق الحمير لا الجمال، كما لم ترد فيما نقش على صخور سيناء في ذلك العهد صور للجمال[١]، بل إن استعمال الجمال في هذه المنطقة لم يعرف إلا في أخريات القرن الثالث قبل الميلاد، وربما بعد ذلك[٢].

ومنها (خامسًا) ذلك الاستعمال الخطأ للقب «فرعون» في التوراة، إذ أنه من المعروف تاريخيًا أن كلمة «فرعون» في صيغتها المصرية القديمة «بر ـ عو» أو «بر ـ عا» والتي تعني ـ بادئ ذي بدء ـ «البيت العالي» أو «البيت العظيم»[٣]، وهي طريقة من بين الطرائق الكثيرة التي كانت تشير إلى القصر الملكي وليس إلى ساكنه ـ ثم حدث خلال عصر «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) أن الاصطلاح «بر ـ عو» أو «فرعون»، إنما بدئ في اطلاقه على الملك نفسه، وانطلاقًا من هذا، فإن اطلاق كلمة أو لقب «فرعون» على ملك مصر قبل عصر تحوتمس الثالث إنما يعد خطأ في تسلسل تواريخ الأحداث[٤]، حيث أصبحت لفظة «فرعون» تعبيرًا محترمًا يقصد به الملك نفسه منذ هذه الفترة من عصر الأسرة الثامنة عشرة[٥] (١٥٧٥- ١٣٠٨ق.م)

وعلى أي حال، فإن استعمال لقب فرعون، إنما يبدو مؤكدًا منذ أيام «أخناتون» (١٣٦٧-١٣٥٠ق.م)، حيث يشير «سير ألن جاردنر» ـ العالم

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص ١٢-١٣.

(٣) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، ج١، ص ٣٠-٣١، (القاهرة، ١٩٦٢)

(٤) Sir Alan Garidner , Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 52.

(٥) John A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 102.

الحجة فى اللغة المصرية القديمة ـ إلى أن هناك خطابًا من عهد إخناتون استعمل فيه لقب فرعون بالنسبة إلى ملك مصر (أى اخناتون)، ثم سرعان ما أصبح لقب فرعون منذ عهد الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨-١١٩٤ق.م) وما بعدها يستعمل فى بعض الأحيان كمرادف لكلمة «جلالته»، ومن هذا الوقت أصبحنا نقرأ: «خروج فرعون» و«قال فرعون»،... وهكذا[١].

وهكذا يبدو واضحًا أن استعمال التوراة للفظة «فرعون» فى قصة الخليل وكذا فى قصة الصديق، ـ عليهما السلام ـ إنما هو خطأ تاريخى[٢]. والأمر غير ذلك تمامًا بالنسبة إلى القرآن الكريم الذى حرص فى سرده لقصة يوسف الصديق عليه السلام ـ والذى عاش على أيام الهكسوس (حوالى عام ١٧٢٥-١٥٧٥ق.م)[٣]، كما سوف نرى فيما بعد ـ على أن يلقب حاكم مصر الذى عاصر النبىّ الكريم «بالملك[٤]»، بينما حرص على أن يلقب الملك الذى عاصر موسى عليه السلام بـ «الفرعون»[٥].

ومنها (سادسًا) أن الهدف من الهجرة ـ كما يقول المؤرخ اليهودى يوسف بن متى ـ أن الخليل عليه السلام قد اعتزم أن يصيب من خيرات مصر، وأن يسمع ما يقوله رجال الدين فيها فى أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفى نفسه إذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده (؟) أن يتقبله، أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم (وهذا هو الصحيح فيما نؤمن به ونعتقد فيه)

---

(١) A. Gardiner, Egyptian Grammer, Oxford, 1966, d. 75.

(٢) تكوين ١٢: ١٠-٢٠؛ ٣٩: ١؛ ٤٠: ٢-٢١، ٤١: ١-١٤، ٤٢: ١٥، ٤٧: ١-٢٦، ٥٠: ٤-٧.

(٣) انظر الآراء المختلفة عن عصر الهكسوس، كتابنا «حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٣٧-١٣٩، ٢١١).

(٤) انظر: سورة يوسف، آية: ٤٣، ٥٤.

(٥) انظر: سورة البقرة ٤٩-٥٠؛ آل عمران ١١؛ الأعراف، ١٠٣- ١٠٤، ١٠٩، ١١٣، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٧، ١٤١، الأنفال: ٥٢، هود: ٩٧؛ الإسراء ١٠١؛ طه ٢٤، ٤٣، ٦٠، ٧٨، ٧٩،... وهكذا.

فيدعوهم إليها، هذا فضلاً عن دوره فى الإصلاح بين الكهنة، ذلك أن إبراهيم قد رأى أن المصريين متشبثون بعادات شتى يحالف بعضهم بعضاً من جرائها ويعادى بعضهم بعضاً لأجلها، جعل يناقشهم فيها كل فريق على حده، ويبدى لهم جميعًا أنها ليست على شيء من الحق، ويحل بذلك منهم محل الإعجاب فيعلمون أنه لم يكن على نصيب وافر من الفطنة وحسب، بل كان كذلك عظيم القدرة على إقناع سامعيه فى كل موضوع تناوله ببحثه[1].

وهكذا يبدو أن رحلة الخليل إلى مصر لم تكن بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان ـ كما تقول التوراة ـ وليس ـ كما يقول الدكتور ماير ـ بسبب الشدة التى واجهته، وهنا استبد به الخوف، ولبّى أول هاتف للنجاة خطر بباله، كما يتعلق الغريق بقشة، وهكذا نراه ينزل إلى مصر دون استشارة أبيه السماوى الذى تعهد بحمايته[2].

وأيًا ما كان الأمر، فلقد أمضى الخليل فى مصر فترة لا ندرى صداها على وجه التحقيق، ثم يعود منها وقد أفآء الله عليه الخير الكثير من أرض الكنانة، وأصبح «غنيًا فى المواشى والفضة والذهب»، والأمر كذلك بالنسبة إلى ابن أخيه «لوط» عليه السلام، ورفيق رحلته، الذى «كان له أيضًا غنم وبقر وخيام»، مما أدى فى نهاية الأمر إلى أن يزدحم رعاتهما، الأمر الذى دعا الخليل إلى أن يقترح على لوط أن يستقل كل منهم بمنطقة خاصة، «فسكن أبرام فى أرض كنعان، ولوط سكن فى مدن الدائرة، ونقل خيامهم إلى سدوم»[3].

---

(١) عباس العقاد المرجع السابق، ص ٩٧-٩٨ وكذا: W. Keller, op.cit., p. 87.

(٢) ف.ب. ماير، حياة إبراهيم ص ٦٢ (القاهرة، ١٩٦٠)

(٣) تكوين ١٣ : ١-١٢.

ومن ثم فليس صحيحًا، ما ذهب إليه «القس منيس عبد النور» من أن المخاصمة قد حدثت بين إبراهيم ولوط بسبب كثرة المواشى التى أخذها من فرعون، وضاع احترام إبراهيم فى عين لوط ابن أخيه[١] (؟)، بل إن القس منيس نفسه سرعان ما يعود مرة أخرى فيحمل لوطًا وزر الخصام بينه وبين الخليل، عليهما السلام، حين ذهب إلى أن لوطًا قد اشترك مع إبراهيم فى الخصام، ولم يتأدب مع عمه (هكذا؟) ولم يطلب منه أن يختار هو أولا[٢].

ولعل سؤال البداهة الآن: متى قدم إبراهيم الخليل إلى مصر؟

يرجح العلماء - أو يكادون - وصول الخليل، عليه السلام، على أيام الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٨٦ق.م) ذلك لأن القوم فى مصر، منذ أيام عصر الثورة الاجتماعية الأولى بدأت أفئدتهم تتجه نحو معان جديدة، ومبادئ جليلة، صحيح أن فريقًا من الناس قد اهتز يقينه بالدين، نتيجة الاضطرابات العنيفة التى صاحبت الثورة، فأنكر الإله واستخف بالآخرة والحساب، حتى ذهب بعضهم - فيما يروى إيبو - ور- حكيم الثورة ومسجل أحداثها - إلى أن «الرجل الأحمق يقول: إذا عرفت أين يوجد الإله، فإنى أقدم له قربانًا»[٣].

وصحيح كذلك أن فريقًا آخر من الناس بدأ يشك فى الحياة الآخرة، وبدأ يدعو المترفين من القوم إلى التمتع بمباهج الحياة الدنيا وزخرفها، ما وسعهم إلى ذلك من سبيل، دونما قلق على الآخرة، وما يصيبهم فيها، لأنهم لا يعلمون عنها شيئًا، ذلك أن واحدًا من الراحلين لم يأخذ معه شيئًا، مما اقتناه فى الدنيا، عندما ذهب إلى الآخرة[٤].

---

(١) القس منيس عبد النور، إبراهيم السائح الروحى، ص ٢٥.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٣٢.

(٣) A.H. Gardiner, The Admonitions of Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p. 41-42.

(٤) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦، ص٢١٤ (رسالة ماجستير).

ولكنه صحيح كذلك، أن فريقًا منهم لم يرض عما آل إليه حال البلاد، ولا هو سكت عما نزل بها من الكوارث والمحن، فانطلقت الأفواة والأقلام بما أتيح لها من التعبير عن الشوق إلى العدل وعودة البلاد إلى النظام والأمن، وذاعت فى الناس دعوة تبشر بالمخلص المنتظر الذى يملأ الدنيا عدلا، بعد أن ملئت جوراً[1]، يقول «إيبو - ور» فى وصفه للمنقذ الذى يأمل الخير على يديه: «إنه يجلب البرودة إلى اللهيب: ويقال عنه أنه راعى الإنسانية، لا يحمل فى قلبه شراً، وحين تكون قطعانه (أى رعاته) متفرقة فإنه يصرف يومه فى جمعها»[2].

وفى هذه الفترة من تاريخ أرض الكنانة المجيد، بدأ المصريون يتخذون من المساواة بنى الناس دستوراً تسير الدولة عليه، ونصوصاً مكتوبة فيما صدر من نصائح جرت على لسان الجالس على العرش نفسه، يقول «خيتى» الملك الإهناسى لابنه «مرى كارع»: «لا تفرق بين ابن النبيل وبين ابن فقير الأصل، وتخيّر الفرد بكفاءته الشخصية»[3]، وذلك لأن الناس سواسية أمام خالقهم، يقول الملك الإهناسى «البشر رعايا الإله، خلق السماء والأرض وفق رغبتهم، وأجرى المياه دافقة لهم، وخلق الهواء لتحيا به أنوفهم... وخلق العشب والماشية والطير والأسماك ليقتاتوا بها...»[4].

هذا وقد بدأ المصريون فى ذلك العصر يؤمنون كذلك بأن الوسائل المادية، ليست وحدها هى الوسيلة للسعادة فى الآخرة، وإنما أصبح للأخلاق فى هذا العصر شأن عظيم فى تقرير مصير الإنسان بعد مماته، وبذا أصبحت الأهمية الكبرى للوصول إلى الخلد، إنما هو العمل الصالح، يقول الملك

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٣٦.

(٢) A. Erman , The Literature of the Ancient Egyptians, p. 105-106.

(٣) J. Wilson , The Instruction for King Meri-Ka-Re in ANET, 1966, p. 415.

(٤) A.H. Gardiner, The Instruction for King Merykare, JEA, I, 1914, p. 34.

الإهناسى لولده «لا تكن شريراً فالصبر خير، اجعل بيت ذكراك خالداً بحب الناس لك»[١]، ويقول «اجعل الناس يحبونك فى الدنيا، فالخلق الطيب ذكرى للإنسان»[٢]، ثم يعلن فى صراحة ووضوح أن الخلق الطيب أفضل عند الله من القرابين التى تقدم لاستعطافه: إن خلق الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الرجل الشرير» (أى الثور الذى يقدمه كقربان إلى الله)[٣].

وهكذا أصبح القوم يؤمنون بمبادئ جديدة، ومعان جليلة، غلبت فيها الروح على المادة، وأصبحت السعادة فى صالح الأعمال، وفيما يكتسب المرء من فضائل، فأشادت الأقلام بالنظام والعدالة، وبشرت بأن الخلود لا تسوغه وجاهة أو ثراء، وإنما سبيله اجتناب الاثام وفعل الخيرات، وهى بهذا قد أرهصت بما علّم الأنبياء، وأعدت الناس لما يبعثون به من رسالة ودين، بل نطقت ببعض ما بثته الأنبياء بلفظه ومعناه[٤]، مما يدل بوضوح على أن مصر إنما كانت فى تلك الفترة أرضًا خصبة لبذر بذور دعوة أبى الأنبياء ومبادئه السامية.

ولعل هذا كله يدعونا إلى أن نتفق مع الذين يذهبون إلى أن العصر الذى جاء فيه الخليل ـ عليه السلام ـ إلى مصر، إنما كان على أيام الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م)[٥]، ذلك لأن الأحوال المواتية التى كانت خليقة أن تجذبه إليها وتغريه بالإقبال عليه والإقامة فيها، إنما هيأت

---

(١) J.A. Wilson, op.cit., p. 419.

(٢) Ibid., p. 417.

(٣) Ibid., p. 417.

(٤) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٣٦.

(٥) انظر: نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٦٩. وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 33.
وكذا: Westminester Historical Atlas to the Bible, p. 234.
وكذا: A. Wegall, op.cit., p. 40.

واستقرت على عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة، ولم تتهيأ قبلها، ولا استمرت طويلا بعدها[١].

ذلك أن الفترة التى سبقت الأسرة الثانية عشرة - وبخاصة تلك التى كانت على عهد الثورة الاجتماعية الأولى - إنما كانت أيام فوضى سياسية وانهيار اقتصادى، حتى أن «إيبو - ور» يصور لنا حالة البلاد فى تلك المرحلة العصيبة، وكيف انقلبت إلى عصابات، وأصبح كل فرد فيها مسلحًا بدرعه، لأن المشاغبين قد انتشروا فى البلاد يعيثون فيها فسادًا، فيقول: تدور رحى الفخار، حقًا: لقد شحب الوجه، وأصبح حامل القوس مستعدًا، والمجرمون فى كل مكان، ولا يوجد رجل من رجال الأمس، حقًا إن الناهبين فى كل مكان»[٢].

وهكذا عمت الفوضى البلاد، وعزَّ فيها الأمن، وسادت الحرب الأهلية، فأخذ الأهل يقتلون بعضهم البعض الآخر، حتى وصل الأمر إلى الأسرة الواحدة، «فالرجل يذبح أخاه من أمه»، «والرجل ينظر إلى ولده نظرته إلى عدوه»[٣]، ويحدثنا «نفرتى» فى نبوءته عن ذلك كله فيقولك «أصبحت البلاد فى كرب وعويل، لقد حدث ما لم يحدث من قبل، سيحمل الناس أسلحة الحرب، حتى تعيش الأرض فى اضطراب، وسيصنع الناس أسلحة من النحاس، حتى يلتمسوا الخبز بالدم، ويضحكون ضحكة الموت»[٤].

وانطلاقًا من هذا كله، فلم يكن إبراهيم الخليل ليأتى إلى مصر فى ذلك الزمان، فإن هذه الأحوال التى تستطيع اتخاذها - فضلا عن حساب السنين من قرائن عصره، كما رأينا من قبل - لمانعة رجل مثله أن يهجر

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) J.A. Wilson, in ANET, 1966, p. 441.

(٣) A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, p. 99.

(٤) A. Erman, op.cit., p. 113-114.

جوعًا إلى جوع، وإملاقًا إلى إملاق، بل يهجر أمنًا وإملاق، إلى اضطراب وإملاق[١]، فضلا عن استحالة نشر الدعوة فى هذا الجو المحموم.

وأما بعد عهد الأسرة الثانية عشرة ـ أى فى عهد الأسرة الثالثة عشرة، ثم دخول الهكسوس مصر ـ فرغم اضطراب الأمور فيه[٢]، فإنه العصر الذى يرجح العلماء فيه دخول يوسف ـ ومن بعده عشيرته من بنى إسرائيل ـ إلى مصر ـ كما سوف نرى فيما بعد ـ وليس ـ بحال من الأحوال ـ دخول أبى الأنبياء أرض الكنانة.

وعلى أى حال، فظاهر من رواية التوراة والمشنا، أن إبراهيم الخليل إنما دخل مصر جهرة، ولم يدخلها تسللا، وأنه لم يدخل فى عهد من عهود الاضطراب والفوضى التى سبقت أيام الأسرة الثانية عشرة، أو لحقت بها على أيام الهكسوس، بل إنه ـ ﷺ ـ إنما أقبل ـ وهو يعلم ـ على دولة مستقرة منظمة سوف يسأل عند الحدود فيها عن هويته وهوية من معه من رجال ونساء، فكان منه ما كان من حديثه إلى امرأته سارة، فيما اتصلت روايته فى سفر التكوين من التوراة وما جاء فى صحيح البخارى[١].

ويستخلص كذلك من أحاديث «المشنا» فيما كان من دخول إبراهيم مصر مع سارة، أن التخوم المصرية إنما كان عليها من عمال المكوس من يسأل ويستقصى القادمين فيما يحملون فى أمتعتهم من عروض، إذ روت أن الخليل عليه السلام قد خاف على فرعون وقومه الفتنة من جمال سارة فحملها فى تابوت وهم يعبرون تخوم الديار، وسأله عمال المكوس عما فى التابوت فأنبأهم أنه شعير، قالوا بل نأخذ المكوس على قمح، قال: خذوا ما تشاءون فعادوا يطلبون الضريبة على بهار فأجابهم إلى ما طلبوه، فارتابوا فيما

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٣٥

(٢) انظر عن هذه الفترة: كتابنا «حركات التحرير فى مصر القديمة»، ص ١٠١-٢٢٤، (دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦).

(٣) صحيح البخارى، ١٧١/٤ (دار الحديث، القاهرة)، تكوين ١/١٣-١٢

يخفيه وأمروه أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهبًا فقبل وأعطاهم سؤلهم، فحيّرهم قبوله كل ما يساومونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم، ففتحوا التابوت عنوة، فإذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويغشى عين فرعون[١].

ورغم ما فى هذه الرواية من نقاط ضعف، تكاد تقضى عليها، وتحول الشك فيها إلى يقين بعدم صحتها، إلا أنها تشير ـ فى الوقت نفسه ـ أن عصر دخول إبراهيم أرض الكنانة، إنما كان عصر استقرار وأمن فى البلاد، فالحدود محمية، وعمال المكوس يجبون الضرائب من القادمين إلى مصر، ولا يستطيع واحد منهم إلا أن يخضع لما يريدون.

غير أن ما تشير إليه الرواية من قدرة إبراهيم المالية، حتى أنه كان بقادر على أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهبًا، إنما يهدم رواية التوراة[٢] ـ التى تذهب إلى أن إبراهيم إنما جاء إلى مصر هربًا من قحط حل بأرض كنعان ـ من أساس، فضلا عن تعارضها لبقية قصة إبراهيم ـ كما جاءت فى التوراة[٣] ـ وكيف أنه عرض شرفه وشرف سارة فى مقابل مجموعة من ماشية، منحها إياه ملك مصر.

ثم إذا ما تذكرنا أن قصر العرش المصرى ـ حيث يفترض أن يوجد الجالس على عرش الكنانة على أيام دخول إبراهيم مصر، فى عهد الأسرة الثانية عشرة، إنما كان فى «اللشت»، وأن المكوس إنما كانت تجبى فى التخوم الشرقية للبلاد، لرأينا إلى أى مدى قد لعب الخيال اليهودى فى القصة، وأخيراً فهل كانت هذه السيدة، وقد جاوزت السبعين من عمرها ـ تملك هذا الجمال وهذا النور، ولكن ما حيلتنا، وكل رواية يهودية تناقض أخرى، وهذه تناقض الثالثة وهكذا.

(١) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٢٤-٢٥.

(٢) تكوين ١٢ : ١٠.

(٣) تكوين ١٢ : ١١-٢٠.

٧ ـ رحلة الخليل عليه السلام إلى الحجاز:

انفردت المصادر الإسلامية بأخبار إبراهيم فى الحجاز، وعلّق بعض المؤرخين الأوربيين على هذه الأخبار بشىء كثير من الدهشة والاستنكار، كأن المصادر الإسلامية قد نسبت إلى إبراهيم خارقة من خوارق الفلك وأسندت إليه واقعة بيّنة البطلان بذاتها، وغير قابلة للوقوع، وواضح من أسلوب نقدهم أنهم يكتبون لإثبات دين، وإنكار دين، ولا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون، فضلا عن الاجتهاد فى طلب الحقيقة، قبل أن يوجههم إليها المخالفون والمختلفون.

أما الواقع الغريب حقًا فهو طواف إبراهيم بين أنحاء العالم المعمور، ووقوفه دون الجنوب لغير سبب، بل مع تجدد الأسباب التى تدعوه إلى الجنوب، ولو من قبيل التجربة والاستطلاع[١].

ويستطرد الأستاذ العقاد[٢] ـ طيّب الله ثراه ـ مبينًا الأسباب التى تدعو الخليل عليه السلام إلى الاتجاه نحو الجنوب ـ نحو الحجاز ـ ذلك لأنه لم يكن صاحب وطن عند بيت المقدس، سواء نظرنا إلى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى، والمتواتر من روايات التوراة أنه لم يجد هناك مدفنًا لزوجته فاشتراه من «بنى حث»[٣]، أما الدعوة فقد كانت الرئاسة فيه لأحبار «إيل عليون»، وكان إبراهيم يقدم العشر أحيانًا إلى أولئك الأحبار[٤]، ومن كان له أتباع يخرجون فى طلب المرعى، فلابد لهم من مكان يسيمون فيه إبلهم وماشيتهم بعيدًا عن المزاحمة والمنازعة وهكذا كان إبراهيم يعمل فى أكثر أيامه ـ كما تواترت أنباؤه فى سفر التكوين ـ فلا يزال متجهًا نحو الجنوب.

---

(١) عباس العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١٩١.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٩١-١٩٣. وانظر: تكوين ١٤ : ١٨-٢٠.

(٣) تكوين ٢٣ : ٤-٢٠. (٤) تكوين ١٤ : ٢٠.

وهناك أسباب دينية غير هذه الأسباب الدنيوية توحى إلى إبراهيم أن يجرب المسير إلى الجنوب، حيث يستطيع أن يبنى لعبادة الله هيكلا غير الهياكل التى يتولاها الكهّان والأحبار من سادة بيت المقدس فى ذلك الحين، فقد بدا له أن إقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه وجعلتهم يتقربون فى كل مذبح إلى الربِّ المعبود بجواره، ومثل هذه الفتنة بعد عصر إبراهيم قد أقنعت حكماء الشعب بحصر القربان فى مكان واحد، فاتخذوا له خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرون على البناء.

هذا فضلا عن أن الأهلية الدينية لبيت المقدس جاءت متأخرة بعد عصر إبراهيم وعصر موسى بزمن طويل، وذلك حين استولى داود (١٠٠٠-٩٦٠ق.م) عليها من اليبوسيين فى العام الثامن من حكمه، وغير اسمها من «يبوس» إلى «مدينة داود»[١]، ثم جاء ولده «سليمان»(٩٦٠- ٩٢٢ق.م) فأقام فيها هيكله المشهور- والذى يثير موقعه جدلا بين الباحثين حتى الآن[٢] - وبقيت المدينة عاصمة لإسرائيل فى عهدى داود وسليمان، غير أن «يهو آش» (٨٠١-٧٨٦ق.م) ملك إسرائيل، إنما قام - أثناء حروبه مع «أمصيا» (٨٠٠- ٧٨٣ق.م) ملك يهوذا، بتهديم أسوار أورشليم من ناحية سور أفرايم، وغنم ما فى القصر والمعبد[٣].

أما الجنوب المسكوت عنه، فقد كان له شأن فى القداسة إلى أيام «إرميا» (٦٢٦-٥٨٠ق.م) وما بعدها، وكانت كلمة «تيمان» مرادفة لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة، وهى تقابل كلمة «يمن» فى اللغة العربية

(١) صموئيل ثان ٥: ٦-١٠. وانظر:
R.A.S.Maclister, The Topography of Jerusalem, in CAH, III, 1965, p. 345-346.

(٢) حسن ظاظا، القدس، ص ٣٧، وكذا:
R.A.S. Macalister, op.cit., p. 346--347; J.Finegan, op.cit , p. 179.

(٣) ملوك ثانى ١٤: ١٣، أخبار الأيام الثانى ٢٥: ٢١-٢٤؛ وكذا:
A. Lods, op.cit., 385-386; S.A. Cook, in CAH, III, Cambridge, 1965, p. 376.

بجميع معانيها ومنها الإشارة إلى الجنوب، ففي سفر حبقوق «الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران»[١]، وأوضح من ذلك قول إرميا متسائلا : «ألا حكمة بعد فى تيمان، هل بادت المشورة من الفهماء»[٢].

وأيسر ما يستوجب طالب الحقيقة أن يتساءل: كيف يكون هذا الجنوب موصداً فى وجه إبراهيم؟ وكيف يطوف الأقطار جميعاً ولا يفتح له الباب الذى لا موصد عليه؟ إن كان أحد الطريقين مفتوحاً أمامه، فليس هو طريق بيت المقدس، بل طريق الحجاز[٣].

ورغم ذلك يأتى المستشرق الإنجليزى «سير وليم موير» (١٨١٩-١٩٠٥م) وينفى الرحلة من أساسها فى كتابه «حياة محمد»[٤]، ويذكر - فيما يروى عنه الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦م)[٥] - أنها بعض الإسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال، ليربطوا بينهم وبين العرب بالاشتراك فى أبوة إبراهيم لهم أجمعين، إن كان إسحاق أباً لليهود، فإن أخاه إسماعيل أبو العرب، فهم إذن أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود، وتيسر لتجارتهم فى شبه الجزيرة العربية، وأما حجة المؤرخ الإنجليزى فى ذلك، فهى أن أوضاع العبادة فى بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين إبراهيم، لأنها وثنية، مغرقة فى هذه الوثنية، وأن إبراهيم الخليل إنما كان حنيفاً مسلماً[٦].

---

(١) حبقوق ٣: ٣. (٢) إرميا ٤٩: ٧.

(٣) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ١٩٣.

(٤) Sir William Muir, The Life of the Mohammed , Edinburgh, 1923.

(٥) محمد حسين هيكل، حياة محمد، القاهرة ١٩٦٥، ص ٩٠-٩١.

(٦) وصف القرآن الكريم، إبراهيم الخليل بأنه كان حنيفًا ست مرات، فى سورة البقرة (١٣٥) وآل عمران (٩٥) والنساء (١٢٥) والأنعام (١٦١) والنحل (١٢٠، ١٢٣)، ووصفه بأن كان حنيفاً مسلمًا فى سورة آل عمران (٦٧)، وانظر: تفسير الطبرى ١٠٤/٣-١٠٨، ٤٩٣/٦-٤٩٤، ١٧/٧-١٨، ٢٥٠/٩-٢٥١، ٨١/١٢-٢٨٣ (دار المعارف بمصر)، تفسير المنار، ٣٩٤/١- =

ويرد الدكتور هيكل - طيّب الله ثراه - على ذلك، بأن وثنية العرب بعد موت إبراهيم وإسماعيل بقرون كثيرة لا تدل على أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم إلى الحجاز، وحين اشترك معه إسماعيل في بناء البيت الحرام[1]، تصديقًا لقوله تعالى ﴿وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ منَ البيتِ وإسماعيلُ، ربَّنَا تقبَّلْ منَّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العليمُ﴾[2] - الأمرَ الذى تم فيما نظن حوالى عام ١٨٢٤ق.م[3] - ولو كانت وثنية العرب يومئذ هى المانعة لانتسابهم إلى إبراهيم، لما أيد ذلك رأى «موير» فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام وحاول هو هدايتهم فلم ينجح، فإذا دعا العرب إلى مثل ما دعا إليه قومه فلم ينجح، وبقى العرب على عبادة الأصنام، لم يطعن ذلك فى ذهاب

=

٣٩٧، ٢٦٧/٣-٢٦٨، ٦/٤-٧، ٣٥٢/٥-٣٥٩، ٢١٠/٨-٢١١، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢-١٩٧٤)؛ تفسير القرطبى، ص ٥٢٤-٥٢٥، ١٣٥٠، ١٣٧٨-١٣٧٩، ١٩٦٩-١٩٧٠، ٢٥٨٧-٢٥٨٨، ٣٨١٣، (دار الشعب، ١٩٦٩)؛ تفسير ابن كثير ٢٧٠/١-٢٧١؛ ٤٧/٢، ٦١-٦٢، ٣٦٩، ٣٧٦/٣-٣٧٨، ٥٣٠/٤-٥٣١ (دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧١).

(١) محمد حسين، المرجع السابق، ص ٩١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٢٧؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٥٠٥-٥١١؛ تفسير الزمخشرى، ٣١١/١؛ تفسير الألوسى، ٣٨٣/١-٣٨٤؛ تفسير أبى السعود، ١٢٤/١-١٢٥؛ تفسير الطبرى، ٥٧/٣-٨٣؛ تفسير النسفى، ٧٤/١؛ تفسير المنار، ٣٨٣/١-٣٨٦؛ تفسير ابن كثير، ٢٤٧/١-٢٥٦؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، ١٢٥/١-١٢٧؛ فى ظلال القرآن، ١٠٩/١-١١٣ (دار الشروق، بيروت ١٩٧٣).

(٣) توصلنا من قبل إلى أن الخليل عليه السلام كان يعيش فى الفترة (١٩٤٠-١٧٦٥ق م)، وأنه قد رزق بولده إسماعيل، وهو فى السادسة والثمانين من عمره (تكوين ١٦:١٦)، فإن إسماعيل إذن يكون قد ولد حوالى عام ١٨٥٤ق.م، ولما كان قد عاش ١٣٧ عامًا (تكوين ٢٥: ١٨) فإنه يكون عاش فى الفترة (١٨٥٤-١٧١٧ق م) وإذا كان صحيحًا ما ذهب إليه المسعودى فى مروج الذهب (٢٢/٢) من أن إسماعيل قد شارك فى بناء الكعبة وهو فى الثلاثين من عمره، فإن البناء يكون حينئذ حوالى عام ١٨٢٤ق.م.

إبراهيم وإسماعيل إلى مكة[1] بل إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ، فإبراهيم الذى خرج من العراق فاراً من أهله إلى فلسطين ثم مصر، رجل ألف الارتحال وألف اجتياز الصحارى، والطريق ما بين فلسطين ومكة كان مطروقاً من القوافل منذ أقدم العصور، فلا محل إذن للريبة فى واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها.

وفى الواقع أن وثنية العرب إن كانت هى دليل «وليم موير» على عدم انتسابهم إلى إبراهيم، فإن التاريخ يحدثنا أن الإسرائيليين ـ أبناء إسحاق بن إبراهيم ـ لم يكونوا خيراً من العرب ـ أبناء إسماعيل بن إبراهيم ـ فقد بقيت فيهم عبادة الأصنام بعد دعوة إبراهيم، وحتى ظهور الأنبياء من بعده. وطبقاً لما جاء فى التوراة ـ كتاب اليهود المقدس ـ فإن بنى إسرائيل قد عبدوا عجل الذهب وموسى ما يزال بين ظهرانيهم يتلقى الوحى من ربه على جبال سيناء، وتقرر التوراة فى سفر الخروج قصة العجل الذهبى، وكيف أعدم موسى منهم آلافاً ثلاثة عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن[2].

---

(١) يختلف المؤرخون فى اشتقاق كلمة «مكة» فهى قد سميت كذلك لأنها تمك الجبارين، أى تذهب بنخوتهم، على رأى، وهى تقع بين جبلين مرتفعين عليها، فهى إذن فى هبطة بمنزلة المكوك، على رأى ثان، وهى مشتقة من «أمتك» من قولهم «امتك الفصيل ضرع أمه، إذا مصه مصاً شديداً، ولما كانت مكة مكاناً مقدساً للعبادة فقد امتكت الناس، أى جذبتهم من جميع الأطراف.

غير أن اسم مكة أقدم من هذه التفسيرات، ولما كان الجنوبيون قد سكنوها مع بنى إسماعيل، فإن الاسم يكون مأخوذاً من لغة الجنوب، مستنداً إلى البيت الحرام، فمكة أو «مكرب» كلمة يمنية مكونة من «ملك» و «رب»، وملك بمعنى بيت، فتكون مكرب بمعنى «بيت الرب»، أو «بيت الإله»، ومن هذه الكلمة أخذت مكة، أو بكة ـ بقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب، ويرى «بروكلمان» أنها مأخوذة من كلمة «مقرب» العربية الجنوبية، ومعناها الهيكل.

(انظر: ياقوت ١٨١/١-٨٢، ابن هشام ١٢٥/١-١٢٦، أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ص ٩٧-٩٨ وكذا عبد العزيز سالم، دراسات فى تاريخ العرب، ٤٣٩/١ وكذا: Gerald De Gaury, Rulers of Mecca; London, 1951, p. 24.

(٢) خروج ٣٢: ٧-٢٨.

هذا فضلا عن السمة المميزة لعصر القضاة إنما كانت ـ دائماً وأبداً ـ هى الردة وعبادة الأوثان[١]، كما بقيت عبادة العجل تتجدد فى حياة بنى إسرائيل من حين إلى حين، حتى إذا ما حدث الانقسام إلى مملكتين عقب وفاة سليمان، عليه السلام ـ فى عام ٩٢٢ق.م، تبنى ملوك دويلة إسرائيل الشمالية ديانات الشرك ـ فضلا عن ديانة ربهم يهوه ـ كما فعل «يربعام الأول» (٩٢٢-٩٠١ق.م) فى مدينتى «دان» و«بيت إيل»[٢].

وقد فعل «آخاب» ملك إسرائيل (٨٦٩-٨٥٠ق.م) كذلك حين حاولت زوجة «إيزابيل» ابنة «ايثبعل» ملك صور، إحلال آلهة الفينيقيين محل عبادة يهوه فى مملكة إسرائيل[٣]، وليس من شك فى أن إيزابيل وحاشيتها الصورية كانوا يمارسون ديانتهم الوثنية فى معبد أنشئ فى «السامرة» ـ عاصمة إسرائيل ـ من أجل هذا الغرض[٤]، كما كان الأمر، حين بنى سليمان ـ طبقًا لرواية التوراة[٥] ـ محاريب لعبادة آلهة زوجاته الأجنبيات على جبل الزيتون شرقى أورشليم، وإن كان من المؤكد فى حالة «أخاب» أنه نفسه قد «عبد البعل وسجد له»[٦]، مما أثار مقاومة القبائل الإسرائيلية[٧]، التى تزعمها «إيليا» ضد أخاب وزوجه، اللذين جهدا فى إلغاء عبادة «يهوه»، وإحلال عبادة «البعل» فى مكانها، فهدما مذابح رب إسرائيل وقتلا أنبياءه[٨].

---

(١) قضاة ٣: ٧-١١؛ ٤: ٧-١٢؛ ٨: ٢٤-٢٧؛ ١٠: ٦.

(٢) ملوك أول ١٢: ٢٦-٣٦.

(٣) ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية، ترجمة: محمد عبد الهادى شعيرة، ص ٧٤.

(٤) ملوك أول ١٦: ٣٠-٣٤.

(٥) ملوك ثان ٢٣: ١٣.

(٦) ملوك أول ١٦: ٣١.

(٧) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 241-242.

(٨) ملوك أول ١٧: ١-١٨: ٤٧.

وتروى التوراة أن «حزقيا» ملك يهوذا (٧١٥-٦٨٧ق.م) قد أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى، لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان»[1].

وهكذا بقى بنو إسرائيل - كالعرب - يعبدون الأصنام إلى ما بعد عهد إبراهيم بمئات السنين، ومن هنا فإ عبادة الأوثان لا تدل على انتماء العرب أو اليهود إلى إبراهيم الخليل، أو عدم انتمائهم، ثم أليس إبراهيم يرجع فى أصوله الأولى إلى بلاد العرب، وأن أسلافه قدموا إلى منطقة الهلال الخصيب كغيرهم من الكتل البشرية السامية - كالآموريين والآراميين وغيرهم - التى قذفت بها صحراء العرب إلى تلك المنطقة الخصيبة والجذابة. فما المانع إذن أن يكون إبراهيم قد فكر، لا نقول فى العودة إلى موطن الأجداد، بل فى زيارته فحسب، وهو الرجل الذى قضى حياته، وهو يعيش حياة أشبه بحياة البدو، وأبناء الصحراء العربية.

ثم هناك البينة الكبرى التى تأتى من مباحث اللغة، وهى التقارب الشديد بين لغة الحجاز ولغة النبط أو النباتيين الذين ينتمون إلى نبات (نبايوت) من أبناء إسماعيل. ذلك لأن لغة الحجاز لم تتطور من اللغة اليمنية مباشرة، وإنما جاء التطور من العربية القديمة إلى الآشورية إلى الآرامية إلى النبطية إلى القرشية، فتقارب لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل، وكان التقارب بينهما فى الزمان والمكان أو فى درجات التطور، ولم يكن تقارباً يقاس بالفراسخ والأميال، وكانت هذه البينة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من الأنباط أو النبطيين أبناء إسماعيل، ولم تكن هذه القرابة من اختراع النسّابين أو فقهاء الإسلام، ولكنها قرابة الواقع التى حفظتها أسانيد اللغة والثقافة واستخرجتها الأحافير والكشوف[2].

(١) ملوك ثان ١٨ : ٤.

(٢) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ١٣٦-١٣٧.

هذا وقد أشار من قبل «مارتن شبرنجلنج» إلى ظاهرة انتقال الكتابة النبطية من منطقة «مدين[١]» إلى الحجاز، وإلى تطور الخط العربى عن الخط النبطى[٢]، ومن ثم فإن الكتابة التى تكتب بها اليوم، إنما هى متطورة عن الخط النبطى، وهذا بدوره متطور عن الخط الآرامى ـ والذى استعمل فى شمال شبه الجزيرة العربية منذ حوالى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد كان منذ القرن السادس قبل الميلاد خط كثير من دول الشرق الأدنى القديم[٣].

ثم هناك الخبر الذى جاء على لسان «ابن عباس» ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ «نحن معاشر قريش من النبط، من أهل كوثاريا، قيل إن إبراهيم ولد بها، وكان النبط سكانها»[٤].

وانطلاقًا من هذا، وتخريجًا منه، فإن بعض الباحثين إنما يذهب إلى أن الأنباط عرب، بل هم أقرب إلى قريش وإلى القبائل الحجازية، منهم إلى العرب الجنوبيين، ذلك لأنهم إنما يشاركون قريشًا فى كثير من الأسماء وفى كثير من عبادة الأصنام، ولأن خط النبط قريب من خط الرحى،

---

(١) انظر عن العلاقة بين الكتابة السامية الجنوبية التى ترجع فى أصولها إلى كتابة مدين، وصلة هذه الأخيرة بالكتابة البروتوسينائية التى اشتقت من الهيروغليفية المصرية. (مقالنا «دراسة حول: العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة ـ مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ العدد السادس ـ الرياض ١٩٧٦، ص ٢٩٧-٤٣٧).

(٢) Martin Sprengling, The Alphabet, Its Rise and Development from Sinai Inscriptions, Chicago, 1931, p. 52; UJE, I, p. 198.

(٣) عبد الرحمن الأنصارى، لمحات عن القبائل البائدة فى الجزيرة العربية ـ كلية الآداب، جامعة الرياض، الرياض ١٩٦٩، ص ٨٩؛ جرجى زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٨١ (بيروت ١٩٦٨)؛ ديلتف نلسن، التاريخ العربى القديم، ترجمة فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٨، ص ٤٠-٤١؛ سعد زغلول عبد الحميد، فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٧٥، ص ١٢٧؛ وكذا: P.K. Hitti, History of the Arabs, London, 1960, p. 82.

(٤) اللسان، ٤١١/٧.

ولأنهم يتكلمون لغة قريبة من العربية، بل إن كثيراً من الكلمات العربية المدونة بالآرامية، من نوع عربية القرآن الكريم[١]، ثم هناك ما جاء في التوراة[٢] من أن «نبايوت» - وهو نابت عند الإخباريين - إنما هو الابن الأكبر لإسماعيل، عليه السلام، وإسماعيل - كما هو معروف الابن الأكبر للخليل - صلوات الله وسلامه عليه[٣].

هذا ويذهب المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» - وكذا سان جيروم (٣٤٥-٤٢٠م) - إلى أن هناك صلة وثيقة بين اسم «نبايوت» بن إسماعيل، وبين النبط، كما يذهب المؤرخ «سوزمين» إلى أن اليهود إنما كانوا ينظرون إلى العرب الذين يقطنون إلى الشرق من الحد العربي، على أنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم[٤].

ويضيف الدكتور إسرائيل ولفنسون إلى ذلك حججاً، منها أنه إذا وجد الميل عند بعض المستشرقين إلى إنكار وجود الآباء الأقدمين - كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا وجود قبائل بني إسماعيل وبني إسرائيل، لأن التوراة قد نصت على وجود هذه القبائل في طور سيناء والحجاز، بما ذكرته من الحوادث التي وقعت بين بطون إسماعيلية وأدومية وإسرائيلية، ولاشك أن هذا كاف لإثبات العلاقة الدموية المتينة بين اليهود وعرب طور سيناء والحجاز[٥].

---

(١) جواد علي ٣/١٤؛ يحيى نامي: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، ص ٧ (مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الأول، ١٩٣٥) وكذا:

E. Littmann, Nabataen Inscriptions from Southern Hauran, 1914, p. 17, 24;

G.A. Cooke , Tex-Book of North Semitic Inscriptions, Oxford, 1903, p. 18.

(٢) تكوين ٢٥ : ١٣؛ أخبار أيام أول، ١ : ٢٩.

(٣) انظر: محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٤٩٤-٥٠٢ (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٩٧٧).

(٤) P K. Hitti, op.cit., p. 69; E.B. P. 3254; J.Flavius, Antiquitics of the Jews, I, 21, 4.

(٥) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة ١٩٢٧، ص ٧٥-٧٦

ثم يؤيد الدكتور ولفنسون رأيه هذا بترجمة جديدة لنص سفر التكوين (١٨/٢٥) كالآتي: «ونزلت (بطون بنى إسماعيل) مع نشأتها بين أخواتها واستوطنت البلاد من الحولة إلى طريق القوافل بين مصر والعراق. ومنها ما جاء فى التوراة السامرية - التى صدرت فى سنة ١٨٥١م، أن إسماعيل «سكن برية فاران بالحجاز، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر»[١].

ومنها ما يراه علماء الإفرنج من أن علاقة بطون إسرائيل الجنوبية بعرب الحجاز وطور سيناء أقرب منها إلى قبائل بنى إسرائيل الشمالية[٢]، ومنها أن اليهود لو كانوا حقًا يريدون استغلال قرابتهم للعرب - عن طريق إبراهيم - بغية التزلف لقريش أو العدنانيين -، لكان الأليق والأجدر أن يخترعوا تلك القرابة بينهم وبين قبائل الأوس والخزرج[٣] الذين يتاخمونهم ويشاركونهم فى المواطن والمرافق ويرتبطون معهم برباط المعاملة والجوار[٤].

ومنها أن التوراة قد ترجمت إلى اليونانية (الترجمة السبعينية) فى عهد بطليموس الثانى (٢٨٤-٢٤٦ق.م)، وفى صلبها النصوص التى تربط العرب الإسماعيلية بالقرابة النسبية مع اليهود، وذلك قبل رحيل يهود يثرب إلى الحجاز[٥]، بما يقرب من أربعة قرون[٦].

وهكذا فإن القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المنزه عن الغرض، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة إبراهيم إلى الحجاز، وأنها

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢) عباس العقاد، مطلع النور (أو طوالع البعثة المحمدية) القاهرة ١٩٦٨، ص ١٨، تكوين ٢١: ٢٢.

(٣) E.F. Burney, Israel's Settlement in Canaan, London, 1918, p. 27-34.

(٤) انظر عن الأوس والخزرج: كتابنا «دراسات فى تاريخ العرب القديم»، ص ٤٥٥-٤٨٢ (الرياض ١٩٧٧).

(٥) إسرائيل ولنفسون، المرجع السابق، ص ٧٦-٧٧.

(٦) عن رحيل يهود يثرب إلى الحجاز، انظر كتابنا «دراسات فى تاريخ العرب القديم»، ص٤٤٤-٤٥١.

هى وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية، وهكذا ذهب الخليل إلى مكة، ولم يترك فى «حبرون» إلا خيمة تقام فيها الشعائر، فلم يأمره الله أن يقيم بيته فى حبرون، بل بوأ له مكان بيته هناك فى مكة، وأمره أن يقيم القواعد من البيت وإسماعيل.

وقد جاء الإسلام مثبتًا رحلة إبراهيم إلى الحجاز، وأثبتها ولاشك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول، لأن انتساب أناس من العرب إلى إبراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض، ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه لأنكرت إسرائيل انتساب العرب إلى إبراهيم، وأنكر العرب أنهم أبناء إبراهيم من جارية[1] مطرودة، وليس هذا غاية ما يدعيه المنتسب عند الاختراع[2].

ولم يكن ذلك كل ما فى جعبة المستشرقين، فقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية ـ نقلا عن فنسنك ـ أن «شبرنجر» كان أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم ـ كما فى القرآن الكريم ـ قد مرت بأطوار قبل أن تصبح فى نهاية الأمر مؤسسة «للكعبة» ثم جاء «مرجونى» فقال: إن إبراهيم فى أقدم ما نزل من الوحى هو رسول الله أنذر قومه كما تنذر الرسل، ولم تذكر لإسماعيل صلة به، كما لم يذكر قط أن إبراهيم هو واضع البيت ولا أنه أول المسلمين[3]، أما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك، فإبراهيم يدعى حنيفاً مسلماً، وهو واضع ملة إبراهيم، رفع مع إسماعيل قواعد بيتها المحرم ـ الكعبة ـ.

---

(١) سوف نناقش فكرة أن هاجر جارية فيما بعد، عند مناقشتنا لزوجات الخليل عليه السلام، الأمر الذى لا نميل إليه ولا نقبله.

(٢) عباس العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١٩٦.

(٣) يشير «مرجونى» هنا إلى الآيات الكريمة الآتية (الذاريات، آية: ٢٤-٢٧؛ الحجر، آية: ٥١-٦٠؛ الأنعام، آية: ٧٤-٩٠؛ الصافات، آية: ٨٣-١١٣؛ هود، آية: ٦٩-٧٦؛ مريم، آية: ٤١-٥٠؛ الأنبياء، آية: ٥١-٧٢؛ العنكبوت، آية: ١٦-٢٧) وهى آيات مكية تحدثت عن إبراهيم ﷺ

وسر هذا الاختلاف - فى رأى هؤلاء المستشرقين - أن محمداً، ﷺ كان قد اعتمد على اليهود فى مكة، فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء، فلم يكن له بد من أن يلتمس غيرهم ناصراً، وهنا هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبى العرب، وبذا استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم التى كانت ممهدة للإسلام، ولما أخذت مكة تشغل جلّ تفكير الرسول أصبح إبراهيم أيضًا المشيد لبيت هذه المدينة المقدس، رغم أنه لا يوجد أى دليل تاريخى على أن إبراهيم وإسماعيل كان اطلاقًا فى مكة[1].

وإذا ما أردنا مناقشة ذلك، فعلينا أن نتذكر - بادئ ذى بدء - أن القرآن الكريم لم يقل أبداً أن اليهود كانوا من مؤيدى الإسلام، بل إنه لينص صراحة على أنهم أشد أعدائه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿لتجدَنَّ أشدَّ النَّاس عداوةً للَّذينَ آمنوا اليهودَ والَّذينَ أشركوا، ولتجدَنَّ أقربَهُم مَودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصَارى، ذَلك بأنَّ مِنهُم قِسِّيسينَ ورهبانًا وأنهم لا يستكبرونَ﴾[2]

ثم هناك التوراة التى تجعل من إسماعيل وإسحاق - عليهما السلام - أخوين من أب واحد - هو إبراهيم الخليل - وإن اختلفت الأمهات،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، الجزء الأول، ص ١٤٦ (دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩)، وانظر: طه حسين، الأدب الجاهلى، القاهرة ١٩٣٣، ص ٢٦، ٢٩؛ ديمومبين، النظم الإسلامية، ص٦٦-٦٨ (مترجم)، وكذا: A.Guillaume, Islam, (Penguin Books), 1964, p. 61-26.

وكذا: T. Andrae, Mahomet, Sa Vie et Sa Doctrine, Paris, 1945, p. 139.

وكذا: Pere Lammens, L'Islam; Croyance et Institutions, 1926, p. 28, 33.

(٢) سورة المائدة، آية: ٨٢؛ وانظر: تفسير روح المعانى، ٨٣/٤؛ الجواهر فى تفسير القرآن الريم، ٢٠٢/٣؛ فى ظلال القرآن، ٩٥٩/٧-٩٦٦؛ تفسير الكشاف، ٦٦٨/١؛ تفسير مجمع البيان، ١٧١/٦-١٧٦؛ تفسير الطبرى، ٤٩٨/١٠-٥٠٦؛ تفسير النسفى، ٣/١-٤؛ تفسير المنار، ٣/٧-١١؛ تفسير ابن كثير، ٦٣٣/٢؛ تفسير القرطبى، ص ٢٢٥٢-٢٢٥٥.

فإسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة [١]، ثم رواية سفر التكوين التى تجعل أبناء إسماعيل يسكنون بين مصر والعراق «سكنوا من حويلة إلى آشور التى أمام مصر» [٢]، وحويلة هى «خولان»، وخولان قبيلة يمنية تسكن سراة اليمن مما يلى الحجاز، وهذا دليل على أن «مكة» تشملها مساكن إسماعيل وبنيه.

أضف إلى ذلك أن الإسلام لم يعتز قط بالانتساب إلى يهودية إبراهيم، بل إنه إنما ينفى عنه اليهودية من أساس، يقول سبحانه وتعالى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٣]

أما عن «الكعبة» [٤] ـ وهى من الكعوب وهو العلو والارتفاع، والكعبة البيت المربع وجمعه كعاب، وهى البيت الحرام، سمى كعبة لارتفاعه وتربعه [٥] ـ فلعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أنه قد ثبت ـ بنص القرآن الكريم والتوراة ـ أن إبراهيم قد أوصل ابنه إسماعيل إلى مكة، وإذن كان من المتعين أن يقيم له فيها بنية يجعلها متعبداً على مثال الصوامع، ولم ينازع أحد إلى اليوم إبراهيم فى أنه بانى ذلك المصلى، حتى يصح أن يقال أن محمداً ـ ﷺ ـ قد نسبه إليه تعظيماً لشأنه [٦].

---

(١) تكوين ١٦ : ١-١٦ ؛ ٢١ : ١-٢.

(٢) تكوين ٢٥ : ١٨.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٦٧ ؛ وانظر: تفسير الطبرى، ٦/٤٩٣-٤٩٦ ؛ تفسير المنار، ٣/٢٧٦-٢٧١ ؛ تفسير ابن كثير، ٢/٤٧-٤٨ ؛ تفسير القرطبى، ص ١٣٥١-١٣٥٢.

(٤) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن «الكعبة» فى كتابه «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»، الجزء الأول، فى بلاد العرب، الرياض ١٩٨٠، ص ١٨١-٢٣٥ ؛ وانظر: طبعة بيروت ١٩٨٨ وطبعة الإسكندرية ١٩٩٥.

(٥) أحمد حسن الباقورى، مع القرآن، القاهرة ١٩٧٠، ص ٤٦.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية، الجزء الأول، ص ١٤٧.

هذا ولم تختص الكعبة وحدها بأنها «بيت الله»، فكل المساجد عند المسلمين بيوت الله، وإنما عظمت الكعبة لأنها أول بيت وضع للنَّاس ببكة، يقول سبحانه وتعالى ﴿إنَّ أولَ بيتٍ وضِعَ للنَّاسِ للَّذى ببكةَ[١] مباركًا وهدًى للعالمين﴾[٢]، فيه الهدى، وفيه البركة، وفيه الخير الكثير، جعله الله ـ جل وعلا ـ مثابة أمن للنَّاس[٣]، وللأحياء جميعًا، ومنه خرجتَ الدعوة العامة لأهل الأرض، ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل، وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل الأجناس[٤]، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿وأذِّنْ فى النَّاسِ بالحجِّ يأتوكَ رِجَالا وعلى كُلِّ ضامرٍ يأتينَ مِنْ كُلِّ فجٍ عميقٍ﴾[٥]

هذا ومما يدل على أن النبيَّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يتخذ بناء الكعبة أساسًا من أسس دعوته أنه ـ ﷺ ـ أمر أصحابه أن يولّوا وجوههم فى

---

(١) يفرِّق الإخباريون بين مكة وبكة، فالأولى هى القرية كلها، والثانية موضع البيت الحرام، أو أن «بكة» هى موضع البيت، ومكة ما سوى ذلك (انظر: ياقوت ٤٧٥/١، ١٨٢/٥، نهاية الأرب ٢٢٧/١-٢٢٨، الأزرقى ٨٧/١؛ صبح الأعشى، ٢٤٨، تفسير الطبرى، ٢٣/٧-٢٦؛ تفسير المنار، ٧/٤؛ تفسير الكشاف، ٤٤٦/١؛ تفسير البيضاوى، ١٧٢/١)

(٢) سورة آل عمران، آية ٩٦؛ وانظر: تفسير المنار، ١/٤-١٤، تفسير الكشاف، ٤٤٦/١-٤٤٧؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، ٥٢/٢-٥٥، تفسير الطبرى، ١٩/٧-٣٧، تفسير الطبرسى، ١٤٤/٤-١٥٠، تيسير تفسير ابن كثير، ٢٩١/١-٢٩٥، تفسير ابن كثير، ٧٣/٢-٧٤؛ تفسير النسفى، ١٧٠/١-١٧١؛ فى ظلال القرآن، ٤٣١/٤-٤٣٦؛ تفسير القرطبى، ١٣٧/٤-١٣٩ (القاهرة ١٩٦٧)، صحيح البخارى، ٢٩٠/٤، صحيح مسلم ١٤٦/١-١٤٦، مسند الإمام أحمد ١٦٦/٥-١٦٧؛ تفسير روح المعانى، ٤/٤-١٤

(٣) هناك رواية تنسب إلى الإمام علي رضى الله عنه، وكرَّم الله وجهه ـ أن رجلا سأله عن البيت الحرام، أهو أول بيت؟ فقال لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للنَّاس مباركًا، وأول من بناه إبراهيم الخليل. انظر: تفسير الكشاف، ٤٤٦/١؛ تفسير الطبرى، ٦٩/٣، ٢٠/٧، ٢٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٩/٢)

(٤) سيد قطب، فى ظلال القرآن، ١١٤٨/٧، ٣١٤٢/٢٥ (دار الشروق، بيروت، ١٩٧٤)

(٥) سورة الحج، آية ٢٧، وانظر: تفسير القرطبى، ص ٤٤٢٩-٤٤٣٣ (دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠)

صلاتهم إلى بيت المقدس طوال مقامه بمكة، ومن هنا عرفت القدس عند المسلمين بأولى القبلتين[١].

ثم ألم يؤمن كاتبو هذه المادة فى دائرة المعارف الإسلامية ـ مسيحيون كانوا أم يهوداً ـ بما جاء فى التوراة من أن إبراهيم الخليل قد أقام مذابح للربِّ عند شكيم، وبيت إيل، وعند بلوطات ممرا التى فى «حبرون» وغيرها[٢]، وإذا كانوا يؤمنون بذلك، فلم ينكرون بناء إبراهيم الكعبة؟.

أما زعمهم أن الإسلام فى مكة غيره فى المدينة بالنسبة لإبراهيم، وهم يعنون بذلك أن سور القرآن المكية لا تذكر أية صلة لإسماعيل بإبراهيم، هادفين من وراء ذلك أن سيدنا ومولانا رسول الله ـ ﷺ ـ ظل بعيداً عن صلة العرب بإبراهيم إلى أن هاجر إلى المدينة المنورة فى عام ٦٢٢م، فبدت له فكرة أن يصل حبل العرب ـ الذين هو منهم ـ باليهود ، عن طريق إسماعيل وإبراهيم.

وفى الواقع أننا لو أردنا أن نناقش هذه الفكرة ـ أو قل هذا الاتجاه الغربى الاستشراقى ـ لرأينا أن الأدلة العلمية كلها إنما تقف عقبة فى وجه هذا الاتجاه، ومنها (أولا) أن هذه الفكرة إنما تهدم التوراة قبل أن تثير أى شكوك حول القرآن الكريم، ذلك لأن التوراة إنما ذكرت صلة إبراهيم بإسماعيل، وأنه جدّ قبائل فى بلاد العرب[٣].

(١) انظر: سورة البقرة، آية: ١٤٢-١٤٤؛ وكذا: تفسير الطبرى، ٣/١٢٩-١٨٤؛ تفسير المنار، ٢/٧، ١٢-١٣؛ تفسير ابن كثير، ١/٢٧٣-٢٨٠؛ تفسير القرطبى، ص ٥٣١-٥٥٠؛ صحيح البخارى، ٦/٢٥-٢٧ (دار الشعب ١٣٧٨هـ)؛ صحيح مسلم ٢/١٦٠-١٦٢ (دار الشعب، ١٩٧١)؛ مسند الإمام أحمد ٥/٢٤٦-٢٤٧ (القاهرة، طبعة الحلبى)؛ الهيثمى، مجمع الزوائد ٢/١٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ٢/٣٧٢-٣٧٧ (طبعة الحلبى، القاهرة، ١٩٦٤، تحقيق مصطفى عبد الواحد)؛ ابن هشام، سيرة النبىّ ﷺ ، ص ٥٥٠ (طبعة الحلبى، القاهرة ١٩٥٥)؛ السيوطى، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، ١/١٤٣، ١٤٧ (طهران ١٣٧٢هـ).

(٢) تكوين ١٢: ٧، ١٢: ٨، ١٣: ١٨.

(٣) تكوين ٢٥: ١٢-١٨.

ومنها (ثانيًا) أن «فنسنك» عندما عدّ السور المكية إنما عمد إلى التى يذكر فيها إبراهيم مجرداً عن الصلة بإسماعيل والعرب، ومن ثم فقد تخطى _ عامداً _ سورة إبراهيم _ وهى سورة مكية _ وقد شهدت بعكس ما يقول، وآياتها شاهدة بأن إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت، وأن إبراهيم إنما كان يدعو الله بالهداية وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، وأن إبراهيم إنما يذكرأنه أسكن من ذريته بوادٍ غير ذى زرع عد بيت الله المحرم، ويدعو الله أن يرزقهم من الثمرات، ويحمد الله أن وهب له إسماعيل وإسحاق[1].

ولنقرأ هذه الآيا الكريمة من سورة إبراهيم المكية، حيث يقول سبحان ه وتعالى: ﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا البلد آمنًا واجْنُبْنِى وبَنِىَّ أن نعبدَ الأصنامَ، ربِّ إنَّهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من الناسِ فَمَنْ تَبِعَنى فإنه منِى ومَنْ عصَانِى فإنَّك غفور رحيم، ربَّنَا إنِّى أسكنتُ منْ ذُرِّيتِى بوادٍ غير ذى زرعٍ عِنْدَ بيتِكَ المُحرَّم، ربَّنا ليقيموا الصلاةَ فاجعلْ أفئدةً[2] مِنَ النَّاسِ تهوِى إليهم وارزُقْهم مِنَ الثمراتِ لعلهم يشكرون، ربَّنا إنَّكَ تعلمُ ما نُخفِى وما نعلِن وما يَخْفَى علَى الله مِنْ شىء فى الأرض ولا فى السَّماء، الحمدُ لله الَّذِى وهبَ لِى علَى الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ إنَّ ربِّى لسميعُ الدُّعاء، ربِّ اجعلْنِى مُقيمَ الصلاة ومِنْ ذُرِّيَّتِى ربَّنَا وتقبَّلْ دعاء، ربَّنا اغفرْ لِى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقومُ الحسَاب﴾[3].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، الجزء الأول، ص ١٤٨ (دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٩).

(٢) يذهب كثير من المفسرين إلى أن الله سبحانه وتعالى لو قال «أفئدة الناس»، ولم يقل «أفئدة من النّاس» لازدحم عليهم الفرس والروم والنّاس كلهم، ولحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال «أفئدة من النّاس» فاختص به المسلمون (انظر: تفسير ابن كثير ١٤٢/٤، تفسير البيضاوى ٥٣٣/١؛ تفسير القرطبى، ٣٧٣/٩، تفسير الفخر الرازى، ١٣٧/١٩، تفسير النسفى، ٢٦٤/٣؛ تفسير الطبرى، ٢٢٣/١٣-٢٣٤)

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٣٥-٤١؛ وانظر: تفسير ابن كثير، ٤٣١/٤-٤٣٣؛ تفسير القرطبى، ص ٢٥٩٦-٢٦٠٤ (دار الشعب ١٩٧١)، تفسير الطبرسى، ٢٣٠/١٣-٢٣٤؛ تفسير الطبرى، =

وهكذا يتخطى «فنسنك» ـ كما يقول الأستاذ النجار[١] ـ هذه الآيات الكريمة من سورة إبراهيم المكية عمدًا، غاضًا النظر عما تقضى به الأمانة العلمية وذلك فى سبيل تأييد نظريته.

ومنها (ثالثًا) أن القول بأن القرآن الكريم لم يذكر إلا فى السور المدنية أن إبراهيم كان حنيفًا، فذلك ـ مرة أخرى ـ غير صحيح، ذلك لأن القرآن الكريم إنما ذكر ذلك فى سورتى الأنعام والنحل ـ وهما مكيتان ـ ولنقرأ هذه الآيات الكريمة يقول سبحانه وتعالى ﴿إِنِّى وجهتُ وجْهِىَ للَّذى فطَرَ السَّمَوات والأرضَ حَنيفًا مُسْلمًا وما أنَا منَ المُشْركين﴾[٢]، ويقول: إن إبراهيم كَان أمةً قانتًا لله حنيفًا ولم يكُ مَن المُشْرِكَين﴾[٣]، ويقول: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبعْ مِلَةَ إبراهيم حنيفًا وما كان مِنَ المُشْرِكين﴾[٤].

ومنها (رابعًا) تلك الدعوى التى تذهب إلى أن جدنا ومولانا وسيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ جاء إلى المدينة المنورة وكله أمل فى أن يؤمن به اليهود، ويظاهروه على أمره، فلما أخلفوا ما أمله وكذبوه، أرادأن يتصل بهم عن طريق إبراهيم، وعبر عن ذلك بيهودية إبراهيم.

=

١٣/١٥١-١٥٦ (دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٢)، تفسير النيسابورى، ١٣/١٤٨-١٥٧ (نسخة على هامش الطبرى)؛ تفسير روح المعانى، ١٣/٢٣٤-٢٤٢؛ تفسير الكشاف، ٢/٣٧٩-٣٨١؛ تفسير الفخر الرازى، ١٩/١٣٦-١٣٨؛ تفسير النسفى، ٣/٢٦٣؛ تفسير البيضاوى، ١/٥٣٢-٥٣٤.

(١) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص ٧٥، (القاهرة ١٩٦٦).

(٢) سورة الأنعام، آية: ٧٩. وانظر: تفسير المنار، ٧/٤٤٤، ٤٦٩-٦٧٠ (القاهرة ١٩٧٤)؛ تفسير ابن كثير، ٣/٢٨٦ (القاهرة ١٩٧١)؛ تفسير القرطبى، ص ٢٤٦٤ (القاهرة ١٩٧٠). وانظر كذلك نفس السورة، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿قلْ إنَّنى هدَانى ربِّى إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ دينًا قِيَمًا مِلَةَ إبراهيمَ حينفًا وما كانَ مِنَ المُشْركين﴾ (الأنعام، آية: ١٦١ وهى سورة مكية).

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٠؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٣٨١٣-٣٨١٤؛ تفسير ابن كثير، ٤/٥٣٠- ٥٣١.

(٤) سورة النحل، آية: ١٢٣ (وهى سورة مكية).

والواقع أنهم فى ذلك إنما كانوا غير موفقين، ذلك لأن النبىَّ ﷺ لم يكن يعتز باليهود أبداً، وإنما كان يتوقع أن يؤمنوا به لأنهم أهل توحيد، يجانبون الأصنام ويعادون أهلها، ولأن النبىَّ ﷺ مذكور فى توراتهم، ذلك لأن بنى إسرائيل إنما كانوا قد وعدوا بنبىٍّ يقوم من بين إخوتهم وهم العرب الإسماعيلية[١] ـ فلما جحدوا ذلك كله كانوا بمثابة غيرهم فقط[٢].

ومنها (خامسًا) أننا لا نعرف شعبًا آخر له مثل ما للعرب من شغف بعلم الأنساب، حيث يحرصون على الاحتفاظ فى ذاكرتهم بسلسلة أجدادهم حتى وصلوا إلى الجيل العشرين، فهل من المحتمل أن يبقى هذا الشعب فى جهالة تامة بأصله حتى آخر لحظة، ثم يأتى محمد ﷺ فيعلمهم نسبهم؟

ومنها (سادسًا) أن وجود الكعبة بينهم ـ وفيها بعض الأماكن المعروفة التى تحمل اسم إبراهيم وإسماعيل ـ ألا يذكرهم ذلك بعلاقتهم بهذه الأسماء المجيدة، فيمكن على الأقل أن يكونوا قد سمعوا عنها من اليهود جيرانهم منذ عدة قرون قبل الهجرة النبويّة الشريفة إلى المدينة المنورة، وعلى كل حال، فإن القرآن الكريم لم ينتظر انتقاله ـ ﷺ ـ إلى المدينة، لتوثيق هذه الرابطة، لأنه سبق ـ كما رأينا من قبل ـ السور المكية أن أشارت إلى ذلك ـ كما فى سورة إبراهيم ـ بل إنها دعت الرسول إلى اتباع ملة إبراهيم الحنيف[٣] ـ كما فى سورة النحل.

(١) انظر: التوراة (تثنية ١٨: ١٥-١٩، ٣٣: ٣، دانيال ٢: ١-٣٥، أشعياء ٤٢: ١٠-١٣، ٦١: ١-٧؛ حبقون ٣: ٣-٤) والإنجيل (يوحنا ١٢: ١١-١٣، متى ٠٧ ٢١-٢٢، ١٥: ٨-٩، ٢١: ٢٢- ٤٣) والقرآن الكريم (سورة الأعراف، آية: ١٥٧، سورة الصف، آية ٦)، وانظر: إبراهيم أحمد (القس إبراهيم خليل فيلبس)؛ محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣٥-٥١؛ ابن هشام، سيرة النبىّ ﷺ، ن/٢٠٦-٢١٢، (القاهرة ١٩٥٥)؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ٢٨٦/١-٣٠٨ (القاهرة ١٩٦٤)، البيهقى، دلائل النبوة، ج١، ص ٣٦٠ (القاهرة ١٩٧٠).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١٤٩/١ (القاهرة، ١٩٦٩).

(٣) محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم، الكويت ١٩٧٤، ص ١٥٧.

ومنها (سابعًا) أن العرب قبل مبعث محمد رسولا لربِّ العالمين، إنما كانوا يعتقدون أنهم من ولد إبراهيم، وها هو أبو طالب[١] - عمّ النبيّ ﷺ - يقول في خطبة له يوم زواج المصطفى من السيدة «خديجة»: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدًا حرامًا، وبنيانًا يحج الناس إليه، وجعلنا الحكام على الناس[٢].

٨ - إسكان إسماعيل فى الحجاز:

وهكذا يبدو واضحًا أن رحلة الخليل - ﷺ - إلى الحجاز أمر جد مؤكد، وأن أبا الأنبياء قد ترك هناك ولده إسماعيل وزوجه هاجر، ولعل السبب المباشر فى انتقال إسماعيل وأمه هاجر وسكناهم هناك إنما يرجع إلى القصة المشهورة عن السيدة سارة التى أرادت أن تبعد إسماعيل عن أبيه بعد أن رأته يملأ حياة الشيخ الجليل، والذى كان قد حرم الولد، وقد قارب التسعين من عمره.

وهنا غضبت سارة واكتأبت ولزمها هم مقيم، فلم تعد تطيق هاجر أو ولدها، وأبدت رغبتها فى التخلص منهما، وإرسالها إلى مكان سحيق، إذ لم يعد عيش يطيب بجوارهما، ولم يبق للإسعاد من أثر فى بيت يضمهما معًا، وهذا أمر طبيعى، فالغيرة بين النساء من ألصق صفاتهن، وليست هناك امرأة - كائنة من كانت - لا تريد أن تكون صاحبة الحظوة وحدها لدى بعلها، وليست هناك امرأة تقبل أن تشاركها فى حب زوجها ضرة لها، بخاصة وإن كانت هذه الضرة، فى ريعان الشباب، بينما هى على أبواب الكهولة، وأن الضرة قد أعطت الزوج العظيم الولد، بينما هى قد حرمت منه وحرمت

(١) هناك من يذهب إلى أن القائل عمّ النبىّ ﷺ «حمزة» وليس عمه «أبو طالب». (ابن كثير، السيرة النبوية، ١/٢٦٣؛ عماد الدين خليل، دراسة فى السيرة، بيروت ١٩٧٤م، ص ٤٤).

(٢) محمد محمد أبو شهبة، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، ج١، ص ٢٢٩ (القاهرة ١٩٧٠) مولانا محمد علي، حياة محمد ورسالته، ترجمة منير البعلبكي، بيروت ١٩٦٧، ص٩٦.

الزوج منه، تلك أمور عادى تحدث فى كل بيت تتعدد فيه الزوجات، أيًا كان هذا البيت، وسواء أكان صاحب هذا البيت واحدًا من المصطفين الأخيار، أو ملكًا يحكم الناس، أو زعيمًا تتعلق بحبه قلوب الملايين، أو حتى إن كان فقيرًا يكد ليله ونهاره من أجل لقمة العيش.

والواقع أن تلك أمور عرفناها فى بيوت أنبياء بنى إسرائيل وملوكهم من بعد، عرفناه فى بيت يعقوب بين زوجاته الأربع، وعرفناه فى بيت داود، كما عرفناه فى بيت سليمان بين نسائه الكثيرات.

بل إن قصة غيرة السيدة «عائشة» من السيدة «خديجة» ـ رضى الله عنهما وقد انتقلت الأخيرة إلى جوار ربها الكريم، أمر معروف، ورغم أن «عائشة» حاولت أن تتجاهل هذه الضرة التى ماتت، فذهبت محاولتها عبثًا، ذلك أن طيف خديجة بقى ماثلاً أبدًا أمام عينى زوجها، واسمها الحبيب على لسانه، وصوتها فى مسمعه، ويروى الإمام البخارى فى صحيحه عن السيدة عائشة، رضى الله عنها، قولها: «ما غرت على أحد من نساء النبىّ ـ ﷺ ـ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبىّ ـ ﷺ ـ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها فى صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لى منها ولد».

وزاد قسوة الموقف أن الشهور مضت، وعائشة لا تنجب لزوجها ولدًا، حين أنجبت خديجة البنين والبنات، وكانت وطأة الحرمان من البنين تجثم على صدر أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ فتكاد تكتم أنفاسها، لولا ما كان يغمرها من عطف النبىّ ومحبته، وما يأخذها به إيمانها من تجمل بالصبر فيما لا حيلة لها فيه، ومع ذلك فقد كان يفلت الزمام منها فى بعض الأحايين، يروى الإمام البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها، أنها قالت: استأذنت هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ على رسول الله، ﷺ،

فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك، فقال: اللهم هالة، قالت: فغرت، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت فى الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها، وتذهب بعض الروايات أن الرسول ـ ﷺ ـ رد عليها بقوله الشريف: «والله ما أبدلنى الله خيراً منها، آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء»[١].

وانطلاقًا من هذا كله، وتخريجًا منه، فإن غيرة السيدة سارة ـ فيما أعتقد ـ ليست من خوارق العادات، أو شواذ الأمور، وإنما تلك سنة الله فى خلقه من النساء، ومن ثم فإننا لا نوافق رواية التوراة، فيما ذهبت إليه، من أن «سارة رأت ابن هاجر المصرية، الذى ولدته لإبراهيم يمزح، فقالت لإبراهيم: أطرد هذه الجارية وابنها»، ذلك لأن العداوة بين المرأتين بدأت حتى قبل أن ترزق هاجر بوليدها إسماعيل، وذلك حين أذلتها سارة فهربت منها إلى الصحراء القاسية، ولم تعد إليها إلا بأمر ملاك الرب الذى بشرها بأنها ستلد ابناً تدعوه إسماعيل[٢].

وهكذا يبدو بوضوح أن تعليل التوراة لطرد هاجر بأن إسماعيل كان يمزح يوم فطام إسحاق، تعليل غير كاف، ففى حديث البخارى أن إسماعيل كان رضيعًا يوم أبعد هو وأمه إلى مكة[٣]، ومحال أن يكون من رضيع فرح ولا غيره، وإنما هى غيرة سارة من أن يكون لإبراهيم ولد من

---

(١) صحيح البخارى، ٤٧/٥-٤٩ (دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٨هـ)؛ فتح البارى بشرح البخارى، ٢٨٥/٩؛ أسد الغابة، ٤٣٨/٥ (١٣٨٠هـ)؛ عمر رضا كحالة؛ أعلام النساء، ٢٧٩/١ (دمشق ١٩٥٩)، الاستيعاب، ٧٤١/٢، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، نساء النبىّ، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٧٢-٧٣؛ توفيق أبو علم، فاطمة الزهراء، ص ٤٥-٤٦، (دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢)؛ مولانا محمد علي، حياة محمد ورسالته، ص ٦٢.

(٢) تكوين ١٦ : ٥-١٥؛ ٢١ : ٩-١٠.

(٣) صحيح البخارى، ١٧٣/٤ (دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨هـ).

غيرها تراه معها فى البيت، بينما هى حتى دلك الوقت كانت ما تزال عجوزاً عقيماً، وتحريف اليهود لكتابهم أشهر من نار على علم[١].

بل إن التوراة نفسها إنما تشير إلى هذا السبب بعد حمل هاجر بإسماعيل - وقبل ولادة إسحاق بأكثر من أربعة عشر عامًا - وكيف أصبحت سارة لا تطيق هاجر، ولا ترضى بالعيش معها، حيث تقول على لسان سارة مخاطبة إبراهيم «ظلمى عليك... يقضى الربُّ بينى وبينك»[٢].

وهكذا يبدو بوضوح صحة ما ذهبنا إليه، من أن الأمر لم يكن مزاح صبى، وإنما كان غيرة امرأة من ابن ضرتها، وخوفها على مكانتها عند زوجها، ورغبتها فى أن لا ينصرف حب هذا الزوج إلى غيرها من النساء، وفى أن لا ينال ابن ضرتها - وهو بكر أبيه - شيئًا من ميراث أبيه، ذلك لأن حب المرأة لأبنائها أم معلوم، ومن هنا بدأت تفكر فى إزاحة إسماعيل وأمه عن مكانتهما، فكان التبرير من كتبة التوراة أن إسماعيل كان يمزح فى وليمة فطام إسحاق - كما أشرنا آنفاً - وانطلاقاً من هذا كله، فقد استجابت هاجر لإبراهيم فيما ارتآه من أن يجنبها وولده النزاع الذى قد يتفاقم بين الزوجتين، والغيرة التى قد تقتل سارة، وتزعج أمن إبراهيم واستقراره.

ومن عجب أن نرى بعض شراح الكتاب المقدس يقدم لنا أسباباً أخرى لهذا الحدث، الذى يرى فيه عملا حكيمًا، منها (أولا) أنه كان يجب أن يبقى إسحاق وحده أمام إبراهيم، لأن إسحاق ابن الموعد، ولكن إسماعيل ابن الجسد، وابن الخطيئة (هكذا؟؟) ومنها (ثانيًا)أنه لا يجب أن يجذب إسماعيل أفكار إبراهيم، بل يجب أن تكون كل أفكار إبراهيم على إسحاق وحده، ومنها (ثالثًا) أن إسماعيل يكبر، ويحتاج إلى مكان أوسع، ومنها (رابعًا) أن إسماعيل إنسان وحشى، يده على كل واحد، ويد كل واحد

(١) عبد الوهاب النجار، المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٢) تكوين ١٦: ٥.

عليه، ومن الصعب أن يعيش مع إسحاق فى مكان واحد، ومنها (خامساً) أن الامتحان قادم على إبراهيم بذبح وحيده إسحاق ـ الأمر الذى سوف نناقشه فيما بعد ـ فإذا كان إسماعيل يعيش مع إبراهيم يكون الامتحان سهلا[١]. ولا أظن أن فى هذا الرأى من جديد، سوى التعصب ضد إسماعيل ـ عليه السلام ـ وترديد بعض روايات الكتاب المقدس.

وعلى أى حال، فإن القرآن الكريم لم يشر إلى سبب هذا الحادث، وإنما يروى الإمام البخارى فى صحيحه، عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن هاجر سألت إبراهيم عندما جاء بها وبابنها إسماعيل، عليهما السلام، وهى ترضعه، فوضعهما عند البيت، عند دوحة، فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ثم قفّى منطلقًا: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء؟ ثم أخذت تكرر هذا القول مراراً، وإبراهيم لا يلتفت إليها، فقالت: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا»[٢].

ومن هذا المنطلق، كان اعتقادنا، أن الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أقدم على ما أقدم عليه من رحلته إلى الحجاز بزوجته وولده، امتثالا لأمر الله،

(١) القس منيس عبد النور، إبراهيم السائح الروحى، ص ١٠١-١٠٢، دار الثقافة المسيحية، القاهرة.

(٢) صحيح البخارى، ١٧٢/٤-١٧٣ (دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨هـ)، وانظر: تفسير ابن كثير ٢٤٥/١-٢٥٥؛ قصص الأنبياء، ٢٠٣/١؛ البداية والنهاية ١٥٤/١-١٥٥؛ تفسير القرطبى٣٠٩/٩ (القاهرة ١٩٦٧)؛ تفسير الطبرى ٢٢٩/١٣-٢٣٣ (القاهرة ١٩٥٤)؛ تاريخ الطبرى ٢٥٢/١ (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠)؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ١٠٣/١؛ ابن خلدون ٣٦/٢ (بيروت ١٩٧١)، الأزرقى، أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار ٥٤/١، ٣٩/٢ (بيروت ١٩٦٩)؛ تاريخ اليعقوبى ٢٥/١ (بيروت ١٩٦٠)؛ المقدسى، البدء والتاريخ، ٦٠/٣ (باريس ١٩٠٣)؛ الفاسى، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ٣/٢ (القاهرة ١٩٥٦)، الديار بكرى، تاريخ الخميس ١٠٦/١ (القاهرة ١٣٠٢هـ)، تفسير الفخر الرازى، ١٣٦/١٩، تفسير روح المعانى ٢٣٦/١٣؛ قصص القرآن، ص ٥٧-٥٨.

ورغبة فى نشر الإيمان فى بيئة جديدة، وفى مناخ جديد، ثم ليبنى هناك - هو وولده إسماعيل - البيت الحرام، بعد أن قام بنشر الدعوة من قبل فى العراق، وفى سورية، وفى مصر، ثم ليربط ابنه وبكره إسماعيل، بما ارتبط هو به من قبل، فإبراهيم يرجع فى نسبه الأول إلى العرب العاربة والتى هاجرت من شبه الجزيرة العربية، وإبراهيم قد ولد ونشأ فى العراق، وإبراهيم هاجر إلى الشام وإلى مصر، ثم عاد إلى فلسطين، ثم من فلسطين إلى الحجاز، ومن الحجاز إلى فلسطين.

وأما إسماعيل - عليه السلام - فقد كان نصف مصرى، نصف عراقى، وإسماعيل ولد بالشام، وعاش فى بلاد العرب، وتزوج من يمنية - بل وكذلك من مصرية، فيما تروى التوراة [١] - وتخريجًا من هذا، فإن إسماعيل إنما هو رمز للعروبة كلها، رمز لعروبة الجزيرة العربية، ورمز لعروبة مصر، ورمز لعروبة العراق والشام، ولعل فى هذا ما يميزه على أخيه إسحاق، الذى اقتصرت حياته على جزء من الشام فحسب - على فلسطين - ولم يتصل بقرابة من دم، أو صلة من نسب، بغير عشيرة أبيه، حيث تزوج - فيما تروى التوراة [٢] - من ابنة خاله «لابان».

٩ - قصة الذبيح:

لم يترك الأب الحنون والشيخ الجليل ابنه فى ذلك المكان الموحش القفر بصحراء مكة دون أن يحن إليه ويذكره، ودون أن يزوره بين الحين والحين، وفى إحدى هذه الزيارات - وقد كان الغلام قد شب عن الطوق وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل - رأى الخليل - ﷺ - أنه يؤمر بذبح ولده هذا، ولما كانت أنبياء الله تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، فإن

---

(١) تكوين ٢١ : ٢١.

(٢) تكوين ٢٨ : ١-٢.

«رؤيا الأنبياء وحيٌ[١]» ولهذا فقد صمم الخليل على تنفيذ أمر ربِّه، ولم يثنه عن عزمه هذا، أن إسماعيل وحيده، وأنه قد رزق به وهو شيخ كبير، على رأس ست وثمانين سنة من عمره، وبعد أن ظل يرجوه أعواماً وأعواماً.

ورغم ذلك، فإن الخليل قد عقد العزم على إنجاز ما أمر به، بإيمان المؤمنين واستسلام المسلمين لله وحده، مما يدل على منتهى الطاعة، والأمثال لأمر الله، وهذا هو الإسلام[٢] بعينه، إذا أن الإسلام هو الطاعة والامتثال، وهو دين الله في الأولين والآخرين[٣]، ذلك أن الإسلام ـ في لغة القرآن ـ ليس اسمًا لدين خاص، إنما هو اسم الدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء[٤].

على أن الخليل ـ عليه السلام ـ رأى أن يعرض الأمر كله على ولده، ليكون أطيب لقلبه، وأهون عليه من أن يأخذه قسراً، ويذبحه قهراً، يقول سبحانه وتعالى: «فلما بلغ معه السعى قال يا بنيَّ إنِّى أرَى فى المنام أنِّى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتلّه للجبينِ، وناديناه أن يا إبراهيم، قد صدَّقْتَ الرؤيا إنَّا كذلك نجزى المحسنين، إنَّ هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم،

---

(١) ابن كثير، قصص الأنبياء، ٢١١/١؛ البداية والنهاية، ١٥٧/١؛ تفسير القرطبى، ١٠٢/١٥؛ تفسير ابن كثير، ٢٣/٧.

(٢) يقول ابن تيمية فى تعريفه للإسلام: «الإسلام هو أن يستسلم الإنسان لله لا لغيره، فيعبد الله ولا يشرك به شيئًا، ويتوكل عليه وحده، ويرجوه ويخافه وحده، ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقًا كحُب الله، بل يحب لله، ويبغض لله، ويوالى لله، ويعادى لله، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً، ومن يعبد مع الله غيره لم يكن مسلماً» (ابن تيمية، كتاب النبوات، ص ٨٧).

(٣) انظر: تفسير الطبرى، ٥١٠/٢-٥١١، ٧٤/٣ (طبعة دارالمعارف).

(٤) محمد الراوى، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص ٥١؛ محمد عبد الله دراز، الدين ـ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، القاهرة ١٩٦٩م، ص ١٨٣.

وتركنا عليه فى الآخرينَ، سلامٌ على إبراهيمَ، كذلك نجزى المُحْسنينَ، إنَّه من عبادنا المؤمنين، وبشَّرْناه بإسحاق نبيًّا مِنْ الصالحين﴾(١).

وتقرر هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى أمر نبيَّه بذبح ولده، والله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه، وذلك فى باب الابتلاء والاختبار، أعنى ابتلاء الصدق والإخلاص فيما يشق على النفس تحمله، فلما علم سبحانه الصدق من إبراهيم، فدى ولده بذِبْحٍ، ولاشك أنه عليه السلام فرح بهذا الفداء، فرحًا يعدل أو يفضل الحزن الذى كان يجده فى صدره، وهو يحاول تنفيذ أمر الله، فى ذبح ابنه وأعز الناس عليه(٢).

(٩) قصة الذبيح وأهميتها فى التاريخ اليهودى:

يختلف اليهود عن المسلمين فى اسم الذبيح، فبينما يرى المسلمون أنه إسماعيل، ترى اليهود والنصارى أنه إسحاق، هذا إلى أن قصة الذبيح عند اليهود تختلف عنها عند المسلمين، والذى يقرأ تاريخ اليهود ليرى أن هذا الاختلاف له جانب هام يفوق فى أهميته جانب البحث التاريخى الذى يراد به مجرد العلم باسم الذبيح من ابنى إبراهيم، فإنه اختلاف يتعلق به اختيار الشعب الموعود، ويتعلق به الحذف والإثبات فى سيرة إبراهيم ليتصل بذرية إسحاق، وينقطع عن ذرية إسماعيل، أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق بإسرائيل، وينقطع منها كل ما يتصل بالعرب(٣).

وقد بدأ هذا النزاع قديماً، قبل تدوين نسخ التوراة التى كتبت فى بابل على أيام السبى البابلى (٥٨٧-٥٣٩ق.م)، وواضح أن هذا النزاع فى أوله

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٠٢-١١٢؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٥٥٤٣-٥٥٥٨؛ تفسير ابن كثير ٣٠-٢٢/٧؛ تفسير ابن عباس ٧٥٤-٧٤٣/٢ (جامعة أم القرى - مكة المكرمة)؛ مسند الإمام أحمد، ٢٩٧/١؛ مجمع الزوائد للهيثمى، ٢٠٠/٨؛ تفسير الطبرى، ٧٧-٨/٢٣؛ مجاز القرآن لأبى عبيدة، ١٧١/٢؛ معانى القرآن للفراء، ٣٩٠/٢؛ تفسير الألوسى، ١٣٠/٢٣.

(٢) أحمد حسن الباقورى، مع القرآن، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٣٠.

(٣) عباس العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ٨٦.

لم يكن نزاعًا فى العقيدة، فإن التوراة تروى فى سفر التكوين[١] عن إبراهيم أنه قدم العشر لملكى صادق ملك شاليم، كاهن الله العلىّ - أو عليون - الذين كان معبود السكان فى فلسطين وما جاورها إلى الجنوب[٢].

ومن عجب أن يذهب بعض الباحثين من النصارى إلى أن إبراهيم عندما أخذ البركة من ملكى صادق، أعطاه العشر من كل ما كان معه، وهذا يظهر لنا أن ملكى صادق أعظم من إبراهيم، والدليل على ذلك أن ملكى صادق بارك إبراهيم، والكبير دومًا يبارك الصغير[٣]، هكذا تلقى الأحكام جزافًا دون مراعاة لمقام الأنبياء الكرام، ودونما تحقيق للنص ومدى صحته وهو الذى تحيط به سهام الريب من كل جانب.

وعلى أى حال، فلقد زار «هيرودوت» (حوالى ٤٨٤-٤٣٠ق.م) بلاد العرب الشمالية عند مدخل مصر، وروى أنهم كانوا يعبدون الله تعالى و«اللات» أو (إيليلات)، منذ قرون سابقة للقرن الخامس قبل الميلاد - وهو القرن الذى عاش فيه هيرودوت - فلم يكن النزاع على العقيدة فى نشأته إلا فرعًا من فروع التنازع على الميراث، ولم يكن شأن الذرية الموعودة أو المختارة إلا أنها تعزز دعواها فى ذلك النزاع وتنفى عنه من ينازعها عليه[٤]، ومن هنا كانت الدعوة بأن الذبيح كان إسحاق رغبة فى اغتصاب شرف عرف لإسماعيل، جد العرب، وقد أدى ذلك إلى أن يوجد لدينا رأيان عن الذبيح من ولدىّ إبراهيم - عليهم السلام جميعًا.

---

(١) تكوين ١٤: ١٨-٢٠.

(٢) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ٨٧.

(٣) القس منيس عبد المنور، المرجع السابق، ص ٤٣.

(٤) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ٨٧.

١ - الرأى الأول: الذبيح هو إسحاق عليه السلام:

تقول اليهود والنصارى أن الذبيح هو إسحاق، معتمدين فى ذلك على عدة أمور منها: (أولا) نص التوراة الذى يقول: «خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى المريا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك[١]»، ومنها (ثانيًا) ما جاء فى الإنجيل فى الرسالة إلى العبرانيين، «بالإيمان قدّم إبراهيم إسحاق وهو مجرب، قدّم الذى قبل المواعيد وحيده، الذى قيل له إنه بإسحاق يدعى لك نسل، إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضًا»[٢].

ومنها (ثالثًا) أن إسحاق قد ولد بطريقة خارقة للطبيعة، وأنه قد أعطى اسمًا قبل أن تحمل به أمه[٣]، ويصبح فى بطنها جنينًا، بل إن «ماير» ليرى أن هناك فوارق عظمى بين ولدىّ إبراهيم، فقد كان إسماعيل ابن الجارية وأما إسحاق فقد كان ابن الزوجة الشرعية، بل إن الشطط والتعصب الأعمى ليبعد به عن الحق حدًا يرى فيه أن إسحاق أرفع قدرًا من إسماعيل بدرجة لا تترك مجالا للمقارنة بينهما[٤].

هذا إلى جانب بعض الروايات الإسلامية عن كعب الأحبار - وهو من مسلمة أهل الكتاب الذين لعبوا دورًا كبيرًا فى نشر الإسرائيليات فى كتب التفسير - من أن الذى أمر إبراهيم بذبحه إنما كان إسحاقًا[٥].

وإذا أردنا مناقشة حجج اليهود والنصارى هذه، وأخذنا حجج الطرف

(١) تكوين ٢٢ : ٢.
(٢) الرسالة إلى العبرانيين ١١ : ١٧-١٩.

(٣) حبيب سعيد، خليل الله فى اليهودية والمسيحية والإسلام، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة، ص ٩٣، تكوين ١٨ : ٩-١٥.

(٤) ف ب. ماير، حياة إبراهيم، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٥) انظر: تاريخ الطبرى، ٢٦٥/١؛ ابن كثير، البداية والنهاية ١٥٩/١-١٦٠؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ١٠٩/١؛ النيسابورى، قصص الأنبياء، ص ٨٠-٨٢؛ تفسير القرطبى، ص ٥٥٤٤-٥٥٤٥؛ تفسير ابن كثير ٢٣/٧، ٢٧؛ تفسير الطبرى ٨٦/١٢؛ سقط الزند ٦٤/١.

الأول (اليهود)، فإننا نلاحظ أن التوراة إنما تصف الذبيح بأنه ابن إبراهيم الوحيد، وهو وصف لا يمكن ـ بحال من الأحوال ـ أن ينطبق على غير إسماعيل وحده في السنوات الأربعة عشرة الأولى من عمره، والتي سبقت مولد إسحاق، وانطلاقًا من هذا فإن إسحاق لم يكتب له في يوم من الأيام أن يكون وحيد إبراهيم، حيث عاش إسماعيل في هذه الدنيا، حتى انتقال إبراهيم إلى الرفيق الأعلى ثم اشترك مع إسحاق في دفنه بمغارة المكفيلة، كنص التوراة نفسها[1]، وهكذا لم يكن إسحاق أبداً وحيداً مع وجود إسماعيل، أما إسماعيل فقد كان وحيداً قبل مولد إسحاق، وطوال أربعة عشر عاماً.

ومن هنا كان لفظة إسحاق في نص التوراة «خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق» ـ فيما يرى الإمام ابن كثير وغيره ـ مقحمة، لأنه ليس هو الوحيد، ولا البكر، وإنما ذلك هو إسماعيل، وأن الذى حمل اليهود على هذا إنما هو حسد العرب[2] أبناء إسماعيل، وحرصًا من يهود على أن يكون أبوهم إسحاق هو الذبيح الذى جاد بنفسه في طاعة الله، وهو في حالة صغره، هذا فضلا عن أن ذلك إنما يناقض نصوصاً أخرى من التوراة.

وأما ما جاء في الروايات الإسلامية، نقلا عن كعب الأحبار، فذلك إنما يرجع إلى أن المسلمين إنما يؤمنون بنبوة إسحاق ويعقوب ويوسف، ومن هنا استغل بعض اليهود الذين أسلموا هذا الإيمان ـ ومنهم كعب الأحبار ووهب بن منبه ـ فنشروا كثيراً من الإسرائيليات[3] ـ ونقلوا أمثال هذه

---

(١) تكوين ١٦:١٦، ٢٥:٩.

(٢) ابن كثير: قصص الأنبياء، ٢١٤/١؛ البداية والنهاية، ١٥٩/١؛ وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣١/٤-٣١٢ (الرياض ١٣٨١هـ)

(٣) انظر عن: الإسرائيليات في التفسير: محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ١٠٥/١-١١١، الطبعة الثالثة، الإسكندرية ١٩٩٥.

الروايات التى لم يبت القرآن الكريم فيها بحكم، تحقيقًا لأغراض خاصة بهم.

ومن أسف أن كثيراً من المفسرين المسلمين بالغوا فى الطمأنينة إلى أولئك الرواة[١]، وفاتهم أنهم إن سلموا من سوء النية، لم يسلموا من الجهل وضعف السند وقلة التثبيت والتمحص، وفاتهم كذلك أن الفاروق عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ/ ٦٣٤-٦٤٤م)، والإمام علي بن أبي طالب (٣٥-٤٠هـ/ ٦٥٦-٦٦١م)، كانا ينهيان كعب الأحبار عن الإفاضة فى رواياته وأساطيره الكثيرة، ومن هنا فإننا لا نطمئن كثيراً إلى هذه الروايات المنقولة عنهما، بل إن معاوية ـ كما فى صحيح البخارى ـ ليقول عن كعب «وإن كنا ـ مع ذلك ـ نبلوا عليه الكذب»[٢].

وأما ما جاء فى الإنجيل فى الرسالة إلى العبرانيين، فقد كان الحل الذى ارتضاه فقهاء المسيحية للخروج من مشكلة: كيف يؤمر إبراهيم بذبح ولده إسحاق، وهو ابنه الموعود الذى يخرج منه الشعب المختار، طبقًا لنص التوراة «بإسحاق يدعى لك نسل[٣]»؟. إذ لو كان إسحاق قد كبر وصار له ابن يحافظ على النسل فى الأجيال القادمة لزالت العقبة، ولكن كيف يتفق أن يموت إسحاق الذى لم يكن له ابن بعد، ثم يتحقق الوعد الذى أعطى لإبراهيم بأن يكون له من إسحاق نسل كرمل البحر، وكنجوم السماء.

ومن هنا ـ كما يقول الدكتور ماير[٤] ـ كان الفكر الوحيد الذى ملأ

---

(١) لعل أشهر كتب التفسير التى روت كثيراً من الإسرائيليات، إنما هى تفسير مقاتل بن سليمان والطبرى والثعلبى والخازن، وأما التى تحرجت عن التوسع فيها فأشهرها، تفسير ابن كثير والألوسى ومحمد رشيد رضا.

(٢) انظر: الذهبى، الإسرائيليات فى التفسير والحديث، القاهرة ١٩٧١، ص ١٢٥-١٤٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠٨/٨؛ أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٩٨؛ تفسير المنار، ٩/١-١٠١؛ فتح البارى بشرح صحيح البخارى، ٢٥٩/١٣؛ صحيح البخارى، ١٣٦/٩ (دار الحديث ـ القاهرة).

(٣) تكوين ٢١: ١٢.

(٤) ف.ب. ماير، حياة إبراهيم، ص ٢٥٦ .ثم قارن: تاريخ ابن خلدون، ٣٨/٢ (بيروت ١٩٧١)

قلب إبراهيم، على أى حال، هو «أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضاً[١]».

وحل المشكلة على هذا الوجه جديد فى المسيحية لم ينظر إليه أحبار اليهود الذين اعتبروا أن التضحية قائمة على تسليم إبراهيم بموت إسحاق، وأنه أطاع الله ولم يطع قلبه، ولم يحفل بحنانه على ابنه الموعود[٢]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن هذا الحل الذى ارتضاه فقهاء المسيحية، يقلّل كثيراً من قيمة تضحية إبراهيم وإذعانه لربّه، مادام أنه كان على يقين من أن الله سوف يعيد الحياة إلى ولده بعد أن يقوم بذبحه بنفسه، ثم إن إبراهيم لم يكن قد رأى أو سمع أن الله أقام أحداً من الأموات ولا يسجل لنا الكتاب المقدس قبل هذا قيامة أحد من الأموات[٣].

وأما حجتهم بأن إسحاق قد ولد بطريقة خارقة للطبيعة، وأنه قد أعطى اسمًا قبل أن تحمل به أمه، فلعلهم يقصدون بالولادة الخارقة للعادة، أن إسحاق قد ولد لإبراهيم وهو شيخ فى المائة من عمره وامرأته عجوز فى التسعين من عمرها[٤]، فذلك صحيح تمامًا، وهو أمر واضح فى القرآن الكريم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ولقد جاءتْ رُسُلُنا إبراهيمَ بالبشرى قالوا سلامًا قال سلامٌ فما لبثَ أنْ جاءَ بعجْلٍ حَنِيذ، فلمَّا رأى أيديَهم لا تصل إليه نَكِرَهُم وأوجسَ منهم خيفةً قالوا لا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلْنَا إلى قومِ لوطٍ، وامرأته قائمةٌ فضحكَتْ فبشرناها بإسحاق ومن وراءِ إسحاق يعقوب، قالت يا ويلتى ءألدُ وأنَا عجوزٌ وهذا بَعْلِى شيخًا إنَّ هذا لشىءٌ عجيبٌ، قالوا أتعجَبينَ مِنْ أمرِ

(١) الرسالة إلى العبرانيين، ١١: ١٩.

(٢) تكوين ٢٢: ١-١٨، وانظر: عباس العقاد، المرجع السابق، ص ٨٧.

(٣) منيس عبد النور، المرجع السابق، ص ١١٦. (٤) تكوين ١٧: ١٧.

(٥) سورة هود، آية. ٦٩-٧٣؛ وانظر: تفسير المنار، ١٢/١٠٥-١٠٨ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤)؛ تفسير الطبرى ١٥/٣٨١-٤٠٠ (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠)؛ تفسير القرطبى ص ٣٢٩٠-٣٢٩٨ (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠)؛ تفسير ابن كثير، ٤/٢٦٤-٢٦٦، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧١)؛ وانظر: صحيح البخارى، كتاب الأنبياء، باب «قوله تعالى ﴿واتَّخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً﴾، ٤/١٧٨؛ صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب «الصلاة على النبىّ ﷺ بعد التشهد، ٢/٤٧-٤٩ (دار الشعب ١٩٧١)

الله رحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهلَ البيت إنَّه حميدٌ مجيدٌ﴾[٤]، ويقول تعالى ﴿ونبِّئهم عن ضيفِ إبراهيمَ إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال إنَّا منكم وَجِلون، قالوا لا توجَل إنَّا نبشِّرك بغلامٍ عليم، قال أبشَّرتموني على أن مسَّنيَ الكِبَرُ فبِمَ تبشِّرون، قالوا بشَّرناك بالحقِّ فلا تكن من القانطين﴾[١].

ولكنه صحيح كذلك أن ولادة إسماعيل فيها نفس الأمر[٢]، أو هي جد قريب من ذلك، لأن إسماعيل قد ولد لإبراهيم وهو في السادسة والثمانين من عمره، وفي هذا ـ وفي ولادة إسحاق ـ يقول القرآن الكريم ﴿الحمدُ لله الَّذي وهبَ لي على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاق إنَّ ربِّي لسميع الدُّعاء﴾[٣]

بل إن إبراهيم ـ فيما تروى التوراة ـ نفسها ـ قد تزوج من قطورة الكنعانية ورزق منها بستة بنين، وهو في السابعة والثلاثين بعد المائة[٤]، هذا فضلا عن أن الروايات الإسلامية إنما تضيف للخليل زوجة رابعة في الفترة فيما بين زواجه بقطورة وبين وفاته، وهو في الخامسة والسبعين بعد المائة من عمره[٥]، دعتها «حجورة»، ولدت له خمسة بنين[٦].

(١) سورة الحجر، آية: ٥١-٥٥؛ وانظر تفسير ابن كثير، ٤٥٨/٤-٤٥٩، تفسير القرطبي، ص ٣٦٥٠-٣٦٥٢.

(٢) تذهب بعض الروايات الإسلامية إلى أن إسماعيل ولد لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة، وتذهب روايات أخرى إلى أن إسماعيل ولد لإبراهيم وهو ابن أربع وستين، وإسحاق لسبعين، بينما هناك روايات تذهب إلى أنه لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة (انظر: تفسير روح المعاني، ٢٤٣/١٣؛ تفسير النسفي، ٢٦٤/٣؛ تفسير القرطبي، ٣٧٥/٩؛ تفسير الطبري، ٢٣٥/١٣؛ تفسير البيضاوي، ٥٣٣/١).

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٣٩. انظر: تفسير القرطبي، ص ٣٦٠٣-٣٦٠٤؛ تفسير ابن كثير، ٤٣٢/٣-٤٣٣.

(٤) تكوين ٢٥: ١-٤؛ ٢٣: ١-٢. (٥) تكوين ٢٥: ٧.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٣١١/١ (تاريخ الطبري، القاهرة ١٩٦٠) ثم قارن: ابن كثير: البداية والنهاية، ١٧٥/١ (بيروت ١٩٦٦)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٢٢/١ (بيروت ١٩٦٥)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٢/١ (دار التحرير، القاهرة، ١٩٦٨)

هذا فضلا عن أن قصة ولادة إسحاق - عليه السلام - بالطريقة التى روتها التوراة، ليست فريدة فى نوعها، فهناك ولادة «يحيى» - عليه السلام - والمعروف عند المسيحيين بيوحنا المعمدان - تكاد تكون تكرار لولادة إسحاق، ذلك أن أبا يحيى - زكريا عليه السلام - قد بلغ من الكبر عتيًا، بعد أن تقدمت به الأيام، وضعفت عظامه وهنا، واشتعل رأسه شيبًا، دون أن يرزق بولد، وكانت امرأته - اليصابات فى الروايات المسيحية[1] - عاقرًا، لا تلد، وها هى الآن قد تقدمت بها السن، حتى وصلت إلى سن اليأس، واستحال عليها قطعًا الخلف والولادة[2]، وفى ذلك يقول الإنجيل: «ولم يكن لهما ولد، إذ كانت اليصابات عاقرًا،وكانا كلاهما متقدمين فى أيامهما»[3].

وتحركت فى نفس زكريا رغبة قوية فى أن يتجه بجوارحه ووجدانه، وبقلبه وعقله، إلى الله سبحانه وتعالى، يسأله أن يهبه غلامًا زكيًا، وإلى هذا يشير القرآن الكريم، فى قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[4].

وأوحى الله - جل شأنه - إلى عبده زكريا، أنه قد سمع النداء، واستجاب للدعاء، فبشرته الملائكة بمولود طيب، فاختلط على زكريا الأمر،

---

(١) معنى اسم «اليصابات» (الياصابات) كما يظهر من تكوينه، هو «صابات» أى قسم، وإليا أى الله، أى يمين الله أو قسمه، أو بما يحلف به اليمين الصادق، مما يدل على طهارتها ونقائها وصلاحها، وكانت من بنات هارون، كما أنها أخت زوجة عمران أى أنها خالة الطاهرة العذراء مريم أم المسيح، عليهما السلام (انظر: عبد الرازق نوفل، يوحنا المعمدان، ص ٣٥، القاهرة ١٩٧٧).

(٢) انظر: النيسابورى، قصص الأنبياء، ص ٣٣٦-٣٣٨؛ ابن كثير، قصص الأنبياء ٣٤٨/٢-٣٦٢ (القاهرة ١٩٦٨)؛ عبد الرازق نوفل، يوحنا المعمدان، النبىّ يحيى ﷺ، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٧، ص ٢٦.

(٣) إنجيل لوقا، ١ : ٧.

(٤) سورة مريم، آية: ٢-٦. وانظر: تفسير القرطبى، ص ٤١١٢-٤١٢٠.

وخشى أن يكون ما يسمعه حلماً من أحلام اليقظة، فسألهم: كيف يكون ذلك، وهو هكذا فى حالته، وامرأته عاقر، وذلك بالرغم من إيمانه بغير حدود بقدرة الله سبحانه وتعالى، ولكنه السؤال الذى يريد أن يمتحن نفسه بأن ما يسمعه حقاً، وليس وَهْماً، وبالرغم من الرد الذى سمعه ويعتقده من قبل، طلب أن يرى آية تلازمه فترة، ليعرف بها، ويتأكد منها، أنه فى حالة يقظة، وأن الأمر سيتم - لاسيما وأن الحمل والولادة إنما تحتاج إلى أشهر عديدة، سيكون أثناءها قلقاً، إن لم يكن مطمئناً متأكداً - فقالت الملائكة إن علامته أن لا يكلم الناس إلا رمزاً، وطوال أيام ثلاثة[١].

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة آل عمران، حيث يقول عزَّ من قال: ﴿فنادته الملائكةُ وهو قائمٌ يصلِّى فى المحراب أن الله يبشِّرُكَ بيحيى مصدِّقًا بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبيًا من الصَّالحينَ، قال ربِّ أنَّى يكونُ لِى غُلامٌ وقد بلغنى الكبرُ وامرأتى عاقرٌ، قال كذَلك الله يفعلُ ما يشاء، قال ربِّ اجعل لى آيةً، قال آيتكَ ألا تُكلِّمَ النَّاسَ ثلاثةَ أيامٍ إلا رمزاً، واذكرْ ربَّكَ كثيراً وسبِّح بالعشىِّ والإبكارِ﴾[٢].

ثم هناك ولادة المسيح عيسى بن مريم - عليه السلام - بدون أب، ثم ولادة آدم - عليه السلام - من غير أب، حتى ولا أم، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى سورة آل عمران: ﴿إنَّ مثلَ عيسى عندَ اللهِ كمثلِ آدمَ خلقَهُ من ترابٍ ثمَّ قالَ له كُنْ فيكون﴾[٣].

(١) عبد الرازق نوفل، المرجع السابق، ص ٣١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣٨-٤١؛ وانظر: تفسهر الطبرى، ٣٥٩/٦-٣٩٣؛ تفسير الكشاف، ٣٥٩/١-٣٦١؛ تفسير الطبرسى، ٧٠/٣-٧٦؛ تفسير روح المعانى ١٤٤/٣-١٥٤؛ تفسير النسفى ٢١١/١-٢١٤؛ تفسير القرطبى، ص ١٣١٤-١٣٢٤؛ تفسير المنار، ٢٤٣/٣-٢٤٦؛ تفسير ابن كثير، ٢٩/٢-٣١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٥٩؛ وانظر: تفسير ابن كثير، ٤٠/٢-٤٣؛ تفسير الطبرسى، ٩٨/٣-١٠١؛ تفسير الطبرى، ٤٦٧/٦-٤٧٢؛ تفسير روح المعانى ١٨٥/٣-١٨٧؛ تفسير الكشاف ٣٦٧/١؛ تفسير القرطبى ص ١٣٤٤-١٣٤٥؛ تفسير المنار، ٢٦٢-٢٦٣؛ معانى القرآن للفراء، ٢١٩/١؛ النيسابورى، المرجع السابق، ص ٣٤٢٤-٣٤.

هذا فضلا عن أن الله وحده هو الذى يعلم: كم عدد الرسل والنبيّين الذين ولدوا بغير الطريق الطبيعى إشعاراً لقومهم برسالاتهم، ولا كيف كان مولدهم، إلا أن الأديان السماوية إنما قد أوضحت أن من هؤلاء الرسل والنبيّين إنما كان آدم وإسحاق ويحيى وعيسى عليهم السلام[١].

وأما حجتهم بأن إسحاق قد أعطى اسمًا قبل أن يولد، فهذا صحيح، ولكنه صحيح كذلك، أن إسماعيل ـ وبنص التوراة ـ قد أعطى اسمًا قبل أن يولد، يقول سفر التكوين: «وقال لها (أى هاجر) تكثير أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة، وقال لها ملاك الربّ: ها أنت حبلى فتلدين ابنًا وتدعين اسمه إسماعيل[٢] (بمعنى الله يسمع)، فإذا كان إعطاء إسحاق اسمًا قبل أن يولد، كرامة له فى نظر اليهود ـ وهذا ما نعتقده ـ فهو كرامة لإسماعيل كذلك، بل إن إسماعيل قد سبق إسحاق فى هذه الكرامة، إذ أعطى اسمه قبله، بل إن التوراة نفسها إنما تتحدث عن البشارة بإسماعيل قبل أن تتحدث عن البشارة بإسحاق[٣].

هذا فضلا عن يحيى[٤] وعيسى[٥] ـ عليهما السلام ـ بنص الإنجيل، قد أعطيا اسميهما قبل أن يولدا كذلك، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى سورة آل عمران ـ عن المسيح عليه السلام ـ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[٦]، ويقول فى سورة مريم عن يحيى

(١) عبد الرازق نوفل، امرجع السابق، ص ٢٥ (٢) تكوين ١٦ : ١١.

(٣) تكوين ١٦ : ١٨، ١٧ : ١٩. (٤) لوقا ١ : ١٣.

(٥) لوقا ٢ : ٢١، متى ١ : ٢١.

(٦) سورة آل عمران، آية: ٤٥؛ وانظر: تفسير الطبرى ٦/٤١٠-٤١٦؛ تفسير الطبرسى ٣/٧٩-٨٢؛ تفسير الكشاف ١/٣٦٢-٣٦٣؛ تفسير روح المعانى ٣/١٦٠؛ تفسير المنار ٣/٢٦٢، ٢٦٤؛ تفسير القرطبى، ص ١٣٤٤-١٣٤٥؛ تفسير ابن كثير ٢/٤٠-٤٥؛ سيرة ابن هشام ١/٢٣٧-٢٣٨؛ التهامى نقرة، سيكولوجية القصة فى القرآن، تونس ١٩٧٤، ص ١٠٥-١١٠.

عليه السلام: ﴿يا زكريا إنَّا نُبشِّرُكَ بغلامٍ اسمه يحيى لم نجعلْ له مِنْ قبلُ سَمِيًّا﴾(١)

وأما ما يزعمه الدكتور ماير من أن إسماعيل ابن الجارية وأن إسحاق ابن الزوجة الشرعية(٢)، فهو يعتمد فى ذلك على ما جاء فى الإنجيل فى الرسالة لأهل غِلاطية، من «أنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية وآخر من الحرة، لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد، وأما الذى من الحرة فبالموعد»(٣).

وإذا أردنا مناقشة هذا الاتجاه، فإننا نلاحظ ـ أول ما نلاحظ ـ أن هذا الاتجاه ليس إلا ترديداً لما جاء فى التوراة (٤) بهذا الشأن، وقد سبق لنا مناقشته وإن كان لزامًا أن نضيف جديداً هنا، فهو القول بأن هاجر أم إسماعيل كانت جارية لسارة، أمر يحتاج إلى إعادة نظر، وسوف نناقشه فيما بعد.

هذا فضلا عن أن مفسرى التوراة من رجال الدين المسيحيين يريدون أن يصبغوا هذه النصوص بالصبغة المسيحية، فالنظرية المسيحية ـ فيما يرى آباء الكنيسة وفقهاؤها ـ تحرم تعدد الزوجات، رغم أنه لم يرد فى أقوال المسيح عليه السلام، إشارة صريحة إلى مبدأ الوحدة الزوجية أو مبدأ منع تعدد الزوجات(٥)، ومع ذلك فهناك من آباء الكنيسة وفقهائها من يرى أن هناك

(١) سورة مريم، آية: ٧؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٤١٢١-٤١٢٢.

(٢) ف.ب.ماير: المرجع السابق، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٣) الرسالة لأهل غلاطية، ٤: ٢٢-٢٣.

(٤) تكوين ١٦: ١-٩.

(٥) حلمى بطرس، أحكام الأحوال الشخصية للمصريين غير المسلمين، القاهرة ١٩٥٧، ص ٩٩ (ويعلل ذلك بأن القاعدة السائدة فى المجتمع الرومانى واليهودى عند مبعث المسيح هو مبدأ الوحدة الزوجية، فلم تكن هناك حاجة للنص عليه، غير أننا نلاحظ، حتى وإن كان المجتمع الرومانى يأخذ بمبدأ الزوجة الواحدة فإن المجتمع اليهودى الذ بعث فيه وإليه المسيح كان ـ ومايزال ـ يعترف بتعدد الزوجات (انظر: عبد الناصر توفيق العطار، تعدد الزوجات، ص ٩١، القاهرة ١٩٧٢).

نصوصاً فى العهد الجديد تشير ضمناً إلى تحريم تعدد الزوجات[١]، غير أن هناك من آباء الكنيسة من يرى أن تحريم تعدد الزوجات عند المسيحيين كان بالنسبة لآباء الكنيسة فحسب، ولم يحرم على غيرهم من المسيحيين إلا فى وقت لاحق، والواقع أننا إذا رجعنا إلى كتابات آباء الكنيسة الأولين نجد فيها ما يحرم على الكهنة التزوج بأكثر من امرأة واحدة، ولم يرد فيها تحريم تعدد الزوجات على سائر المسيحيين صراحة فى النصوص الفقهية الأولى، وإنما كانت هناك نصوص تمنع الرجل من تطليق زوجته ليتزوج بأخرى[٢].

وأياً ما كان الأمر بالنسبة إلى المسيحيين، فإنهم إنما طبقوا نظام تعدد الزوجات على أم إسماعيل وأم إسحاق ـ عليهما السلام ـ فجعلوا من «هاجر» جارية، ومن «سارة» زوجة شرعية، وفاتهم أن الأسرة الإسرائيلية إنما كانت تقوم على تعدد الزوجات، كما كانت تساوى بين هولاء الزوجات فى الحقوق والواجبات، وإن كان عددهن يتفاوت قلة وكثرة، حسب ثروة الرجل ومكانته، وإن كان علماء «التلمود» يحددون للرجل أربع زوجات فقط، وللملك ثمانى عشرة زوجة، كما أن قانون الملوك يمنعهم من المبالغة فى اقتناء الزوجات، تقول التوراة: «ولا يكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه»[٣]

غير أن بعض الإسرائيليين قد استغلوا هذا الحق فبالغوا فيه، حتى «كان لجدعون سبعون ولداً خارجون من صلبه لأنه كانت له نساء كثيرات»[٤]، وطبقاً لرواية التوراة، فقد تزوج داود ـ عليه السلام ـ نساءً كثيرات ـ عدا

---

(١) انظر: مرقص ١٠: ١٠-١٢، متى ١٩: ٤-١٦، ١٨؛ لوقا ١٤: ١٦؛ رسالة بولس إلى أفسس ٥: ٢٣؛ البابا شنودة، شريعة الزوجة الواحدة فى المسيحية ص ٩٧.

(٢) انظر: شفيق شحاتة، أحكام الأحوال الشخصية لغير المسلمين من المصريين، القاهرة ١٩٦٢، الجزء السادس، ص ١١-١٧.

(٣) تثنية ١٧: ١٧؛ وانظر· فؤاد حسنين، إسرائيل عبر التاريخ ٩٩/١.

(٤) قضاة ٨: ١٣.

الإماء السرارى[١]، وقد تزوج «رحبعام» بن سلميان (٩٢٢-٩١٥ق.م) بثماني عشرة امرأة، وستين سرية، ولدن له ثمانية وعشرون ولداً وستون بنتاً[٢]»، وتزوج «ابيا» (٩١٥-٩١٣ق.م) أربع عشرة امرأة وخلّف اثنين وعشرين ابناً وست عشرة بنتاً[٣]، وفاق سليمان كل أقرانه، فقد «كانت له سبع مئة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السرارى»[٤].

وإذا ما عدنا إلى عصر الآباء الأوائل، فإننا نجد أن الخليل ـ عليه السلام ـ يتبع هذا المبدأ، فيجمع بين هاجر وسارة، وبين قطورة وحجورة[٥]، والأمر كذلك بالنسبة إلى يعقوب ـ أبي الآباء كما يسمونه ـ الذى يجمع بين لئية وراحيل، وزلفة وبلهة، وكان منهن أبناؤه الاثنى عشر[٦] وبنته دينه.

وانطلاقاً من هذا كله، يظهر لنا بوضوح أن مبدأ تعدد الزوجات ـ كما يقول جوستاف لوبون[٧] ـ كان شائعاً كثيراً لدى بنى إسرائيل على الدوام، وما كان القاون المدنى أو الشرعى ليعارضه، سواء أكان ذلك للأنبياء أو غير الأنبياء، وسواء أكان فى عصر الآباء، أو عصر الملكية، حتى حدده الربانيون بأربعة، وإن أطلقه القراءون، وأن التفسير الذى قدّمه صاحب الرسالة إلى أهل غلاطية، إنما يقدم الصورة المسيحية ـ وليس اليهودية ـ للزواج، وإنه لأمر مناف للعقل والمنطق أن تطبق شريعة دين على شريعة دين سبقه.

---

(١) صموئيل أول ٢٨ : ٢٧؛ ٢٥ : ٣٩، ٤٣؛ صموئيل،ان ٣ : ٣، ٤؛ ٥ : ١٣.

(٢) أخبار الأيام الأول ١١ : ٢١. (٣) أخبار الأيام الثانى ١٣ : ٢١. (٤) ملوك أول ١١ : ١٣.

(٥) تكوين ١١ : ٢٩-٣١؛ ١٦ : ١-١٣؛ ٢٥ : ١-٣؛ وانظر: تاريخ الطبــــرى ١/ ١٦٠، ٢٢٤، ٣٠٩-٣١١؛ أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر ١/ ١٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ٢١؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ١/ ١٠٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١/ ١٥٠؛ ف.ب.ماير: حياة إبراهيم، ص ١٣٦، ٢٣٦؛ متينش عبد النور، المرجع السابق، ص ٨، ١٧؛ حبيب سعد، المرجع السابق، ص ٩٧.

(٦) تكوين ٢٩ : ١-٣٥؛ ٣٠ : ١-١٣؛ ٣٥ : ٢٣-٢٦.

(٧) جوستاف لوبون، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٦٧، ص ٥٠.

وهكذا ـ كما يقول نيوفلد ـ أن التلمود والتوراة معًا قد أباحا تعدد الزوجات على إطلاقه، وإن كان بعض الربانيين ينصحون بالقصد فى عدد الزوجات، وأن قوانين البابليين وجيرانهم من الأمم التى اختلط بها بنو إسرائيل كانوا جميعًا على مثل هذه الشريعة[١].

وهكذا نستطيع أن نقرر ـ ونحن مطمئنون ـ أن هاجر وسارة ـ رضى الله عنهما ـ كانتا كلتاهما زوجة فاضلة للخليل، عليه السلام، ولكل منهما من الحقوق والواجبات الزوجية ما للأخرى، وأن الأمر كذلك بالنسبة لولديهما النبيين الكريمين ـ إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

وإذا لم يقتنع علماء اليهود والنصارى بما نقول، فما رأيهم فى أبناء يعقوب الاثنى عشر ـ وهم فى نفس الوقت رؤوس الأسباط [٢] الاثنى عشر ـ

---

(١) عباس العقاد، المرأة فى القرآن، بيروت ١٩٦٩، ص ١١٣؛ وانظر: أثر القوانين البابلية والمصرية وغيرها فى تشريعات اليهود (كتابنا إسرائيل، الفصل الثانى، التوراة، ص ١٣٨-١٥٩، طبعة أولى ١٩٧٣). وانظر: طبعة ١٩٧٩، الكتاب الثالث، ص ٣٣٢-٣٤٧.

(٢) جاء فى «المصباح المنير، السبط ولد الولد، والجمع أسباط، مثل حمل وأحمال، والسبط، الفريق من اليهود، يقال للعرب قبائل واليهود أسباط، ومن هنا يذهب المفسرون المسلمون إلى أن الأسباط هم بنو يعقوب، كانوا اثنى عشر رجلا، كل واحد منهم ولد سبطًا، أمة من الناس فسموا أسباطًا (انظر: تفسير الطبرى ١٣١/٢، ١١١/٣-١١٣؛ تفسير الألوسى ٢٠٥/٣، ١٦/٦)؛ وأنهم المقصودون فى قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله...﴾ الآية (انظر: سورة آل عمران، آية: ٨٤؛ تفسير الطبرى، ٥٦٩/٦) أو أنهم حفدة يعقوب، ذرارى أبنائه الاثنى عشر (تفسير الكشاف ١٩٥/١)؛ ومن ثم فالأسباط فى أبناء إسحاق كالقبائل فى ولد إسماعيل، وقد بعث منهم عدة رسل، فيجوز أن يكون أراد سبحانه بالوحى إليهم، الوحى إلى الأنبياء منهم، ولم يصح أن الأسباط الذين هم أخوة يوسف كانوا أنبياء (تفسير روح المعانى ٦/١٦).

على أن هناك رأيًا جديدًا، يستحق المناقشة، يذهب فيه صاحبه ـ الأستاذ صابر طعيمة ـ إلى أن الأسباط هؤلاء إنما كانوا من بنى إسماعيل، الذين أرسل الله إليهم رسلا، لم يذكر أسماءهم ولا أممهم، وبخاصة من بنى قحطان، كقوم تبع وأصحاب الرس وسبأ (صابر طعيمة، بنو إسرائيل فى ميزان القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥، ص ١٨١-١٩٦).

فهم كما نعلم ـ وبنص التوراة نفسها [١] من زوجاته الأربع، السيدات والجوارى، ولم يقل واحد من العلماء، أو رجال اللاهوت، من اليهود أو النصارى، أن أبناء يعقوب من الجاريتين ـ بلهة وزلفة ـ أقل مرتبة من إخوتهم من السيدتين ليئة وراحيل ـ هذا إذا سلمنا جدلا، بأن أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ كانت جارية لسارة.

هذا فضلا عن أن إسماعيل إنما كان بكر أبيه إبراهيم الخليل، وللبكورية فى بنى إسرائيل شأن عظيم، وحقوق كثيرة، لا ينفيها حتى إن كانت أمه هاجر هى الزوجة المكروهة، وسارة هى الزوجة المحبوبة، وهو ما لا تملك عليه أى دليل، تقول التوراة. «إذا كان لرجل امرأتان، إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة، فولدن له بنين، المحبوبة والمكروهة، فإن كان الابن البكر للمكروهة، فيوم يقسم لبنيه ما كان له، لا يحل له أن يقدم ابن المحبوبة بكراً على ابن المكروهة البكر، بل يعرف ابن المكروهة بكراً، ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده، لأنه هو أول قدرته، له حق البكورية [٢]

بقيت نقطة أخيرة، تتصل بما يزعمه «ماير» من أن إسحاق إنما كان أرفع قدراً من إسماعيل، بدرجة لا تترك بحال المقارنة بينهما. فذلك تعصب أعمى، وبعد عن منهج البحث العلمي، وتلك دعاوى الغرب وحقدهم على العرب، نعتصم منه بقوله تعالى: ﴿لا نفرِّق بينَ أحدٍ من رُسله﴾ [٣] إيماناً منا بأن كلا من إسماعيل وإسحاق ابناً للخليل، عليهم السلام، وقد وصف إسحاق فى القرآن الكريم، بأنه كان ﴿نبيّا من الصالحين﴾ [٤]، ووصف إسماعيل بأنه ﴿كانَ صادقَ الوَعْدِ وكان رسولاً نبيًّا﴾ [٥]، فما كان لنا أن

---

(١) تكوين ٣٥: ٢٢-٢٦. (٢) تثنية ٢١: ١٥-١٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٥. (٤) سورة الصافات، آية: ١١٢.

(٥) سورة مريم، آية: ٥٤؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٤١٥٣-٤١٥٥؛ تفسير البيضاوى، ٣٧/٣؛ تفسير الألوسى ١٠٢/١٦-١٠٥؛ تفسير الفخر الرازى ٢٣٢/٢١؛ تفسير الطبرسى ٤٧/١٦؛ تفسير القاسمى ٤١٥٠/١١.

نفرق بين أحد من رسل الله وأنبيائه، فذلك شأنه سبحانه وتعالى ﴿قلْ آمنَّا بالله وما أُنزِلَ علينا وما أُنْزِلَ على إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتِيَ موسى وعيسى والنبيّون من ربِّهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون﴾(١)

هذا ونحن نؤمن ـ الإيمان كل الإيمان ـ بأن إسماعيل وإسحاق أفضل منا ملايين المرات، و﴿ذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ والله ذو الفضْلِ العظيم﴾(٢) سائلين اللهَ الغفور الرحيم أن يغفر لنا ذلاتنا «إن كنا قد أخطأنا فيما كتبناه ـ وسوف نكتبه ـ عن أنبيائه الكرام، وما أردنا من ذلك إلا أن نقول كلمة حق ـ قدر استطاعتنا ـ ﴿وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾(٣).

٢ ـ الرأى الثانى: الذبيح هو إسماعيل عليه السلام:

يرى المسلمون أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، ومن ثم فاليوم الذى فدى الله تعالى فيه إسماعيل بذبح عظيم هو العيد الأكبر الذى اتخذه المسلمون عيداً بشريعة رسول الله ـ ﷺ ـ وإرشاده، يحضون فيه على ذبح الضحايا، عالمين ـ أو غير عالمين ـ أن هذا الذبح فى هذا اليوم، إنما هو تجديد لذكرى التضحية التى أنعم الله بها على البشرية بصيانة دم الإنسان

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٨٤؛ تفسير الطبرى ٥٦٩/٦-٥٧٠؛ تفسير أبى السعود ٥٠٨/١-٥٠٩؛ تفسير روح المعانى ٢١٤/٣-٢١٥؛ تفسير الكشاف ٤٤٢/١؛ تفسير الفخر الرازى ١٣١/٨-١٣٣؛ تفسير مجمع البيان ١٣٢/٣-١٣٣؛ تفسير القاسمى ٨٧٩/٤؛ تفسير المنار ٢٩٣/٣-٢٩٤؛ تفسير القرطبى، ص ١٣٦٩-١٣٧٠؛ تفسير وجدى، ص ٧٦-٨٧؛ تفسير ابن كثير، ٥٧/٢-٥٨؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٤٨/٢؛ فى ظلال القرآن ٤٢٢/٣-٤٢٣

(٢) سورة الجمعة، آية: ٤؛ وانظر: تفسير ابن كثير ١٤٣/٨ تفسير القرطبى، ص ٦٥٧٢-٦٥٧٣.

(٣) سورة هود، آية: ٨٨؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٣٣١٨؛ تفسير الطبرى، ٤٥٣/١٥-٤٥٤؛ تفسير ابن كثير، ٢٧٤/٤-٢٧٥؛ تفسير المنار ١٢٠/١٢.

عن طريق بذل دم الحيوان، ونعمة الله هذه لا يقدرها حق قدرها إلا من ألم بتاريخ البشرية، وعلم ما كانت تقاسيه من عنت وألم وشقاء بذبح الإنسان أو تحريقه بالنار، التماسا لمرضاة الإله، حتى كان اليوم الذى بدت فيه طلائع الرحمة الإلهية للعالمين على يد أبى الأنبياء إبراهيم وولده إسماعيل، عليهما السلام[١].

ويعتمد علماء الإسلام فى وجهة نظرهم القائلة بأن إسماعيل هو الذبيح على حجج كثيرة، منها (أولا) رواية ابن عباس ـ حبر الأمة وترجمان القرآن ـ فى تفسيره لقوله تعالى ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ على أنه إسماعيل[٢]، ومنها (ثانيًا) ما جاء فى كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى قصة الخبر عن إبراهيم. وما أمر به من ذبح ابنه إسماعيل، وذلك أن الله سبحانه وتعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابنى إبراهيم، فإنه يقول ﴿وبشَّرْنَاهُ بإسحاق نبيًّا من الصالحين﴾، فالإتيان بالبشرى بعد ذكر القصة صريح فى أن إسحاق غير الغلام الذى ابتلى الله إبراهيم بذبحه، وعودة الضمير إلى الغلام الذبيح وذكر اسم إسحاق معه صريحًا، يقتضى التغاير بين إسحاق والذبيح[٣].

ومنها (ثالثًا) أن الله سبحانه وتعالى قد وصف إسماعيل بالصبر ـ دون إسحاق ـ فى قوله تعالى ﴿وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْلِ كلٌّ مِنَ الصَّابرين﴾[٤] وهو صبره على الذبح، ووصفه بصدق الوعد فى قوله تعالى ﴿إنَّهُ كَانَ صادقَ الوعدِ﴾[٥] لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفّى

(١) أحمد حسن الباقورى، مع القرآن، ص ٢٢١-٢٢٢ (القاهرة ١٩٧٠).

(٢) تفسير الطبرى، ٥٢/٢٣-٥٣. تفسير النسفى ٢٦/٣؛ تفسير ابن كثير ٢٤/٤-٢٥؛ مسند الإمام أحمد ١٩٧/١؛ تفسير ابن عباس ٧٤٧/٢-٧٥٤ (جامعة أم القرى، مكة المكرمة)؛ معانى القرآن للفراء، ٣٩٠/٢؛ زاد المعاد، ٧١/١-٧٢.

(٣) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص ١٠٢؛ محمود الشرقاوى، الأنبياء فى القرآن الكريم، ص ١٦٢ (القاهرة ١٩٧٠)، تفسير ابن كثير، ٢٣/٧؛ مجموع فتوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٢٣٢/٤-٢٣٣ (الرياض ١٢٨١هـ)

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٨٥ (٥) سورة الصافات، آية: ١١٢.

به، ومنها (رابعًا) أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وبشّرناه بإسحاق نبيًّا﴾[١]، فكيف يأمره بذبحه، وقد وعده أن يكون نبيًّا[٢].

ومنها (خامسًا) ما ذهب إليه ابن كعب القرظى على أن الذبيح إسماعيل وليس إسحاق ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾[٣]، فكيف تقع البشارة بإسحاق، وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له[٤]، هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة، ولا خلاف بين الناس فى أن قصة الذبيح كانت قبل ولادة يعقوب، بل إن يعقوب إنما ولد بعد موت إبراهيم [٥] عليه السلام، وقصة الذبيح كانت فى حياة إبراهيم بلا ريب[٦].

ومنها (سادسًا) أن هناك رواية تذهب إلى أن عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١هـ/ ٧٠٧-٧٢٠م) ـ الخليفة الأموى ـ سأل رجلا من علماء اليهود، كان قد أسلم وحسن إسلامه: أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل، والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه،

---

(١) سورة مريم، آية: ٥٤.

(٢) تفسير القرطبى، ص ٥٥٤٥؛ تفسير الطبرى، ٣٩٤/١٥-٣٩٧؛ فتاوى ابن تيمية ٣٣٤/٤.

(٣) هود، آية: ٧١.

(٤) ابن كثير، قصص الأنبياء، ٢١٥/١؛ تفسير القرآن العظيم، ٢٩/٧؛ البداية والنهاية، ١٥٩/١.

(٥) طبقًا لما ذهبنا إليه من قبل يكون إبراهيم قد عاش فى الفترة (١٩٤٠-١٧٦٥ق.م) ويعقوب فى الفترة (١٧٨٠-١٦٢٣ق.م) لأن إبراهيم قد رزق بإسحاق وهو فى المائة من عمره (تكوين ١٧: ١٧) وأن إسحاق قد رزق بيعقوب وهو فى الستين من عمره (تكوين ٢٥: ٢٦)، وبذا يكون يعقوب فى الخامسة عشرة من عمره حين وفاة إبراهيم، وهذا كله طبقًا لما جاء فى التوراة، وليس هناك مصدر آخر يؤكد ذلك أو ينفيه.

(٦) فتاوى ابن تيمية ٣٣٥/٤.

والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، لأن إسحاق أبوهم[1].

ومنها (سابعًا) ما يرويه الإمام ابن تيمية[2] (٦٦١-٧٢٨هـ/١٢٦٣-١٣٢٨م) من أن قصة الذبيح المذكورة فى سورة الصافات (الآيات ٩٩-١١٣) تدل على أن إسماعيل هو الذبيح، إذ يقول سبحانه وتعالى ﴿وبشَّرْنَاهُ بغلام حليم﴾ وهذه البشارة قد انطوت على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ الحلم، وأنه يكون حليمًا، وأى حلم أعظم من حلمه، حين عرض عليه أبوه الذبح، فقال: ﴿ستجدنى إنْ شاءَ اللهُ من الصابرين﴾، وقيل لم ينعت الله الأنبياء بأقل من الحلم، وذلك لعزة وجوده، وقد نعت به إبراهيم فى قوله تعالى ﴿إنَّ إبراهيم لأوَّاه حليمٌ﴾[3]، و﴿إنَّ إبراهيم لحليمٌ أوَّاهٌ منيبٌ﴾[4]، لأن الحادثة شهدت بحلمهما.

وهكذا نستدل من هذه القصة على أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه السلام من وجوه عدة، منها (أولا) أنه بشَّره بالذبيح وذكر قصته أولا، فلما استوفى ذلك قال ﴿وبشَّرْنَاه بإسحاق نبيًا من الصالحين، وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾، فبيَّن أنهما بشارتان، بشارة بالذبيح، وبشارة ثانية بإسحاق، وهذا بين وواضح فى القرآن الكريم.

ويذهب الإمام السيوطى (١٤٤٥-١٥٠٥م) فى «الإكليل» إلى أن البشارة الأولى وقعت فى قوله تعالى ﴿إنِّى ذاهبٌ إلى ربِّى سيهدينِ، ربِّ هبْ لى منَ الصَّالحينَ، فبشَّرْنَاه بغلامٍ حليم، فلما بلغَ معه السعى قالَ يا بنىَّ إنِّى

(١) تفسير ابن كثير ٢٩/٧، البداية والنهاية، ١٦٠/١، ابن الأثير الكامل فى التاريخ ١١٠/١-١١١؛ تاريخ ابن خلدون، ٣٨/٢، تفسير الطبرى، ٥٤/٢٣؛ الثعلبى، قصص الأنبياء (المسمى عرائس المجالس)، ص ٨٠-٨١

(٢) ابن تيمية، الفتاوى، ٢٣٢/٤

(٣) سورة التوبة، آية ١١٤.

(٤) سورة هود، آية: ٧٥.

أرى في المنامَ أني أذبَحُكَ﴾[١]. فهذه الاية قاطعة في أن هذا المبشر به هو الذبيح، ومرة أخرى في قوله تعالى ﴿وامرأتُه قائمةٌ فضحكَتْ، فبشرناها بإسحاق ومِنْ وراءِ إسحاقَ يعقوب﴾[٢]، فقد صرح في هذه الآية أن المبشر به إسحاق، ولم يكن بسؤال من إبراهيم، بل قالت امرأته أنها عجوز، وإنه شيخ، وان ذلك في الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط، وهو في آخر أمره، أما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام، حين كان سنه لا يستغرب فيه الولد، ولذلك سأله، ومن ثم فقد علمنا أنهما بشارتان في وقتين مختلفين، بغلامين، أحدهما بغير سؤال وهو إسحاق صريحًا، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غير إسحاق، فقطعنا أنه إسماعيل، وأنه الذبيح[٣].

وأما الوجه الثاني ـ فيما يرى الإمام ابن تيمية ـ فهو أن قصة الذبيح لم تذكر في القرآن إلا في سورة الصافات وفي سائر المواضع تذكر البشارة بإسحاق خاصة ـ كما في سورة هود[٤] والحجْر[٥] والذّاريات[٦] ـ ولم يذكر أنه الذبيح، ثم لما ذكر البشارتين جميعًا – البشارة بالذبيح والبشارة بإسحاق بعده ـ كان هذا من الأدلة على أن إسحاق ليس هو الذبيح، ويؤيد ذلك ذكر هبة الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب، حيث يقول سبحانه وتعالى ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا من الصالحين﴾[٧] ويقول ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبّوة والكتاب، وآتيناه أجرَه في الدُّنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[٨]، ويقول ﴿وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبيّاً﴾[٩]، ولم يذكر في ذلك سبحانه وتعالى شيئًا عن الذبيح[١٠].

---

(١) سورة الصافات، آية: ٩٩-١٠٢.
(٢) سورة هود، آية: ٧١
(٣) تفسير القاسمي، ٥٠٥٣/١٤
(٤) سورة هود، آية: ٧١-٧٣.
(٥) سورة الحجر، آية. ٥٣-٥٥.
(٦) سورة الداريات، آية. ٢٨-٢٩.
(٧) سورة الأنبياء، آية. ٧٢
(٨) سورة العنكبوت، آية ٢٧
(٩) سورة مريم، آية ٤٩
(١٠) أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ٣٣٣/٤ (الرياض ١٣٨١هـ)

وأما الوجه الثالث، فإن الله سبحانه وتعالى ذكر فى الذبيح أنه غلام حليم، ولما ذكر البشارة بإسحاق ذكر البشارة بغلام عليم فى موضع آخر، والتخصيص لابد له من حكمة، وهذا مما يقوى اقتران الوصفين والحلم هنا مناسب الصبر الذى هو خلق الذبيح[١].

وأما الوجه الرابع، فإن البشارة بإسحاق إنما كانت معجزة، لأن العجوز عقيم، ولهذا قال الخليل، عليه السلام: ﴿أبشرتمونى على أنْ مسّنى الكِبَر فبِمَ تبشِّرونَ﴾[٢]، وقالت امرأته ﴿ءألدُ وأنا عجوز، وهذا بَعْلى شيخًا﴾[٣]، وقد سبق أن البشارة بإسحاق فى حال الكبر، وكانت البشارة مشتركة بين إبراهيم وامرأته، وأما البشارة بالذبيح فكانت لإبراهيم عليه السلام، وامتحن بذبحه دون الأم المبشرة، وهذا مما يوافق ما نقل عن النبىّ - ﷺ - وأصحابه فى الصحيح وغيره، من أن إسماعيل لما ولدته هاجر غارت سارة، فذهب إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة، وهناك أمر بالذبح، وهذا مما يؤيد أن هذا الذبيح دون ذلك[٤].

ومنها (ثامنًا) أن قصة الذبح إنما وقعت فى مكة، ومن ثم فقد جعلت القرابين يوم النحر، كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار، تذكيرًا لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه، هما اللذان كانا بمكة، دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام، الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام الحج إلى بيت الله الحرام الذى كان على يد إبراهيم وإسماعيل زمانًا ومكانًا، ولو كان الذبح بالشام - كما يزعم أهل الكتاب ومن أخذ عنهم - لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة[٥].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣٣٣-٣٣٤. (٢) سورة الحجر، آية: ٥٤.

(٣) سورة هود، آية: ٧٢.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٣٣٤/٤-٣٣٥.

(٥) محمود الشرقاوى، النبياء فى القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٦٣.

هذا ولم يقل أحد أن إسحاق ذهب إلى مكة ـ لا من أهل الكتاب ولا غيرهم [١] ـ وإن كانت هناك رواية تذهب إلى أن إبراهيم رأى ذبح إسحاق فى المنام، فسار به مسيرة شهر فى غداة واحدة، حتى أتى به المنحر من «منى» فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه، ثم عاد به إلى فلسطين[٢] وليس من شك فى أن هذه الرواية تريد أن تجعل لإسحاق علاقة بمكة بأية وسيلة. حتى وإن خالفت كل النصوص والتقاليد المتعارف عليها.

ومنها (تاسعًا) أن قرنى الكبش كانا معلقين بالكعبة، حتى فتح مكة فى العام الثامن للهجرة (٦٣٠م)، وأن النبىّ ﷺ قال للسادن: «إنّى آمرك أن تخمر قرنى الكبش، فإنه لا ينبغى أن يكون فى القبلة ما يلهى المصلى[٣]» وأن هذين القرنين ـ طبقًا لبعض الروايات ـ قد احترقا، يوم أن احترقت الكعبة المشرفة فى عام ٧٣هـ، أثناء الحروب التى دارت رحاها على أرض الحرم الشريف بين عبد الله بن الزبير، والحجاج الثقفى عامل الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م)، حيث حاصر الحجاج الكعبة بعشرين ألفًا من أهل الشام، ورماها بالمنجنيق إلى أن تصدعت جدرانها، واحترق قرنا الكبش من بين ما احترق.

وهذا فى الواقع دليل مستقل وهام على أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو الذبيح، فإن قريشًا توارثوا قرنى الكبش، الذى فدى به إسماعيل، خلفًا عن سلف، وجيلا بعد جيل، إلى مبعث النبىّ ﷺ[٤].

---

(١) فتاوى ابن تيمية، ٢٣٥/٤.

(٢) تفسير القرطبى، ص ٥٥٤٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ٢٧/٧؛ مسند الإمام أحمد، ٦٨/٤، ٣٨٠/٥؛ تفسير القرطبى، ص ٥٥٤٥، ٥٥٢.

(٤) تفسير ابن كثير، ٢٧/٧، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٢م.

ومنها (عاشراً) ما روى عن معاوية بن أبى سفيان من أنه سئل عن الذبيح، أهو إسماعيل أم إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم، كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عد علىّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وماالذبيحان، فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهّل الله عليه أمرها، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله، وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل[١]، وإسماعيل هو الذبيح الثانى[٢].

---

(١) خلاصة هذه القصة أن عبد المطلب جد النبىّ رأى ـ فيما يرى النائم ـ أنه يؤمر بحفر طيبة، وحين يسأل عنها لا يتلقى جواباً، على أن الرؤيا إنما تتكرر أياماً ثلاثة، يؤمر بها بحفر «برة» ثم المضنونة «وأخيراً «زمزم» ، وحين ينجح فى حفرها تأتيه قريش تطالب بحقها فيها، على أساس أنها بئر أبيهم إسماعيل، فيرفض عبد المطلب، وينتهى الأمر إلى جانبه، ولكنه كان قد نذر: لئن ولد له عشرة ولد، وبلغوا منه حتى يمنعوه من قريش لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى، فلما توافى له عشرة أقرع بينهم، أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله ـ وكان أحب الناس إليه ـ فمنعه بنو مخزوم أخواله وعظماء قرش، واستقر الرأى على أن يسألوا «عديم» ـ كاهنة بنى سعد فى شمال بلاد العرب ـ فأمرتهم أن يقرنوا عبد الله والإبل، ويضربوا القراع، وهكذا حتى خرجت القداح على الإبل التى بلغ عددها مائة ـ وقيل ثلاثمائة ـ وذبحها عبد المطلب، وتركها فى الفضاء لا يمنع لحمها أنس ولا وحش ولا طير، إلا أن يكون ذلك عبد المطلب وولده (انظر: تاريخ الطبرى، ٢٢٩/٢–٢٤٣ ، ٢٥١ ؛ ابن الأثير، ٥/٢–٧ ؛ ١٢/٢–١٤ ؛ ابن كثير ٢٤٤/٢–٢٤٩ ؛ الأزرقى ٤٢/٢–٤٧ المقدسى ١١٣/١–١١٦ ؛ ابن سعد ٤٩/١–٥٤ ؛ ابن هشام ١٥١/١–١٥٨ ؛ تاريخ اليعقوبى، ٢٤٦/١–٢٤٧ ؛ ياقوت ١٤٩/٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ٣٣٧/٢؛ مروج الذهب ١٠٤/٢ ؛ البلاذرى، أنساب الأشراف، ٧٨/١؛ السهيلى، الروض الأنف، ٨٠/١، ٩٨، السيرة الحلبية، ٣٧/١؛ الديار بكرى، تاريخ الخميس، ص ١٢٩ ، ٢٠٦–٢٠٧ ؛ الاعتصام للشاطبى، ١٨٣/٢ ؛ تفسير روح المعانى، ١٢٦/٢٣ ؛ أعلام النبوة، ص ١٧٦ ؛ شرح نهج البلاغة لأبى الحديد، ٨٣/١).

(٢) تفسير الطبرى، ٥٤/٢٣ ؛ تفسير ابن كثير، ٢٩/٧–٣٠ ؛ الثعلبى، قصص الأنبياء، ص ٨٩.

ومنها (حادى عشر) ما جاء فى إنجيل «برنابا»[١] على لسان المسيح ﷺ «الحقُّ أقولُ لكم، إنَّكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا، لأن الملاك قال يا إبراهيم: سيعلم العالم كله كيف يحبك الله، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله؟ حقًا يجب عليك أن تفعل شيئًا لأجل محبة الله، فأجاب إبراهيم: هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله، فكلَّم الله حينئذ إبراهيم قائلا: خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة، فكيف يكون إسحاق البكر، وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين»[٢].

وهذا النص إنما يختلف عن نصوص أهل الكتاب فى أمرين، الواحد أن الذبيح هنا إسماعيل، وليس إسحاق، والثانى أن الفرق بين إسماعيل وإسحاق سبع سنين وليس أربعة عشر عامًا، وهو فى هذا إنما يتفق مع بعض الروايات العربية - الآنفة الذكر - والتى تذهب إلى أن إبراهيم قد رزق بإسماعيل وهو ابن أربع وستين عامًا، وإسحاق وهو فى السبعين من عمره - أى أن الفرق بينهما سبع سنين.

(ب) قصة الذبيح والتضحية البشرية:

عرفت بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم نظام الضحايا البشرية التى

---

(١) إنجيل برنابا، من الأناجيل المختلف عليها، فبينما لا تعترف به الكنيسة، وترى أنه وضع فى القرن ١٥م، يذهب بعض الباحثين إلى أنه صحيح، وأن البابا «جلاسيوس» قد حرم قراءته عام ٤٩٢م، وأن المخطوطات التى اكتشفت حديثًا فى منطقة البحر الميت جاءت مؤيدة لهذا الإنجيل (انظر: إبراهيم خليل، محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن ص ٩٣-٩٦؛ تشارلس فرنسيس بوتر، السنون المفقودة من عيسى تكشف، ترجمة الدكتور ع.ع. راضى، الموسوعة العربية الميسرة، ص ٣٥٤، القاهرة، ١٩٦٥).

(٢) على عبد الواحد وافى، الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام، القاهرة ١٩٦٤، ص ٨٧-٨٨؛ محمد حسنى عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٨٦ (مع ملاحظة أن عدد السنين السبع يناقض نص التوراة (١٦ : ١٦، ١٧ : ٣).

كانت تقدم على مذابح الآلهة، وعند دفن الملوك، وتدلنا حفائر «أور» السومرية على قدم تلك العادة، إذ كان الملوك يدفنون ومعهم بعض حاشيتهم وخدمهم، ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم قد ماتوا على الرغم منهم، فليس منهم من وجدت جثته وفيها أثر الذبح أو الخنق أو الضرب العنيف.

ويعتقد «سير ليوناردو ولى» أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقاراً ساماً يخدرهم ويميتهم، لإيمانهم بالانتقال مع الملوك الأرباب إلى حالة فى السماء كحالتهم فى الحياة الأرضية، وقد وجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعًا يشبه رأس الحيوان، والمظنون أن هذا الزىّ كان مقدمة الذبح الرمزى، وإجراء الشعائر مجرى التمثيل المقدس فى الاحتفالات العامة، ولاسيما الاحتفال بعيد رأس السنة[١].

هذا وتشير التوراة إلى أن «السفروا يميين[٢] كانوا يحرقون بنيهم بالنار كتقدمات لآلهتهم الوثنية [٣] وربما كانوا قد أخذوا هذه العادة عن السومريين الذين كانوا يقطنون المنطقة قبل وصولهم إليها[٤].

---

(١) عباس العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١٧٢ : وانظر:

Sir L. Wooley, Ur of the Chaldees, Lodon, 1590.

وكذا: Sir L. Wooley Excavations at Ur, London, 1963.

وكذا: Hooke, Origins of Early Semitic Ritual, London.

(٢) السفروايميون: نسبة إلى «سفروايم»، وهى كلمة عبرانية فى صورة المثنى، مما أدى إلى الظن أنهما بلدتا «سفارة» اللتان تقعان على ضفتى الفرات على مبعدة ١٦ ميلا جنوبى غرب بغداد، ويرى «هورمزدرسام» أنهما «أبو حبة» الحالية، بينما يرى آخرون أنهما «شومورية» شرقى بحيرة حمص، وعلى أى حال، فقد كانتا مركزاً لعبادة إله الشمس البابلى «شمس» (شماش) والإلهتين عشتار وأنونيت، ولذا سميت واحدة سفار شماش والأخرى سفار أنونيت (انظر: قاموس الكتاب المقدس ٤٦٩/١ وكذا: S.A. Gook, op.cit., p. 385.

(٣) ملوك ثان، ١٧ : ٣١.

(٤) حبيب سعيد، المرجع السابق،ص ١٠.

وتدلنا مقبرة «زفا حعبى»: الحاكم المصرى فى كرمه بالسودان على أيام الأسرة الثانية عشرة، على اتباع نفس العادة، إذ اتبعت معه نفس تقاليد تلك المنطقة، فضحوا بأكثر من مائتى شخص (وربما كانوا حوالى ٢٧٠) من خدمه وأتباعه، ودفنوهم فى الممر المؤدى إلى قبره[١].

هذا وقد وجد «ريزنر» ـ الذى حفر فى منطقة كرمة قبل الحرب العالمية الأولى ـ كثيراً من القبور التى دفن فيها الخدم مع سادتهم، ومن بينها قبر لطفلة صغيرة احتضنتها مربيتها داخل القبر، وقد رقدت خادمة أخرى على مقربة منها وقد دفنت كل من المربية والخادمة وهن أحياء، وكانت العادة المتبعة هى أن يعطوا أولئك الخدم أو الأتباع شراباً مخدرا، أو يضربوهم ضربة قاتلة على رؤوسهم، إذا رفضوا تناوله، والفكرة فى دفنهم مع سادتهم هى أن يقوموا على خدمتهم فى الحياة الأخرى، كما كانوا يخدمونهم فى هذه الدنيا[٢].

ولم تكن مصر بمنأى عن هذه العادة، فهناك ما يشير إلى معرفة المصريين لعادة التضحية البشرية منذ عصور ما قبل الأسرات، وأثناء عصر التأسيس، وربما يرجع ذلك إلى رغبة الملوك، أو رغبة الأشخاص المضحى بهم فى مصاحبة سيدهم الملك فى العالم الأخر حتى يقوموا بخدمته هناك، كما يفعلون هنا فى الحياة الدنيا[٣].

والأمر هنا ـ كما فى العراق والسودان أو قريب منه ـ فإن هؤلاء

---

(١) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة، ١٩٧١، ص ٢٣٠.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٣٠؛ وانظر: محمد بيومى مهران، مصر ٢/١ ٤٠٢-٤٠١، (الإسكندرية ١٩٨٨).

(٣) أحمد أمين سليم، دراسة تاريخية للحضارة المصرية أثناء عصر الأسرتين الأولى والثانية، ص٢٢٥-٢٢٧، رسالة ماجستير، الإسكندرية ١٩٧٧، وانظر:

W.B.Emery, Great Tombs of the First Dynasty, II, London, 1954, p. 142-158.

الأشخاص المضحى بهم لم يدفنوا أحياء، كما أنه لا يوجد أثر للعنف فى جثثهم، ومن ثم فربما قد أعطوا شراباً مخدراً أو كميات من السم قبل دفنهم[1].

ويرى أستاذنا الدكتور الناضورى أن عادة التضحية البشرية فى مصر، إنما كانت أصلاً من التأثير الأفريقى فى الحضارة المصرية فى عصور ما قبل التاريخ، ثم استمرت بشكل عرضى فى الأزمنة التاريخية المبكرة[2]، غير أن هناك ـ كما سوف نرى فيما بعد ـ ما يشير إلى أن هذه العادة إنما كانت قد انتشرت فى معظم مناطق الشرق الأدنى القديم، فى السودان ومصر، وفى سورية والعراق، وفى شبه الجزيرة العربية، ولم تكن فى غالب الأمر ـ مقصورة على منطقة دون أخرى.

وعلى أى حال، فإن المصريين سرعان ما أقلعوا تدريجيا عن هذه العادة السيئة، فإذا كانت قد وصلت إلى ذروتها فى عهد الملك «جر» فقد وصلت إلى ما يقرب من نهايتها فى عهد الملك «قع» (قاعا) ـ اخر ملوك الأسرة الأولى ـ حيث لا يوجد حول مقبرته سوى ٢٦ مقبرة مساعدة[3]، وإذا كانت تلك العادة ما يزال لها وجود فى الأسرة الثانية، فإن العدد سيقل كثيرا، حتى أن الإشارة لهذا الأمر، إنما أتت من «أبيدوس» (عرابة أبيدوس ـ مركز البلينا) فى مقبرة للملك «خع سخموى» ـ آخر ملوك الأسرة الثانية (حوالى عام ٢٧٠٠ ق.م) ـ والتى قدر لها الأثرى «جورج رايزنر»، ما بين عشرة وخمس عشرة حالة [4].

وأما الفينيقيون والكنعانيون، فقد كانت التضحية بالطفل البكر عرفًا

---

(١) Ibid., p. 142..

(٢) R.El-Nadowry, Human Sacrifice in the Ancient Near East, in Publicationas of the Archaeological Society of Alexandria, 1968, p. 5.

(٣) G.A. Reisner, The Development of the Egyptian Tomb, London, 1936, p. 128.

(٤) W.M.F. Petrie, Tombs of the Courtiers and Oxyrhylahos, London, 1925, p. 3.

جاريا لدى الكنعانيين فى العصر العتيق، وفى حفريات «جازر» (١) دليل قاطع فى هذا الصدد، فقد وجدت بها عظام أطفال فى حالة بلاء بين بين مودعة فى أسس المنازل، واحتفظ الفينيقيون بهذه العادة إلى العصور القريبة حتى روى « فيلون(٢)» أنه كان من عاداتهم فى حالات الأخطار العامة أن يضحوا بأعز أبنائهم لإبعاد الكوارث عن أنفسهم (٣).

والأمر كذلك بالنسبة إلى «مؤاب»، إذ نعرف ـ من الحجر المؤابى المحفوظ الآن بمتحف اللوفر بباريس (٤) ـ وكذا من التوراة (٥) ـ أن «ميشع» ملك مؤاب، قد قام بحمله ظافرة، نجح فيها فى توسيع حكمه على مدى خط العرض من الطرف الشمالى من البحر الميت، واخضاع المستعمرات الإسرائيلية والمدن الخاضعة لإسرائيل فى الهضبة الخصبة شمال عرنون (٦)، ثم نهب المعبد الإسرائيلى فى «نبو»، ووهب سبعة آلاف من سكانها إلى الإلـه «عشتار ـ كيموش»، مما اضطر ملك إسرائيل «يهورام» (٨٤٩ ـ ٨٤٢ ق.م) إلى طلب العون من دويلتى يهوذا وأدوم، ثم القيام بهجوم على

---

(١) تقع جازر على مبعد ١٨ ميلا شمال غرب أورشليم، وخمسة أميال وثلثى الميل شرقى عقرون، ١٧ ميلا جنوب شرق حيفا (انظر: قاموس الكتاب المقدس، ١/٢٤٢، وكذا:

(M.F.Unger, op.cit., p. 401

(٢) فيلون، هو فيلون الجبيلى النحوى (حوالى ٦١-١٤١م)، وقد وضع كتاباً فى الديانة الفينيقية، حفظت بعض نصوص منه فى كتاب المؤرخ الكنسى «يوسبيوس» (٢٥٤-٣٤٠م) صاحب كتاب التاريخ الكنسى.

(٣) ج.كونتنو، الحضارة الفنيقية، ص ١٤٥.

(٤) J. Finegan, Light From the Ancient Past, I, 1969, p. 188-189; S.A.Cook, CAH III, 1965, p. 372.

وكذا: W. Keller, The Bible As History, 1967, p. 230-34

(٥) ملوك ثان ٣: ٩-٢٧.

(٦) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, 244-242.

مؤاب من الجنوب [١]، الأمر الذى دفع الملك المؤابى «ميشع» إلى أن يضحى بولده البكر لإلهه «كيموش»، حتى ينقذه من هذه القوات المتحالفة[٢].

وأما فى بلاد العرب، فلقد تبين من مخلفات المدافن فى «أم النار» فى أبى ظبى»، أنها تضم العديد من الهياكل العظيمة المتكدسة فى المدفن المشترك؛ ويدل وجود الهياكل العظمية خارج الجدران الخارجية على ظاهرة التضحية البشرية التى تواكب مراسم الدفن، حيث توضع جثث الأشخاص الذين يضحى بهم مع بعض، فى خارج المبنى الذى يضم جثة المتوفى[٣].

وهنا ـ فيما يبدو لى ـ تظهر الأهمية العظمى لقصة الذبيح إسماعيل ـ عليه السلام ـ إذ كتبت عليه ضريبة الفداء، وهى فى مفترق الطرق بين الهمجية التى كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية، وبين الإنسانية المهذبة التى لا تأتى الفداء بالحياة، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان [٤].

ولما كان الأنبياء هم الأسوة الحسنة التى يحتذى حذوها كافة الناس وخاصتهم ﴿لقد كان لكم فيهم أُسوةٌ حسنةٌ لمنْ كانَ يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ، ومَنْ يتولَّ فإن اللهَ هو الغنىُّ الحميدُ﴾ [٥]، وقد أراد الله ـ جلت قدرته ـ أن يجعل من خليله قدوة حسنة، مثلاً أعلى لأرفع صور الإيمان، وأجلها فى تاريخ الإنسانية، وذلك حين تهيأ لها أن تدنو إلى كمال، ومن ثم فقد شاءت إرادة الله تعالى لأبى الأنبياء إبراهيم، عليه السلام، أن يحمل عبء الدعوة إلى إبطال هذه العادة البالغة أبعد منازل القباحة، عادة التقرب إلى المعبود بدماء البشر ـ شدخا بحجر، أو ذبحا بمدية، أو حرقا بنار ـ كما شاءت له

---

(١) S.A. Cook, op.cit., p. 372.

(٢) ملوك ثان ٣ : ٢٧.

(٣) G.Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, p. 212.

وكذا: K. Thorvildson, Kuml, 1962, p. 217-218.

(٤) عباس العقاد، الإسلام دعوة عالمية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢١٨، ٢١٩.

(٥) سورة الممتحنة، آية: ٦.

إرادة الله أن يستبدل بهذه العادة القبيحة، عادة أجمل وأنفع وأكرم، فيجعل من دم الحيوان سلما إلى فداء دم الإنسان[١]، وهكذا أعطى الله الإنسانية نفسها مثلاً حيا فى إبراهيم وإسماعيل، تمهيداً لمنع هذه العادة البربرية، فيأمره بذبح ابنه، ثم يفتديه بذبح عظيم.

وقارئ القرآن الكريم واجد فيه ما يشير إلى هذا المعنى فى قول الله تعالى وعز من سورة الصافات، حكايةً عن إبراهيم في خطاب ولده إسماعيل، عليهما السلام: ﴿يابني إِنِّي أَرَى فِي المَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يا أَبتِ افْعلْ مَا تؤمر ستجدنى إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابرينَ، فلما أَسْلَمَا وتلّه للجبين، وناديناه أن يا إبراهيمَ قد صدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كذلك نجزى المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبحٍ عظيمٍ﴾ [٢].

ولاشك فى أن انطلاق إبراهيم يدعو البشرية إلى إكرام نفسها، والامتناع عن القربان البشرى، والاستغناء عنه بالقربان الحيوانى، إنما كان انطلاقا مستبسلا لاتتكاءده حدود، ولاتقيده قيود، ولايبالى فيه أبو الأنبياء عقبة تعترض، ولاتلفا يتوقع[٣].

---

(١) أحمد حسن الباقورى، مع القرآن، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٣٠.

(٢) سورة الصافات، آية: ١٠٢-١٠٧؛ وانظر: تفسير الطبرسى، ٧١/٥-٧٨؛ تفسير أبى السعود ٥٤٣/٤-٥٤٦؛ تفسير روح المعانى ١٢٧/١٣-١٣٢؛ تفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية ٣٤٨/٦-٣٥١ (بيروت ١٩٧٠)؛ تفسير القرآن الكريم للخطيب الشربينى ٣٨٤/٣-٣٨٧؛ أحكام القرآن للجصاص، ٣٧٧/٣-٣٧٨؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى، ٢٧٩/٥-٢٨٤؛ تفسير الكشاف، ٥٣/٤-٥٨؛ فى ظلال القرآن، ٦٢/٧-٦٦؛ تفسير النسفى، ٢٧٣/٤-٢٧٤؛ تفسير الفخر الرازى، ١٥٢/٢٦-١٥٧؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوى جوهرى، ١٩/١٨-٢٣؛ تفسير الطبرى، ٤٨/٢٣-٥٨، (طبعة بولاق ١٣٢٨هـ)، تفسير النيسابورى، ٦٦/٢٣-٧٢ (نسخة على هامش الطبرى)، تفسير ابن كثير، ٢٢/٧-٣٠، تفسير القرطبى، ص ٥٥٤٣-٥٥٥٨.

(٣) أحمد حسن الباقورى، مع القرآن، ص ٢٣٠.

ومن هنا كان ارتباط هذه الحادثة ارتباطا وثيقا بظاهرة التضحية البشرية التى كانت تمارس فى تعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم، والحث على استبدال ذلك التقليد بالتضحية الحيوانية [١].

ومن عجب أن ذرية إبراهيم الخليل من ولده إسحاق - عليهما السلام - لم يكونوا على مستوى الدعوة، فبقيت فيهم عادة التضحية البشرية إلى ما بعد أيام موسى ونزول التوراة، حيث تحرم على بنى إسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قربانا إلى الله تعالى[٢]، كما يتضح كذلك من نصوصها فى سفر اللاويين، حيث تنصُّ على عقوبة الرجم لمن يعطى ولده قربانا لإله العمونيين - ملوك - الذى كانوا يقدمون له ذبائح بشرية - ولا سيما من الأطفال [٣].

ومع ذلك فقد ظل أمراء بنى إسرائيل يقدمون أبناءهم لتحرق على المذابح، كما فعل يفتاح الجلعادى - فى عصر القضاة - وذلك حين نذر للرب: «إن دفعت بنى عمون ليدى، فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون، يكون، للرب وأصعده محرقة»[٤]، وهكذا ما أن يعود يفتاح من معركته ضد العمونيين منتصرا [٥]، حتى تكون ابنته الوحيدة هى أول من يهب للقائه، ومن ثم فقد اضطر أن يفى بنذره، ويذبح ابنته قربانا للرب، بعد شهرين من قدومه [٦].

وهكذا بقى الإسرائيليون وحتى عصر القضاة - يمارسون التضحية البشرية، تقليداً لجيرانهم من الكنعانيين والمؤابيين وغيرهم، رغم أنها ليست من شريعة موسى - عليه السلام - ورغم أنهم نهوا عنها مرارا، بل بقى الأمر

(١) رشيد الناضورى، التطور التاريخى للفكر الدينى، بيروت، ١٩٦٩، ص١٧٤.

(٢) خروج ٢٢: ٩.

(٣) لاويين ١٨: ٢١، ٢٠: ٢؛ قاموس الكتاب المقدس ٧٢١/٢.

(٤) قضاة، ١١: ٣٠-٣١.

(٥) M.Noth, The History of Israel, p. 157-158.

(٦) قضاة ١١: ٣٤-٤٠.

كذلك حتى عصر الملكية، وحتى عصر «إرميا النبى» (٦٢٦ - ٥٨٠ ق م) الذى نعى عليهم، أنهم: «بنو مرتفعات ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار»، وحتى عصر إشعيا الثانى، الذى يقول لهم (فى ٥٧ : ٣ - ٥) « يابنى الساحرة، نسل الفاسق والزانية... المتوقدون إلى الأصنام تحت كل شجرة خضراء، القاتلون الأولاد فى الأودية، تحت شقوق المعاقل».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن ذرية إبراهيم من ولده إسماعيل، إنما فعلوا نفس الشئ، وإن كان الأمر بالنسبة إلى البنات عندهم أوضح منه بالنسبة إلى البنين، ومن ثم فقد شاع بين العرب وأد البنات.

ورغم أن هناك أسبابًا كثيرة دفعت العرب إلى الوأد، لعل من أهمها: الفقر مما قد يدفع البنات إلى الغواية، فتلحق السبة بأهل البنت، فضلا عن عشيرتها وقبيلتها، هذا إلى جانب شعور العربى فى الجاهلية بالغيرة والخوف من العار الذى تجلبه البنت إذا كبرت وتعرضت للسبى، أضف إلى ذلك الخوف من أن تزوج البنت من غير الأكفاء[1].

ومع ذلك فإن هناك من الباحثين من يرى أن سبب الوأد إنما كان دينيا، كإظهار الشكر لله على نعمه وأن ذلك إنما كان أثرا من تقاليد وشعائر دينية يبتغون بها التقرب إلى الآلهة[2].

غير أن هناك من يفسر هذا السبب الدينى تفسيرا مختلفا، فالدكتور على عبد الواحد وافى، إنما يذهب إلى أن وأد البنات دون الذكور، إنما يرجع إلى اعتقاد القوم أن البنات رجس من خلق الشيطان - أى من خلق

(١) انظر عن أسباب الوأد، محمد بيومى مهران، مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة، ص ٢٣٥-٢٤٠ (مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الأول، الرياض ١٩٧٧، ص ١٢٧-٢٩٠).

(٢) السيد عبد العزيز سالم، دراسات فى تاريخ العرب، الجزء الأول، ص ٦١٧؛ على الهاشمى، المرأة فى الشعر الجاهلى، ص ٢٢٧-٢٢٨.

إله غير آلهتهم، فتخلصوا منهن ـ وهذا الوأد إنما يختلف عن الوأد الذى سببه الفقر، وأنه كان مقصورا على البنات دون البنين [١].

ويذهب الإمام القرطبى فى تفسيره للآيات الكريمة: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظلَّ وجهُهُ مسوداً وهو كظيم﴾[٢] إلى أنها نزلت فى «خزاعة» و «كنانة»، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، فكانوا يقولون: الحقوا البنات بالبنات، فنسب سبب الوأد عند القوم إلى عقيدتهم هذه [٣].

على أن الغريب من الأمر هنا، أن الوأد إنما يكون بالدفن، بينما العادة فى الضحايا التى تقدم إلى الآلهة إنما تكون بالذبح أو الطعن أو غيره، مما يجعل الدم يسيل من الضحية، ذلك لأن الدم بالذات، إنما هو الغاية من كل ضحية. والجزء المهم من الضحايا التى تقدم إلى الآلهة [٤].

وعلى أى حال، فالوأد لا يعدو أن يكون نوعاً من القتل، وأن ذبح الأولاد وتقديمهم قرابين إلى الآلهة إنما كان عبادة معروفة عند أمم أخرى ـ كما سبق أن بينَّا ذلك من قبل ـ كانت تمارس لترضى بذلك الآلهة، وتجيب مطالبها[٥].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الوأد لم يكن مقصوراً على

---

(١) علي عبد الواحد وافى، الأسرة والمجتمع، القاهرة ١٩٤٥، ص ١١٩-١٢٣؛ مجلة الرسالة فى ٣ مارس ١٩٤١؛ أحمد محمد الحوفى، المرأة فى الشعر الجاهلى، القاهرة ١٩٥٤، ص ٢٣٦.

(٢) سورة النحل، آية: ٥٧-٥٨.

(٣) تفسير القرطبى، ص ٣٢-٣٧. وانظر: تفسير الخازن، ١١٩/٣؛ جواد علي، ٩٧/٦.

(٤) جواد علي؛ المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٩٧/٥-٩٨، بيروت ١٩٧٠.

(٥) J. Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, I. p. 669.

وكذا:

W. R Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, London, 1907, p. 370.

البنات دون البنين، يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكم ألاَّ تُشْركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا ولا تقتُلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم﴾[١] فإن ظاهر لفظ الآية الكريمة، وكذا في قوله تعالى ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ، نحن نرزقهم وإياكم * إنَّ قتلَهم كان خطئًا كبيرًا﴾[٢]، إنما هو النهى عن جميع أنواع قتل الأولاد - ذكورًا أم إناثًا مخافة الفقر والفاقة[٣]، وإن ذهبت آراء أخرى إلى المراد فى كلمة ﴿أولادكم﴾ إنما هو البنات، وليس البنين، وأن المقصود بذلك هو الوأد[٤].

وعلى أى حال، فالتاريخ لا يحدثنا أبدًا عن رجل قتل أولاده الذكور تقربًا إلى الله تعالى - أو إلى الآلهة - من العرب بعد عصر إبراهيم، صحيح أن هناك من ذرية إبراهيم من ولده إسماعيل من همَّ بذبح ولده - ونعنى به حادث عبد المطلب الآنف الذكر - ولكنه صحيح كذلك أنه حادث فرد، وأن الأمر لم يتجاوز نطاق الهَم إلى مجال التنفيذ.

على أن هذا كله، لا يمنعنا من القول، بأن عبد المطلب كان فعلا قد عقد العزم على أن ينحر ولده عبد الله - والد المصطفى ﷺ - عند الكعبة لله تعالى، لولا أن منعه أخوال عبد الله من بنى «مخزوم»، ولولا أن تعرض له

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥١. وانظر: تفسير الطبرى، ٢١٧/١٢-٢٢٠؛ تفسير ابن كثير، ٣٥٣/٣-٣٥٨؛ تفسير المنار، ١٦١/٨-١٦٥.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣١. وانظر: تفسير الطبرى، ٥٧/١٥ (١٩٥٤م)؛ تفسير القرطبى، ص ٣٨٦٨-٣٨٦٩ (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠)؛ عبد الله محمود شحاتة، تفسير سورة الإسراء، ص ١٢٨-١٣٠ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥).

(٣) الألوسى، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، الجزء الثالث، ص ٤٤ (القاهرة ١٩٢٥)؛ جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الخامس، ص ٩٥ (بيروت ١٩٧٠)؛ تفسير القرطبى، ص ٢٥٦.

(٤) الألوسى، المرجع السابق، ص ٤٤؛ تفسير الطبرى، ١٣٧/١٢؛ جواد علي، المرجع السابق، ص ٩٥.

السادة من عظماء قريش، حتى لا تكون تلك سُنَّة بين القرشيين بعد عبد المطلب، ولولا أن خرجت القداح ـ بناء على مشورة من عرافة الحجاز التى احتكم إليها عبد المطلب فى أمره هذا ـ على الإبل، التى بلغ عددها مائة على رواية، وثلاثمـائة على رواية أخـرى، والأهم من ذلك كله، أن الله ـ جلت قدرته ـ كان قد ادخر «عبد الله» لإنجاب أشرف الخلق جميعاً، جدنا ومولانا وسيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ لولا ذلك كله، ربما كان عبد المطلب قد أوفى نذره، فأنجز وعده، وذبح ولده، عند الكعبة لله تعالى[1].

١٠ ـ زوجات الخليل وبنوه:

تزوج الخليل ـ ﷺ ـ من سيدات ثلاث ـ فيما تروى التوراة، وأربع ـ فيما ترى المصادر العربية ـ وهن: سارة وهاجر وقطورة وحجورة.

١ ـ السيـدة سـارة: تتفق المصادر جميعًا ـ السماوية والإنسانية، اليهودية والعربية ـ على أن السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ إنما كانت أولى زوجات أبى الأنبياء ـ عليه السلام ـ وإن اختلفت فى قرابتها منه، فهى ـ فيمـا تروى التوراة ـ أخت غير شقيقة، يقول سفر التكوين ـ على لسان

---

(١) انظر عن هذا الحادث بالتفصيل: ابن هشام ١٥١/١-١٥٨ (القاهرة ١٩٥٥)؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ١٦٧/١-١٧٦ (القاهرة ١٩٦٤)، محمد محمد أبو شهبة، السيرة النبوية فى ضوء القـرآن والسُّنة ١٥٩/١-١٧١ (القـاهرة ١٩٧٠) الديار بكرى، تاريخ الخـمـيس، ص ١٢٩، ٢٠٦-٢٠٧ (القـاهرة ١٣٠٢هـ)؛ الأزرقى، أخبـار مكة ومـا جاء فـيـهـا من الآثار ٤٢/٢-٤٧ (بيروت ١٩٦٩)؛ الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ٢٣٩/٢، ٢٤٣، ٢٥١ (القاهرة ١٩٦٨)؛ ابن الأثيـر، الكامل فى التاريخ ٥/٢-١٢-١٤ (بيـروت ١٩٦٥)، اليـعـقـوبى، تاريخ اليـعـقـوبى، ١٤٦/١-٢٤٦ (بيروت ١٩٦٠)؛ ابن سعد، الطبقـات الكبرى، ٤٩/١-٥٤ (دار التحرير، القاهرة ١٩٦٨)؛ المقدسى، البدء والتأريخ، ١١٣/١-١١٦ (باريس ١٩٠٣)؛ السهيلى، الروض الأنف، ٨٠/١، ٩٨ (القـاهرة ١٩٧١؛ المسـعودى، مروج الذهب، ١٠٤/٢ (بيروت ١٩٧٣؛ البلاذرى، أنساب الأشراف، ٧٨/١ (القاهرة ١٩٥٩)؛ الماوردى، أعلام النبوة، ص ١٧٥-١٧٩ (القاهرة ١٩٧١)،... وغيرها.

إبراهيم عن سارة - «هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة»(١).

وأما المصادر العربية فهي في خلاف في أمر سارة، فهي ابنة أخيه هاران على رأي، وهي ابنة عمه على رأي آخر، بل إن هناك رأيًا ثالثًا يذهب إلى أنها ابنة ملك حاران، وأن الخليل قد لقيها - وهو في رحلته إلى الشام - وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على ألا يغيرها(٢) بل إن هناك من يذهب إلى أنها أميرة بدوية، اعتمادًا على اسم سارة، إنما يعني «أميرة»(٣).

٢ - السيدة هاجر: كانت السيدة هاجر - رضي الله عنها - الزوجة الثانية للخليل، وأم ولده إسماعيل - عليهما السلام - ونقرأ في التوراة إنما هي جارية سارة،وأن أبا الأنبياء قد تزوجها أملا في أن يرزق منها بولد، بعد أن حرم منه من زوجه سارة(٤)، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هاجر إنما قد انضمت إلى بيت إبراهيم إبان زيارته لأرض الكنانة، ثم سرعان ما شغلت وظيفة «المشرفة على الإماء من النساء في بيت إبراهيم»، كما كان «اليعازر الدمشقي» مشرفًا على العبيد(٥).

على أن هناك فريقًا من الباحثين من أهل الكتاب إنما يذهب إلى أن الخليل قد اشتراها من أحد الأسواق المصرية مرة، وأنها قد أهديت إليه من سارة مرة أخرى، بل إنها - في مرة ثالثة في رأي نفس الباحث - قد ولدت

---

(١) تكوين ٢٠: ١٢.

(٢) تارخ الطبري، ١/٢٤٤؛ ابن الأثير، ١/١٠٠؛ ابن كثير، قصص الأنبياء، ١/١٩٢؛ أبو الفداء ١/١٣.

(٣) حبيب سعيد المرجع السابق، ص ٩٧، منيس عبد النور، المرجع السابق، ص ٨.

(٤) تكوين ١٦: ١-٣.

(٥) حبيب سعيد، المرجع السابق، ص ٨٢.

فى صحراء سيناء، لأنها دلت على أنها ذات خبرة ودراية بتلك الصحراوات[١].

هذا ويذهب فريق ثالث من الباحثين إلى أن السيدة هاجر إنما كانت من وادى العريش[٢]، بينما يذهب فريق رابع إلى أنها أميرة مصرية وقعت أسيرة فى أيدى العماليق، ثم أهديت إلى الخليل[٣]، وزاد بعضهم أن هاجر إنما كانت أخت زوج فرعون[٤]، بينما اتجه فريق خامس إلى أنها ابن أحد ملوك مصر[٥].

وإذا أردنا مناقشة هذه الآراء ـ المتباينة أحيانًا، والمتعارضة أحيانًا أخرى ـ لرأينا أن رواية التوراة إنما هى جد متعصبة لبنى إسرائيل، الذين جهدوا ـ دائمًا وأبدًا ـ أن يثبتوا لأنفسهم ما ليس لغيرهم من ذرية إبراهيم بعامة ـ ومن ولده إسماعيل بخاصة ـ فهم، وإن تساووا معهم فى الانتساب إلى إبراهيم فلابد أن يمتازوا عنهم، بأنهم أبناء الحرة، وأولئك أبناء الجارية، وأنهم أبناء الذبيح، وأولئك أبناء من كان «إنسانًا وحشيًا»[٦]، وحتى هذه فقد كان أصلها فى التوراة أولا «إنسانًا قويًا»، ولكنهم لم يجدوا أسوأ من كلمة «وحشى» ليصفوا بها إسماعيل.

ومن عجب أن يذهب بعض الباحثين من النصارى إلى أن كلمة «يكون إنسان وحشيًا» معناها أن إسماعيل سيكون مثل حمار الوحش، وحمار الوحش علامة كرامة عند نسل إسماعيل (كيف؟؟) لأن حمار

---

(١) ف.ب.ماير، حياة إبراهيم، ص ١٣٦، ٢٣٦ (القاهرة ١٩٦٠).

S.A.Cook, CAH, III, 1965, p. 359.

(٢) الفاسى، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ١٥/١ (القاهرة، ١٩٥٦م)؛ الديار بكرى، تاريخ الخميس، ص ١٦٥؛ ياقوت: معجم البلدان، ٢٤٩/١ (بيروت ١٩٥٥م).

(٤) عبد الحميد واكد، نهاية إسرائيل والصهيونية، ص ٨٨؛ شفاء الغرام، ١٥/١.

(٥) الفاسى، شفاء العرام، ١٥/١ (القاهرة ١٩٥٦).

(٦) تكوين ١٦: ٢٠

الوحش سريع الجرى، يحب العزلة والحرية، وهذه صفات البدو الذين ينتقلون من مكان إلى مكان فى حرية ويحاربون بعضهم بعضاً باستمرار[١].

ونسى «القس منيس» - أو تناسى - أن إبراهيم كان بدوياً، وأن إسحاق ويعقوب ونسلهما كانوا بدواً، بل إن كلمة «عبرى» - فيما يرى بعض علماء اليهود أنفسهم[٢] - إنما تعنى «بدواً»، وأن العبرانيين قوم من الأمم البدوية الصحراوية، ولكن القس منيس لم يتذكر إلا أن إسماعيل كان بدوياً، فأساء إلى أبى الأنبياء وإلى أولاده، سواء كانوا من إسماعيل أو إسحاق عليهم السلام.

وعلى أى حال، فإن نغمة التعصب تكاد تسود التوراة جميعها، ولكنها، هنا، وفيما يختص بهاجر إنما تعنى شيئًا أكثر من التعصب، تعنى أنهم وحدهم ورثة إبراهيم، دون بقية ذريته الآخرين، وأنهم شعب الله المختار أبناء سارة الحرة، ومع ذلك لم يبين لنا كاتب نص سفر التكوين (١٦:١) كيف أصبحت هاجر جارية لسارة، لأننا نعرف أن فرعون مصر - كما تقول التوراة [٣] - قد أسبغ على إبراهيم وافر نعمه، من غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتُن وجمال، وليس من بين ذلك أية إشارة إلى هاجر، ومن هنا فالرأى عندى أن كلمة «جارية» قد حشرت حشراً فى غضون القصة، حرصاً من يهود على أن تكون أمهم سارة أفضل من هاجر أم العرب، والتضارب بين نصوص التوراة أمر معروف، ونظائر كثيرة.

ثم إن التاريخ لم يحدثنا أن المصريين - وبخاصة فى عصور الازدهار والمجد من أيام الفراعين - كانوا يهدون بناتهم للأغراب، بل إن القوم إنما كانوا يعتقدون أنهم وحدهم المتمدينون، وأنهم الشعب الوحيد حقًا الذى

---

(١) ميس عبد النور، المرجع السابق، ص ٦٥. (٣) تكوين ١٢: ١٦.

(٢) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص ٧٧-٧٨، القاهرة ١٩٢٩.

يستطيع أن يحمل عن جدارة اسم «رومى»[١]، وأما الأجانب فلا، كانوا يسمون أنفسهم «الناس» أو «الرجال» تمييزاً لهم عن جيرانهم من الليبيين والإفريقيين والآسيويين، والذين كانوا يزدرونهم ويطلقون على رؤسائهم لقب «وغد»[٢].

ونقرأ فى رسائل العمارنة عن الأمراء الآسيويين الذين كانو يطلبون زوجات ـ فضلا عن أن يكونوا جوارى ـ وكان الجواب دائمًا هو الرفض ومن ذلك ما حدث مع الملك البابلى «كادشمان أنليل الأول» الذى سأل فرعون مصر «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥-١٣٦٧ق.م) أن يزوجه من أميرة مصرية، فرفض أمنحتب هذا الملتمس باحتقار وتعال[٣].

ذلك أن الفرعون ـ رغم ترحيبه بالزواج من بنات الملوك الآسيويين ـ إنما كان ضنينًا عليهم بأميرات بيته، ولعله كان يرى أن دماء الفراعنة ليست من عامة الدم، وإنما هى دماء عزيزة مقدسة، وأن بناته اللاتى يجرى فى عروقهن ذلك الدم المقدس، أرفع من أن تحتويهن مضاجع الملوك من غير آل فرعون[٤]، ومن هنا كان رفضه لملتمس الملك البابلى والذى كان فرعون متزوجًا من أخته، والتى كانت تعيش، مع غيرها من بنات الملوك والأمراء الأسيويين عيشة متواضعة بجوار الزوجة المصرية العظيمة «تى»[٥].

وهكذا رفض الفرعون أن يزوج الملك البابلى من أميرة مصرية، بحجة

---

(١) أورد هيرودوت (٢: ١٤٣) كلمة «بيروميس»، أى «رومى»، مسبوقة بأداة التعريف بمعنى يقارب كلمة «جنتلمان» اليوم.

(٢) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية فى مصر الفراعنة، الإسكندرية، ١٩٦٦، ص ١٦٢، ٢٠٩ (رسالة ماجستير)، وكذا:

Sir Alan Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 37.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٤) أحمد بدوى، فى موكب الشمس، الجزء الثانى، ص ٧٣٨ (القاهرة ١٩٥٠م).

(٥) كريستيان ديروش نوبلكور، توت عنخ آمون، ترجمة أحمد رضا، ومحمود خليل النحاس، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٢١. وكذا:
Sir Alan Gardiner, op.cit., p. 258.

أنه «لم يسبق أن أرسلت أميرة مصرية إلى أي إنسان» وحين أعاد الملك البابلى سؤله، لم يكن نصيبه هذه المرة بأفضل من الأولى، ومن ثم نراه يطلب من الفرعون أن يزوجه من أية امرأة، ولم يشترط سوى أن تكون مصرية، ومن هذا يتضح بأن الملك البابلى إنما كان يرضى بأية امرأة مصرية، مادام فرعون لم يشأن أن يزوجه من ابنته، وهو يلتمس هذه المرأة حتى يموه على شعبه بأنه تزوج من امرأة مصرية، ولعله شرف كان يصبو إلى تحقيقه[1].

وأما الرأى الذى يذهب إلى أن أم إسماعيل قد انضمت إلى بيت إبراهيم خلال زيارته لمصر، وأنها كانت المشرفة على الإماء، فهو يتناقض مع نص التوراة (تكوين ١٦ : ١) حين يجعلها جارية إبراهيم، وليست جارية سارة، ثم وهل كان حقًا للخليل جوارى بلغن من الكثرة حداً يحتاج إلى مشرفة عليهن، وما عمل هؤلاء الجوارى فى بيت خليل الله ورسوله الكريم؟ أللمتعة؟ وهو أمر لا يتفق، ومقام النبوّة السامى، أم للخدمة؟ وهنا فهل من المنطق أن يخدم هذا الحشد من الإماء ومشرفتهن هاجر، رجلا وامرأة فحسب؟.

وليس من شك أن الجواب هنا بالنفى، إلا إذا كان هذا الرجل، وتلك المرأة من ملوك البلاد أو أمرائها، أو حتى من أغنيائها، وليس رجلا ـ كما تقول التوراة [2] ـ قد عضّه الجوع فى أرض كنعان، فهاجر منها إلى أرض الكنانة الكريمة يطلب العيش فيها، ومن هنا فإننى أستبعد هذا الرأى، إذ أنه لا يتفق مع المنطق وجود مثل تلك الأمور فى بيت أبى الأنبياء، وإنما يمكن أن يكون ذلك كذلك فى بيت ملك من الملوك أو أمير من الأراء، أو واحد

---

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم ١٨٥/٢، ثم قارن ٢١٧/٥. ثم انظر.

S.A B. Meıcer, The Tell el-Amarna I, Tablets, Toıonto, 1939, p. 13, 63.

وكذا.

J.A Knudizon und O Weber, Dic El-Amama Tafcln, Lèipzig, 1915, I, p. 73

(٢) تكوين ١٢ . ١٠–٢٠

من الذين آتاهم الله بسطة فى الرزق، فجنحوا إلى حياة الترف والمجون، ولم يكن خليل الله واحداً من هؤلاء أو أولئك، ولن يكون أبداً.

وأما رأى الدكتور «ماير»، فهو أبعد الآراء عن الصواب، فهو (أولاً) لم يتخذ موقفاً محدداً بشأن موطن هاجر يمكننا مناقشته، ثم هو (ثانياً) ينزلق كثيراً إلى درجة لا تتفق أبداً مع منهج البحث العلمى الجاد، فهو يصف السيدة هاجر ـ رضى الله عنها ـ بأنها وضيعة الأصل مرة، ويجعلها ضحية لتصرفات الرجال الشهوانية الطائشة والأنانية، مرة ثانية، وهى مرة ثالثة أخذت من مكانها أو مركزها الحقيقى، ثم وضعت فى مركز زائف، تصبح فيه أماً، دون أن تكون زوجة شرعية[1] وهكذا؟؟

وليس شيئًا من هذا بالتأكيد يقع تحت منهج البحث العلمى، وإنما هى مجموعة من السباب للسيدة الفاضلة، التى كانت أول من أعطت الخليل الولد، وأول امرأة تقدم ابنها للذبح، فتحسبه لله صابرة، ثم أليست هى بنص التوراة [2] أول امرأة ظهر لها ملاك الربّ وبشّرها بأنها تحمل بين أحشائها ولداً تدعوه إسماعيل (الله يسمع) وأن الله سوف يجعل نسلها كثيراً، بحيث لا يستطيع أحد أن يحصيه، وأخيراً هل نسى الدكتور ماير أن هذا السباب إنما يتصل بزوجة أبى الأنبياء، فضلا عن الخليل نفسه.

وأما الرأى الذى يجعلها أميرة مصرية. وقعت فى أسر العماليق «الهكسوس»، ثم أهديت إلى الخليل ـ عليه السلام ـ فالمنطق لا يتعارض معه، إذ ليس هناك ما يمنع غاز من أن يسبى فتاة، ثم يهديها إلى من يريد.

غير أن هذا الرأى لا يستند إلى أساس تاريخى، هذا فضلا عن أن عصر الخليل ـ عليه السلام ـ إنما يتفق مع عصر الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م)، وليس مع عصر الهكسوس (١٧٢٥-١٥٧٥ق.م) ـ كما

(١) ف ب. ماير، حياة إبراهيم، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٤١

(٢) تكوين ٧/١٦-١٣، وانظر: الفاسى، شفاء الغرام، ١٧/١، (القاهرة ١٩٥٦)

أشرنا من قبل - ومن ثم فإننى لا أميل إلى الأخذ بهذا الرأى، والأمر كذلك بالنسبة إلى الرأى الذى ذهب إلى أن هاجر إنما كانت أخت زوج فرعون، أو ذلك الرأى الذى جعل من أم إسماعيل ابنة واحد من ملوك مصر.

وهكذا يبدو بوضوح أنه من الصعوبة بمكان أن تتخذ رأياً نهائيًا بشأن هاجر - رضى الله عنها - بخاصة وأن القرآن الكريم لم يتحدث عن ذلك أبداً، بل إن كتاب الله الحكيم حتى لم يذكر اسمها - وهى فى ذلك كسارة تماماً - إذ تحدث القرآن الكريم عن زوجهما الكريم إبراهيم الخليل، وعن ولديهما إسماعيل وإسحاق - عليهم السلام.

والذى نميل إليه - وهو مجرد فرض، تتقدم به حدساً عن غير يقين - أن السيدة هاجر كانت فتاة مصرية، ربما من الطبقة المتوسطة، ولم تكن جارية مصرية، تزوج بها أبو الأنبياء إبان إقامته بمصر، ثم حملت منه وأنجبت له ولدهما إسماعيل.

نقول إنها مصرية لأن الإجماع منعقد على ذلك، وأنها من الطبقة المتوسطة، لأننا نستبعد أن يتزوج الخليل من الطبقة الدنيا، كما نستبعد كذلك أن تكون أميرة مصرية، ذلك لأن للأمراء فى مصر تقاليدهم التى ربما تنأى بهم عن أى يزوجوا بناتهم من الأجانب فى تلك الفترة من تاريخ مصر.

على أن هذا لا يمنعنا من القول أنها ربما كانت ابنة واحد من كبار رجال الدين المصريين، على أساس أنهم هم الطبقة التى من المنتظر أن يكون الخليل أكثر اتصالا بها، بخاصة إذا ما كان صحيحاً ما ذهب إليه المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» من أن الخليل قد ذهب إلى مصر، وفى نفسه أن يسمع منهم، لئن كان خيرا تقبله، وإن كانت الأخرى هداهم إلى سواء السبيل، وليست هناك طبقة تلائم ذلك سوى طبقة الكهنة، بخاصة وأن التوراة تحدثنا أن يوسف الصديق قد تزوج فيما بعد من نفس بنات هذه

الطبقة، من «أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون[١]» (عين شمس).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن السيدة هاجر المصرية، أخذت لولدها إسماعيل ـ فيما ترى التوراة [٢] ـ زوجة مصرية، وإن ذهبت المصادر العربية إلى أنها إنما كانت عربية من اليمن، على أن «التلمود» إنما يذهب إلى أن إسماعيل قد عاش فترة من الزمن مع أمه في برية فاران ثم رحلا معا إلى مصر، حيث تزوج هناك إسماعيل وأنجب أربعة أولاد وبنتًا واحدة، لكنه سرعان ما عاد إلى موطنه في البادية، حيث بنى الخيام لنفسه ولعائلته وشعبه، فقد باركه الله، وجعله مالكا للكثير من قطعان الماشية والأغنام[٣].

(٣) **قطورة**: كانت قطورة أو قطورا بنت يقطن من الكنعانيين على رأى، وبنت مقطور من العرب العاربة، والتي ربما كانت قبيلتها تسكن على مقربة من مكة على رأى ثان [٤]، وهي زوجة الخليل الثالثة، وقد زفت إليه بعد وفاة سارة، ورزق منها بستة أبناء: زمران ويقشان ومدان ويشبان وشوحا[٥].

(٤) **حجور**: وهي الزوجة الرابعة ـ فيما ترى المصادر العربية ـ للخليل، وقد دعتها بعض المصادر حجوني بنت أرهير، وقد ولدت للخليل خمسة بنين: كيسان وشورخ وأميم ولوطان ونافس. [٦]

---

(١) تكوين ٤١ : ٤٥. (٢) تكوين ٢١ : ٢١.

(٣) H. Polano, The Talmud, English Translation, N.Y., p. 54-55.

(٤) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢٠٩/١-٢١١، (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠)؛ قاموس الكتاب المقدس، ٣٧٩/٢، (بيروت ١٩٦٧).

(٥) تكوين ٢٥ : ١-٢.

(٦) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ١٦٠/١، ٣١١؛ ابن الأثير الكامل في التاريخ، ٤٨/١. (بيروت ١٩٦٥)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢١/١ (دار التحرير، القاهرة، ١٩٦٨)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٥٣/١ (بيروت ١٩٦٦)؛ قصص الأنبياء، ٢٥٣/١ (القاهرة ١٩٦٨، تحقيق مصطفى عبد الواحد، محمد حسنى عبد الحميد، أبو الأنبياء، إبراهيم الخليل، القاهرة، ١٩٤٧، ص ١٦٠.

الفصل الثانى
إسحاق ويعقوب عليهما السلام

كان العبرانيون قومًا ضعافًا يلوذون فى كل موطن سكنوه بمن هو أقوى منهم من القبائل التى تلتقى بهم فى أصولهم ويحتمون بمصاهرتهم من أعدائهم، وهكذا تروى التوراة فى سفر التكوين قصة زواج إسحاق من «رفقة بنت بتوئيل، ابن ملكة التى ولدته لناحور»، ذلك أن أبا الأنبياء أبى أن يزوج إسحاق من بنات الكنعانيين، خوفًا من أن يعبد الأصنام إن تزوج من واحدة منهن، ومن ثم فقد أرسل خادمه «اليعاذر الدمشقى» إلى أرضه وعشيرته فى «فدان أرام» ليأتى لإسحاق بزوجة من هناك (١).

ويفسر شراح التوراة هذا الحدث بأن أبا الأنبياء أراد الاحتفاظ بنقاء الدم فى أسرته، وقد عرف ما فى الزواج المختلط من متاعب ومشاكل، فآثر أن يختار لولده زوجة من أهله وعشيرته وقومه، وكان قد انتهى إليه أن لناحور (أخى إبراهيم) حفيدة فى سن موافقة لإسحاق (٢).

والأمر ـ فيما أظن ـ ليس بهذه الصورة، ذلك لأن الخليل نفسه إنما تزوج من قبل بمصرية، كما تزوج من بعد بقطورة الكنعانية، وبحجور العربية، هذا فضلاً عن أن بكره إسماعيل، قد تزوج طبقًا لرواية التوراة (٣) ـ وكذا التلمود (٤)، ـ من امرأة مصرية. (٥)

---

(١) تكوين ٢٤: ١-٦٦.

(٢) حبيب سعيد، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٣) تكوين ٢١: ٢١.

(٤) H. Polano, The Talmud, (English Translation), N.Y., London, p. 53-54.

(٥) من الثابت الصحيح عن المعصوم ـ ﷺ ـ أنه قال «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا». وهناك رواية أخرى للحديث الشريف، جاء فيها: «ستفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لكم منهم صهرًا وذمة»، فأما الذمة، فإن «مارية» أم إبراهيم ولد =

ومن هنا فإن هذا الرأى إنما يتجه إلى تمييز العبرانيين عن غيرهم من أبناء إبراهيم الخليل، ويتصل اتصالاً وثيقا بأسطورة الشعب المختار، هذا فضلاً عن أن الظروف التى أحاطت بهذا الزواج إنما تثير أكثر من تساؤل. فالذى يقوم بالمهمة إنما هو خادم إبراهيم ـ وليس إبراهيم نفسه أو حتى ولده إسحاق نفسه، كما سوف سيحدث من بعد مع حفيده يعقوب ـ هذا إلى أن الزوجة نفسها (رفقة) إنما تأتى إلى إسحاق مع خادم إبراهيم، وليس مع أخ لها، أو حتى مع واحد من بنى عشيرتها، فضلاً عن أن يأتى بها وفد من رهطها الأدنيين، وإنما تحدثنا التوراة أنهم «صرفوا رفقة أختهم ومرضعتها وعبد إبراهيم»، متمنين لهم ما أراده كاتبو التوراة : «صيرى ألوف ربيبى وليرث نسلك باب مبغضيه» [(١)]

على أن هناك فريقا من الباحثين إنما يذهب إلى أن إسحاق ـ وكذا والديه ـ لم يكونوا براغبين فى أن يتزوج امرأة من الشعوب الوثنية، وهو رأى ليس بالصواب كذلك، لأن أهل رفقة لم يكونوا أبدا قوماً من الموحدين وقت ذاك، وإلى هذا تشير التوراة فى سفر يشوع : «آباؤكم سكنوا فى عبر النهر منذ الدهر، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور، وعبدوا آلهة أخرى» [(٢)]، بل إنهم ـ وطبقا لرواية التوراة كذلك ـ إنما ظلوا على وثنيتهم هذه حتى أيام يعقوب، إذ نقرأ فى سفر التكوين أنه يعقوب حين عاد من فدان أرام إلى أرض كنعان، سرقت راحيل زوجه أصنام أبيها» [(٣)]

=

المصطفى ـ ﷺ ـ كانت صعيدية من قرية بمركز ملوى، وأما الرحم ، فإن أم العرب ـ هاجر ـ روج إبراهيم الخليل وأم إسماعيل عليهما السلام ـ إنما كانت مصرية كذلك (انظر: صحيح مسلم ، ١٩٧٠/٤، كتاب فضائل الصحابة، باب «وصية النبىّ ﷺ بأهل مصر»؛ الكندى، فضائل مصر، القاهرة، ١٩٧١ ، ص ٢٦-٢٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٩٢/١-٩٣؛ ابن هشام، ٧٦/١؛ وانظر: محمد بيومى مهران، دراسة حول : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، الرياض، ١٩٧٦ ، ص ٢٩٧-٤٣٧.

(١) تكوين ٢٤: ٥٩-٦٠. (٢) يشوع ٢٤: ٢. (٣) تكوين ٣١: ٩.

ويرى «سيسل روث» أن إبراهيم إنما كان يعتبر نفسه منتميًا إلى حضارة أرقى من تلك التى للسكان الاخرين من أهل البلاد فى كنعان، ومن ثم فقد أرسل إلى أقربائه الأدنيين ـ بموطنه الأصلى فى ميزوبوتاميا ـ يطلب زوجة لولده إسحاق(١). ويبدو لى أن المؤرخ اليهودى إنما قد نسى ـ أو تناسى ـ أن إبراهيم نفسه إنما قد تزوج بعد ذلك ـ وبعد وفاة سارة ـ من هؤلاء السكان الآخرين (٢) هذا فضلاً عن أن الأمر، لو كان أمر حضارة أرقى تنتمى إليها الزوجة، لكانت هاجر أم إسماعيل ـ ثم زوج إسماعيل نفسه المصرية (٣) ـ أولى بهذا من رفقة زوج إسحاق، ذلك لأن البون جد شاسع بين حضارة مصر الفراعنة وبين حضارة حاران.

وهكذا يبدو لى أنه لا الاحتفاظ بنقاء الدم فى الأسرة، وهو الأمر الذى لم يحافظ عليه بنو إسرائيل أبدا (٤) ـ ولا التوحيد عند قوم رفقة، ولا ارتفاع مستواهم الحضارى عن الكنعانيين، كان سببا فى زواج إسحاق من ابنة «بتوئيل» هذه، ومن ثم فعلينا أن نبحث عن سبب آخر.

---

(١) C. Roth, A Short History of the Jewish People, 1969, p. 5.

(٢) تكوين ٢٥ : ١.

(٣) تكوين ١٦ : ١-١٦؛ ٢١ : ٢١.

(٤) أنظر أمثلة على عدم النقاوة الجنسية عند اليهود: عن أبناء يعقوب (تكوين ٣٥: ٢٥-٢٦) وعن أبناء يوسف (تكوين ٤١ : ٤٥-٥٢) عن أبناء موسى (خروج ٢ : ٢١-١٢؛ ١٨ :٤) وعن عصر القضاة (٣ : ٥-٦) وعن داود (راعوث ١ : ١-٤، ١٣؛ ٤ : ٢٢) وعن سليمان (صموئيل ثان ١ : ١٣) وعن أبناء داود (صموئيل ثان ٣: ٢-٥؛ ٥ : ١٣) ثم انظر سفر عزرا عن أخريات أيام اليهود فى فلسطين (عزرا ٩ : ١-١٤، ١٠ : ١-٤٤)؛ وانظر مقالنا : النقاوة الجنسية عند اليهود ، مجلة الأسطول، العدد ٦٨ ، الإسكندرية ١٩٧١؛ جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيا، القاهرة ١٩٦٨ ، وكذا:
George Adam smith, Historical Georaphy of the Holy Land, N.Y., 1932.
وكذا: C.S. Coon, Have the Jews a Racial Identity, N.Y., 1942.
وكذا: W.Z. Ripley, The Races of Europ, London, 1900.

ومن هنا، فالرأى عندى، أن أبا الأنبياء - عليه السلام - إنما أراد ألا تنقطع العلاقة بينه وبين عشيرته فى «أرام النهرين»، وأن يربط أسرته - وقد بعد المقام بها عن مواطنها الأولى فى فدان أرام - بمن هو أقوى منها، وبخاصة إن كان هذا الأقوى من القبائل التى تلتقى بهم فى أصولها الأولى حتى يحتموا بمصاهرتهم من أعدائهم - كما أشرنا آنفا - ولدينا أكثر من حادث يدل على قلة هذه العشيرة فى عددها وقوتها، وأنها ظلت على هذه القلة بعد أيام إبراهيم، وفى أيام يعقوب، ومن أبرز الشواهد على ذلك فى حياة البداوة خاصة أن جيرانها كانوا يجترئون على نساء زعمائها [١]، فطمع «أبى مالك» - ملك جيرار - فى سارة [٢]، وسميّة فى رفقة، [٣]، واعتدى «شكيم» على «دينة» ابنة يعقوب، [٤] أضف إلى ذلك أنهم كانوا يميلون إلى الزواج من الداخل، [٥] وإن خالفوا ذاك فى أغلب الأحايين.

وأما اختيار إسحاق لهذا الزواج، فربما لأن إسماعيل كان قد تزوج من قبل، وربما لأنه كان بعيدا إلى الجنوب، هناك فى أرض الحجاز، وربما لأن أولاد إبراهيم الآخرين كانوا بعد أطفالاً - وربما لم يولدوا بعد، وهذا هو المرجح، وربما لأن سارة كان لها دور فى الزواج، كما سوف يكون لرفقة دور فى زوج يعقوب، وكلتاهما أرادتا أن تربط ولدهما برهطه الأدنين بوشائج من مصاهرة، فضلا عن وشائج النسب، الأمر الذى فعلته هاجر مع ولدها إسماعيل، حين زوجته من أهلها، من مصر.

وأيًا ما كان الأمر، فقد تزوج إسحاق من رفقة، وشاءت التوراة أن تؤخر حملها سنين عدداً، فيدعو إسحاق ربه من أجلها، فتحمل آخر الأمر وترزق

---

(١) عباس العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١١٤.

(٢) تكوين ٢٠: ١-١٨.

(٣) تكوين ٢٦: ١-١١.

(٤) تكوين ٣٤: ١-٣٠.

(٥) ثروت الأسيوطى، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، بنو إسرائيل، القاهرة، ص ١٥٧

بولدين، الواحد عيسو، والآخر يعقوب، فى وقت كان أبوهما إسحاق قد بلغ الستين من عمره[١].

وتمضى الأيام بإسحاق - عليه السلام - وقبل أن ينتقل إلى جوار ربه الكريم، راضيًا مرضيًا عنه، لا يفوت كاتبو التوراة أن يسجلوا على عيسو ضياع بكوريته، فضلا عن بركته.

كان إسحاق يحب «عيسو» لأن فى فمه صيدا، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب[٢]، ولكن رغم حب إسحاق لعيسو، ورغم أن عيسو هو البكر، فقد كان ما أرادت رفقة - أو بالأحرى ما أراد كاتبو التوراة من سلالة رفقة - فجعلوا عيسو يتنازل عن بكوريته فى مقابل صحفة من عدس[٣]، وكان هذا وحده - فى نظر التوراة - كافيًا لأن يسلب يعقوب من عيسو بكوريته، ورغم أن البكورية[٤] - وهى السبق فى الولادة - أمر لا يجوز أن يكون موضع المساومة بيعًا أو شراء، فإن العبرة المستمدة من هذه القصة تشجيع الوصولية والانتهازية حتى بين أقرب الأقربين واستغلال حاجة الغير إلى القليل لاغتصاب حقهم فى الكثير[٥].

ومع ذلك، فإن عيسو - كما يقول الدكتور ماير - [٦] لم يفقد كثيراً

---

(١) تكوين ٢٥: ٢٠-٢٦. (٢) تكوين ٢٥: ٢٨.

(٣) تكوين ٢٥: ٢٧-٣٣.

(٤) كانت البكورية عند اليهود ميراثًا روحيًا، يعطى صاحبها - أيًا كان - عدة امتيازات يمتاز بها الابن البكر عن بقية أخوته، منها أنه يكون مكرسًا للربّ ومستودعًا للأسرار الإلهية ونقلها إلى البشرية، ومنها حق وراثة مواعيد اليهود التى قطعها الربّ لإبراهيم، ومنها نيابة الابن البكر عن أبيه فى البيت عند غيابه، ومنها أن يعطى نصيبًا واحدًا زائدًا عن أخوته، ولما كانت البكورية أمراً ذا شأن واعتبار عند اليهود، فإنهم كانوا يلقبون كل كبير الأهمية بالبكر. (انظر: تكوين ٢٥: ٣١؛ تثنية ٢١: ١٧؛ خروج ٢٢: ٢٩؛ قاموس الكتاب المقدس ١٨٧/١؛ ف.ب. ماير، حياة يعقوب، ص ٢٢).

(٥) صبرى جرجس، التراث اليهودى الصهيونى، القاهرة ١٩٧٠، ص ٦٧.

(٦) ف.ب. ماير، حياة يعقوب، ترجمة: القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢١.

بفقد البكورية، فقد كان عظيمًا مهابًا يحيط به حرس من أربعمائة رجل مسلح[١]، وكانت مملكة آدوم المترامية الأطراف فى قبضة يده، ورقد فى قبره بسلام وبشيبة صالحة بعد حياة موفقة ناجحة مليئة بأعمال البطولة، وفى التاريخ القصير الذى بين أيدينا ليس فيه ما يدل على أنه عاش حياة فاشلة، وإنما العكس هو الصحيح.

وأيًا ما كان الأمر، فإن الأيام تمر بإسحاق ويكبر فى العمر، وتكل عيناه عن النظر، ويدعو «عيسو» ولده البكر، ويطلب منه أن يخرج إلى البرية، ويصطاد صيدًا ليأكل منه حتى يباركه قبل أن يموت، وتلعب رفقة دورًا خطيرًا فى تحويل البركة من عيسو إلى يعقوب، فتأخذ ثياب عيسو الفاخرة، وتضعها على جسد ولدها الأصغر يعقوب، ثم «ألبست يديه وملاسة عنقه جلود جدى المعزى»، وأعطته الخبز والأطعمة التى صنعتها[٢].

وتتم المهزلة بأن يسبغ إسحاق بركته على ولده يعقوب، وهو يعتقد أنه بكره عيسو، وكأن نبىَّ الله الكريم لا يستطيع أن يفرق بين أبنائه، حتى وإن كلت عيناه عن النظر، ﴿فإنَّها لا تعمى الأبصارُ ولكنْ تعمى القلوب التى فى الصدور﴾[٣]، تقول التوراة : «فشم رائحة ثيابه وباركه، وقال: انظر: رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الربُّ، فليعطك الله من ندى السما، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر، تستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيد لإخوانك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين[٤]».

ويعلم عيسو بما جناه أخوه، فينوح ويجأر بالشكوى، ويطلب من أبيه أن يباركه ـ كما وعده ـ فيقول أبوه : «قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك»[٥]، وكان جديرًا بإسحاق ـ وهو ما يرجح أنه قد فعله ـ أن يواسى

(١) تكوين ٣٢ ٦.
(٢) تكوين ٢٧ :١-١٧.
(٣) سورة الحج ، آية : ٤٦.
(٤) تكوين ٢٧ : ٢٧-٢٩.
(٥) تكوين ٢٧ : ٣٥.

ولد « الأثير إلى قلبه «عيسو» ويجبر خاطره الكسير، ولكن لسبب غير معلوم، تروى توراة اليهود - أو كما أراد كاتبوها أن تروى - أنه طفق يزجره، وينتهره ويلعنه ويدعو عليه، «هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك، وبلا ندى السماء من فوق، وبسيفك تعيش، ولأخيك تستعبد»[1]. وهكذا كانت خاتمة المطاف، فاز يعقوب بحق البكورية، وظفر ببركة أبيه ودعواته المستجابة، وباء عيسو - أو أدوم - بالبؤس والمهانة، وآلت حقوقه إلى أخيه، «ويكون أدوم ميراثاً».

وهكذا يبدو واضحاً ما فى الرواية التوراتية من تكرار للصورة العجيبة من الأنانية وأثرها فى يعقوب إزاء أخيه عيسو، ومدى انخداع إسحاق وإصراره، على حرمان عيسو، وتفضيل يعقوب عليه، حتى بعد أن عرف بخديعة يعقوب له - وحاشا إسحاق ويعقوب، عليهما السلام، أن يكونا كذلك - .

ومهما يكن من أمر، فإن فكرة توكيد اختصاص يعقوب ونسله بالبركة والتمييز، وتسجيل سيادتهم على إخوتهم، فضلا عن أبنائهم وسائر أمم الأرض، لأمر واضح فى القصة، مما جعل كتبة التوراة يسجلونها فى كتابهم المقدس هذا، مع ما فيها من شدة أنانية يعقوب وخداعه لأبيه إسحاق بكذب صراح، حيث يقول - طبقاً لرواية التوراة - «أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلمتنى، قم أجلس وكل من صيدى، لكى تباركنى نفسك»[2]، هذا فضلا عن استخدامه لاسم الله زوراً للتستر على أضاليله، فإنه عندما سأله أبوه إسحاق عن كيفية عودته المبكرة، فإذا به يجيبه: «إن الربَّ إلهك قد يسر لى»[3]، ومن ثم فإن التوراة نفسها، إنما تسجل - على لسان إسحاق - أن ذلك كله إنما تمَّ بمكر وخديعة : «قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك»[4].

هذا وقد بيَّن العلامة «ابن حزم» (٣٨٤-٤٥٦هـ/٩٩٤-١٠٦٤م)

---

(١) تكوين ٢٧ : ٣٩-٤٠.
(٢) تكوين ٢٧ : ١٩.
(٣) تكوين ٢٧ : ٢٠.
(٤) تكوين ٢٧ : ٣٥.

في نقد لاذع، وتحليل رائع، ما في هذه النصوص - الخاصة بسلب يعقوب عيسو بركته - من أكاذيب وخرافات ومتناقضات، إذ يقول: «وفي هذا الفصل فضائح وأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات، فأول ذلك: إطلاقهم على نبيّ الله يعقوب، عليه السلام، أنه خدع أباه وغشّه، وهذا مبعد عمن فيه خير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء، فكيف من نبيّ مع أبيه - وهو نبيٌّ أيضاً - هذه سوءات مضاعفات، وثانية: وهي إخبارهم أن بركة يعقوب إنما كانت مسروقة بغش وخديعة وتخابث، وحاش للأنبياء عليهم السلام من هذا، ولعمري أنها بطريقة اليهود، فما تلقى منهم إلا الخبيث والخادع وإلا الشاذ.

وثالثة: وهي إخبارهم أن الله تعالى أجرى حكمه، وأعطى نعمته على طريق الغش والخديعة، وحاش لله من هذا، ورابعة : وهي أنه لا يشك أحد في أن إسحاق عليه السلام، إذ بارك يعقوب حينما خدعه، - كما زعمت توراة يهود - إنما قصد بتلك البركة عيسو، وأنه دعا لعيسو لا ليعقوب، فأي منفعة للخديعة لو كان لهم عقل... فهذه وجوه الخبث والغش في هذه القضية.[1]

وأما وجوه الكذب فكثيرة جداً، من ذلك نسبتهم الكذب إلى يعقوب، عليه السلام، وهو نبيٌّ الله ورسوله في أربعة مواضع، أولهما وثانيهما قوله لأبيه إسحاق أنا ابنك عيسو وبكرك، فهاتان كذبتان في نسق، لأنه لم يكن ابنه عيسو، ولا كان بكره، وثالثهما ورابعهما قوله لأبيه: صنعت جميع ما قلت لي فاجلس وكل من صيدي، فهاتان كذبتان في نسق، لأنه لم يكن قال له شيئًا ولا أطعمه من صيده، وكذبات أخرى، وهي : بطلان بركة إسحاق إذ قال ليعقوب: تخدمك الأمم وتخضع لك الشعوب وتكون مولى أخوتك ويسجد لك بنو أمك وبطلان قوله لعيسو: تستعبد لأخيك، فهذه كذبات متواليات. فو الله ما خدمت الأمم يعقوب ولا بنيه بعده، ولا خضعت

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٤، ص ١٠٨-١٠٩.

لهم الشعوب، ولا كانوا موالى إخوتهم، ولا سجد له بنو أمه، بل بنو إسرائيل خدموا الأمم فى كل بلد وفى كل أمة، وهم خضعوا للشعوب، قديماً وحديثاً فى أيام دولتهم وبعدها[١].

وأياً ما كان الأمر، فإن ثورة عيسو سرعان ما تشتد على أخيه يعقوب، ويهدد بقتله ـ بعد حادث تحويل البركة هذا ـ وسرعان ما تتدخل أمهما «رفقة» فتنصح يعقوب بأن يفر إلى خاله «لابان»، لعله يجد هناك الحمى من عيسو فى ديار حاران، حتى تهدأ ثورة الأخير، وينسى فعلة يعقوب الذى فضل عليه دونما ذنب جناه، ودونما فضل ليعقوب تمتع به سواه[٢].

وهكذا كانت نتيجة تدبير رفقة ـ فيما يرى الدكتور ماير ـ أن خدع الزوج، وأسىء إلى الابن الأكبر، وأبعد الابن الأصغر فى ذلك النفى الإجبارى، فضلا عن الإساءة إلى سمعة تلك الأم، التى لاشك فى أنها لولا تصرفها الخاطىء هذا لكللت بكرامة أمجد[٣]، هذا إن كانت رواية التوراة صحيحة تامة، وهذا ما نشك فيه كثيراً وإلى حد بعيد.

وعلى أى حال، فإن التوراة هنا إنما تكرر قصة زواج إسحاق من عشيرته الأقربين فى «فدان آرام»، فتذهب إلى أن رفقة إنما رأت ألا يتزوج ولدها من بنات «بنى حث»[٤]، فأسرت إلى إسحاق برغبتها هذه، ومن ثم فقد أسرع إسحاق يستدعى ولده يعقوب ويوصيه ألا يأخذ من بنات كنعان زوجة له، وأن يذهب إلى عشيرته فى فدان آرام، وأن يتزوج من ابنة خاله «لابان»[٥].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) تكوين ٤١ : ٤٥.

(٣) ف.ب.ماير، حياة يعقوب، ترجمة القس مرقص داود، القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٨.

(٤) تكوين ٢٧ : ٤٨.

(٥) تكوين ٢٨ : ١-٢.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن بنات «بنى حث» شيء، وبنات كنعان شيء آخر، فالأولون قوم «هندو ـ أوروبيون» ، والآخرون قوم «ساميون» ، هذا إلى أن التوراة ـ ويا للعجب ـ إنما تروى فى سفر التكوين أن عيسو عندما علم أن الكنعانيات شريرات فى عينى أبيه إسحاق، إنما ذهب إلى ديار عمه «إسماعيل» ، وتزوج من ابنته «محلة» أخت «بنايوت» على نسائه(١).

وأيًا ما كان الأمر، فلقد ذهب يعقوب إلى فدان آرام، وأقام هناك فترة عند خاله «لابان» عرض عليه بعدها أن ينكحه ابنته «راحيل» على أن يأجره سبع حجج، وهكذا بدأ يعقوب يرعى لخاله سبع سنين، فلما وفّى له شرطه وأقبل الليل دخل خيمته، فألفى فيها زوجه، فلما أصبح وجد أن خاله قد زوجه من ابنته الكبرى «ليئة» بدلا من راحيل أثيرة قلبه بحجة أنه «لا يفعل هكذا فى مكاننا أن تعطى الصغيرة قبل البكر»(٢).

ويبتلع يعقوب الخدعة ويتفق مع خاله على أن يخدمه سبع حجج أخرى، فى مقابل أن يتزوج هذه المرة من «راحيل» ، فلما قضى يعقوب الأجل نال ما كان يبغى، وزف إليه خاله ابنته الصغرى «راحيل» ، ثم سرعان ما تزوج من جاريتها بلهة، فضلا عن جارية الزوجة الكبرى «زلفة» وهكذا جمع يعقوب تحته الشقيقتين، فضلا عن جاريتيهما.

هذا وقد رزق يعقوب من زوجاته الأربع باثنى عشر ولداً ـ فضلا عن ابنته دينه التى ولدتها له ليئة ـ وهكذا «كان بنو يعقوب اثنى عشر، بنو ليئة رأوبين بكر يعقوب وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون، وأبناء راحيل يوسف وبنيامين، وأبناء بلهة جارية راحيل، دان ونفتالى، وأبناء زلفة جارية ليئة جاد وأشير، هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا له فى فدان آرام»(٤).

---

(١) تكوين ٢٨ : ٩-١٠. (٢) تكوين ٢٩ : ١-٢٦.
(٣) تكوين ٢٩ : ٢٧-٣٥؛ ٣٠ ١-٢٤. (٤) تكوين ٣٥ : ٢٢-٢٦.

وهنا تبدأ الهجرة الثانية فى تاريخ العبرانيين إلى أرض كنعان، هجرة يعقوب وبنيه من فدان آرام إلى حبرون - وكانت الهجرة الأولى هجرة إبراهيم والذين معه من حاران إلى كنعان - وربما كان من الأفضل أن نشير إلى أن هنا بداية تاريخ الإسرائيليين - وليس العبرانيين - ذلك أن بنى يعقوب - والذى سوف يلقب بإسرائيل - بعد حين من الدهر قليل - إنما سينفصلون عن إخوتهم من بنى عيسو - أو الأدوميين - وعن بنى عمومتهم من بنى إسماعيل - أو العرب - وكذا عن بقية ذرية إبراهيم.

ولعل من الغريب، أن التوراة - وكذلك مفسروها - لا تستقر على رأى واحد، بشأن الدوافع التى دعت يعقوب إلى العودة إلى كنعان، فتارة نرى يعقوب - بعد أن خدم خاله أربعة عشر عامًا ليمهر زوجتيه - ينتهز فرصة ولادة راحيل لولدها يوسف، وقدرتها على تحمل مشاق السفر المضنى من حاران إلى كنعان، فيعلن عزمه على العودة إلى مضارب خيام آبائه الأولين[1]. وتارة أخرى نرى أن السبب رسالة من رفقة لولدها يعقوب تعلن فيها أنه لم يعد هناك ما يدعو إلى تغيبه[2]، وتارة ثالثة نرى أن ذلك إنما تمّ بوحى من ربّ إسرائيل إلى يعقوب[3].

وأيًا ما كان الأمر، وسواء أكانت هذه الأسباب مجتمعة هى الدافع إلى عودة بنى يعقوب إلى كنعان، أو أن واحدًا منها إنما كان السبب، فإن يعقوب يخرج بزوجاته وبنيه من فدان آرام مغاضبًا لخاله وحميه لابان وبنيه، لأن ربّ إسرائيل قد ساعد يعقوب على نمو أغنامه وتكاثرها، كما رضى كذلك عما استخدمه من ختل وخداع فى الانتقام من لابان، حتى «جعل جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومشمرة»، لتكون من نصيبه، هذا فضلا عما فعلته زوجته «راحيل» حينما سرقت أصنام أبيها وأخذتها معها[4].

(١) تكوين ٣٠: ٢٥-٢٦. (٢) ف.ب.ماير، حياة يعقوب، ص ٨٠. (٣) تكوين ٣١: ٣.

(٤) تكوين ٣١: ٩-١٢. وانظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، ٢/ ٣٤٠.

ومن ثم فإن لابان وبنيه إنما كانوا مضطرين إلى اللحاق بركب يعقوب، معاتبين إياهم على سرقة أصنامهم، جادين فى طلبها، غير أن راحيل سرعان ما خادعتهم، عندما «أخذت الأصنام ووضعتها فى حداجة الجمل، وجلست عليها، ثم ادعت بعد ذلك أنها لا تستطيع القيام من مكانها لأنها فى الحيض[١]»

ومن الغريب أن التوراة إنما تذهب إلى أن الله قد تراءى للابان فى الحلم - مع أنه وثنى - ولم يلحق بيعقوب إلا ليأخذ أصنامه التى سرقتها ابنته راحيل زوج يعقوب - «وقال له : احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر»[٢] مما جعله آخر الأمر يجنح إلى السلم، بل ويقطع معه عهد سلام، يكون الله شاهده، وإله إبراهيم وآلهة ناحور قاضية فيما يشجر بينهما من خلاف فى تنفيذ هذا العهد[٣].

ولست أدرى : كيف جاز ذلك على كتبة التوراة؟ وكيف قبلوا أن الله يتراءى للوثنيين فى المنام؟ ثم كيف قبلوا أن يجمعوا بين إله إبراهيم وآلهة ناحور فى القضاء فى أى خصام يشجر بين لابان ويعقوب؟ وهل علم الذى يدعون لهذه النصوص، ما يدعون من قداسة، أن تلك كانت عادة الشعوب الوثنية القديمة، وعلى سبيل المثال تلك المعاهدة التى عقدت بين رعمسيس الثانى (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) وخانوسيل الثالث (١٢٧٥-١٢٥٠ق.م) ملك الحيثيين، حوالى عام ١٢٧٠ق.م وأشهد كل منهما عليها أربابه، وأن ذلك إنما كان - فيما يرى المؤرخون - دليلا على استعداد كل من الدولتين للاعتراف بآلهة الدولة الأخرى[٤]، فهل كان الأمر كذلك بين يعقوب ولابان؟.

---

(١) تكوين ٣١ : ٣٤-٣٥. (٢) تكوين ٣١ : ٢٤. (٣) تكوين ٣١ : ٤٥ : ٤.

(٤) انظر: عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٢٣٤؛ وكذا: محمد بيومى مهران، مصر، ٣٥٦/٣-٣٦٠.

A.Gardiner, JEA, 6, 1920, p. 201-202; J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 248; P.m, II, p. 49; ASAE, p. 181f.

ثم كيف قبل كاتبو التوراة أن يصوروا لنا راحيل - وهى زوجة نبىّ وأم نبىّ - وهى سارقة لأصنام أبيها، ثم وهى مخادعة له. وذلك حين خبأت الأصنام فى حداجة (هودج) الجمل، وجلست عليها، بل وادعت كذباً على أبيها أنها لا تستطيع النهوض من مكانها، لأن عليها «عادة النساء»؟، فهل كانت زوج نبىّ الله يعقوب، وأم ولده الصديق يوسف، عليهما السلام، ماتزال على الشرك، وقد مضى على زواجها من يعقوب سنوات عدة؟

فى الواقع أننى لا أظن أن هناك باحثًا يستطيع أن يجد لذلك تبريراً يمكن أن يقبله العقل، ويتفق مع مكانة نبوة يعقوب عليه السلام، إلا إن كان يريد أن يؤمن بحرفية كل ما جاء فى التوراة - أيًا كان هذا الذى جاء فيها - وإلا إن كان يؤمن بتلك العلاقة التى تصورها التوراة بين اليهود، وبين إله اليهود، تلك العلاقة التى وصلت إلى أن يصارع الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - يعقوب حتى مطلع الفجر، فلا يلبث يعقوب حتى يغير اسمه إلى إسرائيل.

ويقص علينا سفر التكوين تلك الأسطورة، فيروى أن يعقوب بينما كان عائداً من فدان آرام إلى أرض كنعان، وهناك عند «مخاضة يسوق»[1]، وقد أجاز يعقوب عائلته عبر الوادى، يبرز له رجل فيصارعه حتى مطلع الفجر، صراع رهيب، يكاد فيه يعقوب يتغلب على خصمه، لولا حركة مخالفة للأصول يصاب فيها يعقوب بضربة ينخلع لها حق الورك، ويسأل يعقوب غريمه فلا يجيبه، وإن كان يباركه، فيطلق عليه اسم إسرائيل فيفرح يعقوب، ويسمى المكان «فنوئيل»، (وجه الله)، قائلا: لأنى نظرت الله وجهًا لوجه وأنجيت نفسى»، وتشرق الشمس، فإذا بيعقوب يخمع على فخذه، ومن ثم

(١) يبوق: هو نهر الزرقاء الذى ينبع بالغرب من عمان، ثم يسيل شرقًا، ثم شمالا ماراً بمدينة الزرقاء التى حملت اسمه ثم يصب فى الأردن عند نقطة تبعد ٤٣ ميلا إلى الشمال من البحر الميت، وهناك فى مخاضة فى هذا النهر صارع يعقوب رجلا (قاموس الكتاب المقدس، ١٠٥١/٢).

«لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ، لإنه ضرب حُق فخذ يعقوب على عرق النسا»[١].

وقد دار جدل طويل بين علماء اليهود والنصارى حول ذلك الرجل الغامض الذى برز ليعقوب عند مخاضة يبوق، فصارعه حتى الفجر، فذهب فريق من العلماء إلى أنه «جنى مريد»، فإن هذا النص كغيره مما يتعلق ـ بالآباء الأولين مستقى ولاشك من مأثورات قديمة حين كانت شعوب المنطقة ـ عرباً كانوا أم عبريين أم كنعانيين ـ غارقين فى المعتقدات الخرافية ـ أساطير التوراة نفسها التى تحاول تفسير قدسية أماكن بعينها: «بيت إيل»[٢] أو «محانيم»[٣] على سبيل المثال لا الحصر، تشير إلى إيمان عميق يموج بالجن، وأن حورت الصور فكأنهم رسل من ملائكة[٤].

ومن هذا النوع ـ فيما يرى المؤرخ الأمريكى الكبير جيمس هنرى برستد (١٨٦٥-١٩٣٥م)[٥] جنىّ الليل المعتم الذى صارعه يعقوب عند يبوق، حتى أجبره على الفرار قبل انبثاق الفجر، وهكذا نرى هنا معتقدات خرافية تترسب لها اثارها، حتى فى أسفار متأخرة ـ كما فى سفر أشعياء[٦].

---

(١) تكوين ٣٢: ٢٢-٣٢.

(٢) بيت إيل: بمعنى بيت الله، وقد سمّاها كذلك يعقوب لأن الله ظهر له فيها (تكوين ٢٨: ١١-١٩؛ ٣١: ١٣)، وتقع شمال أورشليم بحوالى ١٢ ميلا.

(٣) محانيم: بمعنى «محلتان» وقد سماها يعقوب كذلك (تكوين ٣٢: ١)، وتقع شرق الأردن، وربما فى مكان «خربة محنة» شمالى عجلون بميلين ونصف ميل (قاموس الكتاب المقدس ٨٤٣/٢).

(٤) حسين ذو الفقار صبرى، توراة اليهود، المجلة، العدد ١٥٧، يناير ١٩٧٠، ص ٤؛ تكوين ٢٨: ١٢-٣٢: ٢-٣؛ وكذا:

A. Lods, Israel From its Beginnings to the Middle ofthe Eight Century, London, 1962, p. 160.

(٥) J.H. Breasted, The Down of Conscience, N.Y., 1939, p. 349-350.

(٦) إشعياء ٢٤: ١٤.

وهناك فريق ثان ذهب إلى أن هذا الغريم الغامض الذى صارعه يعقوب إنما هو روح النهر أو شيطانه، وأن صراع يعقوب معه إنما كان من أجل انتزاع البركة، ولعل هذا مما يفسر لنا سبب تخلف يعقوب عن قافلة النساء والأطفال وقطعان الماشية، وبقائه وحده فى مخاضة النهر، وربما حسب يعقوب أن إله النهر المنعزل ينزع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة، أو بين أشجار الدفل التى تنمو على مسافة آمنة بعيدة، حتى إذا ما مرّ الركب وساد الهدوء النهر - فيما عدا صوت التيار الرتيب الهامس - دفعه الفضول لأن يخرج من مخبئه ليستطلع أحوال النهر، ويعرف سبب هذا الهرج والمرج، وعند ذاك يكون يعقوب الماكر فى انتظاره، فينقض عليه ويتشبث به، حتى يحصل منه على البركة التى يسعى إليها[1].

وهناك فريق ثالث يذهب إلى أن ذلك الرجل الغامض الذى صارع يعقوب، ملاك أرسله الربّ ليعجم عود يعقوب قبل أن يختاره نبيًّا، كما يحاول أن يوحى بذلك جمهرة من كتاب ومفكرين يهود، اعتماداً على بعض مصادر أبرزها ما جاء فى سفر هوشع، «جاهد مع الملاك وغلب، بكى واسترحمه، وجده فى بيت إيل وهناك تكلم معنا، والربّ إله الجنود، يهوه اسمه»[2]، ولكن أين هوشع من أساطير الأولين؟ بل إنه ليبدو متردداً، عازفًا عن أن يقطع برأى، فيقول: «وبقوته جاهد مع الله، جاهد مع الملاك وغلب»[3].

على أن هناك اتجاهًا رابعًا، يرى - طبقًا لبعض التفسيرات المسيحية -

---

(١) جيمس فريزر، الفولكلور فى العهد القديم، ترجمة : نبيلة إبراهيم، ومراجعة: حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧٢، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) هوشع ١٢ : ٤-٥.

(٣) حسين ذو الفقار، المرجع السابق، ص ٤.

أنه المسيح، عليه السلام، إذ قيل عن الملاك الذى صارع معه بأنه هو «الله»، ومن ثم فمن المفروض أنه هو «ابن الله»، ملاك العهد[١].

وهنا يتساءل الدكتور ماير: أكانت هذه الحرب جسدية؟ ثم يجيب، ليس هناك أى مبرر لإنكار هذه الحقيقة، فنحن نعلم أن «ابن الله»، سبق أن أعلن تجسيده بالظهور أحياناً بشكل جسدى، لأن لذاته كانت منذ القديم مع بنى آدم، ولقد كان من الميسور أن يصارع جسدياً مع يعقوب، كما كان ميسوراً أن يمد يديه ليلمسها قوم بعد القيامة، يقيناً كانت الحرب جسدية لأن يعقوب عند استئناف رحلته خمع على حق فخذه، ولازال شعبه إلى اليوم يذكرون مادياً هذه الواقعة المادية، إذ يمتنعون عن أكل ذلك الجزء من اللحم (عرق النسا)[٢]، الذى يشبه الجزء الذى انخلع فى فخذ يعقوب، فالإنسان لا يسير أعرج بسبب حرب وهمية أو معنوية»[٣]

وهناك فريق من الباحثين يذهب إلى أن هذا الصراع، إنما كان سببه - فيما يرى إدوار ماير ومكس مولر - أن يعقوب لم يسارع كما يقتضى العرف بتقديم القرابين لإله المخاضة - أى الروح التى تسكنها حفيظة عليها - وإنما تحداه اعتماداً على قوته الخارقة، فيتغلب عليه، وينتزع منه البركة انتزاعاً[٤]،

---

(١) متى هنرى، تفسير هوشع، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٢٩.

(٢) قارن : قوله تعالى ﴿كُلُّ الطعامِ كانَ حلاً لِبَنِى إسرائيلَ إلاَّ ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسِهِ مِنْ قبلِ أنْ تُنَزَّلَ التوراةُ﴾ (سورة آل عمران، آية : ٩٣) ، ويذهب بعض المفسرين إلى أن إسرائيل حرّم على نفسه لحوم الأنعام أو زائدتى الكبد والكليتين والشحم إلا ما كان على الظهر، أو أنه حرّم لحوم الإبل وألبانها، وذلك فى الحديث الذى أخرجه الحاكم وغيره عن ابن عباس، أن يعقوب كان به عرق النساء، فنذر إن شفى لم يأكل أحب الطعام إليه، وكان ذلك أحبه إليه أو أنه حرّمه على نفسه تعبداً... إلخ (انظر: تفسير روح المعانى ٢/٤-٣؛ تفسير الكشاف ٣٥٨/١؛ تفسير الطبرسى ١٤٣/٢-١٤٤؛ تفسير الطبرى ٧/٧-١٦؛ تفسير المنار ٣/٤-٥؛ تفسير ابن كثير ٦١/٢-٦٢؛ تفسير القرطبى ، ص ١٣٧٦-١٣٧٨؛ تفسير النسفى ٢٣٤/٢ فى ظلال القرآن ٥/٢-١٠)

(٣) ف.ب. ماير، حياة يعقوب، ص ١٠٦.

(٤) حسين ذو الفقار ، المرجع السابق، ص ٤٤ وكذا A.Lods, op.cit., p. 234.

وأما عند «الدكتور ماير» فإن يعقوب، لم يكن هو الذى أراد أن ينال شيئًا من الله، بل كان الله نفسه «الملاك يهوه» هو الذى كانت له خصومة مع يعقوب، ابنه الذى امتلأ قلبه بالمكر والخداع، ومن ثم فقد اعتزم أن ينتزع منه روح العداء بالذات إلى الأبد، ويعطى مجالا لبزوغ ونمو إسرائيل، الذى اختبأ طويلا فى يعقوب[1].

على أن هناك فريقًا خامسًا يقيّد نفسه بحرفية ما جاء فى التوراة ـ وعلى رأسه «مارتن بوبر» ـ فيلسوف الصهيونية فى العصر الحديث ـ يذهب إلى أن كلمة «رجل» ـ كما تأتى فى سياق النص ـ إنما تعنى الله دون شك، وأن الموقف كان يحتم على يعقوب حتى يجوز التجربة فى تلك الليلة الليلاء، فيصبح أهلا لأن يصطفى، أن يتصدى لشخص الإله نفسه فينتزع منه البركة، ليس البركة فحسب، وإنما كان عليه أيضًا ـ ومصدرنا هنا بوبر نفسه مرة أخرى ـ أن يتخلص من سبة ذلك الاسم الذى يحمله، إذ يبدو أنه كان ينعت به ـ عند الشعوب السامية القديمة ـ «قاطع الطريق»، إذ «يتعقب فريسته متحينًا الفرصة»، ويقول سفر التكوين [2] ـ على لسان عيسو ـ «ألا إن اسمه يعقوب، فقد تعقبنى الآن مرتين، أخذ بكوريتى، وها هو ذا الآن قد أخذ بركتى»، ومن هنا فإن لفظ «إسرائيل» لا يمكن أن يفسر إلا بمعنى «كان قويًا ضد الله»، إذ أنه المعنى الذى تتجه إليه تلقائيًا أذهان جمهرة اليهود[3].

وهكذا تختلف الآراء حول ذلك الذى صارع يعقوب، فهو مرة شيطان رجيم أو جنى مريد، وهو مرة أخرى ملاك كريم، وهو مرة ثالثة إنسان ـ دونما أى تعريف ـ وهو مرة رابعة المسيح عيسى بن مريم، وهو مرة خامسة

(١) ف.ب.ماير، حياة يعقوب، ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) تكوين ٢٧: ٣٦.

(٣) حسين ذو الفقار صبرى، المرجع السابق، ص ٤-٥؛ وكذا:
Martin Buber, Moses, Oxford, p. 48-49; 58, 1964.

«الله» نفسه، وإنه لمن الصعب أن نقرر أى هذه الآراء هو الأقرب إلى الصواب، ولكن هناك نصوصًا أخرى فى سفر التكوين تقرر أن الذى غير اسم يعقوب إلى اسم «إسرائيل»، إنما هو «الله» ذاته، يقول النص: «وقال الله: اسمك يعقوب، لا يكون من بعد اسمك يعقوب، بل إسرائيل، يكون اسمك، فسماه إسرائيل»[١].

هذا فضلا عن أن النص صريح فى أن الله هو الذى ظهر ليعقوب، حين جاء من «فدان آرام» كما أن نص المصارعة نفسه إنما يصرح بأن يعقوب بعد أن سأل مصارعه عن اسمه الذى أخفاه عنه، يقول النص: «فدعا يعقوب اسم المكان فنوئيل، قائلا: لإنى نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسى، وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل، وهو يخمع على فخذه»[٢].

ومن هنا فنحن لسنا فى حاجة إلى اجتهادات المجتهدين، وإنما النص التوراتى نفسه يخبرنا بوضوح أن ذلك الذى صارع يعقوب، إنما هو الله نفسه، ولسنا نملك من أمرنا سوى أن نستغفر الله مما جاء فى توراة اليهود.

والأمر كذلك بالنسبة إلى سبب المصارعة، فهى مرة بسبب امتناع يعقوب عن تقديم القرابين لإله مخاضة يبوق، ومرة أخرى لأن الله نفسه إنما كانت له خصومة مع يعقوب ابنه الذى ملأ المكر والخداع قلبه، فاعتزم أن ينتزعهما منه، ولكنها مرة ثالثة لأن يعقوب إنما كان يجب أن يجتاز التجربة حتى يصبح أهلا لأن يجتبى.

وإذا ما عدنا إلى يعقوب بعد مصارعته هذه، لرأيناه يستعد لمقابلة أخيه عيسو، فيرسل له رسلا تطلب رضاه، فضلا عن الكثير من الهدايا التى قدمها له بغية أن يأمن جانبه[٣]، غير أن يعقوب عندما رأى أخاه مقبلا، ومعه «أربع مئة رجل» ارتعدت فرائصه، وقسّم أولاده بين نسائه الأربعة، ثم «اجتاز

(١) تكوين ٢٥: ٩-١٢.
(٢) تكوين ٣٢: ٣٠-٣١.
(٣) تكوين ٣٢: ١٣-٢١.

قدامهم وسجد إلى الأرض سبع مرات، حتى اقترب إلى أخيه» ثم تقدمت أمتاه - وهما فى نفس الوقت زوجتاه - وأولادهما وسجدوا لأخيه يعقوب، وكذا فعلت زوجتاه فيما بعد[1].

وبدهى أن هذا التذلل والخضوع - كما تقدمه التوراة - من يعقوب، لا يتفق - فيما نعتقد - ومقام النبّوة، فضلا عن أن يكون ذلك مع الذى تذكر التوراة أنه كان يصارع الربّ ليلا، فكيف تسنى لها أن تجعله هو نفسه الذى يسجد تحت أقدام عيسو نهاراً، هذا فضلا عن أن الذى يسجد له يعقوب سبع مرات، إنما هو أخوه التوأم.

وانطلاقًا من هذا، وتخريجًا منه، فالرأى عندى أن هذا من تأثير النظم السياسية المجاورة فى التوراة - وبخاصة المصرية والفلسطينية - ولعل كاتب هذه النصوص التوراتية إنما كان متأثراً بما كان يفعله الأمراء الأسيويون مع فرعون، والذى مانزال آثاره باقية فى رسائل العمارنة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والتى تبدأ فى أغلب الأحايين، بقول الأمير الأسيوى إلى سيده الفرعون المصرى: «ارتمى تحت قدميك سبع مرات».

فها هو «عبد خيبا» أمير القدس (أورشليم) يكتب إلى سيده الفرعون إخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ق.م) قائلا: «إلى الملك مولاى، هكذا يقول عبدك خيبا خادمك، على قدمى الملك سبع مرات، وسبع مرات أجثو...»[2].

ويكتب «خامو نيرى» أمير بيروت إلى الفرعون قائلا: «إلى الملك مولاى إلهى، نسمة حياتى، هكذا يقول: خامو نيرى رجل بيروت: خادمك، تراب قدميك، علي قدمى الملك، شمسى وإلهى ونسمة حياتى، سبع مرات

---

(١) تكوين ٣٣: ١-٧.

(٢) S.A.B. Mércer, op.cit., II, p. 721; J.A. Knudtzon, op.cit., p. 579.

وسبع مرات أسجد تحت قدمى مولاى الملك سيدى وشمسى وإلهى ونسمة حياتى، ذلك لأن الملك سيدى وشمسى وإلهى...»[١].

ويكتب «أبيميلكى» حاكم صور إلى سيده الفرعون، يقول: «إلى الملك، مولاى، هكذا يقول أبيميلكى خادمك، سبع مرات أسقط على قدمى سيدى الملك...»[٢].

ويقول «شوباندو» فى رسالة منه إلى إخناتون: «إلى الملك مولاى، الشمس التى فى السماء، هكذا يقول: شوباندو خادمك، تراب قدميك، على قدمى الملك مولاى، وإلهى وشمسى، سبع مرات وسبع مرات أسقط، على ظهرى وبطنى، لقد أرسل الملك مولاى، الشمس التى فى السماء...»[٣].

ويكتب عبد شرتا أمير الآموريين ـ وعدو الفرعون ـ إلى إخناتون قائلا: «إلى الملك الشمس، مولاى عبد شرتا، يقول خادمك، تراب قدميك، على أقدام الملك مولاى، سبع مرات أسقط، أنا خادم الملك، وكلب حراسته»، هكذا يكتب هذا الأمير وغيره من الأمراء الأسيويين إلى فرعون مصر، سيدهم وشمسهم بنفس لهجة الخضوع والتذلل، التى لا يختلف فيها واحد عن الآخرين[٤].

ومهما يكن من أمر، فإن عيسو يقابل أخاه يعقوب، بغير ما كان ينتظر منه هذا الأخ، ومن ثم فقد «ركض عيسو للقائه وعانقه ووقع على عنقه وقبله وبكيا[٥]»، وتقبل أسرة يعقوب فتسجد ليعقوب، بل إن كاتب سفر

---

(١) S.A.B. Mercer, op.cit., p. 467.

(٢) S.A.B. Mercer, op.cit., p. 153

(٣) J.A. Knudtzon, op.cit., p. 899; S.A.B. Mercer, op.cit., p. 843.

(٤) W.E. Albright, Akkadian Letters, The Amarna Letters in Ancient Near Eastern Texts, Relating to the Old Testament Princeton, 1966, p. 483-492.

(٥) تكوين ٢٣: ٤

التكوين ليصور يعقوب - وحاشاه أن يكون كذلك - متملقًا أخاه بدرجة لا نرتضيها له، حيث يقول: «لأنى رأيت وجهك كما يرى وجه الله فرضيت علىّ»(١)، ثم محاولته التخلص منه حين يعرض عليه عيسو حماية رجاله، بحجة أن أولاده رخصة، والمواشى مرضعة، ولا يستطيع المسير بسرعة، ثم يعده أن يلحق به فى «سعير»(٢) التى استوطنها عيسو.

غير أن يعقوب سرعان ما يتجه صوب «سكوت(٣)»، ثم يصل آخر الأمر إلى شكيم، فيضرب خيامه أمام المدينة، ويقيم هناك مذبحًا(٤)، وإن كان البعض يرى أنه قد احتل المدينة، وأخذ المراعى التى فى تخومها، ومن ثم فقد نسجت أوهام كثيرة حول هذا الاحتلال فيما بعد، مع أنه أمر يتعارض تمامًا مع اتجاه الروايات التوراتية(٥).

---

(١) تكوين ٣٣: ٥-١١.

(٢) سعير أو أرض سعير: اسم الأرض التى كان يسكنها الحوريون، ثم استولى عليها عيسو ونسله، وهى سلسلة جبال ممتدة فى الجهة الشرقية من وادى عربة من البحر الميت إلى خليج العقبة، سميت كذلك نسبة إلى سعير الحورى، أو نسبة إلى خشونة منظر البلاد كلها وهو الأرجح، وأعلى قمة فيها - جبل هور أو حور - تصل فى ارتفاعها إلى ١٦٠٠م، والواقف على قبر هارون فى جبل حور فى أواسط جبال سعير، يشاهد ما فى البلاد من هضاب وصخور وغياض وأشجار ملتفة، مما يثبت هذا الرأى، وكانت تسمى كذلك أرض سعير، أما يوسف بن متى ، ويوسبيوس، وإيرونيموس، فيسمونها جبال «عيبال»، ولا يزال القسم الشمالى من جبل سعير حتى الجزيرة العربية يدعى «جيبال» ، وكانت حدود سعير تمتد قديمًا إلى العربية، وإلى خليج العقبة جنوبًا، وإلى حضيض سلسلة «جيبال» عند بداية الصحراء شرقًا (انظر: تكوين ١٤: ٦، ٢٢: ٣؛ تثنية ١٢: ١-٨؛ دائرة المعارف للبستانى ٦٢٣/٩، بيروت ١٨٨٧؛ إبراهيم خليل، المرجع السابق، ص ٣٧؛ قاموس الكتاب المقدس ٤٦٦/١-٤٦٧).

(٣) سكوت: وتقع شرق الأردن ، وشمال مخاضة يبوق، وربما يقع مكانها اليوم «تل أخصاص» غربى دير علة، على مقربة من نهر يبوق (نهر الزرقاء) وعلى مبعدة أربعة أميال شرقى الأردن (قاموس الكتاب المقدس ٤٧٢/١).

(٤) تكوين ٣٣: ١٢-٢٠؛ وانظر : ف.ب. ماير حياة يعقوب، ص ١١٦-١١٨.

(٥) S.A. Cook, op.cit., p. 359.

ذلك أن الرواية التوراتية إنما تذهب إلى أن «شكيم بن حمور الحوى» كان قد رأى «دينة» ـ ابنة يعقوب من زوجه ليئة ـ فشغف بها حبًا، ونال وطره منها بقوة سلطان أبيه، ورغم أن شكيم قد اتخذ دينه بعد ذلك زوجة، إلا أن ذلك الزواج لم يمح ـ فى نظر شقيقيها شمعون ولاوى ـ ما لحق إسرائيل من عار، فغضبوا، ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا، وهم غرباء فى كنعان، فضلا عن أنهم قلة لا عصبية لهم، ومع ذلك فإن رواية التوراة إنما تذهب إلى أن شمعون ولاوى قد طلبا من قوم شكيم أن يختتنوا، وحين يتم ذلك يهتبل الأخوان الفرصة، ويجندلان بسيوفهما كل ذكور المدينة، ويسبيان نساءها وأطفالها، ويستوليان على ماشيتها[1]، ومن هنا كانت قصة احتلال المدينة فيما بعد.

وأيًا ما كان الأمر، فلقد بقى يعقوب وبنوه «فى أرض غربة أبيه فى أرض كنعان»، حتى هاجروا جميعًا إلى مصر، بدعوة من يوسف الصديق، وكان يعقوب قد بلغ الثلاثين بعد المائة من عمره[2]، ثم عاش فى مصر سبعة عشر عامًا[3]، انتقل بعدها إلى جوار ربه الكريم ـ راضيًا مرضيًا عنه ـ ثم أعيد جثمانه الشريف إلى كنعان، حيث دفن بمغارة المكفيلة فى حبرون (الخليل) ـ بناء على وصية ـ مع إبراهيم وسارة، وإسحاق ورفقة[4].

---

(١) تكوين ٣٤: ١-٣٠.

(٢) تكوين ٤٧: ٩.

(٣) تكوين ٤٧: ٢٨.

(٤) تكوين ٤٩: ٢٩-٣٢؛ ١٥٠-١٣.

الباب الثالث
الإسرائيليون فى مصر

الفصل الأول
دخول الإسرائيليين مصر

١ - يوسف الصديق فى مصر:

ترجع علاقة الإسرائيليين بمصر إلى دخول يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - أرض الكنانة، كرقيق اشتراه أحد كبار الموظفين المصريين، ذلك أن التوراة تروى فى سفر التكوين[١] أن يوسف كان أحب إخوته إلى أبيه، إذ كان «يأتى بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم»، وأنه «ابن شيخوخته»، وأنه رأى حلماً فسره إخوته على أنه سيكون سيداً عليهم، مما أدى فى نهاية الأمر إلى أن تتأجج نيران الحقد فى قلوبهم نحو الصديق عليه السلام، وإلى هذا السبب الأخير يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى أَرَى أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ، قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٢].

وهكذا بدأ إخوة يوسف يضمرون له الشر، لأنه - فيما يعتقدون - أحب الأخوة إلى أبى الأبناء، ومن ثم فقد دبروا له مكيدة، كى يخلو لهم وجه أبيهم، وأنجزوا خطتهم للتخلص منه، بأن ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[٣]

---

(١) تكوين ٢٧ : ١-١١.

(٢) سورة يوسف، آية : ٤-٥؛ وانظر تفسير الطبرى ، ١٥/٥٥٠-٥٥٩، (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠)؛ تفسير المنار، ١١/٢٠٩-٢٩٩ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤)؛ تفسير القرطبى، ص ٣٣٤٠-٣٣٥٧ (دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠)؛ تفسير ابن كثير، ٤/٢٩٧-٢٩٩ (دار الشعب، القاهرة، ١٩٧١).

(٣) سورة يوسف، آية : ٩.

وفى الواقع، أن قصة الصديق ـ كما جاءت فى الكتب السماوية ـ إنما تشير بوضوح إلى أن إخوته، إنما ظلوا ردحًا من الزمن ضحايا الكبت الذى عانوه، كى يخفوا رغبتهم فى التخلص من يوسف، رغبة فى أن يخلو لهم حب أبيهم، ولكنهم كانوا يفشلون فى إخفائها وكبتها، بل كثيراً ما كانت تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف، مما جعل يعقوب يشك فى حسن نواياهم، عندما دعوا يوسف ليلعب معهم[١]، فقال لهم ـ كما جاء فى القرآن الكريم ـ ﴿وأخافُ أن يأكله الذئبُ وأنتم عن غافلون﴾[٢]، وكان من نتيجة هذا الكبت أن انحرفوا بتفكيرهم، فكل ما كان يهمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه فاتفقوا على قتله، وتلطيخ قميصه بالدم، وادعاء أن الذئب أكله لما ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم.

غير أن التلفيق إنما كان واضحًا، لأن القميص لم يمكن ممزقًا بآثار أسنان الذئب ـ أو كما قال يعقوب، فى رواية السدى، إن كان هذا الذئب لرحيمًا، كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه ـ مما يجعل يعقوب لا يصدقهم، ولهذا كان يدعوهم دائمًا أن يتقصوا اثار أخيهم، وقد وقعوا فى حالة «التبرير» كما يفعل المذنب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه ليبين لنفسه وللناس، أن لسلوكه هذا أسبابًا معقولة[٣]، فهم يقولون: ﴿يا أبانا إنَّا ذهبنَا نَستَبِقُ وتركنَا يوسفَ عِندَ متاعِنَا فأكله الذِئبُ، وما أنتَ بِمؤمِنٍ لَنَا ولو كُنَّا صادِقين﴾[٤].

---

(١) التهامى نقرة، سيكولوجية القصة فى القرآن، تونس ١٩٧٤، ص ٥١٦ (رسالة دكتوراة من جامعة الجزائر عام ١٩٧١م).

(٢) سورة يوسف، آية : ١٣.

(٣) التهامى نقرة، المرجع السابق، ص ٥١٦-٥١٧.

(٤) سورة يوسف، آية : ١٧ . وانظر: تفسير الطبرى، ١٥/٥٧٧-٥٧٨؛ تفسير ابن كثير، ٤/٣٠٣-٣٠٤؛ تفسير القرطبى، ص ٢٣٧٤-٢٣٨٧؛ تفسير المنار، ١٢/٢١٩-٢٢١.

وعلى أى حال فلقد كان إخوة يوسفَ قد أجمعوا أمرهم على أن يجعلوه فى غيابات الجُبِّ، ولكنهم سرعان ما غيَّروا رأيهم هذا، حين قال لهم «يهوذا» : «تعالوا فنبيعه للإسماعيليين»، غير أن الأمور لم تسر كما يرغبون، إذ «جاء رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر، وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة، فأتوا بيوسف إلى مصر»(١) وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله: ﴿وجاءَتْ سيارةٌ فأرسلوا وارِدَهُم فأدْلَى دلْوه، قال يا بشْرَى هذا غلامٌ وأسرُّوه بضاعةً، والله عليمٌ بما يعملون، وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهِمَ معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهِدين﴾(٢)

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى نوع من التناقض المعهود فى نصوص التوراة، ذلك أننا نقرأ فى الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين أن يهوذا هو صاحب الكلمة الأخير فى أمر يوسف، ومن ثم فإنه يقترح أن يبيعوه إلى الإسماعيليين بعشرين مثقالا(٣)، ولكننا نقرأ فى نفس السفر أن راؤبين هو صاحب الكلمة الأخيرة، حيث يقترح إلقاءه فى الجب، ومن ثم فقد وجده تجار من مدين هناك(٤)، والأمر كذلك بالنسبة إلى قصة بيعه إلى «فوطيفار» ففى أول القصة أن الذى باعوه إلى رئيس الشرطة المصرى، إنما هم جماعة من أهل مدين(٥)، بينما نجدهم فى آخر القصة، جماعة من الإسماعيليين(٦)، ومن المعروف أن المديانيين إنما هم من ذرية مديان ولد إبراهيم من زوجه قطورة، بينما الإسماعيليون من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

---

(١) تكوين ٣٧: ١٨-٢٨.

(٢) سورة يوسف، آية : ١٩-٢٠؛ وانظر: تفسير الطبرى، ١٦/١-١٧ (دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩)؛ تفسير القرطبى، ص ٢٣٨١-٢٣٨٦؛ تفسير المنار، ٢٢٢/١٢-٢٢٤؛ تفسير ابن كثير، ٣٠٤/٤-٣٠٥.

(٣) تكوين ٣٧: ٢٦-٢٨.

(٤) تكوين ٣٧: ٢١-٢٤، ٢٨.

(٥) تكوين ٣٧: ٣٦.

(٦) تكوين ٣٩: ١.

وأيًا ماكان الأمر، فلقد هبط الصديق مصر، كرقيق اشتراه رئيس الشرطة المصرى، بثمن بخسٍ دراهم معدودة، رأى صاحب تفسير المنار أنها دون الأربعين، على أساس أنها معدودة لا موزونة، وإنما يعدّ القليل ويوزن الكثير، وكانت العرب تزن ما بلغ الأوقية ـ وهى أربعون درهمًا فما فوقها ـ وتعدّ ما دونها، ولهذا يعبرون عن القليلة بالمعدودة[1]، وذهب ابن عباس وابن مسعود وغيرهما إلى أنهم باعوه بعشرين درهمًا، بينما ذهب فريق ثالث إلى أنهم إنما باعوه بأربعين درهمًا[2]، وأما التوراة فقد ذهبت ـ كما أشرنا آنفًا ـ إلى أنها عشرون مثقالا[3].

ومهما يكن من أمر، فإن الصديق ـ عليه السلام ـ قد عاش فى قصر سيده المصرى، الذى وصفته التوراة، بأنه «خصى فرعون رئيس الشرطة»[4]، ولست أدرى كيف دار فى خلد كاتب التوراة أن رئيس الشرطة المصرى، إنما كان خصيًا، ومن عجب أن هذه الأكاذيب قد انتقلت إلى بعض كتب التفسير[5] ، وإن رفضتها جمهرة المفسرين[6]، وكأن الرجل لم يكن شافعًا له ـ فى نظر كتبة التوراة ومن لفّ لفهم ـ فى دحض هذه الفرية، أنه كان زوج أجمل سيدة فى البلاد؟ ولكن ما الحيلة، وصاحب سفر التكوين من التوراة، إنما يرى أن حاشية القصر كانت كلها من الخصيان، حتى لنجده كذلك يصف رئيس سقاة الملك ورئيس خبازيه بأنهما من الخصيان[7].

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير سورة يوسف، ص ٢٢ (القاهرة ١٩٣٦)؛ تفسير المنار، ٢٨١/١٢، (القاهرة ١٩٧٤)؛ تفسير الطبرى، ١٣/١٦؛ تفسير القرطبى، ١٥٥/٩-١٥٦، (القاهرة ١٩٦٧).

(٢) تفسير القرطبى، ص ٣٣٨٤-٣٣٨٥؛ تفسير الطبرى، ١٣/١٦-١٦؛ تاريخ الطبرى، ٣٣٥/١؛ تفسير ابن كثير ٣٠٥/٤؛ تفسير روح المعانى ، ٢٠٤/١٢-٢٢٥؛ المقدسى، كتاب البدء والتاريخ، ٦٨/٣؛ مؤتمر تفسير سورة يوسف، ٤٢١/١-٤٢٧.

(٣) تكوين ٣٧ : ٢٨. (٤) تكوين ٣٩ : ١.

(٥) تفسير القرطبى، ص ٣٣٨٩؛ تفسير الطبرى، ١٩/١٦.

(٦) انظر مثلا: تفسير البيضاوى، ٤٩١/١؛ تفسير المنار، ٢٧٢/١٢؛ تفسير روح المعانى، ٢٠٧/١٢؛ مؤتمر تفسير سورة يوسف، ٤٣٤/١، ٥٠٣-٥٠٤؛ قارن ٥٢٥/١-٥٢٦.

(٧) تكوين ٤٠ : ٢.

غير أن الصديق - عليه السلام - إنما تعرض فى أخريات أيامه فى قصر سيده المصرى إلى امتحان رهيب، حيث راودته امرأة العزيز عن نفسه لأنها افتتنت بحسنه فأحبته، وليس لها ما يردعها من خوف زوجها عن خيانته، لأنها تملك قياده كما يشاء هواها، شأن ربات القصور المترفات اللائى أفسدت طباعهن الحرية والفراغ، وكادت له لما رفض أن يستجيب، لأن لها من نفاذ الكلمة، ومن السلطان على زوجها ما مكنّها من الانتقام، رغم ما عرف زوجها من آيات صدقه[1].

وإلى هذا يشير القرآن الكريم، فى قوله تعالى: ﴿وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيتَ لكَ، قال معاذَ الله إنّه ربى أحسنَ مثْوایَ إنّه لا يُفْلِحُ الظالمون، ولقد همّت به وهمّ بها لولا أنْ رأى بُرهانَ ربّه كذلك لنصرفَ عنه السوءَ والفحشاء إنّه مِنْ عبادِنَا المُخْلَصين﴾[2]

غير أن أنباء الفضيحة سرعان ما تترامى إلى الناس، وطفق النساء خاصة يتحدثن بسقطة امرأة العزيز، ويتناقلنها بينهن وأنها شغفت حبًا بعبدها وخادمها، وكيف خرجت عن طبع أنوثتها فى ادلائها وتمنعها، ونزلت عن كبريائها وسلطانها، ﴿فلمّا سَمعتْ بمكْرِهنّ أرسلَتْ إليهنّ وأعتَدَتْ لَهُنّ مُتّكئًا وءاتت كُلّ واحدَةٍ منْهنّ سكّينًا وقَالَتْ اخرُجْ عليهنّ، فلما رأينه أكبرنَه وقطّعْنَ أيديهنّ وقلْنَ حاشاَ لله ما هذَا بشرًا إنْ هذا إلا ملكٌ كريم، قالت فذلكُنّ الّذى لُمْتُنّنى فيه ولقدَ راودتُه عَنْ نفسه فاستَعْصَمَ ولئنْ لَمْ يَفعَلْ ما آمرُه ليُسجَنَنّ وليكونًا منَ الصّاغرينَ، قال ربِّ السِّجْنُ أحبُّ إلىّ ممّا يدْعونَنى إليه، وإلا تصرِفْ عنّى كيدهنّ أصبُ إليهنّ وأكن منَ الجَاهلينَ، فاستَجَابَ له ربُّه فصرَفَ عنهُ كيْدَهُنّ إنّه هو السّميعُ العليم﴾[3].

(١) التهامى نقرة، مرجع سابق، ص ٥١٢.

(٢) سورة يوسف، آية : ٢٣-٢٤. وانظر: تفسير الطبرى، ٢٤/١٦-٥٠؛ تفسير ابن كثير، ٣٠٦/٤-٣٠٩؛ تفسير المنار، ٢٢٧/١٢-٢٣٥؛ تفسير القرطبى، ٣٣٩١-٣٣٩٩.

(٣) سورة يوسف، آية : ٣١-٣٤، وانظر تفسير القرطبى ، ص ٣٤٠٤-٣٤١٤؛ تفسير المنار، ٢٣٩/١٢-٢٤٤؛ تفسير ابن كثير، ٣١١/٤-٣١٣؛ تفسير الطبرى، ٦٨/١٦-٩٠.

وهكذا تحولت الأمور إلى صراع بين المرأة والفتى، ودخلت كما يقال دوراً من العناد والمغالبة غريب، هي بتهالكها الذى انكشف عن تبجح سافر وكبر خائر، وهو بإصراره الذى لا سبيل له إلا إلى المضى فيما بدأ وأعلن للنّاس، ولكنه مع ذلك لم ينج منهم ومن كيد نسائهم وتحالفت عليه قوى البغى، فكان لهن من السلطان على أزواجهن ما حجب الحق الأبلج، وأساء إلى الخلق المتين[١]، ﴿ثمَّ بدَا لَهم مِنْ بَعدِ ما رأوْا الآياتِ ليَسْجُننَّه حتى حِينٍ﴾[٢]

وليس هناك من ريب فى أن هذه القصة إنما تقدم لنا صورة دقيقة لمجتمع فاسد آثم، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام الهكسوس المغتصبين فى مصر من فساد وانحلال، ولو لم يكن لدينا عن مصر فى ذلك الزمان سوى تلك القصة - التى أجمعت الكتب المقدسة على صدقها - لاتخذناها وحدها دليلا على مجتمع يسوده الأجانب والغرباء، ولنفيناها عن المصريين ونسبناها إلى ذلك المجتمع الأجنبى مطمئنين، لأنها إنما تخالف عن طبيعة الأشياء فى مصر، وتخرج عن سليقة المصرى بما ركب فيه من الأنفة والحمية والكرامة والكبرياء[٣].

ولو نظرنا إلى بعض قصص التوراة لوجدنا قصتنا هذه أشبه بقصص التوراة وأدنى إلى مجتمعها، على حين تنبو عن مجتمع المصريين الأصيل، وتخالف تقاليدهم وأذواقهم خلافاً يفوق كل خلاف[٤]، فمثلا تحدثنا التوراة فى سفر التكوين[٥] أن راؤبين - بكر إسرائل وأكبر الأسباط - قد انتهك عرض أبيه، بأن ضاجع زوجته بلهة وأم أخويه - دان ونفتالى - ولم تحدثنا

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف، مصر فى القرآن والسُّنَّة، ص ٤٥، (القاهرة ١٩٧٣).

(٢) سورة يوسف، آية : ٣٥.

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٤٦.

(٥) تكوين ٣٥: ٢٢.

التوراة عما فعل يعقوب وبنوه، إزاء تلك الجريمة، حتى أننا لا ندرى سببًا لسكوتها على ذلك وهل يتفق ذلك مع كونها كتابًا من عند الله؟ أم أن تلك سنّة الإسرائيليين، وحتى لو كان الأمر كذلك، أيصل الأمر برجل يعدّه الإسرائيليون على رأس واحد من الأسباط الاثنى عشر، إلى أن يرتكب جريمة الزنا مع زوج أبيه - وهي في مكان أمه - ثم هي في نفس الوقت أم أخويه، اللذين لم تحدثنا التوراة عن موقفهما إزاء ما فعله أخوهما بأمهما؟ مع أن عقابهما القتل - بنص التوراة نفسها «إذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه، إنهما يقتلان كلاهما دمهما عليهما»[1].

وعلى أى حال، وأيًا كان نصيب نصوص التوراة هذه من الخطأ والصواب، فإن الصديق عليه السلام - سرعان ما يقذف به القوم من الهكسوس إلى السجن - رغم ما رأوا من براءته - مدة لم يحددوا زمنها، لأن الهدف من ذلك إنما كان أن ينسى الناس قصته مع امرأة العزيز، هذه القصة التى لاكتها الألسن كثيراً بين أوساط الناس[2].

ومع ذلك فإن الصديق إنما يتقبل ذلك صابراً محتسباً، ورغم أنه كان فى سجنه غريباً وحيداً، بيد أنه كان دائماً يسبح لمن أحيا الفؤاد بنوره، فإذا به يستشعر رحابة فى وجدانه وسعت الكون كله، وسمت روحه لتتصل بروح الوجود، وإذا به يأنس بربّه، ويحس تعاطفاً مع كل ما حوله ومن حوله، وإذا بقلبه يتفتح للبشرية جميعًا، حتى الذين ظلموه لم يحقد عليهم، كانت إرادته أن يتقى الله حق تقاته، ونيته أن يخلص لله، وعزمه أن يصل حبله بحبل الله، وقصده أن يهب نفسه لله، وأن يسير فى سبيل الله فجزاه الله الجزاء الأوفى، فعلمه من علمه، والله بكل شيءٍ عليم[3].

---

(١) لاويون ٢٠: ١١.

(٢) التهامى نقرة، المرجع السابق، ص ٥٢٤.

(٣) عبد الحميد السحار، بنو إسماعيل، القاهرة ١٩٦٦، ص ٥٦-٥٨.

وكان ملك مصر من الهكسوس الغزاة قد أدخل معه صاحب طعامه وصاحب شرابه بعد أن اتهمهما بأنهما تآمرا عليه ودسًا له السُّمَّ فى الطعام، فراح يدعوهما إلى الله ويذهب عنهما حزنهما، ويبذل لهما ما وسعه البذل لتطمئن نفوسهما، ويرى السجناء فى مسلكه الطاهر ما يجذبهم إليه، فيطلبون إليه تفسير الرؤيا وتأويل الأحلام[1].

ويكاد القرآن الكريم والعهد القديم يتفقان فى عرضهما لهذا الأمر، وإن استغرقت التوراة كثيراً فى تفاصيل رؤيا السجينين، على أن القرآن إنما ينفرد بذكر دعوة يوسف وهو فى السجن إلى توحيد الله، وبثّ العقيدة الصحيحة، ويظهر جليًا فى هذه الدعوة لطف مدخله إلى النفوس، وسيره خطوة خطوة فى رفق وتؤده[2]، قال ﴿لا يأتيكُمَا طعامٌ ترزَقَانه إلاَّ نبَّأتُكمَا بتأويلِه قبلَ أنْ يأتيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا علَّمَنِى ربِّى﴾[3]، ثم يتوغلَ فى قلوبهما

(١) هناك بحوث كثيرة لعلماء النفس فى موضوع الأحلام، فمن قائل أنها صور من اللاشعور النهائى، ومن قائل أنها تعويضية ومن قائل أنها تقوم بوظيفة لإعداد الحياة، إذ أن الأمر كله لا يعدو أن القوم يحلمون، لأنهم يلتمسون فى الحلم حلولا يسيرون عليها فى نشاطهم المقبل (إسحاق رمزى، علم النفس الفردى، القاهرة ١٩١٩، ص ١٣٣-١٣٤؛ التهامى نقرة، المرجع السابق، ص ٥١٨). ويذهب العلامة ابن خلدون إلى أن النفس إذا خفت عنها شواغل الحس وموانعه بالنوم، تتعرض إلى معرفة ما تتشوق إليه فى عالم الحق، فتدرك فى بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر المطلوب، ولذلك جعل الله الرؤيا من المبشرات (مقدمة ابن خلدون، بيروت ١٩٦١، ص ١٨٠).

ويروى أبو هريرة عن النبىّ ﷺ أنه قال: «لم يبق من النبوّة إلا المبشرات، قيل : وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة» (صحيح البخارى ٤٠/٩، دار الشعب ، القاهرة ١٣٧٨هـ).

ويرى الإمام الغزالى أن أدلة العقل وحدها لا تكفى لنبوّة نبىّ، ويقول : إنما نعرف النبىّ أو العارف الذى يتلقى علمه من الله بأمر آخر، فإن الله أعطانا نموذجًا من خصائص النبوّة نشاهده فى نفوسنا ، ويعنى بذلك ما يراه النائم من أسرار الغيب (الغزالى، المنقذ من الضلال، القاهرة ١٣٠٨هـ، ص ٢٤-٢٦).

(٢) التهامى نقرة، المرجع السابق، ص ٥٢٥.

(٣) سورة يوسف، اية : ٣٧؛ وانظر: تفسير الطبرى، ١٠٠/١٦-١٠٢؛ تفسير المنار، ٢٥٠/١٢-٢٥٢؛ تفسير القرطبى، ص ٣٤١٧، ٣٤٢٠؛ تفسير ابن كثير، ٣١٤/٤-٣١٥.

أكثر، ويفصح عن دعوته، ويكشف عن فساد اعتقادهما، واعتقاد قومهما، بعد ذلك التمهيد الطويل[١] ﴿يا صاحبيِ السِّجْنِ ءأرباب مُتفرِّقُونَ خير أم الله الواحِدُ القَهّار﴾[٢]

ثم يقول لمن ظنَّ أنه ناجٍ من رُفقائه ﴿اذْكُرني عِنْدَ ربِّك﴾، فتحين ساعة الذكرى بعد ابطاء، حين يرى الملك حلماً غريبًا لا يقدر على تفسيره أحد، فتذكر السجين السالف براعة يوسف، ويشير به، ثم ينهض إلى استفتائه فينطق بالتأويل الصريح[٣]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وقالَ الملكُ إنّي أرَى سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكُلُهنَّ سبعٌ عجافٌ وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخرَ يابساتٍ، يا أيُّها الملأُ أفتُونى فى رؤياى إنْ كنتم للرؤيا تعبرونَ، قالوا أضغاثُ أحلامٍ وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمينَ، وقال الّذى نَجَا منهُما وادَّكَرَ بعدَ أُمّةٍ أنا أُنبئُكم بتأويله فأرسلونَ، يوسفُ أيُّها الصِّدّيق أفتنا فى سبعِ بقراتٍ سمانٍ يأكلُهنَّ سبعٌ عجافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خضرٍ وآخر يابساتٍ، لعلِّى أرجعُ إلى النّاسِ لعلهم يعلمونَ، قال تزرعونَ سبعَ سنينَ دأبًا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلاّ قليلا ممّا تأكلونَ، ثم يأتى من بعدِ ذلكَ سبعٌ شدادٌ يأكلنَ ما قدّمْتم لهنَّ إلا قليلا ممّا تحصنونَ، ثم يأتى من بعد ذلك عامٌ فيه يغاثُ النّاسُ وفيه يعصرونَ﴾[٤]

غير أن الصديق عليه السلام يرفض أن يغادر سجنه حتى تظهر براءته للناس جميعًا، مما ألصق به من تهمة هو منها براء، وعندما يتم له كل ذلك، وتظهر براءته، تشاء إرادة الله أن يصبح الصديق على خزائن الأرض أمينًا، بعد أن كان فى زوايا الأرض سجينًا، إذ ينال الحظوة عند ملك مصر،

---

(١) محمد رجب البيومى، البيان القرآنى، القاهرة ١٩٧١، ص ٢٢٥.

(٢) سورة يوسف، آية : ٣٩.

(٣) محمد رجب البيومى، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٤) سورة يوسف، اية : ٤٣-٤٩؛ وانظر: تفسير ابن كثير، ٣١٧/٤-٣١٨؛ تفسير القرطبى، ص ٣٤٢٧-٣٤٣٤؛ تفسير المنار ٢٥٧/١٢-٢٦٤؛ تفسير الطبرى، ١١٦/١٦-١٢٢.

بعد أن قام بتفسير رؤياه، تفسيراً يتفق ومقام النبوّة، ويتنزّه عن تفسيرات رجال البلاط وحكمائه، فيقلده ما يشبه وزارة التموين فى عصرنا الحاضر[١]، وإن كانت التوراة تجعله أشبه برئيس الوزراء[٢]، وهكذا قدر ليوسف عليه السلام، أن يرتفع من رق العبودية إلى كرسى الوزارة[٣]، وأن يتزوج من سيدة مصرية، إذ أعطاه الملك «أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون زوجة»، ومنها أنجب يوسف ولديه «منسى وأفرايم»[٤].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التاريخ المصرى إنما يصدق الأحداث التى أتت بيوسف الصديق إلى منصب الوزارة فى مصر، ذلك أن مصر إنما كانت عرضة للمجاعات، وفترات من تدهور الإنتاج الزراعى والحيوانى على مرّ العصور وقد كان ذلك فى أغلب الأحايين من آثار اضطراب النيل وامتناع فيضه، وإخلاله بالوفاء ـ كما تعود وتعود منه الناس كل عام ـ فإذا تدهور وأقام على نقائصه لم تكد مياهه لتصل إلى الأرض التى تحترق شوقًا إليه، وتنتظر العام كله أو جله للقائه، فعندئذ فلا رىّ ولا استنبات، ثم لا زرع ولا ضرع، فتكون الكارثة التى تنزل بالبلاد والعباد[٥]، والتاريخ يحدثنا أنه ما من بلد فى العالم تتوقف حياته ووجوده، مصيره، ومستقبله، فى السلم أو فى الحرب، أو يرتبط سكانه وتاريخه بنهر مثلما تفعل مصر والنيل، ومن ثم فإذا بالغ النيل فى فيضه أحيانًا، فتعظم أمواهه وتضرى أمواجه، فإذا هو يندفع طوفانًا عنيفًا مدمراً مغرقًا كل شىء، ثم لا يكاد ينحسر عن الأرض إلا وقد انقضى من أوان البذر وقت قد يكون على الإنتاج

---

(١) انظر: سورة يوسف، آية : ٥٤-٥٦؛ سفر التكوين ٤١ : ١-٤٠.

(٢) تكوين ٤١ : ٤٠-٤٥.

(٢) تكرر هذا الحادث فى العصر الحديث، إذ عُيِّن فى عهد الملك فؤاد (١٩١٧-١٩٣٦) يوسف قطاوى باشا اليهودى وزيراً للمالية فى عام ١٩٢٤م.

(٣) تكوين ٤١ : ٤٥-٥٢.　　(٤) تكوين ٤٥ : ٥٢.

(٥) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٥٥.

أيام الحصاد سيء المغبة، وإن لم يبلغ ذلك فى سوئه مبلغ نقص الماء، ذلك أن النهر إن هبط عن معدله الطبيعى، فهى «الشدة» التى قد تصل إلى «المجاعة»، وإذا كان الفيضان المغرق يعنى الطاعون، فإن المجاعة، كانت تعنى «الموتان»، الذى يصل إلى حد ينشر معه الطاعون بدوره، بعد ذلك حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة[١].

على أن انحباس النيل وتضوب موارد الدولة، إنما كان وثيق الصلة بما كان ينزل بها من الضعف السياسى، وتحلل السلطة المركزية، وتدهور الأمن واضطراب النظام، فيكون شيوع الفساد وانتشار الجريمة مع القحط والجوع شراً مستطيراً، وشقاء متصلا، يحل بالناس فيترك فى نفوسهم وعقولهم أثراً لا يمحى أو لا يكاد يمحى[٢].

ويحدثنا المتنبيء «نفرتى» عن عدم فيضان النيل على أيام الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، فيقول: «لقد جف نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجرى عليه السفن، فيجدون أن الطريق قد صار شاطئًا، وأن الشاطئ قد صار ماء»[٣]، ومن ثم فقد رأينا من نفس الفترة، شريفًا من الصعيد، هو «عنخ ـ تيفى» حاكم «نخن» (البصيلية، مركز إدفو، بمحافظة أسوان) ـ يتحدث عن سنى المجاعة[٤]

(١) جمال حمدان، شخصية مصر، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٤١-٢٤٥.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٥٦.

(٣) Adolf Erman, the Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, p. 113.

(٤) تعرضت مصر لكثير من المجاعات فى العصور الوسطى، كالتى حدثت فى ولاية عبد الله بن مروان فى عام ٨٧هـ/٧٠٦م، وكالتى حدثت فى عهد الإخشيديين فى أعوام (٣٢٩هـ/٩٤٠-٩٤١م)، (٣٣٨هـ/٩٤٩م)، (٣٤١هـ/٩٥٢م)، (٣٤٣هـ/٩٥٤م)، (٣٥١هـ/ ٩٦٢م)، ولعل أشهر وأبشع المجاعات ما سجله البغدادى (١١٦٢-١٢٣١م) أثناء «الشدة المستنصرية» التى بدأت عام ٤٥٧هـ واستمرت سبع سنين متصلة فى أخريات الدولة الفاطمية، وبلغ من قسوتها أن أكل الناس القطط والكلاب ثم الجيف، ثم أكلوا بعضهم بعضاً، حتى انتهت بفناء رهيب للسكان، لا يملك قارئ البغدادى إلا أن يتصوره فناء كاملا، أو شبه كامل (انظر: جمال حمدان، المرجع

=

فى مقبرته بالمعلا[١]، فيقول أنه أمد خلالها مدناً أخرى ـ إلى جانب مدينته ـ بالهبات والقمح، وقد امتدت دائرة نشاطه حتى مدينة «دندرة» ـ فى مقابل قنا عبر النهر ـ وبذا أنقذ الصعيد الجنوبى الذى كان يموت جوعاً، وكان كل رجل فيه يغتال أطفاله[٢].

على أن المصريين قد اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير، إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من أيام الرى لأيام الجفاف، ومن يسرهم لعسرهم، ومن رخائهم لشدتهم، وكانت حكمة الملوك وحكام الأقاليم وحسن تدبيرهم خليقاً أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون[٣]، ومن ثم فقد رأينا «خيتى» أمير أسيوط، على أيام الأهناسيين (حكام الأسرتين التاسعة والعاشرة) يتحدث عن جهوده فى القضاء على الأزمة الاقتصادية، بأن قدم هدية لمدينته، وذلك بأن حفر ترعة ليروى الفلاحون منها أرضهم ويسقوا زرعهم، ثم يقول: إننى غنى بقمح الشمال حيث كانت الأرض فى جفاف، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز، وسمحت لكل مواطن بأن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته، وقد أعطيت الأرملة وولدها، وتجاوزت عن الضرائب التى فرضها أبى، وملأت المراعى بالماشية»[٤].

=

السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥، محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ١٧١/١-١٧٥ ، (القاهرة ١٩٧٠)؛ المقريزى، إغاثة الأمة ، ص ١١ وما بعدها؛ الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاء، ص ٥٩، بيروت ١٩٠٨؛ السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ١٥٤/٢، القاهرة ١٣٩٩هـ.

(١) تقع بلدة المعلا على شاطئ النيل الشرقى فى منتصف المسافة تقريباً بين إسنا وأرمنت. وعلى مبعدة عشرين ميلا جنوبى الأقصر، وكان صاحب المقبرة هو «عنخ ـ تيفى» حاكم نخن، فهل هذا يعنى أن مقاطعة نخن كانت حدودها الشمالية تمتد حتى المعلا شمالا؟.

(٢) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1961, p. 111.

(٣) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٥٧-٥٨.

(٤) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية فى مصر الفراعنة، ص ١٢٨-١٢٩. وكذا:

J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, Chicago, 1906, I, p. 181; J. Vandier, La Famine dans L'Egypte Ancienne, Le Caire 1936, p. 101 F.

ويتحدث «إمينى» أمير بنى حسن ـ فى مقابل أبو قرقاص عبر النهر ـ عن دوره فى القضاء على هذه المجاعة، فيقول: «وعندما حلت سنوات المجاعة حرثت جميع أراضى الإقليم، من حده الجنوبى إلى حده الشمالى، وأبقيت الأهالى أحياء وأعطيتهم طعامًا، حتى لم يوجد بينهم جائع واحد، وقد أعطيت الأرملة كما أعطيت المتزوجة»[1]، وعلى نفس طريقة «إمينى» يقص علينا أمراء «حتنوب» من أن الواحد منهم إنما كان قد «أنقذ الأرملة وواسى المتألم وأطعم الطفل، وعال مدينته فى زمن القحط، وأطعمها أيام المجاعة، وهو الذى زودها بسخاء بلا تفرقة، فكان عظماء مدينته كغيرهم فى ذلك»[2].

وفى مدينة الكاب ـ مقابل نخن على ضفة النيل الشرقية، وعلى مبعدة ١٩ كيلو مترًا شمال إدفو ـ نرى أميرها «ببى» من الأسرة الثالثة عشرة، التى سبقت قليلا عصر يوسف الصديق والهكسوس، يقول: لقد كنت أكدس القمح الجيد المطلوب، وكنت يقظًا فى فصل البذر، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت مدينتى القمح فى كل مجاعة»[3].

على أن العلماء على كثرة ما قرأوا من أخبار المجاعات فى مصر القديمة، إنما يقفون خاصة موقف الفاحص المتأمل من مجاعة أخرى نقشت أخبارها على الصخر من جزيرة سهيل جنوبى أسوان، ولئن كان الخبر منسوبًا إلى حكم الملك «زوسر» ـ رأس الأسرة الثالثة ـ فالذى لاشك فيه أنه إنما نقش فى تلك الجزيرة بعده بعشرين قرنًا من الزمان، نقشه كهان «الإله خنوم» على عهد البطالمة فى مصر، ولعلهم نقشوه فى عهد بطليموس العاشر فى أكبر الظن.

(١) P.E. Newbery, Beni Hasan I, London, 1883, PL. 8, p. 27.

وكذا: J.Vandier, op.cit., p. 111.

(٢) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939, p. 214.

(٣) J. Vandier, op.cit., p. 114.

هذا، وقد وقف العلماء على ما ورد فى هذه المجاعة من أنها حلت بمصر سبع سنين، وفى أن الملك «زوسر» دعا وزيره الحكيم، «إيمحوتب» ليستفتيه فى تلك النازلة التى أحزنته، وليعلم علم هذا الذى أصاب النيل فحبسه عن المجىء فى عهده سنين سبع، فذوت الحبوب وصوحت الثمار، وقلت الأقوات، حتى لكأن الناس قد حرموا الأنفاس، فلم ترفاً لطفل أدمعه، وأقام الشباب على الانتظار، على حين امتلأت القلوب أسى، فانحنوا على أطرافهم مدقعين، واشتدت الحاجة برجال الحاشية، وغلقت المعابد، وعمّ الحزن الناس.

ويروى النص أن الملك «زوسر» كتب إلى حاكم أسوان يستشيره فيما يجب عليه للخلاص من هذا الخطب، وأى الآلهة أولى باستدرار العطف، فأشار الحاكم بأن «الإله خنوم» هو الذى يأتى بالنيل الطيب والنيل الردئ، ويأتى الملك إلى الجنوب ليشهد «خنوم» الذى يقرر فى رؤيا للملك أن إهمال شأنه إنما كان سببًا لما حاق بالبلاد من مصائب، ووعد بالخير إن عنى بشأنه، ويصدر الملك أمر بأن توقف عليه الأراضى الواقعة على ضفتى النيل، فيما بين جزيرة سهيل والدكة فى بلاد النوبة ـ أى على مدى مرحلة طولها ما بين ٨٠، ٩٠ ميلا[١].

فالنص إذن، إنما يتحدث عن مجاعة امتدت سبع سنين، وعن مشورة استشارها الملك من وزير عرف بالحكمة والموعظة الحسنة، وعن حلم رآه،

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، ص ١٥٠ ، الإسكندرية ١٩٦٦؛ أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٥٩-٦١؛ وكذا:

P. Barguel, La Stele de la Famine a Sehel, Cairo, 1954.

وكذا:

J.A. Wilson, The Tradition of Seven Lean Years in Egypt, in ANET, p. 31-32.

وكذا: A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, p. 76.

وكذا: J. Vandier, op.cit., p. 132F.

وغير بعيد أن يكون هذا النص صوتاً من واقع بعيد، وأن كهّان خنوم حين كتبوه على عهد البطالمة إنما كانوا تحت تأثير ما كان شائعًا يومئذ من أصداء الماضى السحيق، وبما ورد فى التوراة من أصداء السنين السبع الشداد التى جرت بها ألسنة من كان بمصر يومئذ من يهود بخاصة وأن الترجمة السبعينية للتوراة إنما كانت قد تمت بمصر على أيام بطليموس الثانى (٢٨٤-٢٤٦ق.م)، وأن هناك جالية من يهود إنما كانت تقيم فى اليفانتين (جزيرة أسوان)، وتطل من حيث الموقع على سهيل، وأن كهنة «إيزة» فى فيلة إنما يقدمون نصًا آخر يقررون فيه أن الملك «زوسر» قد وهبهم نفس البقعة التى يزعم أصحاب «خنوم» أنها إنما كانت هدية الملك لهم ومنحته لإلههم[١].

٢ ـ استقرار بنى إسرائيل فى أرض جوشن:

وأيًا ما كان الأمر، فسرعان ما يجتاح أرض كنعان جدب، فتقفر الأرض وتعم المجاعة، وتتجه كنعان صوب أرض الكنانة ـ الطيبة والكريمة ـ لعلها تجد عندها المأوى كالعهد بها دائمًا وأبدًا، وينطلق أبناء يعقوب إلى مصر مع المنطلقين، فقد أصابهم من الجوع ما أصاب غيرهم، ويتعرف يوسف على إخوته وهم له منكرون، وتدور بينهم محاورات تنتهى بأن يستدعى الصديق ـ بإذن من ملك مصر ـ أباه وإخوته وأهلهم أجمعين للإقامة معه فى أرض الكنانة[٢].

ومن عجب، فإن التوراة إنما تفاجئنا أثناء هذه المحاورات بصورة غريبة عن يوسف عليه السلام، فتذهب إلى أن الصديق إنما عرف إخوته منذ اللحظة الأولى للقائه بهم، وأنه قد اتهمهم بالتجسس ثم حبسهم أيامًا ثلاثة، ثم أطلق سبيلهم، وإن استبقى أخاهم «شمعون» حيث قيده على مرأى

---

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٥٠؛ أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٦١.

(٢) سورة يوسف، آية ٥٨-١٠٠؛ تكوين ٤١: ٥٦-٤٥: ٢٨.

منهم، حتى يعودوا إليه بأخيهم «بنيامين»[1]، وهذا التهديد ـ إن حملناه محمل الجد ـ فلابد من القول أنه إنما يدل على أن يوسف إنما كان يحمل حقداً دفيناً على إخوته، وهو أمر، لا نشك فى براءة الصديق منه كل البراءة.

أما القرآن الكريم، فقد ذكر أن يوسف أكرم وفادتهم، وردَّ إليهم ما دفعوه من ثمن دون أن يشعرهم، رجاء أن يغريهم ذلك بإحضار شقيقه بنيامين، وهددهم بلطف إن لم يأتوا به، ولم يرد فى الذكر الحكيم مما ورد فى التوراة من إساءته لإخوته، إذ أن ذلك لا يتفق والصورة التى رسمها القرآن وأبرز معالمها لشخصية يوسف، وما اتسمت به من حلم وإخلاص وبر، وهو الذى علمه ربُّه وأحسن هدايته وطهَّر قلبه من الحسد، فقال منوها بشأنه: ﴿كذلك لنصرف عنه السوءَ والفحشاءَ إنَّه مِنْ عبادنا المُخْلَصينَ﴾[2]

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن صياغة التوراة إنما تعطى تأكيداً يكشف عن مطامع يهود فى مصر «خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلىّ فأعطيكم خيرات أرض مصر وتأكلون دسم الأرض... خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا، ولا تحزن عيونكم على أثاثكم، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم»[3]، كما أن التوراة لم تهمل كذلك أن تؤكد أن رحلة هؤلاء المجهدين الجياع إلى مصر، إنما كانت للقوت، ولكنها تؤكد كذلك أنها لتحقيق مؤامرة على الأرض التى استضافتهم[4].

وعلى أى حال، فإن يعقوب ـ عليه السلام ـ سرعان ما يصل إلى مصر، ومعه كل أفراد أسرته «ست وستون نفساً، وأبناء يوسف اللذان ولدا فى

(١) تكوين ٤٢: ٧-٢٤.

(٢) سورة يوسف، آية: ٢٤، ٥٨-٦٢؛ وانظر: التهامى نقرة، المرجع السابق، ص ٥٤٠-٥٤١.

(٣) تكوين ٤٥: ١٨-٢٠. (٤) تكوين ٤٦: ١-٤.

مصر نفسان، جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون»[١]، ويطلب إليهم يوسف أن يقولوا للملك مصر: «عبيدك أهل مواش منذ صبانا، إلى الأرض نحن وآباؤنا أجمعين»[٢].

وهكذا يذهب أخوة يوسف إلى ملك مصر يسألونه السكنى فى أرض «جاسان»، ويجيب الملك سؤلهم[٣]، ولعل فى اختيار هذا المكان، إلى جانب جودته، روعى فيه قربه من حدود مصر الشرقية، وسيناء المطلة على أرض كنعان، حيث ورد يعقوب وبنوه، كى يقيموا ما أحبوا الإقامة، ويرحلوا متى شاءوا الرحيل[٤].

وأما ختام القصة فى القرآن الكريم[٥]، فقد جاءت فى قوله تعالى ﴿فلمَّا دخلوا على يوسفَ آوَى إليه أبويه وقال ادخلُوا مصرَ إنْ شاءَ اللهُ آمنين، ورفَعَ أبويه على العرشِ وخرُّوا له سُجَّداً، وقال يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ مِنْ قبلُ قد جعلها ربِّى حقًّا، وقد أحسَنَ بِى إذ أخرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وجاءَ بكُم مِنَ البَدْوِ مِنْ بَعْد أن نَزَغَ الشيطانُ بينِى وبينَ إخوتِى إنَّ ربِّى لطيفٌ لما يشاء إنَّه هو العليمُ الحكيم﴾[٦].

---

(١) تكوين ٤٦: ٢٦-٢٧. (٢) تكوين ٤٦: ٣٣-٣٤.

(٣) تكوين ٤٨: ٥-٦.

(٤) كمال عون، اليهود من كتابهم المقدس، القاهرة ١٩٧٠، ص ٨٥.

(٥) انظر عن قصة يوسف كاملة، من وجهة النظر الإسلامية (تفسير الطبرسى، ٥/١٣-١٣٤، بيروت ١٩٦١؛ تفسير الفخر الرازى، ٨٣/١٧-٢٢٩؛ تفسير النسفى، ٣٥٢/٢-٣٩٧؛ تفسير أبى السعود ٧٧/٣-١٤٣؛ فى ظلال القرآن، ١٧٥/١٢-٣٥٠ (بيروت ١٩٦١)؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، ٢/٤-٤٢؛ طهران ١٣٧٧هـ؛ تفسير الطبرى، ٥٤٧/١٥-٥٨٦، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠؛ ١/١٦-٣١٥، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩.

(٦) سورة يوسف، آية : ٩٩-١٠٠؛ وانظر: تفسير الكشاف، ٥٠٤/٢-٥٠٦؛ تفسير الطبرسى، ١١٨/١٣-١٢٤؛ تفسير الطبرى، ٢٦٤/١٦-٢٧٧؛ تفسير الفخر الرازى، ٢١٠/١٧-٢١٥؛ تفسير النسفى، ٣٩٢/٢-٣٩٣؛ تفسير أبى السعود، ١٢٥/٣؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، ٢٧/٤-٣٨؛ تفسير القرطبى، ص ٣٤٩٢-٣٤٩٧؛ تفسير ابن كثير، ٣٣٤/٤-٣٣٧؛ محمد رشيد رضا، تفسير سورة يوسف، ص ١٢٦-١٢٩، القاهرة ١٩٣٦.

وهكذا انتهى المطاف بيعقوب وبنيه إلى الاستقرار فى مصر، حيث نزلوا أرض «جوشن» (جسم أو جسام، كما قرئ اسمها فى النصوص المصرية[١])، أو أرض «جاسان» ـ كما ورد فى التوراة ـ ويكون استقرارهم هذا فى تلك البقعة من وادى طميلات شرقى الدلتا، فاتحة لقصة أطول وتاريخ أكبر، تشعبت أحداثه، وتقلبت فصوله[٢].

على أن هناك خطأ تاريخيًا فى رواية التوراة، حيث تقول فى سفر التكوين[٣] أن يوسف قد أسكن أباه وأخوته فى «أرض رعمسيس»، ذلك لأن كلمة «رعمسيس»، لا تستعمل إلا منذ الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨-١١٩٤ق.م) وليس منذ عهد الهكسوس (حوالى ١٧٢٥- ١٥٧٥ق.م)، وهو العصر الذى يفترض دخول بنى يعقوب فيه مصر، كما سوف نفصل ذلك فيما بعد.

وعلى أى حال، فلقد قام جدل طويل حول موقع «أرض جوشن» أو جاسان، وربما كان ذلك لأن «أرض جوشن» لم تذكر فى أى نقش مصرى[٤]، وإنما بدلا عنها، أرض جسم أو جاسام[٥]، هذا فضلا عن أن التوراة نفسها، إنما هى مضطربة فى تحديدها بالنسبة إلى مصر، فهى فى بعض نصوص التوراة، إقليم يقع على مقربة من مصر، ملائم لرعى الماشية، ولكنه غير مسكون بالمصريين[٦]، وهى فى نصوص أخرى ـ توراتية

---

(١) P. Montet, L. Egypte et la Bible, Neuchatel, 1959, p. 57.

(٢) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٦٧.

(٣) تكوين ٤٧: ١١.

(٤) جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، الجزء الأول، ترجمة: لبيب حبشى وشفيق فريد، مراجعة محمد جمال الدين مختار، القاهرة ١٩٦٣، ص ٤٩.

(٥) P. Montet, L'Egypt et la Bible, p. 57.

(٦) تكوين ٤٦: ٣٤؛ خروج ٩: ٢٦.

كذلك[١] ـ ليست إقليمًا مجاوراً لمصر، ولكنه جزء من مصر نفسها[٢]، وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل إن التوراة إنما تطلق نفس هذاالاسم (أرض جوشن)، على منطقة فى فلسطين الجنوبية، تقع فيما بين غزة وجبعون[٣] ـ وتقع فى مكانها الآن قرية الجيب، على مبعدة خمسة أميال إلى الشمال الغربى من أورشليم[٤] ـ أحيانًا، وعلى واحدة من مجموعة مدن فى جبال يهوذا أحيانًا أخرى[٥].

وقد أدى ذلك كله إلى وجود أكثر من رأى بشأن موقع «أرض جوشن» هذه، فهناك من يرى مطابقتها بالمدنية والإقليم المعروف لدى المصريين باسم «بر ـ سويد» (صفط الحنة الحالية) [٦]، وهناك فريق ثان يذهب إلى أنها إنما تقع فى وادى طميلات، وتمتد من بحيرة التمساح حتى النيل[٧]، على أن هناك من يرى أن وادى طميلات إنما يمتد من فرع النيل الشرقى حتى بحيرة التمساح الحالية، التى تقع فى وسط قناة السويس، ويمثل اتساعًا من أرض زراعية على الحد الشرقى لدلتا النيل المصرية، مجاوراً لصحراء سيناء مباشرة، ويبدو أن وادى طميلات ـ وربما جزءاً منه ـ كان له اسم فى العصور القديمة يظهر فى التوراة على شكل «أرض جوشن» أو «جاسان»، وطبقًا لما جاء فى سفر الخروج[٨] فإنه كان فى أرض جوشن التى استقر فيها الإسرائيليون إبان هبوطهم مصر[٩].

(١) تكوين ٤٧ : ٦؛ خروج ٣ : ٢١-٢٢، ١١ : ٢.

(٢) A. Gardiner, JEA, 5, 1918, p. 262; E. Naville, JEA, 10. 1924, p. 31 Io.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ٣٤٦/١.

(٤) يشوع ١٠ : ٤١، ١١ : ١٦.

(٥) يشوع ١٥ : ٥١؛ قاموس الكتاب المقدس ٢٧٧/١، بيروت ١٩٦٤.

(٦) جيمس بيكى، المرجع السابق، ص ٤٩.

(٧) M. F. Unger, op.cit., p. 420.

(٨) خروج ٨ : ١٨، ٩ : ٢٦.

(٩) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 113.

على أن هناك فريقاً ثالثاً، إنما يذهب إلى أن أرض جوشن إنما تقع فى شبه جزيرة سيناء، وتمتد فيما بين تانيس ومنطقة العريش، فضلاً عن وادى طميلات الذى ينحدر من الشرق إلى الغرب فيما بين الزقازيق والإسماعيلية[1]، وإن كان هناك فريق رابع يتردد فى ذلك، على أساس أن هناك «جوشن» أخرى، قد ذكرت مع «قادش» وغزة فى جنوب فلسطين، وتقع فى تخوم نهر مصر (وادى العريش)، وبما أن هاجر أم إسماعيل دعيت فى التوراة «مصرية»، فمن المستطاع إذن القول باتساع اسم مصر، والأمر كذلك بالنسبة إلى «برية أرض مصر» حيث وضع «حزقيال»[2] ـ على ما يبدو ـ هؤلاء الإسرائيليين الرحل[3].

وهناك فريق خامس، يذهب إلى أن أرض جوش إنما هى وادى طميلات ـ والذى يرى أنه يمتد شرقاً وغرباً من الزقازيق حتى الإسماعيلية ـ غير أن هذا التوحيد غير مؤكد[4]، ذلك لأن الدكتور «سير ألن جاردنر» (١٨٧٩-١٩٦٢م) يرى أن الكلمة المصرية التى قرأها «هينرش بروجش» (١٨٢٧- ١٨٩٤م) و«إدوارد نافيل» (١٨٧٥-١٩٢٤م)، على أنها «جوشن» كانت اسماً لسيناء[5]، وهناك تقاليد يهودية عديدة وضعت مكان استيطان العبرانيين بعيداً إلى الشمال، ناحية تانيس وبلوزيوم[6].

ومع ذلك، فهناك احتمال أن يكون وادى طميلات، على الأقل جزءاً

---

(١) حسن محمود، حضارة مصر والشرق الأدنى القديم، العبرانيون، ص ٣٥١.

(٢) حزقيال، ٢٠: ٢٦.

(٣) S.A. Cook, Cah, III, Cambridge, 1965, p. 359.

(٤) A. Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the eight Century, London 1962, p. 178.

(٥) A.H. Gardiner, The Supposed Egyptian Equivalent of the Name of Goshen JEA, 5, 1918, p. 18-23.

(٦) مزمور ٧٨: ١٢.

من «أرض جوشن»، ذلك لأن مدينة «بيثوم»[١]، كانت بالتأكيد فى هذا الوادى والأمر كذلك بالنسبة إلى مدينة «هيرونبوليس» والتى وحدتها الترجمة السبعينية التى تمت بمصر فى عهد بطليموس الثانى (٢٨٤-٢٤٦ق.م)، مرتين بجوشن[٢] هذا فضلا عن أن وادى طميلات إقليم بدوى تخترقه ترعة تتغذى من مياه النيل، وفى الوقت الحاضر - وطبقًا للتطور الزراعى - تستطيع إعالة اثنى عشر ألفًا من السكان المزارعين، ولكن كان يسكنها منذ قرن مضى أربعة آلاف من البدو، وهكذا كانت طبيعة هذا الوادى وقت أن سمح موظف الحدود على أيام مرنبتاح (١٢٢٤-١٢١٤ق.م) لقبائل البدو الشاسو من أدوم بالدخول[٣].

والرأى عندى أن «أرض جوشن» هذه، إنما تقع فى وادى طميلات والذى يمتد من فرع النيل الشرقى (البيلوزى) متجهًا نحو الشرق، حتى بحيرة التمساح - ذلك لأننا لا نستطيع أن نجعل «أرض جوشن» هذه فى جنوب فلسطين، أو فى المنطقة الممتدة من وادى العريش حتى غزة، إذ أن ذلك إنما يتعارض تعاضراً تاماً مع القول بأن الإسرائيليين دخلوا مصر وعاشوا فيها قرابة قرون أربعة.

هذا فضلا عن أن إطلاق اسم «جوشن» على منطقة بجنوب فلسطين، ربما كان إحياء لذكرى مصر التى ترسبت فى نفوس القوم، دون أن يجدوا لها فكاكًا، وقد ظهر ذلك الاسم على مدينة فى جبال يهوذا كذلك، ربما لأن هذه المنطقة إنما كانت خصبة بدرجة تشبه فى ذلك منطقة جوشن فى مصر، كما أن الاضطهاد الذى تحدثت عنه التوراة قد ارتبط ببناء مدينتى رعمسيس وفيثوم، وكانت الأولى فى موقع على الأقل ليس بعيداً عن وادى طميلات، أما الثانية «فيثوم» (بيثوم = بر- أتوم)، فهى بالتأكيد فى هذا

(١) خروج ١: ١١.   (٢) تكوين ٤٥: ٢٨-٢٩.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 172-174.

الوادى، كما أن خروج بنى إسرائيل إنما تمّ من هذه المنطقة (من رعمسيس إلى سكوت ... إلخ)، وليس هناك من دليل ـ أو حتى مجرد إشارة ـ على أن الإسرائيليين قد نقلوا من منطقة استقرارهم الأولى على أيام يوسف الصديق، وحتى الخروج على أيام موسى الكليم، عليهما السلام.

وأيًا ما كان الأمر، فقد دخل الإسرائيليون مصر، واستقروا فى «أرض جوشن»، وإن كان بعض الباحثين إنما يحاول أن يتشكك فى ذلك كله، وأن ينفى دخول العبرانيين مصر من أساس، معتمدين فى ذلك على عدة أسباب، منها (أولا) أنه لا توجد وثائق غير إسرائيلية تؤكد صحة التقاليد العبرية الخاصة بإقامة الإسرائيليين فى مصر وخروجهم منها، وإن كان بعض المفسرين قد بحثوا جادين لإعطاء النصوص والتفسيرات المطلوبة.

ومنها (ثانيًا) أن النقوش المصرية المختلفة تسجل دخول الأسيويين مصر، ولكن ليس واحداً منها يشير إلى دخول بنى إسرائيل أرض الفراعين، وإن كانت قد أشارت إلى العمال الآسيويين الذين كانوا يفدون إلى مصر، ويستخدمهم الفراعين فى أعمال البناء، وكان يطلق عليهم «عبر» ('P.R)، وتقرأ «عابيرو» Apuriu، وقد استدل عليهم كثير من علماء المصريات، مثل «شاباس»، وعلماء العبرية ـ من أمثال هومل وسكنر ودرايفر وكريجلز ـ الذين وحدوهم بالعبريين، إلا أن ذلك لم تثبت صحته بسبب الصعوبات اللغوية، وأما عن وجود «العابيرو» فى مصر، فأمر تؤيده نقوش مصرية، ترجع إلى أيام «رعمسيس الرابع» (١١٥١ ـ ١١٤٥ ق.م) ـ من الأسرة العشرين ـ وهى ترجع إلى فترة متأخرة عن أى تاريخ مقترح لخروج بنى إسرائيل من مصر، ومن هنا يمكننا ـ اعتماداً على سكوت المصادر المصرية ـ أن نستنتج أن دخول الإسرائيلين مصر، إنما هو خيال بحت، لا يعتمد على أساس تاريخى.

ومنها (ثالثًا) أن كلمة «مصرايم» التى وردت فى التوراة لا تدل على مصر، وإنما تدل على الإقليم الواقع شمال شبه الجزيرة العربية والذى يمتد غربًا حتى حدود مصر الشرقية، ولهذا فإن ما يقال عن إقامة العبريين فى مصر، معناه إقامتهم فى جنوب فلسطين، أو فى شبه جزيرة سيناء، ذلك أن الخروج - طبقًا لنظرية العالم اليهودى هوجو فنكلر - لم يحدث من مصر، إذ أن «فنكلر» يعتقد أن اسم «مصرايم» لم يكن مقصورًا على الإشارة إلى مصر، ولكنه كان كذلك يشمل الإقليم الذى سماه الجغرافيون البابليون «مصر» (أو موصرى)، والذى يقع جنوب البحر الميت شمال شبه جزيرة العرب، ويمتد غربًا حتى حدود مصر الشرقية ويضم جبل سعير ومدينة البتراء وأراضى مدين وأدوم.

ويعتقد «فنكلر» أن التقاليد الأصيلة عندما تحدثت عن إقامة الآباء - وبخاصة موسى - فى «مصرايم»، فقد كانت تشير إلى ذلك الزمن، حيث عاش أسلاف العبرانيين فى صحراء جنوب فلسطين، ثم بدأ سكان كنعان يستخدمون اصطلاح «مصرايم» على المراعى الجنوبية، وكذا على مصر نفسها، ذلك البلد الذى يقع بالنسبة إليهم فيما وراء الصحراء، ولعل مما يفسر افتراضنا هذا، أن الوادى القريب من غزة سمى «نهر مصرايم»، بالرغم من أنه كان على مسيرة ثلاثة أيام من الحدود المصرية، ومن هنا فمن الممكن أن يشير اسم «مصرايم» فى بعض النصوص والتقاليد العبرية إلى الصحراء المصرية، وليس إلى اسم مصر بالذات[١].

غير أن هناك كثيرًا من الصعاب التى تقف عقبة كؤود فى سبيل قبولنا لوجهة النظر هذه. منها :

(١) حسن محمود، المرجع السابق، ص ٣٥٠؛ هـ.ج. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، ٢٨٦/٢ (ترجمة عبد العزيز جاويد)؛ محمد العزبى، مجلة الهلال، يونية ١٩٧١، ص ٦٥. وانظر: مادة Exodus فى : The Jewish Encyclopaedia وكذا:

H. Winckler, Musri, Melahha, Main, MVG, I, Berlin, 1898.

(أولاً) أن التقاليد الإسرائيلية لا تتحدث عن مجرد الإقامة المؤقتة فى «مصرايم»، ولكنها تتحدث كذلك عن استعباد الآباء الأولين فيها، وليس من المقبول أن يتحدث العبرانيون عن استعبادهم فى مصر بهذه الصورة، لمجرد الثنآء على قوة الربّ التى يعزون إليها خلاصهم[١].

ومنها (ثانيًا) أن مصر، وإن لم تقدم دليلا مباشراً على إقامة العبريين فيها، فإنها قدمت ما يجعل الإقامة والخروج منها أمراً مقبولا تمامًا، فهناك صلات عديدة بين الحياة فى مصر كما نعرفها من الآثار، وتفصيلات الرواية الإسرائيلية عن هذه النقطة[٢]. ذلك لأن التقارير الخاصة عن أقدم صورة للتقاليد الإسرائيلية (فى المصدر اليهوى) بشأن أسلوب الحياة فى «جوشن» ومدن المخازن (رعمسيس وبيثوم)، تتفق مع الحقائق التى قدمتها الحفريات عنها[٣]، هذا فضلا عن أن ما جاء بالتوراة من وصف لجو مصر وأحوالها، إنما يدل على إقامة فعلية فى مصر، فقد وصفوا ماء النيل وقت الفيضان، وأشاروا إلى ما يعقب هبوط مستوى النيل بعد الفيضان من انتشار الأوبئة والأمراض[٤]، فطبقًا للمؤرخ العبرانى أن سبب ذلك هو أن ماء النيل يصبح «محمراً» وغير صحى فى فصول معينة من السنة، وأن أسراب الضفادع إنما تتكاثر بعد الفيضان، كما أن البعوض يتكاثر بعد انحسار المياه، وهكذا اعتقد الإسرائيليون أن مصر قد أصبحت لهذا السبب بلد الأمراض الوبائية والمستوطنة[٥].

ومنها (ثالثًا) أن بعض أسماء الأعلام الإسرائيلية من أصل مصرى،

---

(١) A.Lods, op.cit., p. 169.

(٢) G.E. Wright, Bibilcal Archacology, 1957, p. 53p; J. Finegan, op.cit., p. 134.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 169.

(٤) حسن محمود، المرجع السابق، ص ٣٥١.

(٥) A. Lods, op.cit., p. 170.

فمثلا «فينحاس» ومعناه «زنجى»، وكذا موسى وهو اسم مصرى[(١)] - كما سوف نشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد - .

ومنها (رابعًا) أن هناك فقرات كاملة من أدب الحكمة فى مصر، قد ظهرت فى كتابات الإسرائيليين، كما فى المزامير وكتب الحكمة[(٢)]، وأعمال أنبياء بنى إسرائيل[(٣)]، وكلها تظهر صلة الأدب العبرى بالأدب المصرى[(٤)].

ومنها (خامسًا) أن هناك نصوصاً صريحة فى التوراة تتحدث عن دخول الإسرائيليين مصر، بل وتذكر كذلك أسماء الذين دخلوا منهم أرض الكنانة[(٥)] فضلا عما جاء فى القرآن الكريم بهذا الشأن[(٦)].

---

(١) J. Finegan, op.cit., p. 134; J.H. Breasted, op.cit., p. 350.

(٢) قارن بين المزمور ١٠٤ ونشيد إخناتون، وبين المزامير بصفة عامة وقصائد المديح المصرى فى الإله آمون رع، ثم قارن بين سفر الأمثال فى التوراة وتعاليم الحكيم المصرى أمنمؤوبى.

(٣) J.M. Smith, AJSL, 49, p. 172F; W.S. Smith, JBB, 19, p. 12-15; J. Finegan, op.cit., p. 134.

(٤) قدم لنا «أوسترلى» أهم خصائص الأدب المصرى التى تشبه خصائص الأدب العبرى، والتى منها (أولا) أن القصائد مقسمة فى كل منهما إلى فقرات وأبيات، ومنها (ثانيًا) تكرار استخدام التماثل، فتأخذ الفكرة فى كل منهما تعبيراً مزدوجاً، حتى أن السطر يتكون فيها من جملتين قصيرتين، توجد فيهما نفس الفكرة بصيغة مختلفة عن الأخرى، ومنها (ثالثًا) أن السطور الشعرية فى كل من الأدبين تحتوى على عدد محدد ومنتظم من الأنغام، ومنها (رابعًا) تكرار التلاعب بالألفاظ ، وورود ألفاظ كثيرة متشابهة التطور جنبًا إلى جنب ومنها (خامسًا) الاستعمال الغريب الذى يظهر أحيانًا فى أخذ كلمة وردت فى سطر، ثم تكرر فى السطر التالى، كما كانت الاستعارة كثيرة الاستعمال أيضًا ومن كل هذا - ولوجود هذه الصور فى الأدب العبرى - استنتج العلماء أن اليهود قد اعتمدوا فى التركيب النهائى لأدبى الشعرى على النماذج المصرية بدرجة ما، وبخاصة فى مجالات رئيسية ثلاث ، هى: الشعر الدينى، وكتابات الحكمة، والشعر غير الدينى. انظر:

A. Erman, the Literature of the Ancient Egyptians, p. 9E; W.O.E. Oesterley, Egypt and Israel, in the Legacy of Egypt, Oxford, 1947, p. 241-242.

(٥) تكوين ٤٦: ١-٢٧.

(٦) سورة يوسف، آية : ٩٩.

وفى الواقع - وكما أشرنا آنفًا - أن التوراة ليست وحدها من بين الكتب المقدسة التى تحدثت عن دخول بنى إسرائيل مصر، وإنما ذلك أمر تجمع عليه الكتب المقدسة الثلاثة، فالإنجيل يقول فى الرسالة إلى العبرانيين، بالإيمان يوسف عند موته ذكر خروج بنى إسرائيل، وأوصى من جهة عظامه، بالإيمان موسى لما كبر أبى أن يدعى ابن ابنة فرعون، مفضلا بالأحرى أن يذل مع شعب الله»[١]

وأما القرآن الكريم، فإنه يتحدث بصراحة عن إقامة يوسف فى مصر، وعن قدوم يعقوب وبنيه إليه فيها، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وقالَ الَّذى اشتراه مِنْ مصرَ لامرأته أكرِمى مثواه عسى أنْ ينفَعَنَا أو نتَّخذَهُ ولدًا﴾[٢]، ويقول: ﴿فلمَّا دخلوا علَى يوسفَ آوَى إليه أبويه وقال ادخلُوا مَصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمنينَ، ورفَعَ أبويه على العرشِ وخرُّوا له سُجَّدًا، وقال يا أبتِ هذا تأويلُ رؤياى مِنْ قبلِ قد جعلها ربِّى حقًا، وقد أحسَنَ بى إذ أخرَجَنِى مِنَ السِّجنِ وجاءَ بكُم مِنَ البَدْوِ مِنْ بَعدِ أن نَزَغَ الشيطانُ بينِى وبينَ إخوتِى إنَّ ربِّى لطيفٌ لما يشاء إنَّه هو العليمُ الحكيم﴾[٣].

ثم يتحدث كتاب الله الكريم بعد ذلك عن حياة بنى إسرائيل فى مصر، وعن نماذج العذاب الذى أنزله فرعون مصر وجنده ببنى إسرائيل، من ذلك قوله تعالى: ﴿وإذْ نجَّيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يسومُونَكُم سوءَ العذاب يُذَبِّحونَ أبناءَكُم ويستحيُونَ نساءَكُم وفى ذَلِكُم بلاءٌ مِنْ ربِّكُم عظيمٌ﴾[٤]،

(١) الرسالة إلى العبرانيين ١١: ٢٢-٢٩.

(٢) سورة يوسف، آية ٢١.

(٣) سورة يوسف، آية: ٩٩-١٠٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤٩؛ وانظر: تفسير الكشاف، ١٣٧/١-١٣٨؛ تفسير الطبرى، ٣٦/٢-٣٩؛ تفسير النسفى، ٤٩/١؛ تفسير روح المعانى، ٢٥٢/١-٢٥٤؛ تفسير الطبرسى، ٢٣١/١-٢٣٥؛ التفسير الكاشف، ٩٨/١-١٠٠ (لمحمد جواد مغنية)؛ تفسير البحر المحيط، ١٨٧/١-١٨٨؛ تفسير المنار، ٣٠٨/١-٣١٣؛ تفسير ابن كثير، ١٢٨/١-١٢٩؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، ٣٨/١-٦٩؛ فى ظلال القرآن، ٧٠/١-٧٢؛ تفسير الجواهر، ٥٩/١-٦١.

ويقول: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾[١]، ويقول: ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾[٢].

وليس هناك من ريب فى أن إنكارنا لأمر تجمع عليه الكتب المقدسة لا يتفق ومنهج البحث العلمى، فضلا عن تعارضه مع إيماننا بما جاء فى كتب السماء - الأمر الذى لا يقره منطق أو عقل أو دين، فضلا عن العلم نفسه - هذا إلى أن جمهرة المؤرخين وأساتذة علم اللاهوت إنما يتحدثون عن قصة يوسف فى مصر .

ويضيف «كيلر» إلى ذلك، أن قصة بيع الإسماعيليين للصديق عليه السلام إنما هى جد مقبولة، ذلك لأن القوم إنما كانوا يترددون على مصر لبيع التوابل والعطور التى كانت تستخدم فى الخدمة الدينية، ذلك لأن هذه الأخشاب العجيبة ذات الرائحة الذكية إنما كان تحرق فى المعابد، ويستخدمها الأطباء فى إبراء المرضى، والكهّان فى تحنيط أجساد الموتى من النبلاء[٣]، بل إن هناك ما يشير إلى أن هذه التجارة قد استمرت إلى زمن متأخر جداً بعد هذا الحادث، فهناك كتابة مدونة بخط المسند فى الجيزة. ذهب «أدولف جرومان» إلى أنها إنما ترجع إلى عام (٢٦٤-٢٦٣ق.م) [٤] - وربما إلى ما بعد عام ٢٦١ق.م، أو حتى إلى عام ١٥٩ق.م، فيما يرى بعض الباحثين[٥] - وتشير إلى وجود جالية معينية كانت تقيم فى مصر،

(١) سورة الأعراف، آية : ١٤١.　(٢) سورة إبراهيم، آية : ٦.

(٣) W. Keller, op.cit., p. 102-103.

(٤) A. Grohmann, Arabian, Munchen, 1963, p. 26.

(٥) فؤاد حسنين، التاريخ العربى القديم، ص ٢٦٩.

وكذا: BASOR, 73, 1939, p. 7.

وتتجر فى الطيب والبخور، ثم «فوطيفار» وهو اسم رئيس الشرطة المصرى الذى اشترى يوسف الصديق، وهو اسم وطنى تماماً، فهو يعنى فى المصرية القديمة (با ـ دى ـ بارع) بمعنى «عطية الإله رع»[١].

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن الروايات الإسرائيلية التى تتحدث عن إقامة القوم فى مصر إنما هى روايات جد صحيحة وأنه ليس من الغريب أن تستضيف أرض الكنانة على حدودها الشرقية بعضاً من البدو والرعاة، فذلك أمر عهدناه كثيراً طوال تاريخ مصر على أيام الفراعين، وإن كان يختلف فى فترات ضعفها عنه فى فترات قوتها.

ومن النوع الأول ما حدث فى أوائل عصر الثورة الاجتماعية الأولى، حين ضعفت البلاد من الإجهاد الداخلى الذى أصابها فى أعقاب الدولة القديمة، فتركت الحدود مفتوحة دونما أية حماية، ومن ثم فقد تدفق البدو الآسيويون إلى الدلتا واستقروا فيها [٢].

ومن النوع الثانى القبيلة الآسيوية التى صورت على مقبرة «خنم حتب» ببنى حسن، من عهد «سنوسرت الثانى» (١٨٩٧-١٨٧٧ق.م) وعدتها ٣٧ شخصاً، يتقدمهم رئيس الجماعة «أبشاى»[٣]، ومن هذا النوع كذلك ما عرف «بتقرير موظف الحدود»، والذى يرجع إلى السنة الثامنة من عهد «مرنبتاح» (١٢٢٤-١٢١٤ق.م)، وقد جاء فيه، أنه سمح لقبائل البدو من أدوم بدخول الدلتا الشرقية، ليظلوا أحياءً ولتظل ماشيتهم حيّة، ويشير هذا الموظف إلى أن هناك أياماً يستطيع البدو فيها أن يدخلوا من استحكامات الحدود لمثل هذه الأغراض[٤].

(١) W. Keller, The Bible As History, 1967, p. 103.

(٢) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، ص ٩٩؛ حركات التحرير فى مصر القديمة، ص ٧٣-٨٨.

(٣) جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، الجزء الثانى، ص ٧٢-٧٣.

(٤) ANET, 1966, p. 259; A. Lods, op.cit., p. 171-172; J. Wilson, op.cit., p. 258; J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, III, no. 636f.

وبدهى أننا لا نستطيع القول أن واحدة من هذه الهجرات الأسيوية إنما هى هجرة العبرانيين إلى مصر، إلا أن تقرير موظف الحدود هذا يبدو منه أن تقاليد التوراة إنما تشير إلى نوع من الأحداث التى كانت تقع فى أغلب الأحايين، كما يصور كذلك نوع الباعث الذى قاد الإسرائيليين إلى مصر[١]

وهكذا نستطيع أن نصور دخول الإسرائيليين مصر - فيما يرى أدولف لودز - بأن جماعة من البدو العبرانيين من الصعب أن نطلق عليهم اسم قبائل - والذين كوّنوا فيما بعد بيت يوسف (أفرايم ومنسى وبنيامين)، ثم التحقت بهم قبائل أخرى، وأجزاء من قبائل - قد سمح لهم بالاستقرار على حدود مصر فى منطقة رعوية، تقع بين الدلتا والصحراء الشرقية (العربية)، ذلك لأنهم إنما كانوا قد اضطروا أن يتركوا أماكنهم المعتادة، بسبب مجاعة ألمت بهم نتيجة الجفاف، على رواية، وبسبب إخوتهم - أى البدو الآخرين - طبقاً لرواية أخرى (قصة يوسف فى التقاليد العبرية وغيرها[٢])، والأمر بهذه الصور مقبول نوعًا ما، رغم اختلافه فى بعض الأمور مع رواية الكتاب المقدس.

ويبدو أن هذا الخلاف بين روايات التوراة وآراء المؤرخين لم يكن مقصوراً على دخول الإسرائيليين مصر، وإنما امتد كذلك إلى الأسباط التى عاشت فى مصر كذلك، ومن ثم فإنه على الرغم من أن التوراة تروى فى سفر التكوين أن يوسف قد استدعى أباه وإخوته جميعاً للإقامة معه فى أرض الكنانة، وأن يعقوب قد أتى إلى مصر، ومعه كل نسله، بنوه وبنو بنيه معه، وبنات بنيه وكل نسائه، جاء بهم معه إلى مصر[٣]، هذا فضلا عن أن التوراة إنما ذكرت أسماء بنى إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر وعددهم[٤].

---

(١) Martin Noth, op.cit., p. 113.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 171.

(٣) تكوين ٤٥ : ١٦-٢٨.

(٤) تكوين ٤٦ : ٧-٢٧ ؛ وانظر: سورة يوسف، آية : ٩٣-١٠١.

رغم هذا كله، فإن هناك فريقاً كبيراً من المؤرخين يذهب إلى أن هناك جزءاً كبيراً ممن أطلق عليهم اسم «الاسرائيليين» لم تطأ أقدامهم أرض النيل أبداً، أو على الأقل ـ فيما يرى البعض ـ لم يبقوا حتى الخروج المشهور على أيام موسى، عليه السلام، وهكذا رأينا «تيودور روبنسون» يذهب إلى أن شعب إسرائيل الذى يتحدث التاريخ عنه، إنما يشمل عشائر كثيرة لم تطأ أقدامها أرض مصر مطلقاً، بل إن الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين قد يفهم منه أن يهوذا قد استقرت فى الجزء الجنوبى من كنعان، وأن قبيلة أشير كانت قد أقامت فى ديارها التى استقرت فيها عند ولادة موسى[١]، ويكاد «فيلب حتى» يعتقد أن الإسرائيليين الذين دخلوا مصر، إنما هى قبيلة «راحيل» (أفرايم ومنسى وبنيامين)، فى زمن الهكسوس[٢].

ويرى «ستانلى كوك» أن الذين هبطوا مصر لم يكونوا كل الإسرائيليين، وأن أولئك الذين بقوا فى كنعان إنما كانت لهم تقاليد جد مختلفة عن تلك التى حدثت فى الخروج[٣]، والأمر كذلك بالنسبة إلى دائرة المعارف اليهودية، ويتجه السير فلندرز بترى» نفس الاتجاه، مستنداً فى ذلك إلى وجود أسماء مثل «يعقوب إل» و«يوسف إل» فى قوائم انتصارات فرعون مصر العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠–١٤٣٦ق.م)، ثم يفترض بعد ذلك أن هذه الأسماء، إنما هى أسماء أولئك الإسرائيليين الذين عادوا إلى كنعان مباشرة بعد انتهاء القحط الذى ألم بها[٤].

وأما المؤرخ اليهودى «سيسل جوزيف روث»، فالرأى عنده أن بيت يوسف ـ متضمناً سبطى أفرايم ومنسى ـ هم الذين كانوا فى مصر، ومن ثم فإنه يذهب إلى أن موسى نفسه إنما كان عبرانياً أو إسرائيلياً، مع نوع من

(١) تيودور روبنسون، تاريخ العالم ـ إسرائيل فى ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، ص ١٠٨.
(٢) فيليب حتى، المرجع السابق، ص
(٣) S.A. Cook, op.cit., p. 300.
(٤) W.M. Petrie, Egypt and Israel, London, 1923, p. 34.

الانتساب المصرى، وفى كل الاحتمالات فإن الكليم إنما ينتمى إلى قبيلة أفرايم، أكثر من انتمائه إلى قبيلة لاوى، التى نسب إليها عن طريق التقاليد العبرية، ثم يرى بعد ذلك أن هناك موجات بدوية كثيرة دخلت فلسطين، وأن أكثرها أهمية تلك التى دعيت «بيت يوسف».

ومن هنا، فالرأى عنده أن هناك بعضاً من القبائل الإسرائيلية لم تكن قد شاركت فى العبودية المصرية أو فى الخروج من مصر، وبخاصة قبيلة يهوذا، والتى كانت بطناً كنعانياً، أكثر منه جماعة آرامية مهاجرة، وقد دخلت هذه القبيلة فى المجموعة الإسرائيلية وامتصت مظاهرها القومية فى تاريخ متأخر نسبياً، وربما كان ذلك فى عصر الحروب والعناء الطويل الذى نجح آخر الأمر فى إدخال العبرانين إلى فلسطين[١].

ويرى «أدولف لودز» أن الجزء الأكبر من القبائل الإسرائيلية لم تهاجر إلى مصر، وإنما عاشوا حياة حل وترحال حول الواحات الجنوبية (بئر سبع وقادش)، وأن بعض هذه القبائل هو الذى ذهب مهاجرا إلى مصر، وهناك استعبدهم «رعمسيس الثانى»(١٢٩٠-١٢٢٤ق.م)، أو أحد أسلافه، ثم هربوا بعد فترة ونصبوا خيامهم فى واحة قادش، ويبدو أنهم اتحدوا هناك مع القبائل التى بقيت فى هذا الإقليم، وكونوا معاً أمة واحدة[٢].

وأما «هوجو جرسمان» فالرأى عنده أن القبائل التى نزلت إلى مصر إنما كانت قبائل بيت يوسف، وربما شمعون، ومن المحتمل كذلك لاوى، ولكن الجزء الأساسى من الإسرائيليين قد بقى فى فلسطين[٣].

ويرى «مارتن نوث» أن الرحيل من مصر، والخلاص الذى تم عن «طريق البحر»، لا يفترض عدداً كبيراً من قبائل كاملة، وإنما جماعة صغيرة

---

(١) C.J. Roth, A Short History of the Jewish People, p. 7-8.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 188-189.

(٣) Ibid., p. 184.

كانت فى موقف يضطرها بسبب صغر حجمها إلى الهروب، وأما اسم الجماعة فهى «جماعة راحيل» التى يقع الاختيار عليها غالباً بسهولة، ولكن الأسباب التى تدعو إلى ذلك لا تبدو سليمة تماماً، وعلى أى حال، فإنه من الخطأ أن نسأل عن : أى القبائل الإسرائيلية هى التى كانت فى مصر لأن هذه القبائل الإسرائيلية قد تكونت فى وحدات معينة عندما وصلت إلى فلسطين فحسب، وأنها قد أخذت أسماءها المعروفة هناك فى فلسطين كذلك.

وعلى أى حال، فيمكن الظن بأن هؤلاء المهاجرين إلى مصر، إنما كانت لهم صلات بهذه البلاد فى أوقات تغيير المرعى، وربما رجع هولآء المهاجرون إلى نفس الإقليم مرة أخرى بعد الخروج من مصر، وإن كنا لا ندرى كيف حدث هذا، وأياً ما كان الأمر، فإن العناصر التى أتت إلى مصر إنما قد وصلت إلى حدود أقاربها الذين كانوا يعيشون فى مجاورات فلسطين، وربما كانوا على صلة بهذه البطون إبان إقامتهم فى مصر، وأنهم قد أخبروهم بقصة «معجزة الخلاص الإلهية» التى أثرت فيها بعمق، لدرجة أنهم نقلوا القصة إلى كل مكان، ثم إلى أحفادهم من بعدهم، على أنها قد حدثت لهم جميعاً، وليس فقط إلى هؤلاء الذين كانوا فى مصر وبهذه الطريقة كان الاعتراف بالعقيدة فى الله، الذى أوضح عن نفسه بمهابة، وذلك عن طريق تخليصهم من أيدى المصريين القوية، ثم أصبحت هذه القصة ملكية شائعة لكل بنى إسرائيل، وواحدة من الأسس الخاصة بالعقيدة التى كانت حيوية فى نظام اتحاد القبائل الاثنى عشر، تحت حماية قانون الربّ الإجبارى[1].

---

(١) Martin Noth, op.cit., p. 11-118.

٣ - عصر دخول الإسرائيليين مصر

يختلف العلماء فى وقت دخول الإسرائيليين مصر، ولعل السبب فى ذلك أن التوراة - وكذا بقية الكتب المقدسة - لم تحدد وقتًا لدخول بنى إسرائيل أرض الكنانة، بل إنها حتى لم تذكر اسم الملك الذى عاصر يوسف الصديق، عليه السلام، هذا فضلا عن أن مصر - وهى البلد الذى كان يأمل العلماء أن يجدوا فيه وثائق معاصرة للأحداث التى جاءت فى التوراة - لم تشر أبدًا إلى هبوط الإسرائيليين إليها، بل ليست هناك أية إشارة فى التاريخ المصرى القديم إلى إسرائيل، فيما قبل عصر مرنبتاح (١٢٢٤-١٢١٤ق.م)، ومن هنا كان الخلاف بين العلماء على تحديد ذلك العصر الذى دخل الإسرائيليون فيه مصر، فهناك من رأى أنهم قد هبطوا مصر على أيام الهكسوس (حوالى ١٧٢٥-١٥٧٥ق.م) وهناك من تأخر بهم إلى أيام أمنحتب الثانى (١٤٣٦-١٤١٢ق.م).

(أ) الرأى الأول:

يذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن عصر الهكسوس[١] إنما هو العصر الذى هبط بنو إسرائيل فيه مصر، معتمدين فى ذلك على أدلة كثيرة منها (أولا) أن التوراة تروى فى سفر التكوين أن يوسف كان يركب فى عربة الفرعون الثانية على أساس أنه «نائب الملك» وفى هذا دلالة على عصر الهكسوس، ذلك لأن «حكام البلاد الأجنبية» هؤلاء، إنما كانوا أول من أدخل عربة الحرب السريعة إلى مصر، ومنها (ثانيًا) أن الهكسوس هم أول من استعمل العربات الرسمية فى المناسبات العامة فى مصر، وكانت العربة الأولى من نصيب الملك، بينما كانت الثانية من نصيب وزيره الأول[٢].

(١) انظر عن عصر الهكسوس: محمد بيومى مهران، حركات التحرير فى مصر القديمة، (وهو الجزء الثالث من سلسلة دراسات من تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٢٧-١٣٠، ٢١١.

(٢) W. Keller, op.cit., p. 103-105.

ومنها (ثالثًا) : أن «ساكن الرمال» ما كان يستطيع أن يصل إلى منصب الوزير على أيام الفراعين المصريين فى تلك العصور الجيدة من تاريخ الكنانة، ذلك لأن البدو إنما كانوا يعملون فى تربية الحمير والغنم والماعز «وأن كل راعى غنم رجس عند المصريين»[١]، ومن هنا، وفى عهد سيادة الهكسوس فحسب، يجد الأسيوى الفرصة سانحة ليصل إلى أعلى المراكز فى الدولة - والأمر كذلك فى أيام الضعف - ومن هنا فقد وجدنا موظفين يحملون أسماء سامية فى عصر الهكسوس[٢].

ومنها (رابعًا) أن هناك جعولا من ذلك العصر، جاءت بها أسماء رؤساء مثل «يعقوب حر» و«عنات حر»، ومهما يكن معنى «حر» هذه، فإن «عنات» هى الإلهة السامية المعروفة، وأنه لمن الصعب أن ننحى وجهة النظر القائلة بأن الأب يعقوب قد خلّد ذكره فى الاسم الآخر[٣]، مما جعل المؤرخ الأمريكى «جيمس هنرى برستد» يعتبر ذلك إشارة إلى أن قائد قبيلة يعقوب الإسرائيلية، ربما نال الفرصة ليصل إلى بعض السلطة فى وادى النيل فى تلك الفترة المظلمة، والتى تتناسب مع احتمال دخول بنى إسرائيل إلى مصر وقت ذاك[٤].

ومنها (خامسًا) ما ذهب إليه «حبيب سعيد» من أن دخول الإسرائيليين إلى مصر، إنما حدث خلال حكم الهكسوس لمصر، لأنه فى مثل هذا الاضطراب التاريخى فقط، يتسنى لهم أن يلقوا ترحابًا، وهم الغرباء النازحون[٥]، ومنها (سادسًا) أن هناك من الباحثين من يجعل الهكسوس من أصول سامية شمالية غربية، ومن ثم فهم أقرباء للعبرانين، مما يجعل يوسف

---

(١) تكوين ٤٦ : ٣٤.

(٢) W. Keller, op.cit., p. 105-107.

(٣) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p, 157.

(٤) J. H. Brested, A History of Egypt, N.Y., 1946, p. 220.

(٥) حبيب سعيد، أديان العالم، ص ١٦٣.

العبرانى يجد الفرصة ليصل إلى مركز القوة فى البلاط المصرى[١]، وبالتالى فقد قوبل أباه وإخوته بالترحاب من الهكسوس الساميين، والذين سمحوا لهم بالإقامة فى «جوشن»[٢].

ومنها (سابعًا) ماذهب إليه بعض الباحثين من أن دخول الإسرائيليين إلى مصر، إنما كان فى عصر الهكسوس، على أساس أن هذا يعطى الإسرائيلين أربعة قرون كفترة إقامة فى مصر، حتى تم طردهم منها على يد رعمسيس الثانى[٣]، ومنها (ثامنًا) ما ذهب إليه «فلندرز بيترى» من أن عصر يوسف إنما كان على أيام الهكسوس، ويظهر ذلك عن طريق اللقب البابلى الذى أعطى له وهو Abrek، والذى هو Abarakhu، وهو واحد من ضباط الدولة الخمسة العظام[٤].

ومنها (تاسعًا) ما ذهبنا إليه من قبل من أن القرآن الكريم قد حرص فى سرده لقصة يوسف، على أن يلقب الحاكم الذى عاصره بلقب «ملك»[٥]، بينما حرص على أن يلقب الحاكم الذى عاصر موسى بلقب «فرعون»، وقد أثبتنا من قبل أن لقب «فرعون» [٦] لم يستعمل للدلالة على شخص الملك إلا منذ أيام تحوتمس الثالث[٧]، وبصفة مؤكدة منذ أيام «إخناتون»[٨]، مما يدل على أن عصر يوسف إنما كان قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة التى

---

(١) I. Epstein, Judaism, 1970, p. 15.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 4.

(٣) G. Roux, op.cit., p. 242.

(٤) W. M.F. Petrie, op.cit., p. 27.

(٥) سورة يوسف، آية : ٤٣، ٥٤.

(٦) سورة الأعراف، آية : ١٠٣-١٠٤، ١٠٩، ١١٣، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٧؛ يونس، آية : ٧٥، ٧٩، ٨٣، ٨٨، ٩٠؛ هود، اية : ٩٧؛ الإسراء، آية : ١٠١-١٠٢؛ طه، آية : ٢٤، ٤٣، ٦٠، ٧٨، ٧٩؛ المؤمنون: آية : ٤٦، ... وهكذا

(٧) A. Gardiner, op.cit., p. 52.

(٨) A. Gardiner, Egyptian Grammer, 1966, p. 75.

استعمل فيها لقب «فرعون»[١] وبالتالى فهو فى عصر الهكسوس.

ومنها (عاشراً) أن هناك ما يشير إلى أن يوسف قد وصل إلى ما وصل إليه من النفوذ فى عصر الهكسوس - وربما ليس بعد عام ١٧٠٠ق.م - ففى سفر التكوين ما يشير إلى أن قصر الملك لم يكن بعيداً عن «أرض جوشن»، وهذا يعنى أن العاصمة المصرية كانت فى منطقة الدلتا، وهو أمر يتفق وعصر الهكسوس، حيث كانت عاصمتهم «أواريس» (حت وعرت = صان الحجر الحالية)، هذا فضلا عن أن سفر الخروج يقرر أن مدة إقامة الإسرائيليين فى مصر، إنما كانت ٤٣٠سنة[٢]، وحيث أن الخروج قد تم بعد عام ١٣٠٠ ق.م (الأمر الذى سنناقشه فيما بعد)، فإن ذلك يرجع بعهد يوسف إلى حوالى عام ١٧٠٠ق.م، وهى فترة تتفق وحكم الهكسوس[٣].

بل إننا نستطيع أن نصل إلى نفس النتيجة من إشارة سفر التكوين من أن قصر الملك كان فى «أرض جوشن»، ذلك أن عاصمة مصر لم تكن فى الدلتا الشرقية إلا فى عصر الهكسوس، ثم فى عصر الرعامسة بعد ذلك، حيث كانت «أواريس» فى العصر الأول، و«بر - رعمسيس» فى العصر الثانى، ولما كان عصر يوسف لا يمكن أن يكون - بحال من الأحال - فى عصر الرعامسة، فهو إذن فى عصر الهكسوس، بل إننى أعتقد أن تحديد إقامتهم فى أرض جوشن - وهى منطقة نفوذ الهكسوس الأساسية، وقاعدة هذا النفوذ، كما نعرف - إنما يعد دليلا على أن عصر وجود الإسرائيليين فى مصر، إنما كان على أيام الهكسوس.

---

(١) J. Am Wilson, The Cutlture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 102.

وانظر: عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٠-٢١.

(٢) خروج، ١٢: ٤٠.

(٣) The Westminester Historical Atlas to the Bible, p. 28.

ومنها (حادى عشر) أن هناك ما يشير إلى أن يوسف قد حمل إلى مصر، حيث كانت تجارة الرقيق من البنين والبنات الأسيويين تلقى يومئذ رواجًا دل عليه ما كشفت عنه بردية فى متحف بروكلين [١] بالولايات المتحدة الأمريكية، فقد جاء فيها ذكر ما يربو على أربعين أسيويًا من نيف وثمانين، كانوا يعملون خدمًا فى بيت واحد من عصر الأسرة الثالثة عشرة قبل مجيئ الهكسوس، ولم يكن من سبيل بحكم ما هو معروف من تاريخ تلك الفترة، وأحوال مصر المتواضعة، أن يكون هؤلاء مع إخوان لهم فى بيوت أخرى، من أسرى الحرب فى زمان لم تقع فيه حروب[٢].

وأما عدم ذكر «يوسف» فى الآثار المصرية، رغم أنه شغل منصب الوزير الأول للملك، فهذه - فيما أظن - تدعم هذا الرأى ولا تنقضه، إذ لو كان يوسف عاش فى غير عصر الهكسوس، لكان من الممكن العثور على دليل أثرى يؤيد وجوده، أو على الأقل يشير إلى الأحداث التى روتها التوراة، ذلك لأن التاريخ المصرى، رغم أنه يمتاز على تاريخ الشرق الأدنى القديم بوضوحه وكثرة آثاره، فإن عصر الهكسوس بالذات يمتاز بالغموض، بل إنه ليعد واحدًا من أغمض فترات التاريخ المصرى القديم، ذلك لأن المصريين ما كانوا براغبين فى تسجيل ذكرى هذا العصر البغيض إلى نفوسهم[٣]، بل إنهم لم يحاولوا حتى الإشارة إليه إلا على أيام الملكة «حتشبسوت»[٤] (١٤٩٠-١٤٦٨ق.م) هذا فضلا عن تدميرهم لآثار الهكسوس بعد نجاحهم فى طردهم وتحرير البلاد من سيطرتهم.

---

(١) W.C. Hayes A Papyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum 1955.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٤٣.

(٣) انظر: كتابنا «حركات التحرير فى مصر القديمة»، ص ١٠٣-١٠٦.

(٤) A. Gardiner JEA, 32, 1946, p. 45-48.

أضف إلى ذلك كله أن «يوسف» على الرغم من أنه كان ذا مكانة في حكومة مصر، غير أنه لم يعد أن يكون وزيراً فحسب، وأن كل عمل عظيم يقوم به ويستحق التسجيل، إنما كان ينسب إلى الملك، الذى كانت النقوش تهدف إلى تعظيمه والإشادة بذكره، لأن كل شيء كان في مصر من وحيه هو، وعلى ذلك فإن اسم يوسف لم يكن ليظهر بطبيعة الحال[1].

وانطلاقًا من هذا، إذا أردنا أن نحدد ـ قدر استطاعتنا وفي الوقت نفسه حدسًا عن غير يقين ـ ملك مصر الذى عاصر الصديق، مستعينين في ذلك بقوائم الملوك من تلك الفترة، ومستعينين في الوقت نفسه بالمصادر الإسلامية، لوجدنا أن واحداً من ملوك الهكسوس كان يدعى «سا أوسر إن رع ـ خيان»[2] من ملوك الأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية ـ أى في بداءة عصر الهكسوس ـ ولوجدنا في الوقت نفسه، أن المصادر الإسلامية تذكر أن ملك مصر على أيام الصديق، إنما كان من ملوك العرب، المعروفين بالرعاة (الهكسوس)[3] وأنه كان يدعى «الريان»[4]، وإنى لأظن ـ وليس كل الظن إثمًا ـ أنه ليس من الصعب كثيراً تصحيف الاسم «ريان» إلى «خيان» وإن كانت هناك قصة قديمة تجعلهم يصلون مصر على أيام الملك «إيبيى»[5].

(١) سليم حسن، مصر القديمة، الجزء السابع، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) انظر عن هذا الملك : محمد بيومي مهران، حركات التحرير في مصر القديمة، ص ١٤٥-١٤٨، وكذا:

T. Save Saderbergh, JEA, 37, 1951, p. 63; A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 158; W.C. Hayes, Egypt from the Death of Ammenemes, III, to Seqenenre II, Cambridge, 1965, p. 22.

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير سورة يوسف، القاهرة، ١٩٣٦، ص ٦٨.

(٤) الإمام الطبرى، تاريخ الطبرى، ٣٣٥/١-٣٣٦؛ تفسير الطبرى، ١٧/١٦؛ الإمام ابن كثير، قصص الأنبياء، ٣٠٦/١؛ تفسير ابن كثير، ٣٠٦/٤؛ تاريخ ابن خلدون، ٧٥/٢-٧٦؛ المسعودى، مروج الذهب، ٦١/١؛ سعد زغلول عبد الحميد، في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠٤، بيروت ١٩٧٥.

(٥) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٤٠٣/١.

(ب) الرأى الثانى:

ويذهب إلى أن الإسرائيليين قد هبطوا مصر على أيام «أمنحتب الثانى» (١٤٣٦-١٤١٣ق.م) وينادى به «برنى» و«جرسمان»، ذلك أن «برنى» كتب فى عام ١٩١٨م مقالا عن الموضوع[١]، ثم عاد إليه مرة أخرى فى عام ١٩٢٠م فى تعليقه على «سفر القضاة»[٢]، وفيه رأى : أن بعضًا من قبائل العبرانيين قد استقر فى مصر على أيام الهكسوس وطردوا معهم وهذا يتفق مع هبوط إبراهيم الخليل - عليه السلام - مصر، وخروجه منها[٣].

هذا وقد وجد تحوتمس الثالث فى فلسطين إحدى المجموعات العبرية، وتدعى «يعقوب إل» بعد أن طردها الآدوميون من كنعان (هروب يعقوب من عيسو)، ثم غزت البلاد مرة أخرى (غزو الخابيرو حوالى عام ١٤٠٠ق.م) لأن «لابان» - صهر يعقوب وخاله - كان يتعقبهم (أى القبائل الآرامية وساجاز تل العمارنة)، وأن هؤلاء الخابيرو الذين سموا «عابيرو» (العبرانيين) قد وجهوا هجومهم نحو «شكيم» بصفة خاصة، وأن جماعة منهم - متضمنة يوسف، وربما شمعون ولاوى - قد أخذت طريقها نحو مصر أثناء حكم أمنحتب الثانى، حوالى عام ١٤٣٥ق.م لأن هؤلاء قد استقروا هناك - طبقًا للترجمة السبعينية - مدة ٢١٥[٤] عامًا، ولكن الجزء الأساسى من الإسرائيليين قد بقى فى فلسطين، ومن ثم فقد ذكر سبط «أشير» فى سجلات «سيتى الأول» (١٣٠٩-١٢٩١ق.م) ورعمسيس الثانى (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م)، والأمر كذلك بالنسبة إلى إسرائيل عصر مرنبتاح، أو فى فترة الاضطرابات التى تلت موته[٥].

---

(١) C.F. Burney, Israel Settlement in Canaan, 1918.

(٢) C.F> Burney, The Book of Judges, 1920.

(٣) تكوين ١٢ : ١٠-٢٠.

(٤) خروج ١٢ : ٤٠-٤١. مع ملاحظة أن بعض المصادر الإسلامية ذهبت إلى هذا الاتجاه (أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ٢٠/١ ؛ ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول، ص ١٠٠).

(٥) A. Lods, op.cit., p. 154-185.

وأما الملامح الخاصة لنظرية «جرسمان»، فهى ضغط الأحداث إلى أقصر فترة زمنية ممكنة، فهو يرى أن الخابيرو ينتمون إلى موجة من موجات الغزاة الآراميين سابقة للتى أتت بالإسرائيليين، وأن الأخارى قد وصلوا إلى حدود فلسطين حوالى عام ١٣٠٠ق.م، وأن جزءاً منهم قد اتجه إلى مصر مباشرة، وأقاموا هناك فترة جيلين فقط، وهو الزمن الذى يتطلبه الجزء الأقدم من التقاليد الإسرائيلية[١]، ولنقل أنها كانت خمسين عاماً، وأنهم هربوا أثناء حكم فرعون الاضطهاد واستقروا فى كنعان حوالى عام ١٢٣٠ق.م، ومن ثم فليس من الغريب أن يذكر مرنبتاح إسرائيل بين الشعوب التى أخضعها أثناء حملته إلى فلسطين.

على أن هناك كثيراً من العقبات التى تقف فى وجه قبولنا لرأى «برنى» هذا منها (أولا) أنه يتعارض تماماً مع التوراة ـ مصدرنا الأساسى فى هذه الفترة من تاريخ بنى إسرائيل ـ، ذلك لأن التوراة إنما تذهب إلى أن بنى إسرائيل إنما قدموا إلى مصر، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان، ثم بدعوة من يوسف ـ عليه السلام[٢] ـ وليس بسبب طرد الأدوميين لهم، ومنها (ثانيًا) أنه يختصر مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر إلى ٢١٥ عامًا، والتوراة صريحة فى ذلك، إذ تحدد مدة إقامتهم بـ ٤٣٠ عاماً[٣]، وإن كان ما ذهب إليه يتفق مع الترجمة السبعينية.

ومنها (ثالثًا) أنها تربط بين نزول إبراهيم وخروجه منها، وبين عهد الهكسوس، الأمر الذى رفضناه من قبل، ومنها (رابعًا) أنها تربط بين روايات إسرائيلية تتعلق بأحداث مبكرة فى فلسطين، وبين قصة دخول الإسرائيليين مصر، ومنها (خامسًا) أنها تجعل دخول الإسرائيليين مصر، إنما كان

---

(١) تكوين ١٥: ١٦؛ خروج ١: ٦-٨، ٦: ٢٠.

(٢) سورة يوسف، آية: ٥٨-١٠٠؛ تكوين ٤١: ٥٦-٤٥: ٢٨.

(٣) خروج ١٢: ٤٠-٤١.

مقصوراً على أسباط معينة، علمًا بأن التوراة تجعل ذلك للإسرائيليين عامة[1].

ومنها (سادساً) أن يوسف الصديق كان - كما هو معروف - قد شغل منصبًا كبيراً فى الدولة، ولم يكن من عامة القوم، فكيف لم تشر إليه النصوص المصرية، وهى التى أشارت كثيراً إلى الوزراء وكبار الموظفين، بجانب ملوكهم، وهو أمر عللناه فى عصر الهكسوس بغموض هذا العصر وضياع آثاره، وهذا ما لم يقل به أحد ممن أرخوا لعصر أمنحتب الثانى (١٤٣٦- ١٤١٣ق.م).

أما نظرية «جرسمان» فهى تضغط الأحداث بدرجة كبيرة، هذا فضلا عن اعتمادها على تفسيرات معينة لنصوص معينة، وفى نفس الوقت، فإنها تتجاهل نصوصًا أخرى تحدد بصراحة مدة الإقامة بـ ٤٣٠ سنة، أضف إلى ذلك أن تحديدها لدخول بنى إسرائيل مصر فى عام ١٣٠٠ق.م، والخروج بعام ١٢٣٠ق.م، يجعل مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر، حوالى٧٠ عامًا، كما يحددها جرسمان نفسه - وهو أمر يخالف كل التقاليد العبرية، بل إن القصة كلها - كما يقدمها لنا جرسمان - إنما تخالف كل التقاليد اليهودية، الخاصة بقصة دخول وخروج بنى إسرائيل من مصر.

وهكذا يبدو لى أن عصر الهكسوس - وليس غيره - إنما هو العصر الذى دخل الإسرائيليون فيه أرض الكنانة.

---

(١) تكوين ٤٥: ١٦-٢٨.

الفصل الثانى
حياة الإسرائيليين فى مصر

١ - فيما قبل الاضطهاد:

قدم الإسرائيليون إلى مصر، لا كغزاة فاتحين، وإنما كلاجئين من جدب فى كنعان، فوجدوا فى مصر، وفى ظل أخيهم يوسف، ضيافة كريمة، فاختاروا - أو اختار لهم يوسف - أرض جوشن فى وادى طميلات، لأنهم رعاة ماشية وهذه أرض مراع، ولأنها تبعدهم عن مخالطة أهل البلاد والاندماج فيهم والامتزاج بهم، حيث كانوا يؤثرون الإقامة فى جهات خاصة بهم.

ولعل السبب فى ذلك، إنما كان نفور المصريين منهم، أو من حرفتهم كرعاة، «لأن كل راعى غنم رجس للمصريين»[١]، ولعلنا نحس ذلك منذ اللحظة الأولى التى قدم فيها الإسرائيليون إلى مصر بأخيهم بنيامين، إذ نرى يوسف يولم وليمة تكريماً لأخيه، ولكنه يأمر بأن تكون له مائدة خاصة به، وأخرى لإخوته، وثالثة للمصريين، «لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين»[٢].

وهكذا تبدو نظرة المصريين للعبرانيين واضحة لنا منذ أول لقاء بينهما وفى ضيافة يوسف العبرانى نفسه، وهى نظرة لا تدل - بحال من الأحوال - على احترام المصريين للعبرانيين، وإنما تدل على أنفة المصريين، وتأبيهم عن مخالطة العبرانيين، وعدم استعدادهم حتى للأكل معهم، بل إنهم إنما يعتبرون الأكل معهم رجس لا يليق بهم، رغم أنهم يعرفون أنهم أخوة يوسف عزيز مصر وقت ذاك، والأمين على خزائنها، والأثير عند مليكها، وإن

---

(١) تكوين ٤٦: ٣٤.

(٢) تكوين ٤٣: ٣٢.

دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن القطيعة بين الفريقين ماكانت تحتاج إلى بيان، بل إن يوسف نفسه إنما يسلم بها سلفاً، ومن ثم فقد أعدّ مائدة للمصريين، وأخرى لأخوته، فضلا عن ثالثة له، ولعله أراد بهذه الثالثة ألا يغضب أحد الفريقين، إن جلس على مائدة فريق دون الآخر.

هذا وربما كان من أسباب هذه النفرة بين المصريين والإسرائيليين، تلك النظرة المتعالية التي كان ينظر إليها المصريون إلى من عداهم من الناس، بل إنهم وحدهم «الناس» أو «الرجال» أما الأجانب فلا، كانوا يزدرونهم ويطلقون على روسائهم لقب «وغد»[1] ـ كما أشرنا من قبل ـ

وأيًا ما كان الأمر، فلقد عاش بنو إسرائل في ظل الهكسوس الغزاة الأجانب، ما شاء الله لهم أن يعيشوا، حتى تقوم ثورة التحرير، التي يحمل لواءها أبناء الصعيد من طيبة، أولئك الذين لم يخنعوا للهكسوس، أو يخضعوا لسلطانهم، وإن اضطروا في بداءة مرحلة الاحتلال أن يدفعوا الضرائب لأواريس، وأن يحكموا بموافقة سادتهم، ثم سرعان ما تقوم الثورة بقيادة أمير طيبة «سقنن رع» ضد الغاصب اللئيم، ويدفع بطلنا العظيم دمه ثمناً لها ويصبح في عرف التاريخ «الشهيد الأول من أجل مصر العظيمة»[2].

وتأتي الأخبار إلى طيبة باستشهاد أميرها في حومة الوغى، فيهب ولده وخليفته «كاموزا» ليقود الثورة وليتم رسالة أبيه من بعده، ولكن القدر لم يكتب له أن يكون القاهر النهائي للهكسوس[3]، ذلك أن هذا الشرف

(١) محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، الإسكندرية ١٩٦٦، ص١٦٢، ٢٠٩؛ وكذا: A. Gardiner, op.cit., p. 37.

(٢) محمد بيومي مهران، حركات التحرير في مصر القديمة، ص ١٧٥–١٨٠. وكذا: W.C. Haye, op.cit., p. 32-34.
وكذا: T.Save, Soderbergh, JEA, 37, 1951, p. 67F.

(٣) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ١٨٠–١٩٨. وكذا: JEA, 3, p. 95-110.
وكذا: T.Save, Soderbergh, op.cit., p. 69-71.
وكذا: T.G.H. James CHA, II, 1965, p. 4-7.

العظيم، إنما قد ادخرته الأقدار لشقيقه وخليفته «أحمس الأول» (١٥٧٥-١٥٥٠ق.م)[١] الذى مجدّته الأجيال اللاحقة، كمؤسس للأسرة الثامنة عشرة، وكبداية لعهد الإمبراطورية المصرية، وكبطل لا يبارى استطاع أن يطهر أرض الكنانة من رجس الاستعمار، ودنس الاستعباد[٢].

كان الإسرائيليون مرتبطين بالهكسوس بأوثق رباط، فيوسف الصديق وصل ما وصل إليه فى عهدهم، كما أن بنى إسرائيل قد ساعدوا الغاصب الأجنبى ومن ثم فقد تركهم فى مراعيهم آمنين، ولعل هذا كان واحداً من الأسباب التى جعلت المصريين ينفرون من اليهود، ويضمرون لهم أشد المقت، هذا إلى أنهم ربما كانوا على اتصال بالهكسوس، اتصال الملق والمصانعة، وتقديم كافة الخدمات، ومن بينها خدمات التجسس، ونتج عن ذلك أن تشابهت بعض الأسماء بين الفريقين، وإن كان علماء اليهود يردون ذلك إلى أن الهكسوس إنما كانوا قبائل سامية من بينها العبرانيين[٣] ـ الأمر الذى سوف نناقشه فيما بعد ـ ولعل هذا الذى يقوله علماء اليهود هو ذاته دليل على ما كان بين الغزاة الهكسوس، والضيوف الإسرائيليين، من صلات وثيقة أقرها اليهود فى تراثهم العبرى، وعزوا إليها استقرار العبرانيين فى مصر.

على أنه يجب أن نشير هنا إلى أن الإسرائيليين إنما قد تأثروا كثيراً بسادتهم الهكسوس، الذين حاولوا بدورهم أن يكسبوا ود المصريين، ويتكيفوا بالحضارة المصرية، فتبنوا ثقافة البلاد، وطريقتها فى الكتابة، بل وعبدوا الإله

---

(١) انظر عن بداية حكم أحمس الأول، كتابنا «حركات التحرير فى مصر القديمة»، ص ٢١١.

(٢) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ١٧٥-٢٠٣. وكذا:

J.H.Breasted, ARE II, 1906, No. IF, 17-25.

وكذا: TGF. James, op.cit., p. 7-9.

(٣) I. Epstein, op.cit., p. 15.

وكذا: C.Roth, op.cit., p. 5.

«رع»، وكانوا يقرنون اسمه بألقابهم مثل «عاقنن رع» - وهو الملك - أبو فيس - كما عبدوا الإله «ست» والذى كان يشبه إلههم الأصلى «تشوب»، وكانوا يطلقون عليه أحياناً «سوتخ»(١).

ومن هنا فأكبر الظن أن الإسرائيليين قد تأثروا بالهكسوس فى اعتناق الديانة المصرية، ومن ثم فقد رأينا «دين ستانلى» يقول : إن إقامة بنى إسرائيل فى مصر، قد أثرت فيهم كثيراً، فيما يتصل بحريتهم السابقة ونشاطهم السابق، وإن كان الأهم من ذلك كثيراً، أن الديانة السابقة التى تمتع بها عصر الآباء البطارقة الأقدمين، إنما قد تلاشت الآن كثيراً.

وتقدم لنا التوراة الكثير من الأدلة على أن الإسرائيليين إنما كانوا يعبدون آلهة البلاد التى كانت تستضيفهم، ومن هنا جاء فى سفر يشوع قول الربّ: «انزعوا الآلهة الذى عبدهم آباؤكم عبر النهر، وفى مصر، واعبدوا الربّ»(٢)، كما جاء فى سفر حزقيال: «فى ذلك اليوم رفعت لهم يدى لأخرجهم من أرض مصر، إلى الأرض التى تجسستها لهم، تفيض لبناً وعسلا، هى فخر كل الأراضى، وقلت لهم: اطرحوا كل إنسان منكم أرجاس عينيه، ولا تتنجسوا بأصنام مصر»(٣).

وهكذا عاش الإسرائيليون فى مصر فترة رخاء فى بادئ الأمر، واعتنقوا ديانة المصريين، ثم مضت فترة لا ندرى مداها على وجه التحقيق، وإن كنا لا نظن أن الاضطهاد قد بدأ بعد التحرير مباشرة، وإنما يبدو لى أن ذلك إنما كان بعد حين من الدهر.

(ب) الاضطهاد : أسبابه ونتائجه:

ترجع التوراة أسباب اضطهاد المصريين للإسرائيليين إلى أنه «قام ملك

(١) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ١٥٥-١٦٠؛ عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص١٩١.

(٢) يشوع ١٤:٢٤.

(٣) حزقيال ٢٠: ٦-٨.

جديد على مصر، لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم، لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض»[١].

وفي الواقع أننا إذا ما أردنا مناقشة أسباب الثورة هذه للاضطهاد المصرى لبنى إسرائيل، لرأينا فيها بعض الصواب، ولكننا سوف نرى فيها ـ فى نفس الوقت ـ الكثير من الخطأ، فالتوراة تجعل من فرعون الذى «لم يكن يعرف يوسف» سببًا فى الاضطهاد، ورغم أنه سبب غير مقنع تمامًا، إلا أنه ربما كان يحمل بعض الصواب بين طياته، ذلك لأن هذا الفرعون الذى تشير إليه التوراة ـ دون أن تذكر اسمه ـ ربما كان «رعمسيس الثانى» وربما كان «سيتى الأول» ـ فيما يرى أطلس وستمنستر التاريخى ـ هو الملك الذى بدأ العمل فى بناء مدينة «بر ـ رعمسيس» كما تدل بعض الآثار التى وجدت فى موقع المدينة[٢].

وأما جهل هذا الفرعون بيوسف الصديق «عليه السلام»، فلعل السبب فى ذلك أن الصديق إنما عاش قبل هذا الفرعون بقرون، ترجع إلى أيام الهكسوس، وهم الغزاة الذين يحمل لهم المصريون فى قلوبهم كل الكره والبغض، ولم يحاولوا أن يسجلوا تاريخهم، فضلا عن تاريخ موظفيهم، والصديق واحد منهم، ومن هنا فقد ارتبط يوسف بحدث مولم فى الضمير الوطنى المصرى، وذلك لسببين، الواحد أنه كان أسيويًا، وجواب رمال، والآخر أنه كان من أكبر موظفى الدولة المحتلة المكروهة، وطبقًا لوجهة النظر الأخيرة، فإن أى إعجاب بيوسف إنما كان يعنى ـ فى نظر الفرعون ـ الثناء على الهكسوس[٣].

---

(١) خروج ١: ٨-١٠.

(٢) The Westminester Historical Atlas to the Bible, p.37.

(٣) W. Keller, op.cit., p. 117.

وأما ما تذهب إليه التوراة من أن الإسرائيليين قد أصبحوا «شعبًا أعظم وأكثر» من المصريين، فهذا منطق غير مقبول، وأن النص التوراتى لاشك أنه قد أوغل فى المبالغة، وأغرق فى التعصب، ذلك أن التوراة نفسها إنما تحدثنا أن بنى إسرائيل عندما قدموا إلى مصر، للمرة الأولى، إنما كان «جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون[١]» وها نحن الآن على أيام الاضطهاد ـ ثم الخروج فيما بعد ـ وقد انصرمت ٢١٥ سنة، على رأى التوراة السبعينية ـ أو ضعف هذا الرقم على رأى التوراة العبرية ـ حتى أصبح هذا البيت من الناس «شعبًا أعظم وأكثر» من المصريين ـ أصحاب أعظم وأقوى دولة فى العالم وقت ذاك ـ أو حتى يصبح عدد بيت يعقوب قد ناهز المليونين ـ وربما الثلاثة ـ فلما طردوا من مصر، كان من بينهم «نحو ست مئة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد، فكان جميع الأبكار الذكور، من ابن شهر فصاعدا، اثنين وعشرين ألفًا ومئتين وثلاثة وسبعون»[٢]، فإذا ضاعفنا هذا العدد كان الأبكار من الجنسين قرابة ٤٥ ألف.

ويعلق بعض الباحثين على ذلك، بأننا لو قسمنا عدد الجماعة على الأبكار، لخلصنا إلى أن المرأة الإسرائيلية من اليهود الآبقين، كانت تلد زهاء ٦٥ وليداً، وهو أمر لا يستقيم مع المنطق، فضلا عما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير، ولا مع ما روى من عبورهم البحر فى سويعات قصار، ومن ثم فإن علماء اللاهوت والمؤرخين، سواء بسواء، أصبحوا الآن لا يعلقون على هذه الأرقام التى ذكرتها التوراة أية أهمية، ويعتبرونها محض خيال إسرائيلى[٣]، ـ الأمر الذى سوف نناقشه عند الحديث عن الخروج.

---

(١) تكوين ٤٦: ٢٦-٢٧.

(٢) خروج ١٢: ٣٧؛ عدد ٤٣: ٤٣.

(٣) عصام الدين حفنى ناصف، محنة التوراة على أيدى اليهود، القاهرة ١٩٦٥، ص ٣٥؛ أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٧٣. وكذا:

S.A. Cook, The Rise of Israel, CAH, II, 1931, p. 358.

هذا فضلا عن أن الإسرائيليين لم يكونوا في مصر ـ في غالب الأحايين ـ إلا مجرد رعاة أغنام، وأن المصريين إنما هم أصحاب البلد الأصلاء، هم المالكون للسلطة والقوة، والثروة في البلاد، ومن ثم يبدو واضحًا مدى المبالغة في نص التوراة الذي يصف الإسرائيليين بأنهم «شعب أكثر وأعظم» من المصريين وليس أدل على ذلك من الاضطهاد الذي تقول به التوراة، وتحاول تبريره بمثل هذه الحجج الواهية، وإلا فخبرني بربك : كيف يضطهد الأقل الأكثر، والأذل الأعز، والأضعف الأقوى؟

وأما قول التوراة أنه «إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض»، فلعل هنا موطن السر، ولعل من كتبوا هذه النصوص في التوراة قد أشاروا إلى موطن الداء، دون أن يدروا، وهو عدم ثقة المصريين في بني إسرائيل، وخشيتهم من أن يكونوا حربًا عليهم، إن طمع فيهم غاز لئيم، أو أراد معتد أثيم أن يدنس أرضهم، ولعل لهم من عهد الهكسوس ذكريات لا تضع الإسرائيليين فوق مستوى الشبهات، بل إنهم ـ كما يقول الدكتور الحاخام «أبشتين»[١] ـ كانوا مهتمين بالتعاطف مع الهكسوس، وأقرباء نائب الملك السابق، أو وزير تموينه على الأصح.

وهكذا يبدو واضحًا ـ وبنص التوراة نفسها ـ أن سبب الاضطهاد من أقوى الأسباب التي تخيف منهم أمة متحضرة كمصر، وملكًا مهيبًا كفرعون، وهو انعدام ولائهم للبلاد التي يعيشون فيها، واستعدادهم للانضمام إلى أعداها وشن الحروب عليها[٢]، حتى وقع في خلد فرعون وآله أنهم طابور خامس، وربما كان ذلك ـ فيما يرى سير ليونارد وولي ـ انعكاسًا للكراهية القومية للهكسوس من المحتلين التي رأت في العبرانيين ظلاً لهم[٣].

(١) I. EPstein, Judaism, p. 15.

(٢) حسن ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة ١٩٧١م، ص ٤.

(٣) L. Woolley, op.cit., p. 495.

هذا فضلا عن أن الشعب المصرى لم يكن ينظر بارتياح إلى الإسرائيليين منذ أول يوم عرفهم فيه[1]، ثم تحول هذا الشعور إلى كره ومقت حين رآهم أجراء أذلا يستخدمهم الهكسوس الغزاة فى أعمالهم، ثم تحولت هذه الكراهية إلى احتقار وازدراء حين رأى فيهم مجموعة من الفصائل تجمع كل أنواع الرذائل فاعتزلهم المصريون، بخاصة وأنهم كانوا منذ البداءة يعتبرون الأكل معهم نجاسة، ثم رحل الغزاة من أرض مصر، فبقى هؤلاء الأذناب ليلعبوا دور الذئاب، وكان من رعمسيس ما كان مع هؤلاء الجواسيس[2].

وهنا لنا أن نتساءل هل كان هناك حقًا استعباد من المصريين للإسرائيليين؟ أم أن الأمر لا يعدو أن الإسرائيليين قد اعتادوا الدعة والرخاء منذ أيام يوسف، فلما تغيرت الحال نوعًا، ورأى الفراعين ضرورة اشتراك اليهود فيما كان يبذل فى البلاد من جهود نحو التنمية فى الزراعة، وأعمال البناء وتشييد التماثيل والمعابد وما إلى ذلك، عدوا ذلك عنتًا لا يطيقون احتماله وبدأوا يتذمرون[3].

وإذا ما أردنا أن نصل إلى الحقيقة، أو حتى أن نقترب منها، فعلينا أن نتذكر أن مصر، إحدى الدول التى لم تعرف السخرة والاستعباد قبل عهد الدولة الحديثة، حين كان الأسرى يدفعون إلى العمل فيستعبدون عن هذا الطريق، ولم يقل أحد من العلماء أن الإسرائيليين دخلوا مصر كأسرى حرب، ومن ثم استعبدهم المصريون، هذا فضلا عن أن التوراة إنما تذكر صراحة أن الفرعون إنما كان ينظر إليهم - حتى فى أوقات الشغب - وكأنهم من الشعب وليسوا مجموعة من العبيد - أو حتى المستعبدين - تقول التوراة: «فقال لهما ملك مصر: لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب عن

(١) تكوين ٤٣: ٣٢. (٢) عبد الرحيم فوده، من معانى القرآن، ص١٧٧-١٧٨.

(٣) صبرى جرجس، التراث اليهودى الصهيونى، القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٥.

أعمال[١]»، بل إن القرآن الكريم إنما يقدم لنا الإسرائيليين على أنهم قد أصبحوا جزءاً من رعية فرعون، أو طائفة منهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾[٢].

بل إننا - حتى لو افترضنا جدلا - أن المصريين قد استعبدوهم بعد طرد الهكسوس، فإن العمال - سواء كانوا يعملون فى المقابر أو المحاجر الملكية، أو كانوا يعملون فى تشييد المدن - إنما كانوا يعاملون معاملة طيبة، ويمنحون المكافآت فى الأوقات المناسبة، وأنهم كانوا يتمتعون بفترات راحة رسمية، كانت تقع فى اليوم العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر، كما كانوا يمنحون إجازات فى المناسبات الخاصة بالأعياد الكبرى للآلهة الرسمية كانت كثيراً ما تصل إلى أيام متتالية[٣]، كما كان بعضهم يتخلفون عن العمل لأسباب مختلفة كالمرض وتقديم القرابين للإله، كما كان انحراف مزاج الزوجة أو الابنة كافياً - وإن كان غريباً - يسوغ أحياناً التخلف عن العمل[٤].

ومن ثم فقد رأينا بعض الفراعين يفخرون بأنهم إنما يعاملون عمالهم برفق وسخاء، فها هو «سيتى الأول» يحدثنا أن الواحد من عماله، إنما كان يتقاضى أربعة أرطال من الخبز، وحزمتين من الخضروات، وقطعة من اللحم المشوى كل يوم، وثوباً من الكتان النظيف مرتين كل شهر»[٥]، وفى الواقع

(١) خروج ٥: ٤.

(٢) سورة القصص، آية: ٤.

(٣) J. Cerny, Egypt from the Death of Ramesses III, to the End of the Twenty First Dynasty, Cambridge 1965 p. 18.

(٤) إرمان، رانكه، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٢٤.

(٥) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, IV, Chicago, 1907, p. 414.

أنه لو كان ما يقوله «سيتي» صحيحاً. لكان عماله يعيشون في مستوى يقارب مستوى العمال في العصر الحديث، وفي أكثر البلاد تقدماً، فإذا أضفنا إلى ذلك أن «سيتي الأول» هذا، أو ابنه رعمسيس الثاني، هما اللذان تدور حولهما روايات التوراة عن السخرة، وبناء مدينتي «فيثوم ورعمسيس»، لتبين لنا مدى ما في رواية التوراة من مجافاة للحقيقة.

ولعلنا نستخلص الدليل على حسن معاملة الفراعين للعمال من بني إسرائيل من توراة بني إسرائيل نفسها، ذلك أننا نقرأ في سفر الخروج بأن الإسرائيليين قد ثاروا على موسى، ولما يمض شهر ونصف الشهر على خروجهم من مصر، بعد أن أفقدهم موسى حياة الرخاء في مصر، وجاء بهم إلى البرية[1]، ثم سرعان ما تمضى فترة فتعود الثورة ويشتد الحنين إلى مصر، ومن ثم نقرأ في سفر العدد: «فعاد بنو إسرائيل أيضاً، وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً، قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله في مصر مجاناً، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم»[2]، بل إن التوراة في سفر الخروج إنما تؤكد أن الإسرائيليين إنما كانوا يعارضون في الخروج من مصر منذ بادئ الأمر، تقول التوراة ـ على لسان الإسرائيليين ـ «ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به في مصر قائلين: كف عنا فنخدم المصريين»[3].

وهكذا يبدو لي أن الأمر لم يكن بالصورة التي قدمتها التوراة، وأن الإسرائيليين لم يكونوا عبيداً مسخرين في مصر، وإنما كانوا قوماً طفيليين اعتادوا حياة الدعة والرخاء في ظل رعاية الهكسوس وإيثارهم على الوطنيين، وحين ولى ذلك كله، وتحررت البلاد من نير الهكسوس، وأراد الفراعين

---

(١) خروج ١٦ : ٢.

(٢) عدد ١١ : ٤-٦.

(٣) خروج ١٤ : ١١-١٢٢.

إعادة الدولة المصرية إلى ما كانت عليه من مجد وسؤدد، فكان لزامًا عليهم الاهتمام بزراعتها وإعادة ما تهدم من منشآتها، وهنا كان على القاطنين بأرض الكنانة، الإسهام في هذا الجهد العظيم، فطلب أولو الأمر من بني إسرائيل أن يشاركوا في ذلك كله، لا أن يكون عملهم مقصوراً على رعاية المواشي والأغنام، وهو أمر يعود عليهم بالنفع وحدهم.

وهنا غضب الإسرائيليون لأنهم ما تعودوا أن يشاركوا بجهد في إقامة الدولة من كبوتها، ولأنهم سوف يفقدون امتيازاتهم القديمة، وربما فكروا في العمل ضد الدولة، أو أن الدولة نفسها كانت تخشى ـ كما تقول التوراة[1] ـ أن يتآمر بنو إسرائيل ضدها في محاولة للانتكاس، بل إن بعض الباحثين إنما يذهب إلى أن شعب مصر إنما كان قد اكتشف فعلا أن بني إسرائيل يتآمرون عليه[2].

وعلى أي حال، فلو اتفقنا مع الآراء التي تنادي بأن فرعون التسخير، إنما كان «رعمسيس الثاني»[3] ـ أو حتى أبوه «سيتي الأول» لرأينا أن ظروف البلاد إنما كانت تستدعي وقت ذاك الحذر والحيطة من الأخطار الخارجية التي كانت تهددها، ولم يكن لرعمسيس الثاني ـ أو أبوه ـ بداهة أن يفاجئ الناس ـ على غير علة ولا سبب ـ بتلك السياسة، عن مجرد مزاج مال به إليها، وشهوة إلى الدم عصفت به في قوم أبرياء وإنما لا بد وأن تكون هناك أسباب تستدعي كل هذا العنف، وتلك القوة القاسية.

كان عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) ـ وكذا عهد أبيه سيتي الأول (١٣٠٩-١٢٩١ق.م) من قبل ـ قد تميز بالحرب الضروس التي اشتعل أوارها بين القوتين الأعظم في ذلك الوقت، وأعني بها القوة

(١) خروج ١: ١٠.

(٢) سليمان مظهر، قصة العقائد، ص ٢٨٣.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ٩٢٣/٢. وانظر: M.Noth, op.cit., p. 120, 134.

E. Naville, The Archaeology of the Old Testament, p. 39; J. FInegan, op.cit., p. 120, 134.

المصرية والقوة الحيثية، فالتاريخ يحدثنا أن الحيثين كانوا من وراء الثورات التى شبت فى إمبراطورية مصر الآسيوية على أيام إخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ق.م)، حتى قضوا - أو كادوا - على النفوذ المصرى فى غربى آسيا[١]، حتى إذا ما كانت أيام «حور محب» (١٣٣٥-١٣٠٨ق.م) بدأت مصر تستعيد قوتها، وتنازع الحيثين سلطانهم الذى اكتسبوه فى غيبة الإمبراطورية المصرية، بل إن الرجل إنما أحرز انتصاراً عليهم حتى قبل توليته عرش الكنانة[٢].

على أن «سيتى الأول» إنما كان حقًا هو الفرعون الذى قام بالمحاولة الجادة لاسترداد الإمبراطورية المفقودة فى آسيا، ووضع حد لنزوات البدو الذين كانوا يهددون الحدود الفلسطينية من الشرق، فيقوم بحملات ثلاث ينجح فيها فى إخضاع كل بلاد فلسطين، وجانب من سورية، ثم يستمر فى تقدمه شمالا، حتى إذا ما كانت الحملة الرابعة تحدث المواجهة المباشرة بينه وبين الحيثيين فى مكان ما إلى الشمال من مدينة قادش، وطبقًا لنصوص الكرنك، فقد كتب النصر للفرعون، فضلا عما استطاع الحصول عليه من الغنائم والأسرى، إلى جانب إجبار الحيثيين على العودة إلى بلادهم[٣].

---

(١) O.R. Gurney, The Hittites, (Penguin Books), 1969, p. 51.

وكذا: S.A.B. Mercer, The Tell-el Amarna Tablest, I, p. 215, 417-21, II, p. 238, 529F.

(٢) انظر: ديروتون، فانديه، مصر، ترجمة عباس بيومى، القاهرة ١٩٥٠، ص ٤٦٦-٤٦٧، محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٢٢٩-٢٣٠. وكذا:

J.H. Breasted, A History of Egypt, N.Y., 1946, p. 40; A.H. Gardiner, The Mephite Tomb of the General Haremhab, JEA, 39, 1951, p. 4.

(٣) انظر: محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٢٣٠-٢٣٢.

J. Wilson, in ANET, 1966, p. 254; R.O.Faulkner, The Wars of Sethos, I, in JEA, 33, 1947, p. 37-38; R.O. Falulkner, in CAH, II, part 2, Cambridge, 1975, p. 218-221; A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxfrod, 1964, 164, p. 253-254.

ويخلف «رعمسيس الثانى» أباه «سيتى الأول» على عرش الكنانة فى عام ١٢٩٠ق.م، ويبدأ حكمه بأن يوجه كل جهوده فى متابعة الانتصارات التى حققها أبوه فى فلسطين ومدها نحو الشمال، إلى سورية، وهنا تحدث مواجهة أخرى بين المصريين والحيثيين على أرض قادش[1]، حيث كانت معركتها المشهور فى السنة الخامسة من عهد رعمسيس الثانى (حوالى عام ١٢٨٥ق.م)، والتى انتهت بنصر غير مؤزر للمصريين، مما اضطر الفرعون إلى العودة إلى النضال ثانية فى عام حكمه الثامن (حوالى عام ١٢٨٢ق.م) ضد أعدائه فى الأرض الأسيوية، ويكتب له هذه المرة نجحاً بعيد المدى فى إخضاع المدن الثائرة من جنوب فلسطين حتى شمال سورية، ثم يتقدم حتى بلاد النهرين، ويوقع بالحيثيين هزيمة ثانية فى «تونب»، وهكذا ينجح

(١) قادش، بلد تقع على نهر الأورنت (العاصى) فى مكان «تل نبى مند»، على الشاطئ الأيسر لنهر العاصى، داخل الزاوية المكونة من التقاء العاصى بنهر الموقادية الصغير من ناحية الغرب، وعلى بعدة بضعة أميال جنوبى النهاية الجنوبية لبحيرة حمص، وكانت قادش تدعى فى حوليات تحوتمس الثالث «قدشو» وفى رسائل العمارنة «كنزا» أو «كدش» وفى بعض الحالات «كدشو»، «جيزا» ، وربما كان «إدوارد ماير» مصيباً فى ظنه أن الاسمين مختلفان حقيقة، فالأول هو الاسم الحقيقى، والثانى اسم بمعنى «المحراب» من الأصل السامى «قدش» أى مقدس، ويبدو أن المدينة قد خربت بعد المعركة الطاحنة بين رعمسيس الثانى ومواتيلا ملك الحيثيين، ثم جددت بعد ذلك عدة مرات، ربما كان آخرها فى العصر الرومانى وترجع أهمية قادش من الناحية الاستراتيجية أنها تقع فى النهاية الشمالية لوادى البقاع، ومن ثم فقد كان لزاماً على الجيوش المتجهة شمالا أو جنوباً أن تمر بها، إلا إذا فضلت السير على الساحل الضيق بطريق أرواد أو أوجاريت.

وأما قدش أو قادش المذكورتان فى التوراة فهما مكانان فى جنوب فلسطين (غير قادش الأورنت)، فأما الأولى: فهى قادس برنيع، والتى يرجح أنها على مبعدة ٥٠ ميلا جنوبى بئر سبع، ٧٠ ميلا جنوبى حبرون (الخليل)، وأما الثانية فهى مكان قرية قدس الحالية على مبعدة عشرة أميال شمالى صفد، وأربعة أميال إلى الشمال الغربى بحيرة الحولة (انظر قاموس الكتاب المقدس ٢/٧٠٨-٧٠٩). وكذا:

A. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, p. 137-141.

M.F. Unger, op.cit., p. 625; J. H. Breasted, The Battle of Kadesh, Chicago, 1903, p. 13.

رعمسيس الثانى فى أن يستعيد الإمبراطورية المصرية فى آسيا، وفى أن يسجل اسمه كأحد الفراعين المحاربين، الذين أفنوا عمرهم فى الحفاظ على الإمبراطورية المصرية التى ورثوها عن فرعون مصر العظيم «تحوتمس الثالث»، كما كانت الحملة درساً قاسياً للحيثيين أجبرهم على احترام السيادة المصرية فى آسيا، وعدم التدخل فى شئون الولايات المصرية هناك[١].

هذه هى الظروف التى كانت تمر بها مصر فى تلك الفترة التى تحدثت التوراة عن استعباد الإسرائيليين فى مصر إبانها، ولعل أى منصف ليرى أن الفرعون ما كان فى استطاعته أن يترك البلاد تحت رحمة الدسائس الإسرائيلية، وأغلب الظن أن رعمسيس إنما حارد بنى إسرائيل بدخل أوغر صدره عليهم، وثقة مفقودة ربما افتقدها عندهم فى حروبه ضد الحيثيين، ولعله وجد فيهم ما لم يتعففوا عنه من خيانة وتجارة بولائهم للغالب فى ظنهم من المتنازعين، وما كان من حق الفرعون أن يترك طائفة من الناس ـ أيًا كانت ـ تنعم بخيرات الكنانة ودون أن تؤدى عملا يتفق وظروف الحرب هذه، فضلا عن الخيانة والتجسس، بخاصة وأن الإسرائيليين كانوا يسكنون فى منطقة الحدود الشرقية، وهى التى اضطر رعمسيس تحت ضغط الظروف أن ينقل إليها عاصمته، لتكون فى مكان وسط بين مملكته فى مصر وأملاكها فى أسيا، ومن ثم يصبح على مقربة من الأحداث التى كانت تدور وقت ذاك فى أملاك مصر الأسيوية، أضف إلى ذلك كله أن الإسرائيليين إنما كانوا يرتبطون بفلسطين بالذات بالأساطير التى تجعلها «أرض الميعاد»،

---

(١) محمد بيومى مهران، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٧٧-٩٣ (رسالة دكتوراه)، وانظر: ANET, p. 265 ؛ وكذا:

A. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, Oxfrod, 1966, p. 7-9.
H. Goedicke, Consideration on the Battle of Kadesh, JEA, 52, 1966, p. 72-97;
R.O.Faulkner, in CAH, II, part 2, Cambridge 1975, p. 220-230; A. Buren, Some Notes on the Battle of Kadesh, JEA, 7, 1921, p. 194-195.

فضلا عن أنهم قدموا إلى مصر منها كذلك، ومن هنا كان خوف الفرعون من أن يكونوا جواسيس عليه، لمصلحة أعدائه من الأمراء الأسيويين، فضلا عن الحيثيين.

وانطلاقًا من هذا كله، كان أمر فرعون أن يعمل عبيده الإسرائيليين فى بناء المدن الجديدة ـ مكرهين كانوا أم راغبين ـ بل وتحت إشراف رؤساء مصريين، ولم يكن فى هذا الأمر شيء من تعنت أو شذوذ ـ فيما أظن ـ فالفرعون أراد بوضعهم تحت إشراف المصريين أن يكون فى مأمن من جانبهم، وحتى لا يصاب بضربة خيانة منهم، فى وقت هو فى أشد الحاجة إلى من يؤمن له ظهره إبان قتاله المرير ضد الحيثيين، وضد الأمراء الأسيويين هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن هذه الشوامخ الراسيات على أرض الكنانة قد قام بها من قبل مصريون، فما الغريب فى الأمر، أن يسهم بنو إسرائيل فى بناء مدينتى «فيثوم ورعمسيس» ـ وهما المدينتان اللتان شيدهما رعمسيس الثانى فى نفس المنطقة التى يقيم فيها الإسرائيليون ـ وهو إسهام لم يتجاوز صنع قوالب من اللبن تستخدم فى بناء المدن، بل إنه فى أشد حالات قسوته ـ كما تصوره التوراة [١] ـ أن يجمع الإسرائيليون التبن الذى يستخدمونه فى صنع اللبن بأنفسهم من القرى المصرية، بعد أن كان المشرفون عليهم هم الذين يقومون بجمعه.

هذا هو العمل القاسى الذى كلف به الإسرائيليون، إسهام فى بناء بعض مدن الدلتا، والحق أنه ما كان من المنطق، وما كان من العدل، أن يعمل المصريون ـ فضلا عن الأسرى الأسيويين [٢] ـ فى الحقول، وفى بناء

---

(١) خروج ١: ١٨-١٤، ٥: ٦-١١.

(٢) انظر عن استخدام الأسرى فى المبانى: J.H. Breasted, ARE III, No. 498.

وكذا:

Barsanti et Gauthier, Steles Trouvees a Quadi ES Seboua (nubi) ASAE, XI, 1911, p. 84.

المدن وتشييد المحاريب والتماثيل، ثم يخوض أشبال الكنانة وأسودها بعد ذلك المعارك الضارية، يقتلون ويُقتلون، بينما يظل الإسرائيليون ـ ماشاء الله لهم أن يظلوا – عالة على البلاد التى استضافتهم نيفًا وأربعة قرون، منذ أن وصلوا إليها لاجئين، يطلبنو الرزق، ويلتمسون وسائل العيش الناعم، والحياة السهلة الرضية بين أهلها الكرام أبداً، دون أن يقوموا بأى عمل، إلا رعى أغنامهم، بل وحتى دون أن يقدموا لأهلها جزاءً ولا شكوراً.

والرأى عندى، أنه حتى هذه المرحلة، لم يكن هناك تعذيب للإسرائيليين قد بدأ بعد، وإنما العذاب المهين قد بدأ، حين «أمر فرعون جميع شعبه قائلا: كل ابن يولد تطرحونه فى النهر، لكن كل بنت تستحيونها[1]»، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فرعونَ علا فى الأرضِ وجعلَ أهلهَا شيعًا يستضعف طائفةً منهم يُذَبِّح أبناءهم ويستحيى نساءَهم﴾[2]، ويقول: ﴿وإذْ نجّيناكم مِنْ آلِ فرعونَ يسومونكم سوءَ العذاب يذبّحون أبناءكم ويستحيونَ نساءكم وفى ذلكم بلاء مِن ربّكم عظيمٌ﴾[3].

وسؤال البداهة الآن: لم تغيير الحال إلى هذا المصير الأليم؟ ولم أذاق فرعون بنى إسرائيل العذاب المهين؟

(١) خروج ١ : ٢٢.

(٢) سورة القصص، آية: ٤؛ وانظر: تفسير روح المعانى، ٢٠/٤٢-٤٤؛ فى ظلال القرآن، ٢٠/٢٦٧٦؛ تفسير ابن كثير، ٣/٣٧٩-٣٨٠ (دار إحياء التراث العربى، بيروت)؛ تفسير القرطبى، ص ٤٩٦٣-٤٩٦٥.

(٣) سورة البقرة، آية : ٤٩؛ وانظر: تفسير روح المعانى ١/٢٥٣-٢٥٤؛ تفسير الكشاف ١/١٢٧-١٣٨؛ تفسير الطبرى ٢/٣٦-٣٩ (دار المعارف)؛ تفسير النسفى ١/٤٩؛ تفسير القرطبى ٣٢٥-٣٣٠؛ تفسير الطبرسى ٣/٢٣١-٢٣٥؛ التفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية ١/٩٨-١٠٠؛ تفسير البحر المحيط ١/١٨٧-١٨٨؛ تفسير المنار ١/٣٠٨-٣١٣؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١/٦٨-٦٩ (طهران ١٣٧٧هـ)؛ فى ظلال القرآن ١/٧٠-٧٢؛ تفسير ابن كثير ١/١٢٨-١٣٠ (القاهرة ١٩٧١)؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ١/٥٩-٦١ (للشيخ طنطاوى جوهرى).

إن الإسرائيليين ـ كما هو معروف ـ لم يكونوا أول الشعوب الآسيوية التى استضافتها مصر، ولم يكونوا كذلك آخرها، وبخاصة إذا أرخنا مرحلة الاضطهاد هذه بعصر رعمسيس الثانى، فإننا نعلم أن عاصمه التى سخر الإسرائيليين فى بنائها، طبقًا لرواية التوراة، مثل سائر المدن الكبرى فى مصر حيث كان يخالط المصريون الليبيين والزنوج والآسيويين، ولاشك فى أن موقع العاصمة الجديدة بين مصر وأقاليم الشرق جعل الوفود تقصدها، فظهر الغرباء فى بعض وظائف الدولة، وامتلأت لغة المصريين بكلمات أسيوية سامية وردت كثيراً فى الأدب المصرى، وبخاصة فى القرن الثالث عشر ق.م. وكان ازدواج اللغة واضحًا فى عاصمة الرعامسة، هذا فضلا عن أن الآلهة الكنعانية قد مثلت فى مجمع الآلهة المصرى، كذلك شاعت بين المصريين بعض العادات السامية، بل أصبح للغرباء فى العاصمة أحياء خاصة، كما أصبح لغير المصريين من جندها ثكنات خاصة بهم فى قلبها وفى ضواحيها[١].

وإذا كان ذلك كذلك، فلم حاق الإسرائيليون بغضب فرعون دون سواهم من ضيوف مصر وأسراها؟

وهنا علينا أن نبحث عن سبب مقنع لهذا التحول الخطير فى حياة الإسرائيليين فى مصر، وليس هذا السبب ـ بحال من الأحوال ـ ما ترويه الأساطير من أن الإسرائيليين قد أذاعوا بين الناس ـ أو أن الكهنة المصريين قد تنبأوا ـ بأنه سيولد من بنى إسرائيل من سيكون على يديه زوال فرعون وضياع ملكه[٢]، فلعمرى إنما تلك روايات رأينا مثلها عن إبراهيم

(١) بيير مونتيه، الحياة اليومية فى مصر فى عصر الرعامسة، ترجمة عزيز مرقس منصور، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٩-٢٠؛ وانظر:

W.F. Albright, The Biblical Period from Abraham to Ezra, N.Y., 1963, p. 14.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢٧/١-٢٣٨؛ قصص الأنبياء ٤/٢-٥؛ تاريخ الطبرى ٣٨٦/١-٣٨٨؛ تاريخ اليعقوبى ٣٣/١؛ مروج الذهب ٦١/١.

الخليل[١] وعن المسيح[٢]، عليهما السلام، فضلا عن تلك التي دارت حول «زرادشت»[٣].

ومن هنا، فليس أمامنا سوى أن نفترض أن أمراً قد حدث من الإسرائيليين الذين ساءهم ما كانوا به من عمل في مدينتي فيثوم ورعمسيس، فعصف ذلك الأمر بالبقية الباقية من صبر فرعون، وإن كنا لا ندري على التحقيق ما هو هذا الأمر، فربما كان خيانة، وربما كان بداية تمرد، أو على الأقل، فإن الإسرائيليين ربما بدأوا يوجهون حرباً نفسية لخلخلة الرأي العام المصري - إن صح هذا التعبير - وبخاصة في منطقة شرق الدلتا، التي كانت تعج بالأجانب من كل جنس، إن لم يكونوا قد قاموا بالاتصال بالعدو الأسيوي، والقوات المصرية في حالة نزال معه على الأرض الأسيوية نفسها، وربما اكتشف المصريون ذلك بعد عودة قواتهم من معركة قادش المشهورة، أو ربما كان ذلك بعد حملة العام الثامن التي قضى فيها رعمسيس الثاني على أعدائه - سواء أكانوا من الأمراء الآسيويين الثائرين، أو من الملوك الحيثيين الطامعين - ذلك لأننا نميل أن ما حدث إنما كان بعد هذه الحملة الأخيرة، حيث أن الفترة ما بين معركة قادش في السنة الخامسة من حكم رعمسيس الثاني (حوالي عام ١٢٨٥ق.م)، وبين حملة العام الثامن (حوالي عام ١٢٨٢ق.م) إنما تميزت باندلاع الثورة في كل فلسطين بتحريض من الحيثيين، وربما بدسائس الإسرائيليين كذلك.

ومن هنا فقد عاد رعمسيس من حملته هذه، وفي غضب من أحس أنه طعن من وراء ظهره ممن أوتهم مصر بعد تشرد، وأطعمتهم بعد جوع،

---

(١) تاريخ الطبري ٢٣٤/١-٢٣٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٩٤/١-٩٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية ١٤٨/١؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ١٣/١.

(٢) متى ٢: ١-٢٣.

(٣) علي عبد الواحد وافي، الأسفار المقدسة، ص ١٢٩-١٣٠.

فكان العذاب الأليم صبّه فرعون، دونما رحمة أو شفقة، على الإسرائيليين، حيث أمر بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم، وفى هذه الأيام العصيبة ولد لبنى إسرائيل أمل جديد ذلكم هو «موسى بن عمران» بن قاهت بن لاوى بن يعقوب عليه السلام.

ويعلق أحد علماء المسلمين الأجلاء على هذه الأحداث، وعلى موقف فرعون منها، فيرى فضيلته: أن فرعون كان عظيمًا وكريمًا فى موقفه من بنى إسرائيل ثم يتساءل فضيلته: ماذا يفعل أى حاكم - عادل أو ظالم - فى قوم دخلاء غرباء وجدوا فى بلاده المرعى الخصيب، والعيش الرطب، والضيافة الكريمة، على الرغم من أن أهلها يكرهونهم، ثم وجدهم بعد ذلك، وبعد طول الإقامة فى بلاده خونةوجواسيس، ومثار فتن ودسائس وأذنابًا لأعدائه، يعملون على هدم وطنه واستعباد أهله.

وحين سئل فضيلته: أيقتل أطفالهم، ويستحيى نساءهم، ويسخرهم فى تعبيد الطرق، وبناء المدن، كما فعل فرعون؟

أجاب فضيلته: وهل هذا يعد شيئًا إذا قيس بما وقع عليهم من «نبوخذنصر» (٦٠٥-٥٦٢ق.م) و« أدولف هتلر» (١٨٨٩-١٩٤٥م)، وأباطرة الرومان، وما عانوه من المذابح التى أكلت نساءهم وأطفالهم فى روسيا وأسبانيا، وفى كل مكان كان لهم فيه كيان؟

إن هؤلاء كانوا وراء كل فتنة عامة، وخلف كل محنة إنسانية فى كل عصر، ولم يكن هلاك فرعون تكريمًا لهؤلاء الذين يقول الله فيهم ﴿ملعونين أينما ثُقفوا﴾ وإنما كان انتقامًا من فرعون لتكبيره وتجبره وما آل إليه أمره من الطغيان، حتى انتهى به إلى الكفر، والإصرار على الكفر[١]، وقال ﴿يا أيها الملأ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيرى﴾[٢]، وقوله لموسى: ﴿لئنْ اتخذتَ إلهًا

(١) عبد الرحيم فوده، من معانى القرآن، ص ١٩٢ -١٩٣
(٢) سورة القصص، آية ٣٨٠

غيرى لأجعلنّكَ من المسْجُونين﴾[١]، وقوله ﴿فحشَر فنادى فقال أنَا ربُّكم الأعْلَى﴾[٢]، وكذلك جاء بعد هذه الآية قوله تعالى ﴿فأخذه الله نَكَالَ الآخِرة والأولى، إنّ فى ذلك لعبرةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[٣]، وهذا التعليل للغرق هو الذى تذكره الآية الكريمة ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهُم فى اليَم بأنهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾[٤]، وأخيراً فإن النقيصة التى أُخذت على فرعون إنما كانت اندفاعه فى العذاب وإسرافه فى القتل للمذنب وغير المذنب على السواء[٥].

---

(١) سورة الشعراء، آية : ٢٩

(٢) سورة النازعات، آية ٢٢-٢٤

(٣) سورة النازعات، آية ٢٥-٢٦

(٤) سورة الأعراف، آية ١٣٦

(٥) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٨٧

الباب الرابع
الخـــــروج والتيـــــه

الفصل الأول
موسى : الرسول النبىّ

(١) موسى : فى قصر فرعون:

فى فترة الاضطرابات العصبية التى سلط الله فيها فرعون على بنى إسرائيل، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، فى هذه الظروف القاسية، ولد موسى، عليه السلام، وكان أصغر أولاد أبيه، وثالث ثلاثة: مريم البكر، وهارون الثانى، فأخفته أمه عن العيون حينًا من الدهر قدرته التوراة بثلاثة أشهر[١]، ولكن سرعان ما خشيت أن يفتضح أمرها، بل وكادت تبدى به لولا أن ربط الله على قلبها، ففزعت إلى اللهمّا تخشى على وليدها من بطش فرعون، فأوحى إليها ربُّها: ﴿أن أَرْضِعيه فإذا خفْتِ عليه فألقيه فى اليّمِ[٢] ولا تخافى ولاتحزَنِى إنّا رادوه إليكِ وجَاعلوه من المرسَلين﴾[٣]

وشاءت إرادة الله ـ ولا راد لمشيئته ـ أن تلقى بالتابوت ومن فيه إلى جوار قصر فرعون، فيقع موسى من قلب امرأة فرعون، موقع الحب والحدب والإشفاق، بلِ إنها لتقول لفرعون: ﴿قُرَةَ عينٍ لى ولَكَ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتّخذَه ولَدًا﴾[٤]، ويقتنع سيد البلاد بمقالة زوجه، فلا يقتل الطفل النبىّ[٥].

---

(١) خروج ٢ : ٢.

(٢) أليم: فى اللغة العربية البحر أو النهر، وهوكذلك فى اللغة المصرية القديمة، إذ «اليم» لفظة سامية عرفت فى المصرية منذ الأسرة الثامنة عشرة، حوالى القرن السادس عشر ق م، وكان المصريون يطلقون على البحر والنهر وما اتسع من لج الماء ، لفظة «اليم»، ومنه جاء اسم منخفض الفيوم بعد إضافة فاء التعريف المصرية إليه. على أن الذى يستوقف النظر هنا أن اللفظ ورد فى القرآن الكريم ثمان مرات (الأعراف ١٣٦، طه ٢٩، ٣٩، ٧٨، ٩٧، القصص ٧، ٤٠، الذاريات ٤٠) لم يذكر فى أحد ما غير ما يخص مصر ، ليس غير، حيث ذكر بمفهوم النيل ثلاثًا، وأطلق على البحر الذى غرق فيه فرعون خمسًا، فكأنما يشير القرآن إلى موضع معلوم، كما يدعوه أهله باسمه المعلوم (أحمد عبد الحميد يوسف، مصر فى القرآن والسنة، القاهرة ١٩٧٣، ص ٨٧)

(٣) سورة القصص ، آية : ٧؛ وانظر: خروج ١ : ٤. (٤) سورة القصص، آية : ٩

(٥) انظر: خروج ٢ : ٥-٦.

وهنا ظنت أم موسى أنها أوقعت وليدها بنفسها فى عرين الأسد، حيث وقع موسى بين يدى عدوه وعدوها، الذى حرصت على أن تباعد بينه وبين ابنها، ورضيت فى سبيل استنقاذه منه أن يبتعد عنها إلى حين، ﴿وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسَى فارغًا، إنْ كادَتْ لتُبْدى به لولا أن ربَطْنَا على قلبها لتكونَ من المؤمنين، وقالت لأخته، قُصيِّه، فبَصرتْ به عن جُنبٍ وهُمْ لا يشعرونَ﴾[1]، ولكن لله حكمة هو مبديها، وأمراً هو بالغه، فيحميه ويضمن له الحماية ويكفل له التربية الكريمة الناعمة، والتعليم الناضج الذى يؤهله لقيادة شعب تعوزه القيادة، ويؤهله لتعليم أمة أعماها الجهل، لحمل رسالة التوحيد، يحميه بالحب الذى يطغى على كوامن الشر وغوائل الحقد[2].

ويأتى آل فرعون لموسى بالمراضع فيعافهن جميعًا، وهنا تتقدم أخته، فتعرض على آل فرعون أن تدعو لهم امرأة عبرانية ترضعه وتكفله، وأن تكون له ناصحة مشفقة، ويقبل آل فرعون عرضها، ويبعثوا بها فى طلب الظئر، وسرعان ما تجىء بأمها، دون أن تشعرهم بأن أمها أمه وأنه أخوها، ويقبل موسى على ثدى أمه، ويعيش معها فترة حضانته[3]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وحرَّمْنَا عليه المَرَاضِعَ مِنْ قبلُ فقالتْ: هلْ أدلُّكُم على أهل بيتٍ يَكْفُلُونَهُ لكم وهُمْ له ناصحونَ، فرددناه إلى أمِّه كى تقرَّ عينها ولا تحزنَ ولتعلمَ أنَّ وعدَ الله حقٌّ، ولَكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمونَ﴾[4]

ولعل فى هذا ما يشير إلى أن حال بنى إسرائيل فى مصر لم يكن شراً كله، ولا نكراً، إن أبدوا استعداداً للعيش فى المجتمع والتعاون بين بنيه، وقد كانوا كما قال سبحانه وتعالى ﴿طائفةً منهم﴾[5]،ولم يكونوا بالطائفة المنبوذة

---

(١) سورة القصص، آية : ١٠-١١.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٨٩.

(٣) خروج ٢ : ٧-١٠.

(٤) سورة القصص، آية : ١٢-١٣.

(٥) سورة القصص، آية : ٤.

التى لا يتعامل معه الناس، أو ينفر منها الملوك، بل لقد كان ساقى «مرنبتاح» رجلا يحمل اسمًا لاشك فى صيغته العبرية هو «بن عزين»، وقد روت التوراة من أمر موسى، والتقاطه ما يدل على مكان بنى إسرائيل عامة من المصريين وتسامح المصريين معهم[1].

وأيًا ما كان الأمر، فإن موسى عليه السلام، إنما ينشأ فى القصر الفرعونى، كما ينشأ الأمراء، وما أن يشب عن الطوق، حتى تظهر بوادر ذكائه وقوة شخصيته، فيتعلم القراءة والكتابة والحساب، ونسخ الصحائف على البردى، ويتعلم شيئًا من الفلك والجغرافية، وأطرافًا من التاريخ، ويقرأ من قصص المصريين وآدابهم وحكمهم شيئًا كثيرًا[2]، فضلا عن اتقانه ـ فيما يرى قاموس الكتاب المقدس[3] ـ لكل أسرار الكهنوت المصرى، وكما يقول الإنجيل: «تهذب بكل حكمة المصريين»[4].

وعلى أى حال، فلسنا نعرف من حياة موسى، عليه السلام، منذ مولده حتى صدر شبابه، شيئًا على وجه اليقين، وأكبر الظن أنه تولى منصبًا وتبوأ مكانة فى دولة فرعون،حيث بدأ ـ كما بدأ أترابه ـ كاتبًا، وغير بعيد أن يكون قد التحق، مع من التحق من أمراء البيت المالك، بالجيش[5].

غير أننا نعرف ـ من الكتب المقدسة ـ أن النبىَّ الكريم، إنما كان قد تعرض لمحنة قاسية، انتهت به إلى الخروج من مصر، وفراره من فرعون، ذلك أن الكليم ـ عليه السلام ـ ربما كان خارجًا فى أحد الأيام من قصر

---

(١) انظر: خروج ٢: ٥-١٠؛ أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٩١-٩٢.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٩٢. (٣) قاموس الكتاب المقدس، ٩٣١/٢.

(٤) أعمال الرسل، ٧: ٢٢.

(٥) أحمد يوسف، المرجع السابق، ص ٩٣؛ وانظر:

W.Whiston, The Life and Works of Flavius Josephus, Philadelphia, 1957, p.77, F; Josephus, Book II, Chapter XI.

فرعون، ﴿ودخلَ المدينةَ على حين غفلةٍ[١] منْ أهلهَا، فوجدَ فيها رَجُلَينِ يقتتلانِ، هذا منْ شيعتهِ وهذا منْ عدوِّه، فاستغاثَه الَّذى منْ شيعته على الَّذى منْ عدوِّه، فوكزَه موسى فقضى عليه، قال هذا منْ عملِ الشَّيطانِ إنَّهُ عدوٌّ مضلٌّ مبينٌ، قال ربِّ إنِّى ظلمتُ نفسى فاغفرْ لى، فغفرَ له إنَّه هو الغفور الرحيم، قال ربِّ بمَا أنعمْتَ علىَّ فلَنْ أكونَ ظَهيراً للْمُجْرمينَ﴾[٢]

ولم يكن المجرمون الذين عزم موسى على ألا يظاهرهم ويناصرهم إلا هؤلاء من بنى إسرائيل، وهكذا ندم موسى على أن ظاهر الإسرائيلى ضد المصرى، فكان من نتيجة ذلك أن قتل نفسًا حرَّم الله قتلها، ومن ثم فقد عزم ـ بعد أن تاب وأناب ـ ألا يكون ظهيراً للمجرمين، وهذه العبارة قد يستشف منها أن الكليم، عليه السلام، إنما كان يستخدم نفوذه فى مناصرة بنى إسرائيل، وكف أيدى المصريين عنهم، ويبدو أن شبح القتل إنما كان يلوح أمام عينيه، ويعترض طريقه أينما ذهب، وأن خوف الثأر، أو القصاص، إنما كان يملأ حياته قلقاً وأرقاً[٣].

ومهما يكن من أمر، فسرعان ما يعثر القوم على جثة القتيل، فيطلب أهله من فرعون أن يأخذ لهم القصاص من قاتله، غير أن الفرعون إنما يمهلهم إلى حين، حتى تكشف الشرطة عن الجانى، وتأتى بمن يشهد على أنه القاتل، ويصبح موسى فى المدينة خائفًا يترقب، ويمر بمن استصرخه بالأمسِ، فإذا به يستصرخه ـ مرة أخرى ـ ضد آخر، فيؤنبه موسى على مشاكسته وميله إلى الخصام، ومع ذلك، فما أن همَّ موسى بنصرته، حتى قال: ﴿أتريدَ أن تقتلَنِى كَمَا قتَلْتَ نفسًا بالأمسِ، إنْ تريدَ إلا أنْ تَكونَ جبَّاراً

---

(١) انظر: عن الغفلة هنا: تفسير القرطبى، ص ٤٩٧٦، ثم قارن: أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٩٦.

(٢) سورة القصص، آية: ١٥-١٧.

(٣) عبد الرحيم فوده، من معانى القرآن، ص ١٦٠.

في الأرضِ، وما تريدَ أن تكونَ مِنَ المُصْلِحينَ﴾[١].

وهكذا تورط موسى في قتل موسى ـ عن غير عمد ـ روى الإمام النسفي أن اسمه «فاتون»[٢]، ولا أدرى كيف استقام لمفسرى الإسلام هذا الاسم الذى تدل صيغته المصرية على سند الرواية والتواتر موصول، ذلك أنه اسم مصرى خالص مؤلف من اسم الشمس «اتون»، مع فاء التعريف، وعلى أى حال، فإن موسى إنما يوشك الآن أن يتورط فى محنة جديدة، بسبب ذلك الإسرائيلى الذى استصرخه بالأمس، ويستصرخه اليوم، ومن ثم فقد وصفه الكليم بأنه ﴿غوىٌ مُبين﴾.

وعلى أى حال، فلقد كان من تصرف الإسرائيلى الأحمق، أو هذا الغوىُّ المبين ـ كما وصفه موسى ـ أن شاع الخبر، وأنبئت السلطات المصرية التى ارتاعت، كما ارتاع الناس ـ لما ارتكب موسى من قتل رجل والشروع فى قتل آخر، فكان أن قر الرأى على محاكمته بما ارتكب، والقصاص منه بما جنت يداه، وإن كان موسى قد رأى فى ذلك ظلمًا صارخًا، وافتئاتًا عنيفًا، أن يطلب بقتل خطأ لم يتعمده ولم يرغب فيه، ولكن الذى لاشك فيه أنه قتل، وأن الظواهر وما وقع منه فى اليوم التالى لا تقف إلى جانبه، ومن ثم فقد تحقق موسى أنه مطلوب بدم القتيل، وأدرك ألا مظنة من القصاص، حيث أقبل عليه مصداق ذلك، على لسان بعض المخلصين من المتصلين بولى الأمر[٣]، ﴿وجاءَ رجلٌ مِنْ أَقْصَى المدينة يسعى، قَالَ يا موسَى إنَّ الملأَ يأتمِرُونَ بكَ ليقْتلُوكَ فَاخْرجْ إنِّى لكَ مِنَ النَّاصِحينَ﴾[٤].

وهكذا لم يكد موسى يسمع أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه حتى عزم

(١) سورة القصص، آية : ١٩.

(٢) تفسير النسفى، ٢٢٩/٣، (ط. دار الفكر، بيروت).

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٩٦-٩٨

(٤) سورة القصص، آية: ٢٠.

على التعجيل بالرحيل، ولم يجد مع الخوف فرصة يتزود فيها لهذه الرحلة التى لم يكن يعرف مداها، ولا منتهاها، لقد أوشك القوم أن يحدقوا به، وأن يطبقوا عليه، وأن يفتكوا به، فلا مجال للتفكير فيما وراء ذلك من تعب يضنيه وجوع يذويه، ومسالك يقطعها ومهالك يرجو النجاة منها، كان كل همه أن يفلت بعنقه من هؤلاء الذين يأتمرون به ليقتلوه، فإن أعوزه الدليل بين متاهات السهول والتلال والجبال، فلن يعوزه أن يلتمس فى رحمة الله دليله وسبيله، وإن كمن له الخطر فى كل مكمن ومسكن، فعساه يجد فى عناية الله ملاذه ومعاذه[1].

وهكذا يخرج موسى من مصر هائماً على وجهه فى صحراوات سيناء المقفرة، فاراً مستوحشاً، خائفاً من أن تناله هراوات الشرطة من رجال «المجاى»[2] الأشداء، أو تصل إليه أيدى السلطان، وكانت فى مصر شرطة منظمة يجند رجالها من قبائل «مدجا» الواقعة على مقربة من الجندل الثانى[3].

٢ - موسى فى مدين:

ويكتب للنبىِّ الكريم نجحاً بعيد المدى فى اجتياز القفار، ملتمساً الأمن والسكينة والهدى، حتى يصل إلى مدين، عند خليج العقبة[4]، حيث يجد هناك المأوى والملجأ، وذلك حين يعرض عليه شيخها، ﴿إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ

(١) عبد الرحيم فوده، المرجع السابق، ص ١٦١.

(٢) المجاى: أو المازوى: كلمة كانت تطلق على قبائل قوية اشتهرت بالقيام بالحراسة، وشاع استخدامها فى الشرطة المصرية، إلى درجة أن هذه الكلمة أصبحت تطلق على رجال الشرطة، حتى وإن لم يكونوا من النوبيين بعامة، ومن هذه القبيلة بصفة خاصة والتى كانت تسكن عند الجندل الثانى فى مجاوراته. (محمد بيومى مهران، تاريخ السودان، ص ١٢٥-١٣٠؛ وكذا:

(٣) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 101.

(٤) عن مدين، القبيلة والموقع، انظر : هنا فى هذه الدراسة، الفصل الأول، من الباب الخامس، وكذا الفصل الثامن، «من الجزء الأول» ، من كتابنا «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» .

إِحْدَى ابنَتَيَّ هاتين، على أن تأجُرَنِي ثمانيَ حجَج، فإنْ أتمَمْتَ عشراً فمِنْ عِنْدِكَ وما أريدُ أن أشُقَّ عليكَ، ستجِدُنِي إن شاءَ اللهُ مِنَ الصَّالحين﴾(١)

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن التوراة جد مضطربة فى هذا الشيخ الذى أصهر إليه موسى ـ وكذا فى قبيلته ـ فهو فى سفر الخروج «يثرون» كاهن مديان(٢)، وهو فى سفر العدد «حوباب بن رعوئيل»(٣)، وهو مرة ثالثة فى سفر الخروج كذلك «رعوئيل» نفسه، وهو كاهن مديان كذلك(٤)، بل إن التوراة لا تستقر على رأى واحد بشأن تلك القبيلة التى صاهرها موسى فهى مرة قبيلة مديانية ـ كما رأينا ـ وهى مرة أخرى ـ كما فى سفر القضاة ـ قبيلة قينية(٥)، ثم هى مرة ثالثة ـ فى سفر القضاة كذلك ـ إنما تؤكد أنها قينية (٦)، من خلال قصة «دبورة» ـ قاضية إسرائيل ونبيتها ـ وذلك حين تتعرض التوراة لنسب «حابر القينى» فتقرر أنه من بنى «حوباب حمى موسى»، ومن ثم فربما كان بنو القينى من المديانيين(٧).

وأيًا ما كان الأمر، فلم يكن لموسى من بلد يعرفه ولا وطن يهفو إليه، ويتطلع إلى رؤيته، بعد ذلك المنفى الذى فرض أو قُدِّر عليه، سوى مسقط رأسه فى مصر، وكأنى به يستعجل الأيام كى يعود إلى ذلك البلد الذى ولد فيه ونشأ فى ربوعه، وتنسم هواءه وسعد به، وهو لذلك لم يقطع على نفسه أطول الأجلين حين العهد مع حميه، فأعطى الأمل وخصَّ نفسه بالخيار، أو ترك لها على هواها الخيار(٨).

---

(١) سورة القصص، آية ٢٧؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٤٩٨٧-٤٩٩٥.

(٢) خروج ٣: ١.　　(٣) عدد ١٠: ٢٩.

(٤) خروج ٢: ١٦-١٨.　　(٥) قضاة ١: ١٦.

(٦) قضاة ١٤: ١١.

(٧) J. Hastings, ERE, I, Edinburg, 1908, p. 616; Encyclopaedia Biblica, p. 3080.

(٨) أحمد عبد الحميد يوسف، مصر فى القرآن والسنة، ص ١٠١.

وهكذا يمكث موسى فى مدين سنين عدداً[١]، يرزق فيها بولدين من زوجه «صفورة»[٢]، ثم يعود إلى مصر بعد أن قضى الأجل الذى كان بينه وبين صهره، وبعد أن علم ـ طبقاً لرواية التوراة ـ أن ملك مصر قد مات[٣]، فينبعث الأمل فى نفس الكليم عليه السلام، فى العودة إلى أرض الكنانة، بل إنه يقرر العودة فعلا، وقد «تنهد بنو إسرائيل من العبودية»[٤].

وفى الطريق من مدين إلى مصر، وعند طور سيناء، وفى ليلة مباركة: ﴿نُودِيَ يا موسَى إنِّى أنَا ربُّكَ فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إنَّكَ بالوادى المُقَدَّسِ طوًى، وأنَا اخترْتُكَ فاستمع لِمَا يُوحَى، إنَّنى أنا اللهُ لا إلهَ إلاَّ أنا، فاعبُدْنى وأَقِمْ الصَّلاةَ لذِكْرى﴾[٥]، وهكذا، هناك ـ وفى ذلك الموقف المشهود الذى وقفه موسى فى تلك البقعة المباركة من سيناء ـ اصطفى الله لنفسه موسى، وعهد إليه برسالته إلى فرعون: ﴿إذْهَبْ أنتَ وأخوكَ بآياتى ولا تَنيَا فى ذِكْرى، إذْهَبَا إلى فِرْعونَ إنه طَغَى، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، قالا ربَّنَا إننا نخافُ أن يفْرطَ علينا أو أن يطغى، قال لا تخافا إنَّنى معكما أسمَعُ وأرى، فأتياه فقولا إنَّا رسولا ربِّك فأرسلْ معنا بنى إسرائيلَ ولا تُعذِّبْهم قد جئناكَ بآيةٍ مِنْ ربِّك، والسَّلامُ على مَنْ اتَّبعَ الهُدَى﴾[٦].

وهنا يحس النبىّ الكريم بثقل العبء الذى وقع على كاهله، وقد كان وهو عائد إلى وطنه، يقدر الأمن بعد الخوف، والقرار بعد الفرار، وقد كان

(١) تذهب التقاليد اليهودية والنصرانية إلى أن موسى إنما أقام فى مدين أربعين عاماً (قاموس الكتاب المقدس، ٩٣١/٢؛ شاهين مكاريوس، تاريخ الأمة الإسرائيلية، ص ٤٠؛ أعمال الرسل ٧: ٣٠؛ خروج ٧: ٧).

(٢) خروج ٢: ٢١-٢٢، ١٨: ٣-٤.

(٣) خروج ١: ٢٩.

(٤) خروج ٢: ٢٩.

(٥) سورة طه، آية: ١١-١٤؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٤٢١١-٤٢٢٢ (دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠).

(٦) سورة طه، آية: ٤٢-٤٦؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٤٢٣٨-٤٢٤٣؛ ثم قارن: سفر الخروج ٣: ١-١٠؛ قاموس الكتاب المقدس ٩٣١/٢ (بيروت ١٩٦٧).

حريصًا على ألا يثير عليه السلطان، وقد قتل نفسًا لم ينس أنه مازال يحمل وزرها فى ضميره، وأنه قد خرج من مصر هاربًا من الذين ائتمروا به ليقتلوه، فكيف يعود إلى قبضة الحانقين عليه، المتربصين به، المطالبين بالثأر منه[١] ﴿قال ربِّ إنِّى قتلتُ منهم نفسًا فأخافُ أنْ يَقْتُلُون﴾[٢]، وهنا تبدأ قصة موسى مع فرعون، ثم خروج بنى إسرائيل من مصر.

هذه عجالة نلخص بها قصة سيدنا موسى، عليه السلام، - كما أوردها ربِّى جل جلاله فى القرآن الكريم - وهى لا تختلف كثيرًا فى هذا الجزء عن التوراة - كما رواها الإصحاحان الثالث والرابع من سفر الخروج - إلا فى بعض أمور، منها (أولا) أن القصة كتبت بحيث تتفق والهدف من كتابتها فى كلا الكتابين السماويين، فقصة القرآن - شأنها فى ذلك شأن غيرها من قصص الأنبياء والمرسلين - إنما أنزلت للعظة والعبرة، ولبيان الأسوة الحسنة فى الجهاد فى سبيل الله، ومن ثم فهدفها - كهدف غيرها - ليس التأريخ لها، وإنما عبرًا تفرض الاستفادة بما حلّ بالسابقين[٣]، وأما قصة التوراة فالغرض منها إنما هو تمجيد للإسرائيليين، فضلا عن إباحتها لهم سرقة المصريين.

ومنها (ثانيًا) ترديد التوراة لما سبق أن رددته من قبل - فى سفر التكوين[٤] - عن أسطورة «أرض الميعاد»[٥]، ومنها ثالثًا) الخلاف بين نظرة كل من القرآن الكريم وتوراة اليهود، إلى موسى عليه السلام، فهو فى القرآن

---

(١) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٠٢ ؛ عبد الرحيم فوده، المرجع السابق، ص ١٦٧

(٢) سورة القصص، آية : ٣٣

(٣) قدم المؤلف عن القصة فى القرآن الكريم، دراسة مفصلة فى كتابه «دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ٣/١٣٥-٤٤٧، طبعة بيروت ١٩٨٨، طبعة الإسكندرية ١٩٩٥

(٤) تكوين ١٢ ١-٧، ١٣ ١٤-١٨، ١٥ ٤-٦، ١٨، ١٧ ٤ -٨

(٥) خروج ٢٠٢-٢٢، ٢٥، ٣ ٦ ١٠

الكريم، إنما كان ﴿رسولاً نبيًا﴾[١]، وهو فى التوراة زعيمًا قبليًا، ومنها (رابعًا) أن منقذة موسى فى القرآن الكريم، إنما هى امرأة فرعون[٢]، بينما هى فى التوراة ابنته[٣]، ومنها (خامسًا) أن مدة إقامة موسى فى مدين، إنما هى فى القرآن الكريم، سنون ثمان ـ وربما كانت عشرًا[٤] ـ وهى أربعون فى التقاليد الإسرائيلية، كما رأينا.

ومنها (سادسًا) أن النصح لموسى بالخروج من مصر إنما كان مقصورًا على القرآن الكريم[٥]، دون التوراة[٦]، ومنها (سابعًا) أن القرآن الكريم إنما يحدثنا عن ابنتين لشيخ مدين الكبير[٧]، بينما تحدثنا التوراة عن سبع بنات للرجل، فضلا عن أنها إنما تجعل منه كاهنًا لمدين[٨]، ومنها (ثامنًا) أن القرآن الكريم إنما يصور المصرى الذى قتله موسى، على أنه إنما كان هو والإسرائيلى ـ أو ذلك الذى كان من شيعة موسى ـ يقتتلان [٩]، بينما تصوره التوراة على أنه رجل مصرى كان يضرب رجلا عبرانيًا[١٠].

ومنها (تاسعًا) أن القرآن الكريم لم يذكر لنا اسم ذلك الشيخ الكبير الذى أصهر إليه موسى [١١]، بينما لم تستقر التوراة بشأنه على رأى معين ـ كما أشرنا آنفًا ـ فهو مرة يثرون، ومرة أخرى حوباب بن رعوئيل، وهو مرة

(١) سورة مريم، آية : ٥١.
(٢) سورة القصص، آية : ٩.
(٣) خروج ٢: ٥-١٠.
(٤) سورة القصص، آية : ٢٧؛ وانظر: تفسير القرطبى ص ٤٩٩٦.
(٥) سورة القصص، آية : ٢٠.
(٦) خروج ٢: ١٥.
(٧) سورة القصص، آية : ٢٣-٢٥.
(٨) خروج ٢ : ١٦.
(٩) سورة القصص، آية : ١٥.
(١٠) خروج ٢: ١١.
(١١) المشهور عند كثير من علماء التفسير أنه «شعيب» عليه السلام، وقد ذكر جماعة أنه ابن أخى شعيب، وأن اسمه يثرون أو يثرى، وقال غيرهم أنه رجل مؤمن من قوم شعيب، وعلى أى حال، فأرجح الآراء أنه نبىّ الله «شعيب» عليه السلام.

ثالثة رعوئيل نفسه(١)

ومنها (عاشراً) أن موسى فى القرآن الكريم، إنما تلقى الدعوة من ربّه من جانب الطور الأيمن(٢)، بينما كان فى التوراة على جبل الله «حوريب»(٣)، ومنها (حادى عشر) أن التوراة إنما تذكر لنا أن تلك الفتاة التى تزوج منها موسى إنما كانت تدعى «صفورة»(٤)، بينما أغفل القرآن اسمها - كا أغفل اسم أبيها - وكما أغفل أسماء النساء عامة، إلا مريم ابنة عمران - أم المسيح عليه السلام - فإنها انفردت بمعنى تذكر به وتشتهر، وتذكر به قدرة الله التى أوجدت عيسى من غير أب، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿وجعلناها وابنها آيةً للعالَمين﴾(٥)

٣ - موسى : بين الأصل المصرى والإسرائيلى:

لاريب فى أن شراح الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل والقرآن الكريم) يجمعون - أو يكادون - على أن كليم الله موسى عليه السلام، إنما كان من بنى إسرائيل، إلى أن جاء العالم اليهودى «سيجموند فرويد» (١٨٥٦-١٩٣٩م) فأراد أن يثير شبهة حول أصل موسى الذى رآه مصرياً - وليس إسرائيلياً - ومن ثم فقد أصدر فى عام ١٩٣٨، كتابه «موسى والتوحيد»(٦).

ولعل أهم الأدلة التى اعتمد عليها «فرويد» فى نظريته هذه، إنما كان اسم موسى، والذى ينطق بالعبرية «موشيه» طبقاً لرواية التوراة - كما جاءت فى سفر الخروج - ذلك أن الأميرة المصرية - وهى فى نفس الوقت ابنة

(١) خروج ٢: ١٦-١٨، ٣: ١، عدد ١٠: ٢٩، قضاة ١: ١٦، ١٤: ١١.

(٢) سورة مريم، آية : ٥٢؛ سورة القصص، آية : ٢٩

(٣) خروج ٣: ١؛ وانظر: عن «حوريب» ، مادة «سيناء» فى قاموس الكتاب المقدس، ٤٩٨/١ (بيروت ١٩٦٤م)

(٤) خروج ٢ ٢١

(٥) سورة الأنبياء ، آية ٩١

(٦) Sigmond Frend. Moses and Monothism, Translated from the German, by Katherine Jones, (Vintage Books). New York, 1939

فرعون _ قد انتشلته من النيل، وسمته إثر ذلك «موسى» معللة لهذه التسمية بعلة لغوية اشتقاقية، حيث رد كاتب التوراة اللفظ إلى اسم المفعول من الفعل العبرى «مشه» بمعنى «المُنْتَشَل أو المُسْتَنقَذ».

ومع ذلك فإن هذا التعليل ينطوى على خطأ واضح، إذ جاء فى المعجم اليهودى، أن تفسير التوراة لاسم موسى بأنه «المُنتشل من الماء»، تفسير اشتقاقى شعبى، وهو لا يستقيم مع الصيغة والوزن لكلمة «موشيه»، التى هى فى العبرية اسم فاعل، لا اسم مفعول، ودلالتها الصحيحة «المنتشِل» بكسر الشين _ لا «المنتشَل» بفتحها، ومن ثم فهو اسم فاعل، بمعنى «المنقذ أو المحرر» كأن الذين أسموه كانوا يعلمون ما سوف يصير إليه ذلك الطفل اللقيط[1].

هذا وهناك نقطتان أخريان تؤكدان عدم اشتقاق هذه التسمية، أولهما : أنه من غير المؤكد كون الأميرة المصرية على علم بالاشتقاق فى اللغة العبرية _ هذا إذا كانت هناك لغة عبرية قد ظهرت فى هذا الوقت المبكر، على الأقل من القرن الثالث عشر قبل الميلاد[2]؟ _ هذا فضلا عن أن ابنة فرعون، إنما هى أميرة مصرية، تتكلم المصرية وتفكر بها، وما كان لها أن تتحدث العبرية فى حياتها وبين مواطنيها، حتى تتخذ للطفل _ مع كراهية شائعة للعبريين يومئذ _ اسماً عبرياً[3].

---

(١) S. Freud, op.cit., p. 4.

(٢) كان أسلاف العبرانيين يتكلمون الآرامية قبل أن يستقروا فى فلسطين، ثم بدأوا يتلكمون لغة الشعوب المصيفة لهم، ففى مصر كانوا يتكلمون المصرية، وفى كنعان كانوا يتكلمون الكنعانية، وأما اللغة العبرية _ والتى كانت خليطاً من الآرامية والكنعانية وكثير من اللغات السامية وغير السامية _ فيرجع تاريخ ظهورها إلى ما قبيل عام ١١٠٠ق.م (انظر: محمد عبد القادر، الساميون فى العصور القديمة، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٠٨؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ٣٢/٣؛ فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، ص ٤).

(٣) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، القاهرة ١٩٦٨، ص ٩٠

وكذا: S. Freud, op.cit., p. 4

ومن ثم فقد رأى مؤرخ اليهود يوسف بن متى أن يرد اللفظ إلى أصل مصرى واشتقاق مصرى، مع تقليده بما ورد فى التوراة، من حيث ارتباط الاسم بما كان من التقاط من الماء، فقال: إن المصريين يسمون الماء «مو»، ويقولون الذى يستنقذ من الماء «أوسيس»، غير أن حرص يوسف اليهودى على تفسير يكون مصدقًا لما جاء فى التوراة قد حمله ـ متعمداً ـ على إغفال معنى لفظ أوسيس، المصحوف عن لفظ «حسى» المصرى، وهو أصلا ـ حتى زمان موسى فى الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨-١١٨٤ق.م) ـ بمعنى «الحميد»، ثم أصبح يطلق منذ الأسرة الثلاثين (٣٨٠-٣٤٣ق.م) على الموتى من الغرقى المنتشلين من النيل للدفن، وإلى ذلك أشار «كليمنت الإسكندرى» (١٥٠-٢١٢م) من بعده (أى من بعد يوسف اليهودى)، فكأنه بذلك قد اتخذ لفظاً بمعنى متأخر عن عصر موسى وطبّقه تطبيقًا غير دقيق ولا سليم[1].

وأما النقطة الثانية التى تؤكد عدم اشتقاق هذه التسمية، فإنه يكاد يكون من المؤكد الآن أن الطفل موسى لم ينتشل من ماء النيل[2].

وعلى أى حال، فإن كثيراً من الباحثين قد ربطوا منذ سنين طويلة اسم موسى ـ وهو لفظ مشتق من مصدر الولادة بمعنى الولد أو الوليد ـ بأصول فى اللغة المصرية القديمة، ومن هؤلاء المؤرخ الأمريكى الكبير «جيمس هنرى برستد» الذى يقول: إنه يجب أن نلاحظ أن اسم موسى كان اسمًا مصرياً، بل هو نفس الكلمة المصرية «مس» Mose ومعناها «طفل» وهى مختصرة من اسم مركب كامل، كالأسماء «امون مس»، ومعناها آمون الطفل، أو «بتاح مس»، ومعناها : بتاح الطفل، وهذه الأسماء المركبة

(١) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٩٠؛ وكذا:
J. Cerny, Greek Etymology of the Name of Mosis, ASAE, XLI, 1942, p. 349F.

(٢) S. Freud, op.cit., p. 4.

نفسها، هي الأخرى مختصرات للتركيب الكامل «آمون أعطى طفلا»، أو «بتاح أعطى طفلا»، وقد لقى اختصار الاسم إلى كلمة «طفل» قبولا منذ زمن مبكر، إذ كان سريع التداول والتناول بدلا من الاسم الكامل الثقيل[١].

على أن الاسم «مس» (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة، ولاشك في أن والد موسى كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصرى قديم، مثل آمون وبتاح، ثم زال ذلك الاسم الإلهى تدريجيًا بكثرة التداول، حتى صار الولد يسمى «موسى»[٢].

ويعلق «فرويد» على قول «برستد» هذا بالدهشة لتجاهل «برستد» بعضاً من الأسماء المركبة من موسى أو «مس» مع أسماء الآلهة، ومنها أسماء «أحمس» (إيعح مس) وتحوتمس (تحوت مس) و«رعمسيس» (رع مس سو) ثم يعرب عن دهشته كذلك من أن واحداً من العلماء الكثيرى العدد، الذين أقروا مصرية اسم موسى أصلا واشتقاقًا، لم يفكر فى أن يكون موسى نفسه ـ الشخص لا الاسم ـ مصرياً أيضاً[٣]، حتى أولئك الذين يقررون مثل «برستد» أن موسى قد «تهذب بكل حكمة المصريين»[٤].

ويرى «فرويد» أن ذلك، ربما كان مرجع ذلك إلى تقديس لمرويات التوراة التى لا يمكن التغلب عليها، وربما بدا لهم أن القول بأن موسى مصرى غير عبرى ادعاء عريض لا يمكن تصوره، على أى حال، فإن الواقع هو أنه مع ترحيبهم عموماً لمصرية اسم موسى، فإنهم لم يستخلصوا من ذلك شيئًا ماساً بأصله هو نفسه[٥].

---

(١) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, p. 350, N.Y., 1939.

(٢) J. H. Breasted, op.cit., p. 350.

(٣) S. Freud, op.cit., p. 5.

(٤) أعمال الرسل، ٧: ٣٢.

(٥) S. Freud, op.cit., p. 5-6.

وهنا يتساءل «فرويد» بأننا لو سلمنا بأن موسى كان مصرياً ـ ولم يكن إسرائيلياً ـ لوجدنا أنفسنا فى الحالين مطالبين بحل لغز جديد وصعب؟ فمن المفروض أن نتوقع شخصاً ما يتولى رياسة الحركة أو ينتخبه إخوانه لهذه المهمة، وعلى ذلك لا يمكننا أن نتصور أن مصرياً من الأرستقراطيين ـ ربما كان أميراً أو كاهناً أو موظفاً كبيراً ـ قد ساغ له أن يضع نفسه على رأس جمع من الأجانب الطارئين على البلاد، المتخلفين حضارياً، كيف نفسر أنه غادر البلاد معهم؟ إننا نعرف احتقار المصريين للأمم الأخرى، الأمر الذى يجعل هذه الظاهرة من موسى غير معقولة، وهذا ـ فيما يرى فرويد ـ هوالذى منع المؤرخين الذين ردّوا اسم موسى إلى أصل مصرى، ونسبوا إلى موسى «كل حكمة المصريين» من القول بإمكان أن يكون موسى نفسه مصرياً، هذه هى الصعوبة الأولى.

وأما الثانية، فيجب علينا ألا ننسى أن موسى لم يكن زعيماً سياسياً لليهود المستقرين فى مصر فحسب، ولكنه كان كذلك المشرع والمعلم، والرجل الذى اضطرهم إلى اعتناق ديانة جديدة، مازالت تعرف حتى اليوم «بالموسوية» نسبة إليه.

وهنا يتساءل «فرويد» : هل فى استطاعة شخص واحد إيجاد ديانة جديدة بمثل هذه السهولة؟ ثم أليس من الطبيعى عندما يرغب شخص ما فى أن يؤثر فى ديانة الآخرين أن يحاول تحويلهم إلى ديانته هو؟

إن اليهود فى مصر لم يكونوا بالتأكيد مجردين من نوع ما من الديانة، وإذا كان موسى هو الذى أعطاهم ديانة جديدة، وكان هو نفسه مصرياً، فليس من الممكن إذن أن نرفض الظن بأن هذه الديانة الجديدة هى الديانة المصرية[١].

---

(١) S. Freud, op cit., p. 17-18.

وهنا يعقد «فرويد» مقارنة بين الآتونية واليهودية، وبين سنة الختان عند المصريين وعند اليهود، الأمر الذى سوف نناقشه فيما بعد، ويرجع «فرويد» ذلك كله إلى مصرية موسى، ثم يشير إلى أن المؤرخ اليهودى المشهور «يوسف بن متى»، فقد ذكر فى كتابه «تاريخ اليهود القديم»، أن موسى كان قائداً للجيش المصرى، وأنه كان قد تولى قيادة حملة مظفرة على الحبشة[١]، ويرى «فرويد» أن يوسف اليهودى، ربما كانت بين يديه نصوصاً أخرى، غير تلك التى فى التوراة، يؤيد بها وجهة نظره هذه[٢].

وهناك سمة أخرى تعود إلى موسى تستحق منا اهتماماً خاصاً، إذ قيل أنه كان عيّيا لا يكاد يبين حين يتكلم، أو أنه كان «بطيئًا فى الكلام»، تقول التوراة ـ على لسان موسى مخاطباً ربّه ـ : «استمع أيها السيد، لست أنا صاحب كلام منذ أمس، ولا أول أمس، ولا من حين كلمت عبدك، بل أنا ثقيل الفم واللسان، فقال له الربُّ: من صنع للإنسان فمًا، أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصير أو أعمى، أما هو أنا الربُّ، فالآن اذهب وأنا أكون

---

(١) يروى المؤرخ يوسف اليهودى عن هذه الحملة، دونما سند من التاريخ أو تأييد من التوراة ـ أن موسى عليه السلام، تولى قيادة الجيش، ولكنه زاد ـ فى قصة لا يخفى زيفها ـ أنه إنما تولى تلك القيادة، بعد رجاء من الملك والأميرة التى تبنته، وأن ذلك إنما وقع فى أعقاب غارة شنّها أهل النوبة العليا على مصر، فأنزلوا بالمصريين هزيمة نكراء فولوا منهم الأدبار، حيث تعقبهم النوبيون إلى منف فساحل البحر، وهناك استلهم المصريون الوحى فأوحى باستخدام موسى الذى قبل القيادة سعيداً منشرحاً، فأما كهان مصر والإسرائيليون فقد سعدوا كذلك، سعد الكهنة لأنهم ظنوا أنهم بذلك إنما يتخلصون من موسى ومن المهاجمين فى وقت واحد، وأما الإسرائيليون فسعدوا لأنهم ظنوا أنهم يهربون من المصريين بقيادته، ومضى يوسف يروى أن موسى تمكن من صد العدو بشجاعته وحسن تدبيره، إذ تجنب النيل وسار إليهم براً عبر أرض خاصة بالثعابين الطيارة، فعبرها بفضل ما حمل معه من أعداد من طائر الإيبس وهو أعدى أعداء الثعابين، وعندما وصل هاجم النوبيين ، حيث رآه بنت الملك النوبى فأحبته وعرضت عليه تسليم المدينة بشرط أن يتزوجها، ففعلت وفعل موسى. (انظر: أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص٩٣ـ ٩٤؛ وكذا: Josephus, Book, II, Chapter, XIW, Whiston, op.cit., p. 77.F.

(٢) S. Freud, op cit., p. 32.

مع فمك وأعلمك ما تتكلم به، فقال (أى موسى): استمع أيها السيد، أرسل بيد من ترسل، فحمى غضب الربُّ على موسى، وقال: أليس هارون اللاوى أخاك، أنا أعلم أنه هو يتكلم، وأيضاً هو خارج لاستقبالك، فتكلمه وتضع الكلمات فى فمه، وأنا أكون مع فمك ومع فمه، وأعلمكما ماذا تصنعان، وهو يكلم الشعب عنك، وهو يكون لك فماً»[1].

وهذا يعنى أن الكليم، عليه السلام - فيما تروى التوراة - أنه كان يعانى من التلعثم، أو العجز عن النطق، ولذلك كان عليه أن يلتمس مساعدة هارون أخيه فى مناقشته المفترضة مع فرعون، وربما مع بنى إسرائيل الذين أشار إليهم النص باسم «الشعب».

وربما إلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿اذهب إلى فرعونَ إنّه طَغَى، قَالَ ربِّ اشْرَحْ لِّي صَدْرِى ويسِّرْ لى أمْرِى، واحْلُلْ عقدةً منْ لسانى يَفْقَهُوا قَوْلِى، واجْعَلْ لى وزيراً منْ أهْلِى هارونَ أخِى أشْدُدْ به أزْرِى وَأشْرِكْهُ فى أمْرِى، كَىْ نُسبِّحكَ كثيراً ونذْكُركَ كثيراً، إنَّكَ كُنْتَ بنَا بصيراً، قال قد أوتيتَ سؤْلَكَ يا مُوسَى﴾[2].

فإذا كان ذلك كذلك، فربما أمكن القول أن هذه حقيقة تاريخية، تخدمنا كإضافة مفيدة فى توضيح صورة هذا الرجل العظيم - سيدنا موسى عليه السلام - ويمكن أن تكون لها دلالة أخرى أكثر أهمية، فإن القصة قد تدل - إذا أخذنا فى اعتبارنا عامل التشويه والتحوير - على حقيقة أن موسى كان يتكلم لغة أخرى، ولم يكن قادراً على التفاهم مع شعبه الجديد من الساميين بدون مساعدة مترجم على الأقل فى بداية عهده بهم، وفى هذا دليل على صحة نظرية أن موسى كان مصرياً، أو لغته على الأقل.

---

(١) خروج ٤: ١٠-١٥.

(٢) سورة طه، آية: ٢٤-٣٦؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٢٢٣٦١-٤٢٣٤.

غير أن هناك من يرى أن موسى عييّ لا يكاد يبين حين يتكلم، فقد أصيب بحبسة فى لسانه، نتيجة لتأخر إرضاعه[١]، هذا فضلا عن أن أحبار اليهود - إلى جانب المتأثرين بالإسرائيليات - إنما يرون فى هذا المجال أسطورة مبناها أن فرعون إنما كان يداعب موسى - وهو ما يزال بعد فى الثالثة - فحمله بين ذراعيه، ورفعه مدللا إلى أعلى، فاختطف موسى التاج من على رأس فرعون ووضعه فوق رأسه، فانزعج فرعون بهذا الفأل، واهتم باستشارة حكمائه، إذ أحس أن هذا الطفل إنما سوف يكون له شأن فى تقويض عرشه، فأراد اختباره فأمر بإعداد طبقين، ووضع بأحدهما تمراً أحمراً، وبالآخر جمر، فأوحى الله - كما يدعون - إلى موسى أن يتناول الجمر، إبعاداً لشبهة الإدراك الناضج عن الطفل، ووضع الجمر على لسانه، فأصبح عيّا لهذا السبب[٢].

وإذا ما أردنا مناقشة آراء العالم اليهودى «فرويد»، فيما يختص مصرية اسم موسى أصلا واشتقاقًا لرأينا أنها أمر مقبول تمامًا، ذلك لأن فكرة الأصل المصرى لاسم موسى، منذ أن نادى به «جيمس هنرى برستد» و«أدولف إرمان» و«سيجموند فرويد»، أصبحت الآن من الحقائق التى يكاد يتفق عليها العلماء - ومنهم أدولف لودز[٣]، وجريفث[٤]، وجاك فنجان[٥]، وسيسل روث[٦]، ووليم أولبرايت[٧]، وستانلى كوك[٨]، وغيرهم.

---

(١) عبد الرحيم فوده، فى معانى القرآن، ص ١٦٧.

(٢) فؤاد محمد شبل، إخناتون، رائد الثورة الثقافية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٨٧.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 169.

(٤) J. G. Griffiths, in JNES, 12, 1953, p. 231.

(٥) J. Finegan, op.cit., p. 134.

(٦) C. Roth, op.cit., p. 7-8.

(٧) W.F. Albright, op.cit., p. 14.

(٨) S.A. Cook, op.cit., p. 355.

ويضيف أستاذنا الدكتور حسن ظاظا ـ إلى حجج «فرويد» ـ أنه لم يرد في أسماء الساميين جميعًا - سواء أكانوا من العبريين أم من غيرهم كالآراميين والكنعانيين والأكاديين ـ اسم نطقه كاسم «موسى» فهذا النبيّ هو أول شخص يحمل هذا الاسم [1]، ويقرر «الزوهار» مصرية موسى ـ وإن لم يستبعد يهوديته في نفس الوقت ـ اعتماداً على نص التوراة ـ على لسان بنات رعوئيل ـ بأنه رجل مصري [2].

وأما المصادر الإسلامية، فتكاد تجمع على أن موسى الكليم ـ عليه السلام ـ قد ولد لإمرأة من بني إسرائيل، وأن هارون أخوه، فهما إذن من ذرية إبراهيم الخليل، شأنهما في ذلك، شأن إسحاق ويعقوب، عليهم السلام، إلا أن هناك في الكتاب الحكيم آيتين تقصان علينا ما وقع، إذ غضب موسى على أخيه هارون، ظناً منه أن قصر، حين انساق القوم إلى عبادة العجل، يقول سبحانه وتعالى في الآية الأولى: ﴿وألقى الألواحَ وأخذ برأسِ أخيه يجره إليه، قال ابنَ أمَّ إنَّ القومَ استضعفوني وكادوا يقتلونني فلاتشْمتْ بِي الأعداء ولا تجعلني مع القومِ الظَّالمين﴾ [3]، ويقول في الآية الثانيةَ: ﴿قَال يا ابنَ أمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إنِّي خَشِيتُ أنْ تقولَ فرَّقْتَ بينَ بَنِي إسرائيلَ ولم ترْقُبْ قولِي﴾ [4]

وفي كلا الآيتين تركيزٌ على كلمة «ابن أم»، وفي ذلك يقول المفسرون إن هارون إنما نادى موسى بنسبته لأمه، مع أنه كان شقيقه، لأن

---

(١) حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة ١٩٧١، ص ١٧.

(٢) خروج ٢: ١٩.

(٣) سورة الأعراف، آية : ١٥٠ . وانظر: تفسير الطبري ١٣/١٢٠-١٣٣؛ تفسير الطبرسي ٩/٢٧-٣١؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٤/٢٢٠؛ تفسير أبي السعود ٢/٤٠٧-٤٠٨؛ تفسير روح المعاني ٩/٦٨-٦٩؛ تفسير الكشاف ٢/١١٩؛ تفسير الفخر الرازي ١٥/٩-١٠؛ تفسير القاسمي ٧/٢٨٦٠-٢٨٦٢؛ تفسير المنار ٩/١٧٧-١٨١؛ تفسير القرطبي ، ص ٢٦٥١-٢٦٥٢؛ تفسير وجدي ، ص ١١٦؛ تفسير ابن كثير، ٣/٤٧٤.

(٤) سورة طه، آية : ٩٤.

ذكرها أدعى إلى العطف[١]، ولكن الذى يلزمنا هنا هو كلام الله ـ عزّ وجل ـ وليس ما درج المفسرون أن يقدموا، فإنما هو اجتهاد، وفوق كل ذى علم عليم[٢]، هذا فضلا عن أن «الزجاج» إنما يقول: «قيل كان هارون أخا موسى لأمه، لا لأبيه[٣]، فإذا تذكرنا أن اليهود إنما يعتبرون أن من كانت أمه يهودية فهو منهم، لا يعنيهم على أى دين كان أبوه، هو يهودى صميم، حتى وإن ظل أقلف غير مختتن[٤]، لكان رأى الزجاج إنما يستحق كثيراً من التأمل والتفكير.

وأما قصة التمر الأحمر والجمر، ودورها فى هذا العيب الذى جعل موسى عيبًا لا يكاد يبين حين يتكلم، أو «بطيئًا فى الكلام»، فيمكن الرد عليها فى نقاط عدة، منها (أولا) أنه يستحيل على طفل طبيعى أو غير طبيعى أن يلمس النار، دون أن تحرق أصابعه فوراً، فما بالك، وقد رفع موسى الجمر إلى فمه، ثم أودعه إياه، ولم يحس به إلا بعد أن لدغ لسانه، ثم ألا يكفى هذا الفعل لإقناع فرعون أن الطفل غير طبيعى، ومنها (ثانيًا) أن موسى لو كان حقًا قد أمسك بالجمر وأمكنه احتمال قسوة النار، ثم وضع الجمر على لسانه، لفقد النطق كلية، ومنها (ثالثًا) هل عدم فرعوم ـ وهو ملك أعظم وأرقى دولة متحضرة فى تلك العصور ـ وسيلة يستكشف بها حقيقة الطفل، غير تلك الحيلة البدائية[٥].

وأيًا ما كان الأمر، فيبدو لى أن القول بأن موسى كان مصرياً ـ ولم يكن إسرائيليًا ـ قول فيه من الخطورة ما فيه، فإن احتمالات الخطأ فيه

(١) تفسير الطبرى ١٣١/٣؛ معانى القرآن للفراء ٣٩٤/١؛ تفسير القرطبى، ص ٢٧٢٦؛ تفسير ابن كثير، ٤٧٤/٣؛ تفسير المنار، ١٨٠/٩.

(٢) حسين ذو الفقار صبرى، توراة اليهود، المجلة، العدد ١٥٧، يناير ١٩٧٠، ص ١٩-٢٠.

(٣) تفسير القرطبى، ص ٢٧٢٦ (دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠).

(٤) Rabbi Dr. I Epstein, Judaism (Penguin Books), 1970), p. 168.

(٥) محمد فؤاد شبل، المرجع السابق، ص ٨٧؛ ثم انظر: تفسير القرطبى، ص ٤٢٣٢.

لجسيمة رهيبة خطيرة، ومع ذلك، فهو كافتراض - من حيث هو ظن - نجد له صدى فى اسمه المصرى (أولا)، وفى التوراة حيث وصف - على لسان بنات رعوئيل صهره - بأنه «رجل مصرى» (ثانيًا)، وفى «الزوهار» حيث يقرر مصريته (ثالثًا)، وفى الآيتين الكريمتين، حيث التركيز فيهما على كلمة «ابن أم» (رابعًا)،وفى رواية «الزجاج» على أنه ليس بشقيق لهارون (خامسًا)، وأخيراً (سادسًا) فى الأثر من أنه «كان بطيئًا فى الكلام»، وفى قول التوراة «أنه ثقيل الفم واللسان»، وفى قول الله عزَّ وجلَّ فى القرآن الكريم، حيث يدعو ربَّه، ﴿واحلُلْ عقدةً مِنْ لسَانى يفقهوا قولى﴾، وفى إجماع التوراة والقرآن الكريم على استعانة موسى بأخيه هارون فى توصيل رسالته إلى بنى إسرائيل.

ومع ذلك، فمازلت أشك كثيراً، فى أن موسى عليه السلام كان مصرياً - ولم يكن عبرانيًا - وليس شكى هذا يتصل بقيمة موسى الدينية أو التاريخية. ذلك لأن هذه القيمة لم تأت لكونه إسرائيليًا، وإنما لأنه كليم الله ورسوله الكريم، وهو أمر لا يتغير بتغير جنسه، ومن ثم فلا يؤثر فى مكانة النبيِّ الكريم أن يكون مصرياً أو اسرائيليًا. وأخيراً فهو فى (آية ٨٤ من سورة الأنعام) من ذرية إبراهيم.

٤ - الوجود التاريخى لموسى عليه السلام

من الغريب المؤلم أن الشك لم يقتصر على جنسية كليم الله، عليه السلام، وإنما تجاوزه إلى الوجود التاريخى لموسى نفسه، ولعل السبب فى ذلك،إنما هى التقاليد العجيبة التى اكتنفت شخصية موسى، كما تبرز فى نصوص التوراة، فكأننا أمام تضارب تقييم، شخصية صكت بنى إسرائيل بعقد نفسية عميقة الجذور، فهم عنها وإليها بين شد وجذب عنيفين.

فالتفسيرات جميعًا تكاد تتفق - فى سعى خبيث - إلى التهوين من قدر موسى، فالأنبياء المتأخرون دون غيرهم، أصحاب الفضل فى إرساء أركان

الديانة التوحيدية ـ المتسامية بأخلاقيتها زعموا ـ ولا بأس من التسليم لموسى، بأن كان علمًا على منعرج حاسم فى تاريخ بنى إسرائيل، كفاه أن هيأ لهم بعقيدة من وثنية اصطفاء، أسبابًا من تماسك وتلاحم، تفصيلات تكاد تكون انعكاسًا صادقًا لما طرأ عبر العصور على كتابات اليهود، فلا ذكر لموسى ـ أو يكاد ـ فى الأصول التوراتية القديمة، لا نقع على اسمه إلا خطفًا، حتى فى كتابات الأنبياء الرواد ـ أنبياء القرن الثامن قبل الميلاد ـ «عاموس» (٧٦٠-٧٤٦ق.م) و«هوشع» (٧٤٠-٧٣٠ق.م) و«إشعيا الأول» (٧٤٠-٧٠٠ق.م) و«ميخا» (٧٣٥-٧٠٠ق.م)[١].

فالنبىّ إشعيا فى المرة الوحيدة التى ذكر فيها موسى فى نهاية سفره، يقول: ثم ذكر الأيام القديمة موسى وشعبه، أين الذين أصعدهم من البحر مع راعى غنمه؟ أين الذين جعل فى وسطهم روح قدسه، الذى سير ليمين موسى ذراع مجده الذى شق المياه قدامهم، ليصنع لنفسه اسمًا أبديًا»[٢].

وهكذا أصبح موسى نسيًا منسيًا أولا، ثم وجهًا أسطوريًا فولكلوريًا فقط، منذ أيام سليمان (٩٦٠-٩٢٢ق.م)، إلى قرب انتهاء دولة اليهود فى فلسطين، يشهد بذلك أيضًا الموضع الوحيد الذى تحدث فيه النبىّ «إرميا» (٦٢٧-٥٧٧ق.م) عن موسى[٣] بهذه العبارة: «وقال له الربُّ: لو أن موسى وصموئيل وقفا أمامى، لما توجهت نفسى إلى هذا الشعب، فأطرحهم عن وجهى وليخرجوا»[٤].

فإذا ما تكاثفت الأخطار حول مملكة يهوذا، يتهددها سوء مصير، أن يحيق بها ما حاق بمملكة إسرائيل فى الشمال، تهيأت الفرصة ـ فإن

(١) حسين ذو الفقار صبرى، إله موسى فى توراة اليهود، المجلة، العدد ١٦٣، يوليو ١٩٧٠، ص٥-٦.

(٢) إشعيا ٦٣: ١١-١٢.

(٣) حسن ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص ٣١.

(٤) آرإميا ١٥: ٥١.

الإيمان لهو ملاذ الشعب فى الملمات - لنفر من «اللاويين»، ربما هم أحفاد بطانة موسى من كهنوت مصرى، فتنبعث ذكرى كليم الله، وتلك الوصايا التى عهد بها إليه الربُّ فى سيناء، بعد أن ظلت مطوية مطمورة فى أعماق الوجدان زهاء قرون ستة أو يزيد[1].

ولكن مؤلفى التوراة حرصوا مع ذلك على الاستنقاص من مكانته - إعلاء لشأن داود وبيت داود - فى أمور أشد ما تكون التصاقًا بالعقيدة التوحيدية، كما عند الأنبياء المتأخرين، غمزاً ولمزاً فى سفر الخروج[2]، فكأن موسى لم يختن شأن أى أقلف، وأن قد ظل كذلك، مخالفًا تعاليم الربِّ كما أنزلت على إبراهيم، من حيث السمة الدالة على العهد الأبدى الموثق[3]، بل متحدياً ما دفع به الربُّ مباشرة[4]، فكأن نبىَّ الله، حامل رسالته إلى شعب بنى إسرائيل، إنما ناكث لعهد الربِّ[5].

ثم صراحة ودون مواربة، إذ تعزى إليه شوائب من وثنية، فهو صاحب «حية النحاس»[6] «نَحُشْتان» صنعها بيديه ورفعها أمام القوم على سارية[7]،

(١) حسين ذو الفقار صبرى، المرجع السابق، ص ٦.

(٢) خروج ٤ : ٢٤-٢٦. (٣) تكوين ١٧ : ١٠-١٤.

(٤) خروج ١٢ : ٤٨. (٥) حسين ذو الفقار، المرجع السابق، ص ٦.

(٦) يرى «برستد» أن موسى كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية، فقد كان يحمل عصا سحرية عظيمة ، فى صورة «ثعبان» تسكن فيها قوة «يهوه»، كما كان ينصب ثعبانًا من النحاس البراق ليشفى به الناس، وكان هذا الثعبان أحد الثعابين المقدسة العديدة فى مصر، وقد بقيت صورة ذلك الإله المصرى القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل ، واستمروا فى إطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد «موسى» ولم يبعد من البيت المقدس إلا فى حكم ملك يهوذا حزقيا، وليس من شك فى أن برستد مخطئ فى كثير مما ذكره (انظر: ملوك ثان، ١٨ : ٤)؛ J. H. Breasted, The Down of Conscience, p. 354.

(٧) يرى الدكتور هانى رزق، معبراً عن وجهة النظر المسيحية أن هذا الحدث إنما كان رمزاً لصلب المسيح ، فكما رفع موسى الحية لكى يحيا كل من ينظر إليها، هكذا رفع يسوع المسيح على الصليب لكى يحيا كل من يؤمن به (هانى رزق، يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته، القاهرة، ١٩٧١، ص ١٥٢-١٥٣).

هى من أسباب غواية بنى إسرائيل، يقدمون لها القرابين متعبدين، فيسحقها حزقيا ملك يهوذا (٧١٥-٦٨٧ق.م)، ضمن ما كان قد حطم من نصب وأصنام[١].

هذا إلى أن التوراة جد حريصة على إثبات أنساب عديد من شخصيات، ولكنها تمر على موسى مرّ الكرام، فتقول فى سفر الخروج: إن أباه وأمه من بيت لاوى[٢] ولا تزيد، لا تسميهما حتى، وإن كانت النسخ العربية للتوراة تقرر: أن أمه هى بنت لاوى، ولكن دقة الترجمة تقتضيها أن تقول «من بيت لاوى»، أما ذلك النص الآخر[٣] تقع عليه ضمن أنساب مفصلة لكافة بنى إسرائيل، فإنما هو مدسوس على الأصل القديم، نقل نقلا عما أثبته الأحبار فى سفر العدد[٤]، بعد أن كان النص الأول قد سجل بأحقاب[٥].

ولعل هذا كله هو الذى دفع المؤرخ اليهودى «سيسل روث» إلى القول : بأن موسى ينتمى إلى قبيلة أفرايم ـ مع نوع من الانتساب المصرى ـ أكثر من انتمائه إلى قبيلة لاوى، التى انتسب إليها عن طريق التقاليد[٦] ـ كما أشرنا من قبل ـ فإذا أضفنا إلى ذلك كله «انعدام أية وثيقة تاريخية معاصرة تحدثنا عن الكليم، عليه السلام، وعن وقائعه فى مصر ـ غير ما ورد فى الكتب المقدسة، وتراث اليهود ـ فضلا عن أن اليهود أصبحوا لا يعرفون، حتى أين دفن الكليم[٧]، لتبين لنا كيف أضاع اليهود الرجل العظيم وجحدوا مكانته، مما أدى فى نهاية الأمر، إلى أن يبدى بعض علماء التاريخ

---

(١) حسين ذو الفقار، المرجع السابق، ص ٦. عدد ٢١: ٩؛ ملوك ثان ١٨: ٤.

(٢) خروج ٢: ١-٢. (٣) خروج ٦: ٢٠.

(٤) عدد ٢٦: ٥٩.

(٥) حسين ذو الفقار، توراة اليهود، المجلة ، يناير ١٩٧٠ ص ١٢ وكذا:

A. L. Sachar, A History of the Jews, N.Y., 1954.

(٦) C. Roth, op.cit., p. 6-8.

(٧) تثنية ٣٤: ١-٦.

والآثار المصرية والدراسات اليهودية، شكوكهم حول تاريخية الرجل العظيم، بل إن «جوستاف لوبون» ليقول بصراحة: إن موسى شخص أسطورى، أكثر من كونه شخصًا تاريخيًا أى أن ذاتيته رتبت، كما رتبت ذاتية «بوذا» بعد حين[١].

ومن هنا، فإن جمهرة مفكرى اليهود العلمانيين فى العصر الحديث، تذهلهم تلك الشخصية، كما تتراءى عملاقة جبارة، بينما يؤرقهم فى الوقت نفسه افتقارهم إلى الدليل المادى، مهما كان ضئيلا تافهًا، الذى يقنعهم بأنه كان له وجود، فيقولون بسفسطة رأى بأن: موسى كان، رغم ما كان، أعظم شخصية فى تاريخ اليهود، فلا معدى عن ابتداعها بخيال، فيصبح للتاريخ اليهودى مغزى وقصدا[٢].

ومع ذلك، ورغم كل ما أشرنا إليه آنفًا، فإنى لأومن ـ الإيمان كل الإيمان ـ بالوجود التاريخى لنبىّ الله الكريم، سيدنا موسى عليه السلام، لأسباب كثيرة منها (أولا) أن الكتب السماوية الثلاثة ـ التوراة والإنجيل والقرآن العظيم ـ تجمع على ذلك، وليس من العلم، فضلا عن الإيمان بما جاء فى كتب السماء، أن نشك فى أمر أجمعت عليه.

ومنها (ثانيًا) أن الشك الذى يحوم الآن حول موسى عليه السلام، إنما له مثيل بالنسبة إلى أبى الأنبياء، إبراهيم الخليل، عليه السلام[٣]، وفى كلا الحالين، فإن الذين يشكون ـ فى الكليم والخليل ـ إنما يعتمدون فى شكهم هذا، على كثرة الأعاجيب والخوارق فى السيرتين الطاهرتين، كما رواها الأقدمون، ولست أعتقد ـ بحال من الأحوال ـ أن هذا سببًا مقنعًا، فنحن الدارسين للتاريخ المصرى القديم ـ على سبيل المثال ـ نسمع عن

(١) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢) حسين ذو الفقار، المرجع السابق، ص ١٢. وكذا: A.L. Sachar, op.cit., p. 16-18.

(٣) L. Woolley, op.cit., p. 514.

الكثير من الأسرار التى حيكت حول «الهرم الأكبر»، مما لا يعتمد على سند، أو دليل تاريخى، ومع ذلك فالهرم الأكبر موجود، ولا يستطيع أحد أن يمترى فى وجوده.

ومنها (ثالثًا) أن ما يراه بعض النقاد من عدم وجود أى أثر يشير إلى تاريخية موسى، عليه السلام، فإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت تلك «الشقف» أكثر أهمية، بل وربما يعتمد عليها أكثر من ذاكرة الناس، أو السجلات المكتوبة، فإن الأثر الذى تركه المشرع العظيم على العقل الإسرائيلى، والذى يمكن تتبعه منذ عصر قديم جداً، عميق لدرجة لا يمكن أن تفشل فى حالة الاعتماد عليه، لتحقيق شخصية تركت أثراً لا يمحى على المعاصرين[١].

ومنها (رابعًا) أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء والرسل فى النصوص الإنسانية ضعيف نسبيًا، لأن حقيقة الصراع بين القيم السماوية والإنسانية، ربما يكون قد دفع تلك المجتمعات الإنسانية إلى إغفال ذكرها، وهذه ظاهرة يلمسها المؤرخ فى تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم بوجه عام، بالنسبة إلى تعمد عدم التعريف بالمعارضين[٢].

ومنها (خامسًا) أن المصادر المصرية القديمة ـ والتى تمتاز عن غيرها من مصادر الشرق الأدنى القديم بوضوحها وكثرة آثارها ـ كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر بمعلومات عن «موسى»، هذه المصادر ـ فى غالبيتها ـ إما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحى منهم، فإذا ما تذكرنا أن الملك كان فى العقيدة المصرية القديمة إلهًا، أكثر منه بشراً، كان من الطبيعى ألا يستسيغ المصريون أن يهزم الملك فى حرب خاض غمارها، ولهذا فالنصر كاد أن يكون حليفه فيها، وقد تكون الحقيقة غير ذلك.

---

(١) C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 6.

(٢) رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الثالث، المدخل فى التطور التاريخى للفكر الدينى، بيروت ١٩٦٩، ص ١٧٤.

ومن المعروف أن قصة موسى في مصر - كما جاءت في الكتب المقدسة - إنما انتهت بغرق الفرعون وجنوده في البحر، ونجاة موسى ومن آمن معه بالواحد القهار، وليس من المقبول - طبقًا للعقيدة الملكية الإلهية المصرية القديمة - أن تسجل النصوص المصرية غرق الإله الفرعون، ونجاة عبيده العبرانيين، ومن هنا كان من الصعب العثور على اسم موسى في النصوص المصرية القديمة حتى الآن، رغم ضخامة التركة الآثرية التي خلفتها لنا مصر الفرعونية.

وانطلاقًا من هذا كله، ورغم أن الوجود التاريخي لموسى، عليه السلام، إنما يفتقر إلى الدليل المادي التاريخي، خارج الكتب المقدسة، وتراث اليهود، فإن الغالبية العظمى من المؤرخين يعتقدون أن موسى عليه السلام، له وجود تاريخي، وأنه عاش في مصر حينًا من الدهر، وأن خروج الإسرائيليين من مصر أرض الكنانة تم تحت قيادته، وأن ذلك كله - فيما أرى -، إنما هو من حقائق التاريخ التي لا يرقى إليها الشك - بحال من الأحوال - إيمانًا منا بما جاء في الكتب السماوية، من ناحية، ولأن تاريخ إسرائيل الفعلي - والذي يبدأ حقيقة بحادث الخروج من مصر - لا يمكن أن يفهم إلا إذا اعترفنا بوجود كليم الله، موسى عليه السلام.

٥ - بين موسى وفرعون:

صدع موسى بما أمره به الله - جل وعلا - فولّى وجهه - مع أخيه هارون - شطر فرعون، يدعوه بدعوة الحق والعدل والعقيدة، أملا من الكليم في أن يسمح فرعون بخروج بني إسرائيل من مصر، تقول التوراة «ودخل موسى وهارون وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله إسرائيل، أطلق شعبي ليعيدوا لي في البرية فقال فرعون: من هو الربُّ حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل، لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه، فقالا: إله العبرانيين قد التقانا،

(١) محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٣، رسالة ماجستير.

فنذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية، ونذبح للربِّ إلهنا، لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف»[١].

وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وقال موسى يا فرعونُ إنِّي رسولٌ مِنْ ربِّ العالمين، حقيقٌ عليَّ أن لا أقولَ على اللهِ إلا الحقَّ، قد جئتكم ببينةٍ مِنْ ربِّكُم فأرسل معى بنى إسرائيل﴾[٢]

غير أن فرعون لم يؤمن بموسى، ولم يسمع له، وإنما اتهمه وهارون، بأنهما «يبطلان الشعب من أعماله»، ثم أمر ألا يعطى الإسرائيليون تبناً، ومن ثم فعليهم أن يجمعوه بأنفسهم من القرى لصناعة ما كلفوا به من اللبن، وأن من يتأخر منهم عن القيام بصناعة الكمية المحددة له إنما سوف يكون عقابه الضرب الشديد[٣].

وبدأ بنو إسرائيل يتذمرون من موسى ودعوته التى كانت سببًا فى زيادة السخرة عليهم، ورغم أن التوراة كانت قد أشارت من قبل فى وضوح إلى إيمان بنى إسرائيل بموسى ودعوته، حيث مضى موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بنى إسرائيل، فتكلم هارون بجميع الكلام الذى كلّم الربُّ موسى به، وصنع الآيات أمام عيون الشعب، فآمن الشعب[٤]»، رغم هذا فإن التوراة سرعان ما تعود ثانية، فتقول أنهم «لم يسمعوا لموسى من صغر النفس، ومن العبودية القاسية»، رغم ما وعدهم به موسى من إنقاذ لهم من عبودية المصريين، ومن اتخاذهم شعبًا مختاراً لـ «يهوا» ـ ربُّ إسرائيل ـ وإدخالهم إلى الأرض التى تفيض لبنًا وعسلا ، وبمعنى آخر، رغم ما يزعمون من دعوة موسى إياهم بأنهم «شعب الله المختار»، وبأنهم سوف يرثون كنعان ـ أو أرض

(١) خروج ٥: ١-٣.

(٢) سورة الأعراف، آية : ١٠٤-١٠٥؛ وانظر: تفسير القرطبى، ١٣/١٣-١٤؛ تفسير القرطبى ص٢٦٩٢؛ تفسير ابن كثير، ٤٥٠/٣؛ تفسير المنار، ٣٣/٩، ٣٧-٤٠.

(٣) خروج ٥: ٤-١٨.

(٤) خروج ٤: ٢٩-٣١

الميعاد كما يسمونها - وبأن نجاتهم من عذاب المصريين ستكون عن قريب، رغم ذلك كله، فإنهم لم يؤمنوا بموسى ولم يسمعوا له، بسبب صغار فى نفوسهم من جراء العبودية القاسية[1]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿فما ءامَنَ لموسى إلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قومه على خوفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وملإيهم أن يفْتِنَهُم، وإنَّ فرعونَ لعالٍ فى الأَرضِ وإنَّه لِمنَ المُسرفينَ﴾[2].

وهكذا يبدو واضحًا إلى أى مدى قد أذل الاستعباد قوم موسى، وأفسد طباعهم، فأعرضوا عن الحق، وأصبحوا لا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا، فلقى منهم نبيهم - عليه السلام - العنت الشديد.

ثم كان بين موسى وفرعون جدل شق واستطال، ذكَّر فرعون فيه موسى بتربيته فى القصر الملكى، وكيف أحسن سلفه مثواه، ثم كيف ارتكب جريمته تلك - يعنى قتل موسى لمصرى - ثم فر هاربًا من مصر كلها، دون أن يناله من العذاب ما يستحق، ﴿قال ألم نُرَبِّكَ فينا وليدًا، ولبِثْتَ فينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنينَ، وفعلتَ فعْلَتَكَ الَّتى فعلتَ وأنت مِنَ الكَافرينَ﴾[3] فكان رد موسى: ﴿قال فعلتهَا إذًا وأنا مِنَ الضَّالين، ففررت منكم لَمَّا خِفْتُكم، فوهبَ لى ربِّى حكمًا وجعلنى مِنَ المُرسلينَ، وتلك نعمة تمنها علىَّ أن عبَّدْتَ بنى إسرائيل﴾[4]

ويتصل الجدل والحوار بين الرجلين - الملك والنبىّ - ﴿قال فِرْعَوْنُ وما ربُّ العالمينِ، قال ربُّ السَّماوات والأرضِ وما بينهما إنْ كُنْتُم موقنين، قال لِمَنْ حَوْلَه ألا تسمعون، قال ربُّكم وربُّ ءَابائِكُم الأولين، قال إنَّ رسولَكُم

(١) خروج ٦: ٦-٩.

(٢) سورة يونس، آية : ٨٣؛ وانظر: تفسير الطبرى، ١٥/١٦٣-١٦٧؛ تفسير المنار ١١/٣٨٣-٣٨٤؛ تفسير القرطبى ص ٣٢٠٨؛ تفسير ابن كثير، ٤/٢٣٢-٢٣٣.

(٣) سورة الشعراء، آية : ١٨-١٩.

(٤) سورة الشعراء، آية : ٢٠-٢٢.

الَّذِى أُرسِلَ إِلَيكُم لمجنونٌ، قَالَ ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما إنْ كُنتُم تعقِلُونَ، قال لئن اتخذتَ إلهًا غيرى لأَجعلَنَّكَ مِنَ المسجونين قال أَوَلَوْ جئتُكَ بشيءٍ مبينٍ، قال فأتِ به إنْ كنتَ منَ الصَّادقين، فألقى عصاه فإذا هى ثعبانٌ مبينٌ، ونزعَ يدَه فإذا هي بيضاءُ للناظرينَ، قال للملأ حوله إنَّ هذا لساحرٌ عليمٌ، يريدُ أن يخرِجَكُم مِنْ أرضِكُم بسحره فماذا تأمرونَ﴾[١]

ولعل سائلا يتسائل: لماذا اختار الله معجزة موسى عليه السلام من نوع السحر؟

ولعل الجواب على ذلك، إنما يأتى من دراستنا للتاريخ المصرى فى عصوره القديمة، حتى نستطيع أن ندرك الحكمة من نزول الآية والمعجزة بالصورة التى شاء الله أن تنزل بهما، فما كانت لتنزل إلا فى أمر من واقع حياة الناس وما يدور بأذهانهم فتكون محققة فى أعينهم على غير قاعدة ولا قياس لخارق من الأعمال، طالما فكروا فيه وسمروا به وضربوا به فى أغوار الوهم وتخيلوه، وقد ورد لنا عن الحياة المصرية القديمة من أحاديث السحر والسَّحَارِينَ ما كان الناس يخرجون به من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ومن دنيا الواقع إلى افاق الخيال[٢].

وهكذا كانت معجزة موسى ـ مثلا ـ من نوع السحر الذى برع المصريون فيه، ومن نفس المنطق، وعلى نفس الدرب، كانت معجزة القرآن الكريم الأولى فى بيانه الذى خرست معه الألسنة فما تنطق، وفى فصاحته، التى شدهت معها الأفئدة فما تعى، وسوف يظل هذا البيان وتلك الفصاحة حجة على العالمين، تلك كانت معجزة القرآن الأولى يوم طالع الرسولُ العرب، وهم ما هم بيانًا وفصاحة[٣]، يستوى فى ذلك رجالهم ونساؤهم، وما

---

(١) سورة الشعراء، آية : ٢٣-٣٥.

(٢) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٣) إبراهيم الإبيارى، تأريخ القرآن، القاهرة ١٩٦٥، ص ٤٤-٤٥.

أمر أسواق العرب كعكاظ مثلا التى كانوا يعرضون فيها بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة، بخاف على متأدب.

فما هو إلا أن جاء القرآن، وإذا الأسواق قد انفضت، إلا منه، وإذا الأندية صَفِرَتْ، إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى، ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة، بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفراداً أو جماعات، بل تحداهم وكرّر عليهم ذلك التحدى فى صور شتى، متهكماً بهم متنزلا معهم إلى الأخف فالأخف[١]، فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله[٢]، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله[٣]، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله[٤]، ثم بسورة واحدة من مثله[٥]، وأباح لهم فى كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم ـ والعالم كله ـ بالعجز فى غير مواربة، فقال: ﴿قلْ لئنْ اجتمعتِ الإنْسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرءانِ لا يأتونَ بمثْلِه ولو كان بعضُهُم لبعضٍ ظَهيراً﴾[٦]

وهكذا شاء الله، أن يقرأ النبىُّ الأمي، وأن تكون معجزته كتاباً ﴿لا يأتيه الباطلُ مِنْ بين يديه ولا مِنْ خلفه، تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ﴾[٧] ،وأن يكون هذا الكتاب بما يتألف فيه من آيات العلم والحكمة والسمو الأدبى، هو حجته البالغة على أنه مبلغ عن الله، لايد له فيما يتلوه منه، كما يقول الله

---

(١) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة فى القرآن، الكويت، ١٩٧٥ ،ص ٨٤.

(٢) سورة الإسراء، آية : ٨٨. (٣) سورة هود، آية : ١٣.

(٤) سورة يونس، آية : ٣٨. (٥) سورة البقرة، آية : ٢٣.

(٦) سورة الإسراء، آية : ٣٨. وانظر: تفسير القرطبى، ص ٣٩٤٢-٣٩٤٣؛ عبد الله محمود شحاته، تفسير سورة الإسراء، ص ٢٣٤-٢٣٧.

(٧) سورة فصلت، آية : ٤٢. وانظر: تفسير الكشاف، ٢٠١/٤-٢٠٢؛ تفسير مجمع البيان، ٢٤/٢٤-٢٦؛ تفسير روح المعانى ١٢٧/١٤-١٢٨؛ تفسير الفخر الرازى، ١٣١/٢٦؛ تفسير النسفى، ٣٨٠/٤؛ تفسير القرطبى، ص ٥٨١٠-٥٨١١؛ تفسير ابن كثير، ١٧١/٧-١٧٢.

تعالى ﴿وما كنتَ تتلو منْ قبله منْ كتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بيمينك إذاً لارتاب المُبْطلُونَ﴾[١] ثم ليكون هذ الكتَابَ دستور أمة أمية، لم تكن تقرأ وتكتب، وأنَ يكون هذا الدستور أكمل وأمثل نظام عرفته البشرية، وأن يكون إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها، معجزة الإنس والجنّ فى كل دهر وعصر[٢].

وعوداً على بدء، إلى معجزة موسى عليه السلام، حيث نرى أن المصريين إنما كانوا ـ فيما تشهد به قصص أدبهم ـ يحبون أحاديث السحر وخوارق الأعمال، وفيما نسبوه إلى خوفو ـ وهو اختصار اسمه الكامل خنوم خوفو وى ـ فى بردية وستكار[٣] ـ أو قصة خوفو والسحرة، من حبه السحر وإقباله عليه، ما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس فى العصور القديمة من خيالات يردونها إلى السحر ويستعينونه عليها[٤].

تروى البردية فى القصة الثالثة ـ أو قصة الزوج المخدوع ـ أن كاهناً يدعى «أوبا أونر» كانت له زوجة قد أقامت علاقة غير شريفة مع فتى من أواسط الناس، وأنهما كانا يلتقيان ـ فى غياب زوجها ـ فى منزل ريفى يملكه الزوج الكاهن على حافة بحيرة، حيث كانا يعاقران الخمر، ويرتكبان ما حرّم الله، ثم ينزل الفتى آخر النهار فيغتسل فى البحيرة، على أن حارس

(١) سورة العنكبوت، آية : ٤٨؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٥٠٦٧-٥٠٦٩.

(٢) عبد الرحيم فوده، من معانى القرآن، ص ٤-٦؛ تفسير ابن كثير ٩٢٧/٤.

(٣) البردية محفوظة بمتحف برلين، وترجع إلى أيام الدولة الوسطى، وربما إلى عصر الهكسوس، وكان «أدولف إرمان» أول من عنى بشرها، كما نشرها «جاستون ماسبيرو»، و«ماكس بيبر» و«بيت» ومجموعة من العلماء المصريين والأوربين بعد ذلك. انظر:

A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, p. 36-47.

وكذا:

G. Lefebvere, Romans et contes Egyptiens de L' Epoque Pharaonique, Paris, 1949, p 70-77; J. Maspero, Popular Stories of Ancient Egypt, p. 21 F; Max Pieper, Die Agyptische Literature, p. 55F.

(٤) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٠٥.

البيت، وقد سدرت المرأة فى غيّها، ومضت فى ضلالها زمناً، قد عمد فمشى بخبرها إلى زوجها، الذى صنع من الشمع كهيئة التمساح، فألقاه فى البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر، ما حوّله إلى تمساح مفترس عظيم، فلما نزل الفتى إلى الماء قبض التمساح عليه ونزل به إلى الماء، ثم تحدث الكاهن بخبر زوجته الخاطئة إلى الملك ودعاه إلى بيته ليشهد العشيق الشاب بين فكى التمساح، هنالك وقف الملك على حافة البحيرة مع الكاهن الذى نادى التمساح فخرج إليهما بفريسته، فما أن رأى الملك التمساح حتى ارتاع وفزع لمرآه، ولكن الكاهن ما كاد ينحنى عليه ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع[١].

وتروى البردية فى قصة سنفرو - رأس الأسرة الرابعة - وفتيات القصر، أن الملك إنما كان قد أحس ذات يوم ضيقًا فى الصدر، وحزنًا فى النفس، فأشار عليه كاهنه «جاجام عنخ» بالنزول إلى بحيرة فى القصر، مع عشرين فتاة من الغيد الحسان من فتيات قصره، يجدفن ويغنين، وقد فعل الملك، فتسربت إليه البهجة وسرى إلى نفسه السرور، بما شهد من فتيات ليس عليهن من اللباس إلا ثياب من شبك لا تكاد تستر شيئًا، وبما سمع من غنائهن، وهن يسرن به فى أمواه البحيرة وسط الخمائل والأغصان، لولا ما رأى من توقفهن عن التجديف، لما شكت إحداهن من سقوط حليّة لها فى الماء وإصرارها على الحصول على حليتها لا ترضى عنها بديلا ولا عوضًا من الملك.

وسرعان ما استدعى الكاهن «جاجام عنخ» على عجل، فما أن علم

(١) جوستاف لوفيفر، روايات وقصص مصرية من العصر الفرعونى، ترجمة على حافظ، ص ١٤١-١٤٤؛ أحمد فخرى، تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى، الأدب المصرى القديم، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٠٧؛ أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٤٧، ١٠٥؛ سليم حسن، الأدب المصرى القديم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٥، ص ٧٧-٧٨؛ محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، الجزء الأول، الآداب والعلوم، الإسكندرية ١٩٨٩، ص ٧٠-٧٩.

بالخبر، حتى قرأ من عزائم السحر، الذى انشقت له مياه البحيرة، حيث انطوت نصف على نصف، فأصبح ارتفاع ماء البحيرة أربعة وعشرين ذراعًا فى أحد الجانبين، بعد أن كان اثنى عشر فقط، ورأوا فى قاع البحيرة تلك الحلية، وقد استقرت فوق قطعة مكسورة من فخار، فأشار إليها الكاهن ثم سلمها إلى صاحبتها.

وتروى البردية - مرة ثالثة - فى قصة الساحر «ددى» الذى بلغ من سحره أن يلحم الرأس المقطوع، ويذلل الأسد لإرادته، أن قد دعى إلى حضرة الملك «خوفو»، حيث عرض سحره عليه، وأوقعه بأوزة ثم ثور، فصل رأس كل منهما، ثم مازال يقرأ من عزائمه، والرأس يقترب من الجسد حتى التحما وعادت الحياة إلى كل منهما، ثم أعاد التجربة مرة ثانية فى بطة، ثم فى ثور، فنجح فى ذلك كله[1].

وهكذا يمكننا أن نفهم مادار بين موسى وسحرة فرعون، حينما «كلمّ الربُّ موسى وهارون قائلا: إذا كلمكما فرعون قائلا: هاتيا عجيبة تقول لهارون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانًا، فدخل موسى وهارون إلى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الربُّ، طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانًا»[2]، وإلى عصا موسى - وليس هارون كما تقول التوراة - يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، ونزعَ يدَه فإذا هى بيضاء للناظرين﴾[3]

وهنا رأى الملأ من قوم فرعون ما راعهم وروّعهم، ولكن خوفهم من

---

(١) جوستاف لوفيقر، المرجع السابق، ص ١٤٧-١٥١؛ أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٩٨-٤٠٠؛ سليم حسن، المرجع السابق، ص ٨١-٨٣؛ أحمد عبد الحميد يوسف المرجع السابق، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) خروج ٧: ٨-١٠.

(٣) سورة الشعراء، آية : ٣٢-٣٣.

فرعون منعهم من أن يقولوا كلمة الحق، رأوا عصا موسى وقد صارت حية تسعى، ورأوا يده بعد أن أخرجها من جيبه، وقد صارت بيضاء من غير سوء، فلم يصدقوه مع ذلك فى أنه مرسل من قبل الله ربّ العالمين، واتهموه بأنه ساحر ماهر يريد أن يستعلى هو وأخوه فى أرض مصر، ليخرجا منها أهلها، ويمكنا لبنى إسرائيل فيها، وانتهوا بعد التشاور إلى أن يرجئ فرعون موسى وأخاه دون عقاب حتى تبطل حجتهما وتثبت إدانتهما، وذلك بأن يحضر المهرة من السحرة، ويجمعهم من المدائن ليواجه بهم هذا الساحر الماهر، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في سورة الأعراف حيث يقول: ﴿قال الملأُ مِنْ قومِ فِرْعَوْنَ إنَّ هذا لساحرٌ عليم يريد أن يُخْرِجَكُم مِنْ أرضكم فماذا تأمرونَ. قالوا أَرْجِهِ وأخاه وأرسِل فى المدائِنِ حاشرينَ، يأتوكَ بكلِّ ساحرٍ عليمٍ﴾[1]

واجتمع السحرة فى ميقات يوم معلوم - يوم الزينة، ولعله يوم عيد وفاء النيل - ثم تقدموا ممتلئين ثقة بأن لهم النصر والأجر، وخيروا موسى بأن يبدأ بسحره، أو أن يكونوا هم البادئون، فأعطاهم موسى حق السبق فى عرض مهارتهم - وهكذا ألقوا حبالهم وعصيهم، فصارت العصى - كما تقول التوراة [2] - ثعابين، أو بالأحرى، خيل إلى موسى من سحرهم أنها تسعى، كما نص الذكر الحكيم[3]. ثم ألقى موسى عصاه، فإذا هى حية كبيرة، تسعى، تلتهم حبالهم وعصيهم التى سحروا بها أعين الناس واسترهبوهم، وخرّ السحرة ساجدين ﴿قالوا ءامنّا بربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون﴾[4]

---

(١) سورة الأعراف، آية : ١٠٩-١١٢؛ وانظر: تفسير الطبرى، ١٨/١٣-٢٥؛ تفسير المنار، ٣٣/٩-٥٥؛ تفسير ابن كثير ٤٥١/٣-٤٥٢؛ تفسير القرطبى، ص ٢٦٩٢-٢٦٩٣.

(٢) خروج ٧ : ١٢ (هذا مع ملاحظة أن التوراة تقول أن هارون هو الذى ألقى عصاه ، وليس موسى، ولست أدرى هل الداعية هو موسى أم هارون، ولعل ذلك نوعاً من تحريفات التوراة).

(٣) سورة طه، آية : ٦٦.

(٤) سورة الأعراف، آية : ١٢١-١٢٢؛ وانظر: تفسير ابن كثير ٤٥٤/٣؛ تفسير القرطبى ص ٢٦٩٦٤؛ تفسير المنار ٥٩/٩-٦٢؛ تفسير الطبرى ٣٢/١٣.

وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿قالوا أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى، فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحًى، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى، قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم وقد خاب من افترى، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى، فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً، وقد أفلح اليوم من استعلى، قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس فى نفسه خيفة موسى، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى، فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى﴾[1].

كان ذلك يوم مجموع له الناس، كأنما كان فرعون يريد أن يجعل من موسى وهارون أضحوكة عامة تشيع فى أرجاء مصر كلها، ثم فوجئ فرعون وفوجئ المجتمعون بما لم يكونوا يتوقعون، ولوحظ أن السحرة كانوا أول المؤمنين برب موسى وهارون، ورأى فرعون ذلك فكاد أن يتميز من الغيظ، وقال: ﴿ءامنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى، إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى، ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار

---

(١) سورة طه، آية : ٥٧-٧٠. وانظر: تفسير القرطبى، ص ٤٢٥١-٤٢٦٤.

خالدينَ فيها وذلك جزاءُ مَنْ تزَكّى﴾[1]

ويقول سبحانه وتعالى في نفس المعنى من سورة الأعراف: ﴿قال فرعون ءامنتم له قبل أن آذن لكم إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه بالمدنية لتُخْرِجُوا منها أهلَهَا فسوف تعلمون، لأقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم منْ خلافٍ ثم لأصلّبنّكم أجمعين، قالوا إنّا إلى ربّنا منْقَلِبُونَ، وما تنقمُ منّا إلاَ أن آمنّا بآياتِ ربّنا لما جاءتنا ربّنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾[2].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذا الوعيد من فرعون لسحرته، إنما انفرد به القرآن من دون التوراة، وهو خبر خليق بالمؤمنين قبوله والإيمان به، لأنه تنزيلٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومع ذلك فقد شاء الله أن نجد مصدقًا لما بين يدينا من القرآن، وأن ينحدر إلينا من وثائق التاريخ نص يصور وسائل التعذيب في زمان «فرعون»،قال النسفي إنه أول من قطع من خلاف وصلب[3]، وقد ورد النص عن مرنبتاح» الذى شاع في الناس أنه فرعون الخروج[4] - كما سوف نفصل فيما بعد -.

وأيًا ما كان الأمر، فلقد كان هذا موقف الذين آمنوا من المصريين، ملك الحق قلوبهم، وملأ الإيمان مشاعرهم، فاستخفوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم في جذوع النخل، وقالوا: ﴿لا ضير، إنّا إلى ربّنا منقلبون، إنّا نطمعُ أن يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا أنْ كنّا أولَ المؤمنين﴾[5]، وهنا تتجلى قوة الإيمان، إذا سكن القلب واطمأنت به النفس،

(١) سورة طه، آية: ٧١-٧٦.

(٢) سورة الأعراف، آية : ١٢٣-١٢٦.

(٣) تفسير النسفي، ٧٠/٢؛ وانظر : تفسير الطبري ٢٦٨/١٠، ٣٤/١٣-٣٥؛ تفسير ابن كثير ٣٨٠/٢-٣٨٨.

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ١١٠. وانظر:

A.A. Youssef, Merenptah's Fourth Year Text at Amarna, ASAE, LVIII, 1946, p. 273F.

(٥) سورة الشعراء، آية : ٥٠-٥١.

وتتجلى الحقيقة بالاستعداد للفداء فى سبيلها، ويظهر طغيان فرعون الذى يستعظم أن يكون فى مصر من يذعن للحق قبل أن يأذن له الملك.

وفوجئ فرعون بما لم يكن يتوقع من عجز السحرة وفضيحة الهزيمة أمام موسى بين الناس، وأحس أن صرح كبريائه بدأ ينهار، كما أحس الملأ من حوله أن مقامهم كذلك صائر إلى دمار، والبطانة من حول الملك ـ وكل الملوك وأصحاب السلطان ـ لا تخلد إلى السكون، فهى دائمة القول، دائمة التحريض، لأن الدعوة الجديدة تعصف بمقامهم ومقام زعيمهم فى البلاد، ولعل ذلك يمكن أن يفهم من قولهم لموسى وهارون عند أول لقاء:[1] ﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض﴾[2]، ومن ثم فإننا نراهم يحرضون فرعون على مذبحة جديدة بين بنى إسرائيل: وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك، قال سنقتل أبناءهم، ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾[3]

غير أن قتل موسى وهارون إنما كان جد صعب المنال، وربما كان السبب فى ذلك خوف الفرعون وملئه من حدوث هياج عام بين المصريين أنفسهم، وخاصة بعد أن شاع وذاع، وملأ الأسماع، نبأ المعجزة الباهرة التى قهرت المهرة من السحرة، وحملتهم على أن يؤمنوا ويعلنوا إيمانهم على رؤوس الأشهاد بهذه الصورة الرائعة المؤثرة، ومن ثم فأكبر الظن أن النبيين الكريمين لم تكن لهما من قوة تحميهما ـ فى نظر فرعون ـ إلا الخوف من

---

(١) عبد الرحيم فوده، المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٢) سورة يونس، آية : ٧٨؛ وانظر: تفسير الطبرى، ١٥/١٥٨-١٥٩ (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠)؛ تفسير القرطبى، ص ٢٢٠٥-٢٢٠٦ (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠)؛ تفسير المنار، ١١/٢٨٠-٢٨١ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥)؛ تفسير ابن كثير ٤/٢٢٠-٢٢١ (دار الشعب، القاهرة ١٩٧١).

(٣) سورة الأعراف، آية : ١٣٧.

هياج الرأى العام - إن صحّ هذا التعبير - بعد أن سمع ما سمع، ورأى ما رأى.

ولعلنا نستطيع أن نلمس هذه المعارضة، فيما حكاه القرآن عن فرعون حين قال: ﴿ذرونى أقتلْ موسى وليدع ربّه إنّى أخافُ أن يبدّلَ دينكم أو أن يُظْهِرَ فى الأرض الفساد﴾[1]، فإن كلمة ﴿ذرونى﴾ تفيد أنه كان هناك من يعوقونه أو يمنعونه، أو يشيرون عليه بغير ما كان يرى، بل إن هناك دليلا من القرآن قد يفيد ذلك، إذ أن فرعون عندما ضاق ذرعًا بموسى، وعقد مع الملأ مؤتمرًا للفتك به، فوجئ بواحد من هذا الملأ يكتم إيمانه، ينهض لمعارضة هذه الفكرة، ويقول: ﴿أتقتلونَ رجلا أن يقولَ ربِّىَ الله، وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم، وإنْ يَكُ كاذبًا فعليه كذبُه وإنْ يكُ صادقًا يُصبْكُم بعضُ الذى يعدكم، إنّ الله لا يهدى مَنْ هو مسْرِفٌ كذّاب، يا قوم لكم الملكُ اليومَ ظاهرين فى الأرض، فَمَنْ ينصرُنا من بأسِ الله إنْ جاءنا؟﴾[2]

وهال فرعون ما سمع، فأخذته العزة بالإثم، ونفخ الشيطان فى روحه، فقال: ﴿ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيلَ الرّشَاد﴾، وعاد الرجل يعقب على كلام فرعون، ويحذر فرعون من غضب الله وبطشه، ويحذرهم بما حدث لغيرهم من الطغاة العتاة، ثم أعلن أنه أبرأ ذمته[3]، ﴿فستذكرونَ ما أقولُ لكم وأفوّضُ أمرى إلى الله، إنّ الله بصيرٌ بالعباد﴾[4]

وهكذا فشل فرعون وملؤه فى تدبير خطة لاغتيال موسى، بل إن القرآن إنما يحدثنا أن فرعون إنما وجد المعارضة فى داخل بيته، من زوجه نفسها، ذلك أن امرأة فرعون قد استطاعت أن تحرر فكرها ووجدانها من كل الأواصر والمؤثرات والقيود، فترفض أن تسير فى ركاب زوجها، وأن تنساق فى تيار

(١) سورة غافر، آية : ٢٦.
(٢) سورة غافر، آية : ٢٨-٢٩.
(٣) عبد الرحيم فوده، المرجع السابق، ص ١٨٠، ١٨٥.
(٤) سورة غافر، آية : ٤٤.

المجتمع الذى تعيش فيه، بل تعلن عن موقفها فى ثبات وإيمان، بعد أن اتضح لها ضلال فرعون، وتبين لها الحق فى دعوة موسى، رغم ضغط المجتمع وشدة وطأته، ورغم مغريات الحياة الرخية الناعمة فى قصر أعظم ملوك الأرض، ورغم آصرة الزوجية التى تربطها بفرعون، فكانت مثلا للشخصية الإنسانية المستقلة في الإيمان بالمبادئ والقيم [١] ﴿وضَربَ اللهُ مثلاً للَّذينَ آمنوا امرأةَ فرْعونَ إذْ قالتْ ربِّ ابنْ لي عندكَ بيتًا في الجنَّة ونَجِّنى مِنْ فرعونَ وعمله ونجِّنى منَ القومِ الظالمين﴾[٢]، وهى التى أودع اللهَ فى قلبها حب الكليم والشفقة عليه والرحمة به من أول لحظة رأته فيها، وقالت امرأة فرعونَ قُرَّةَ عينٍ لى ولَكَ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا﴾[٣]

وأيًا ماكان الأمر، فلقد علم موسى أن فرعون ماض فى غلوائه وكبريائه، كما علم بنو إسرائيل ما ينتظرهم من المحن والفتن فتملكهم الرعب، ولم يجدوا فى أنفسهم قوة تعينهم على مجرد الصبر والاحتمال، فقد قال لهم موسى ﴿استعينوا باللهِ واصبروا إنَّ الأرضَ لله يورثُهَا مَنْ يشاءُ منْ عباده والعاقبةُ للمتَّقين﴾[٤]، فكان جوابهم ما قدمناه مما حكاه القرآن عنهم ﴿أوذينَا مِنْ قبلْ أنْ تأتينَا ومِنْ بعدْ ما جئْتَنَا﴾[٥]، وهو جواب ينم عن عدم الإيمان بالله والثقة بعونه ونصره، كما ينم عن شعورهم بهوان قدرهم، والعجز عن الصبر[٦].

ونقرأ فى سفر الخروج من التوراة أن موسى ضرب النهر بعصاه فتحول الماء دمًا، ومات السمك وأنتن النهر، فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر، وكان الدم فى كل مصر، وفعل عرافو مصر كذلك بسحرهم[٧]،

(١) التهامى نقرة، المرجع السابق، ص ٤٠١. (٢) سورة التحريم، آية : ١١.
(٣) سورة القصص، آية : ٩. (٤) سورة الأعراف، آية : ١٢٨.
(٥) سورة الأعراف، آية : ١٢٩. (٦) عبد الرحيم فوده، المرجع السابق، ص ١٨٣.
(٧) خروج ٧: ١٤-٢٢.

وبعد أيام سبعة، سلط الله عليهم الضفادع، حتى اكتظت الأرض بالضفادع فجأة خرجت من النهر ربوات ربوات، حتى خيل أن الأرض تتحرك بسببها[١]، مما جعل فرعون يطلب من موسى أن يسأل ربه أن يرفع الضفادع عنه وعن قومه، وحين أجيب إلى سؤله، عاد ثانية فاشتد قلبه[٢]، فسلّط الله عليه - وعلى جميع أرض مصر - البعوض[٣]، فإذا ما تذكرنا أن المصريين كانوا قوماً يراعون منتهى الدقة في النظافة، كما كان الكهنة أكثر نظافة، كانوا يغتسلون مراراً ويحلقون شعورهم، لكي لا يعلق بهم أي دنس يعطلهم عن واجباتهم المقدسة، ومن ثم فقد كانت ضربة «البعوض» هذه فوق أنها كانت أليمة، فهي بغيضة إلى نفوسهم الرقيقة الإحساس، فإذا أضفنا إلى ذلك الذباب - ولعله الجعران - لعرفنا السبب الذي جعل فرعون يكرر طلبه إلى موسى أن يسأل ربه في أن يرفع عن مصر هذه المصائب، في مقابل أن يسمح لبني إسرائيل أن يذبحوا لربّهم في البرية على ألا يبتعدوا كثيراً، فما أن دعا له موسى وفرّج الله كربته، حتى عاد سيرته الأولى، فاشتد على بني إسرائيل، ومنعهم من الخروج إلى البرية[٤].

وتتكرر دعوات موسى بالمصائب على فرعون، ولكنها هذه المرة في الحقول، وعلى الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم، ولا يستثني ربُّ إسرائيل من هذا الوباء غير ماشية بني إسرائيل، ولعل الأخيرة إنما كانت السبب في أن فرعون لم يطلق سراح بني إسرائيل[٥]، فكرّر ربُّ إسرائيل

(١) ف.ب. ماير، حياة موسى، ترجمة القس مرقس داود، ص ١٠٤.

(٢) خروج ٨: ١-١٥.

(٣) القمل بدلا من البعوض، في الترجمة الإنجليزية والفرنسية وهامش الكتاب المقدس، وأما الترجمات التي استعملت كلمة «البعوض» فهي الترجمة العربية، وكذا الألمانية. وفي القرآن الكريم ﴿القمل﴾ (الأعراف، آية : ١٣٣).

(٤) خروج ٨: ١٦-٣٢.

(٥) خروج ٩: ١-٧. وانظر: ف.ب. ماير: المرجع السابق، ص ١١١-١١٢.

مصائبه على فرعون وقومه، إذ أمر موسى وهارون أن يأخذ رماداً من أتون منطفئ ويذرياه نحو السماء ليصير على الناس وعلى البهائم دمامل ذات بثور، فانتشرت الدمامل فى كل أرض مصر، حتى لم يستطع العرافون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل لأن الدمامل كانت فى العرافين وفى كل أرض مصر(١).

ومع ذلك كله، فإن فرعون لم يؤمن بموسى وهارون، ولم يسمح لهما بالخروج ببنى إسرائيل، ومن ثم فإن التوراة تروى «مدّ يدك ليكون برد فى كل أرض مصر»، وهكذا صعدت من البحر سحب كثيرة وكثيفة محملة بالرعد فغطت الأرض، وصبت حملها فى برد ورعد، أهلك الحرث والمواشى، وكالعادة ــ وطبقًا لرواية التوراة ــ فإن العاصفة لم تهدأ إلا برجاء من فرعون أن يسأل موسى ربّه بأن يكف هذا البرد، وذلك الرعد عن القصر وكل أرجاء المدينة(٢).

وعاد فرعون سيرته الأولى، فسلط الله عليه الجراد، وأصبح وجه مصر الأخضر أسمر بسبب لون الجراد، واختفى كل زرع أخضر، وكل أوراق أشجار الفاكهة الخضراء، وكل عشب أخضر، وأخيراً ــ وبدون إنذار — حلّ الظلام على الأرض «حتى لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام»، فشلّت كل حركته، وارتعدت أقسى القلوب، وانتهت الأمور بأن الفرعون قال لموسى: «اذهب عنى، احترز، لا تر وجهى أيضاً، إنك يوم ترى وجهى تموت، فقال موسى: نعما قلت، أنا لا أعود أرى وجهك أبداً»(٣).

هذه هى الضربات التى أوقعها ربُّ إسرائيل بفرعون وقومه ــ كما جاءت فى توراة يهود ــ وهى ــ وإن اتسمت بالمبالغة أحيانًا، وعدم الدقة

(١) خروج ٩ : ٨-١٢. وانظر: ف.ب. ماير المرجع السابق، ص ١١٤.

(٢) خروج ٩ : ١٣-٣٥؛ مزمور ٧٨ : ٤٧-٤٨؛ ف.ب. ماير، المرجع السابق، ص ١١٦-١١٨.

(٣) خروج ١٠ : ١-٢٩.

أحياناً أخرى ـ فإنها تتفق بصفة عامة مع ما جاء عنها فى الذكر الحكيم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون، وقالوا مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل[1] والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون، فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾[2].

وعلى أى حال، فإن كل الكوارث ـ التى جاءت فى القرآن، وترددت فى التوراة ـ على أنها قد لحقت بمصر سنين عدداً، فأصيبت البلاد بالقحط والعلل والافات، إنما تصدقها أحداث التاريخ، فمصر لم تكن على أى حال ـ كما رأينا من قبل ـ بمنجاة بما قد ينزل بها من كوارث، فربما انحبس النيل فصوّح الزرع، أو زاد فأغرق البلاد بطوفان عظيم، وهو على الحالين، كما قدمنا، نذير النوازل ونقص من الثمرات، فإذا وقعت الواقعة انتشرت بها

---

(١) اختلف المفسرون لكتاب الله الكريم فى لفظ ﴿القمّل﴾ فقالوا هى «الدبا» بفتح الباء ـ وهو صغار الجراد الذى لا أجنحة له ـ وهى البراغيث، وهى دواب سود صغار، وهى «الحمنان» ـ وهو ضرب من القردان، واحدتها «حمنانة» فوق «القمقامة» وهو ضرب شديد التشبث بأصول الشعر، وهو ـ أى القمل ـ السوس الذى يخرج من الحنطة، وهو الجعلال، والذى هو دابة سوداء من دواب الأرض (انظر: تفسير الطبرى، ٥٤/١٣-٥٦؛ مجاز القرآن ٢٢٦/١؛ تفسير ابن كثير ٤٦١/٣-٤٦٣؛ تفسير القرطبى، ص ٢٧٠٥-٢٧٠٦.

(٢) سورة الأعراف، آية : ١٣٠-١٣٦؛ وانظر: تفسير المنار، ٧٤/٩-٨٤؛ تفسير ابن كثير ٤٥٥/٣-٤٦٤؛ تفسير القرطبى، ص ٢٦٩٩-٢٧٠٨؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم، ٢١٠/٤-٢١٣ (القاهرة ١٩٧٤)؛ تفسير الطبرى، ٤٥/١٣-٧٥.

الأدواء والأوبئة، فحصدت الناس حصداً يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور[١].

ونقرأ في وثائق عصر الثورة الاجتماعية الأولى في مصر ـ وعلى لسان حكيمها «إيبو ـ ور» قوله «حقًا لقد دفن رجال عديدون في النهر، فأصبح النهر قبراً، وصار المكان الطاهر (أى مكان التحنيط) مجرى[٢]»، وكذلك كما حدث في أخريات أيام الأسرة العشرين، حين اشتد بالناس الجوع عاماً، سمّوه «عام الضياع»[٣].

وعلى أى حال، فالواضح تمامًا من النصوص المقدسة أن البلاد قد أصيبت في تلك الفترة بالقحط والجدب، ونقصت ثمراتها بالجوائح الجوية والآفات السماوية، وغرقت أرضها بطوفان، وهجمت عليها جيوش جرارة من الجراد تجتاح الأخضر واليابس، وامتلأ الجو بالبعوض، وكثر «الدبا» في الأرض وكذا الضفادع التي نغصت على الناس حياتهم، فكانوا يجدونها في كل ماكن، وهكذا كانت النقمة عامة، وكان بلاء من السماء لم يصب الطبقة الحاكمة وحدها، وإنما شمل الناس جميعًا بما فيهم الكهنة وعامة الشعب[٤].

---

(١) رأيت مثل هذا بنفسي يوم نكبت بلادنا في محافظتي قنا وأسوان بالملاريا في الفترة ١٩٤٢-١٩٤٥م.

(٢) سليم حسن، المرجع السابق، ص ٣٠٣؛ وكذا:

A.Erman, LAE, 1927, 9; A.H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage Lepizig, 1909, p. 26.

(٣) محمد بيومى مهران، مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث، ص ٣٥٧-٣٥٩.

وكذا: J.Cerny, Fluctuations in Grain Princes during the Twentieth Egyptian Dynasty, in AQ, VI, 1933, p. 173-177.

وكذا: J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1936, p. 274-278.

(٤) عبد الرحيم فوده، المرجع السابق، ص ١٨٣-١٨٤. وانظر: سورة الأنفال، آية: ٢٥.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا ـ وقبل أن نترك موضوع موسى وفرعون ـ أن نشير إلى «ألوهية فرعون» التى رأيناها موضوع جدل شديد بين النبىّ الكريم والملك الفرعون، بل هى الصخرة التى تحطمت عليها كل أوجه التقارب بينهما.

ومما يزيد الأمر أهمية، أننا لا نعرف دعوة من دعوات الأنبياء الكرام، يتعرض صاحبها لزعم من أرسل إليه أنه إله الناس ـ الأمر الذى كان يعرفه الكليم جيداً ـ بل إن الفرعون إنما يهدّد النبىّ نفسه، ﴿لئنْ اتخذتَ إلهًا غيرى لأجعلنَّكَ منَ المسْجُونين﴾[١]، ثم يعلن للناس عامة ﴿ما علمْتُ لكم من إلهٍ غيرى﴾[٢]، وعندما تقدم له موسى بآياته الكبرى، فما كان منه إلا أن رفض الدعوة كلها، ﴿ثم أدبر يسعى فحشر فنادى، فقال : أنا ربُّكم الأعلى﴾[٣].

فما قصة ألوهية فرعون هذه ؟

استطاع مؤسس الأسرة الأولى المصرية، أن يكوّن لمصر حوالى عام ٣٢٠٠ق.م، حكومة مركزية قوية ثابتة الأركان، كان على رأسها «الملك الإله» الذى استطاع أن يجمع بين يديه كل السلطات، حكومة كان الملك فيها هو المحور، بل هو الروح التى تبعث الحياة فى الدولة، وكل ما يحدث فيها وحى منه، قامت على أسس دينية عميقة الأثر، فهو «الإله العظيم»، وهو «الإله الصقر حور»، الذى تجسم فى هيئة بشرية، ولهذا فهو ـ فى نظر رعاياه ـ إله حى على شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة الأخرى فيما لها من حقوق، ومن ثم فله حق الاتصال بهم، وله على شعبه ـ ما لغيره من الآلهة ـ من التقديس والمهابة[٤].

(١) سورة الشعراء، آية : ٢٩.   (٢) سورة القصص، آية : ٣٨.

(٣) سورة النازعات، آية : ٢٢-٢٤.

(٤) محمد بيومى مهران، التنظيم السياسى فى مصر والعراق القديم، ص٤، (الإسكندرية، ١٩٧٠)؛ وانظر كذلك: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، ١١٩/٢-١٥١، (الإسكندرية ١٩٨٩).

ومن هنا كان الأساس السياسى والاجتماعى الذى قامت عليه الحضارة المصرية، هو التأكيد كل التأكيد، بأن مصر يحكمها إله، وأن هذا الإله الجالس على العرش غير محدود المعرفة والمقدرة، وأنه على علم بكل ما يدور فى أرض الكنانة، ومن هنا كان من الصعب أن تفرق بين الملك والدولة، إذ كانت كلمته قانون، ورغبته أمر، ورعيته ملك يمينه، يتصرف فيها كيف شاء، ومتى شاء[١].

وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم فى كيفية إيمان المصريين بأن الجالس على العرش إله يحكم بشراً؟ وكيف أصبحت ألوهية الفرعون عقيدة الدولة الرسمية، فهناك من يرى أنها إنما كانت وليدة أسباب انتصاره على منافسيه، ثم اصطناعه صفات إلهية، حتى غدا إلهًا بين الآلهة[٢]، ومن يرى أن الصعاب التى لاقاها مؤسسو الوحدة دافعًا للقول بأن مصر يحكمها إله، تتمثل فيه القوى التى تهيمن على القطرين (الصعيد والدلتا)، بل إنه ادعى منذ الأسرة الخامسة بأنه الابن الشرعى لإله الشمس «رع»، أعظم الآلهة وسيدهم، وبذلك تمكن الملك من أن يتباعد بنفسه عن أن يكون من البشر، وعن أن يكون منتسبًا لأى جزء من أجزاء مصر، ومن ثم فقد انتفت حجة الوجه البحرى فى معارضته فى أن يحكمه رجل من الصعيد[٣].

وهناك وجه آخر للنظر، يذهب إلى أن المصرى كان لا يحس بضرورة تحديد الأنواع تحديداً صريحًا، فقد سهل عليه أن ينتقل من البشرى إلى الإلهى براحة تامة، وأن يقبل العقيدة التى تنص على أن الفرعون الذى كان يعيش بين الناس كأنما هو من لحم ودم إنسانى، كان فى الحقيقة «إله»

---

(١) محمد بيومى مهران، حركات التحرير فى مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٧.

(٢) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الرابع، ص ٧٤، الإسكندرية ١٩٦٦.

(٣) عبد المنعم أبو بكر، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، النظم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦٢، ص ١١١.

تكرم فأقام فوق الأرض ليحكم أرض مصر، ومن ثم فإن طريقة التفكير هذه، فيما يرى جون ويلسون - بجانب العوامل الجغرافية - إنما كانت سببًا فى عقيدة الملكية الإلهية، التى ربما كانت سهلة وطبيعية بالنسبة للمصريين، وربما كانت متأصلة الجذور منذ أيام ما قبل التاريخ[١].

وهناك رأى رابع، يحملها نتيجة أسباب دينية، ذلك أن المصريين القدامى إنما كانوا يعتقدون - كما تروى الأساطير - أن آلهة التاسوعيين قد حكموا الواحد تلو الآخر على الأرض فى مصر ذاتها، قبل أن يعرجوا إلى السماء - أو فيما يختص بالذين ذاقوا الموت قبل أن يهبطوا إلى الجحيم - وكانت القوائم الملكية تبدأ بهم، بل وتحدد عدد سنى حكمهم - كما تفعل بردية تورين - وقد ترك «أوزير» آخر الآلهة العظام، لابنه حور ملك مصر، ومن «حور» هذا تحدر فى زعمهم كل ملوك مصر، وبناء على ذلك فإن حق الملك يقوم على طبيعته الإلهية التى كانت تنتقل مع الدم، وفى عهد الأسرات الأولى لم تكن ألوهية الملك مؤكدة إلا لتسلسله من «حور» إله الأسرة بغض النظر عن أية مؤلفة دينية[٢].

وتذهب وجهة النظر الخامسة إلى أن ألوهية الفرعون إنما تتصل اتصالا وثيقًا بالعناصر الأساسية التى شكلت المبادئ والقيم المصرية منذ البداية، وتتركز تلك العناصر بصفة خاصة على تأثر الإنسان بكافة المقومات البيئية المحلية فى مصر تأثرًا كاملا بطريق مباشر أو غير مباشر، فقد بدأ الإنسان حياته المستقرة بالزراعة، ونشأ لأول مرة المجتمع الزراعى المستقر والمعتمد على ضمان توفير مياه الرىّ ومساعدة العوامل الطبيعية المختلفة الملازمة للإنتاج الزراعى السليم، ثم سرعان ما أدرك الإنسان ضرورة ضمان ذلك الاستمرار حتى يطمئن على حياته المستقبلة، وفى نفس الوقت آمن بالظواهر الطبيعية

(١) J.A. Wilson, op.cit., p. 45, 47.

(٢) أيتين دريوتون، وجاك فانديه، مصر، ترجمة عباس بيومى، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٩٠-٩١.

المحيطة به والمسيطرة على تلك البيئة، وشعر بارتباط حياته ومستقبله بتلك القوى الكونية المسيطرة على هذا العالم، وقد اعتبر الملك أحق من يقوم بوظيفة الوساطة بين الإنسان والآلهة، حتى يستطيع أن يضمن رضى تلك القوى على الإنسان، وبالتالى اطمئنانه على حياته الحاضرة والمستقبلة، ولذلك ارتبط ملوك مصر بعالم الآلهة ارتباطاً كبيراً لم يألفه المؤرخ فى أنظمة الحكم الأخرى فى منطقة الشرق الأدنى القديم[1].

وهكذا نرى العلماء يختلفون فى تفسيرهم لألوهية الملك المصرى، وكيف نشأت؟ وكيف اقتنع المجتمع المصرى وآمن بألوهية ملوكه؟

وإذا أردنا مناقشة ذلك كله، رأينا أن الأسباب العسكرية لا تستطيع وحدها أن تصل بالمغلوبين إلى الإيمان بألوهية ملوكهم، ذلك لأن الغزو قد يجبر قوماً على الخضوع لآخرين، وقد يجعل من زعيم المنتصرين «دكتاتوراً» يأمر فيطيع المغلوبون، ولكنه لا يجعل منه - بحال من الأحوال - إلهاً يؤمن الناس به، كواحد من آلهتهم الأخرى، وحتى لو آمنوا به فى فترة الغزو - وفى أعقابه لفترة ما - فكيف تسنى لملوك مصر أن يجعلوا من ألوهيتهم عقيدة يؤمن بها الناس حتى نهاية العصور الفرعونية.

وأما النظرية التى تجعل الصعاب التى لاقاها موسسو الوحدة دافعاً إلى القول بأن مصر يحكمها إله تتمثل فيه القوى التى تهيمن على القطرين، فقد يكون الأمر كذلك إلى حد ما، وفى هذه الحال، فإن توطيد هذا المبدأ فى جميع أنحاء البلاد إنما احتاج إلى وقت طويل، حتى قبل القوم أن ذلك الإنسان الذى يحكمهم ليس بشراً، بل هو من نوع آخر، فلدنيا ما يثبت أن الوحدة التى قامت فى أول عصر التأسيس لم يكتب لها البقاء طويلا، وإنما انهارت فى النصف الثانى من عصر الأسرة الثانية، إذ تدلنا آثار الملك «خع سخم» - والتى تقتصر على مدينة «نخن» - على مدى جهوده فى استرجاع

(١) رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت، ١٩٦٨، ص٢٨٢-٢٨٣.

الدلتا، وتوطيد الوحدة، والقضاء على الفتنة، الأمر الذى تمّ على يد خلفه «خع سخموى».

وأما الرأى الذى جعل من العوامل الجغرافية - إلى جانب طريقة التفكير المصرى - سبباً فى الإيمان بألوهية الفرعون، فإنها تضعف كثيراً، إذا ما تذكرنا أن ألوهية الملك المصرى، إنما كانت مرتبطة إلى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها - وليس بالعوامل الجغرافية فيها - وأن أية فترة من الفترات التى كان يضعف فيها الحكم، كان القطران ينفصلان بعضهما عن البعض الآخر، ولم يمسك عليهما وحدتهما إلا اعتمادهما المشترك على مياه النيل.

وأما ذلك الرأى الذى أرجعها لأسباب دينية، فهو فى الواقع إنما يعتمد على الأساطير - أكثر من اعتماده على الأدلة التاريخية - إذ لو كان الأمر كذلك، وكان مؤسس الوحدة معترفًا بألوهيته على اعتبار أنه سليل الإله «حور»، لما احتاجت الوحدة إلى كل هذه الحروب التى خاضها أبطال التوحيد، من أمثال «عقرب» و«نعرمر» و«عحا»، ولما احتاجت كذلك إلى جهود خلفائهم بعد النكسة التى أصيبت بها الوحدة فى عصر الأسرة الثانية.

وأما النظرية الاقتصادية، فرغم أهمية ضمان توفير الأمن الاقتصادى وغيره من مظاهر الاستقرار فى المجتمع، على أساس إمكان توسط الفراعنة بعد حملهم لتلك الصفة الإلهية لدى القوى الإلهية من أجل تحقيق ذلك فإن ذلك الأمر ليس بكاف لتعليل إيمان المصريين بألوهية ملوكهم، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان ملوك العراق القديم أحق بالألوهية من ملوك مصر، فبلاد الرافدين إنما كانت معرضة بصورة مستمرة للتقلبات الجوية التى تحول دون الاستقرار والطمأنينة، مما أدى إلى تعدد القوى الإلهية، وظواهر التنبؤ والتمائم، بينما كانت البيئة المصرية مطمئنة إلى حد كبير[١].

---

(١) رشيد الناضورى، التطور التاريخى للفكر الدينى، ص ١٦١، ١٦٣.

ومن ثم، فالرأى عندى: أن هذه الأسباب مجتمعة هى التى عملت على تأليه الفرعون فى أرض الكنانة، وربما كانت هناك فكرة أصيلة عن الملكية الإلهية فى مصر، ولكنها فكرة غير منتظمة، ثم جاءت الأسرة الأولى وانتهزت فرصة وجود هذا الرأى لتأييد النظام الجديد، فرفعت الفرعون من رتبة بشر متميز - من الجائز أن ينازعه سلطانه بشر آخر متميزون وأقوياء - إلى مرتبة «إله» لا يمكن منازعته، وهكذا كانت عقيدة الملكية الإلهية، كما نعرفها قد صيغت وعدلت كثيراً، ثم وجدت قبولاً رسميًا فى أوائل أيام الأسرات، وهذا قول لا يمكن إثباته بالتأكيد، ولكننا نستطيع القول أن العوامل الاقتصادية، وحاجة الناس إلى وسيط يكون بينهم وبين آلهتهم، لتحقيق ما يمكن أن نسميه بـ «الأمن الوقائى» ضد كل ما يصيبهم بأذى من قريب أو بعيد، ثم بدأ الملوك ينسبون أنفسهم - بعد قيام الوحدة وإخضاع الدلتا - إلى الإله «حور»، خليفة أبيه «أوزير» - آخر الآلهة العظام الذين حكموا مصر فى عصور ممعنة فى القدم - ومنذ الأسرة الخامسة (حوالى عام ٢٤٨٠ق.م)، يصبح الملوك أبناء للإله «رع» من صلبه، وفى عصور تالية، وحين يصبح آمون - سيد الآلهة وكبيرهم - يصبحون أبناء له.

٦ - موت موسى عليه السلام:

نجح موسى عليه السلام فى الخروج ببنى إسرائيل من مصر، وهناك فى صحراوات سيناء المقفرة، يلقى النبىُّ الكريم من قومه الأمرَّين - كما سوف نرى فيما بعد - وينتهى الأمر بأن يكتب على الخارجين من مصر أن يتيهوا فى الأرض أربعين عامًا، ينجح بنو إسرائيل فى آخرياتها فى الوصول إلى تخوم كنعان، وإن لم يكتب لهؤلاء أن يدخلوا الأرض المقدسة أبداً.

وهناك، ومن رأس الفسجة - التى يفترض أنها جزء من جبل نبو[1] -

(١) J. Finean, op.cit., p. 154.

وانظر:

S. J. Saller, The Memorial of Moses on Mount Nebo, 2 Vols, London, 1941.

وطبقًا لرواية التوراة، ينظر موسى إلى أرض الميعاد، ثم يموت ويدفن فى أرض «مؤاب»، ومن المحتمل أن جبل «نبو» إنما هو جبل «نبا» الحالى، على مبعد ثمانية أميال إلى الشرق من نهر الأردن، وأما «الفسجة» فربما كانت القمة الغربية والسفلى لنفس الجبل، ويقودنا الطريق المنحدر من الجبل إلى «عيون موسى» التى تشرف على خرائب قلعة «خربة عين موسى»[١]، وهناك كذلك خرائب بعيدة عنها، وتعرف بـ «خربة المخيط»، التى يمكن أن توجد بمدينة «نبو»، على مبعدة خمسة أميال إلى الجنوب الشرقى من «حسبان»، بينما على الجبل نفسه بقايا كنيسة بيزنطية[٢].

ومن الغريب المؤلم، أننا نقرأ فى التوراة [٣]، أن موت موسى وهارون إنما كانا بسبب خيانتهما للربّ، عند ماء مريبة قادش فى «برية صين» إذا لم يقدسانه فى وسط بنى إسرائيل، ومن هنا فقد حرّم الله الأرض المقدسة على موسى أبدًا[٤].

ويعلم الله - وتشهد الملائكة - أن موسى وهارون لم يكونا كما صورتهما يهود فى التوراة. وإنما كانا رسولين كريمين، بذلا الجهد - كل الجهد - فى تبليغ دعوة ربهما، وأفنيا عمرهما من أجلها، حتى لقيا الله مطمئنين إلى رضاه، وهكذا نرى القرآن الكريم يكرمهما أمجد تكريم، حيث يقول سبحانه وتعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا، وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا، وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ

(١) N. Glueck, The Other Side of the Jordan, New Haven, 1945, p. 143.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ٩٥٣/٢-٢٩٥٤؛ وانظر: J. FInegan, op.cit., p. 155.

(٣) تثنية ٣٢: ٤٨-٥٠.

(٤) هناك من المفسرين من يرى أن موسى قد عاش حتى شهد دخول فلسطين وأنه كان مع قومه يوم فتح أريحا، وإن رأى آخرون أنه مات - وكذا هارون - فى التيه، ثم بعث يوشع بن نون نبيًا وهزم الجبارين ودخل مدينتهم (انظر: تفسير الطبرى، ١٩٠/١٠-٢٠٠؛ تاريخ الطبرى، ٢٢٥/١؛ تفسير روح المعانى، ١٠٩/٦؛ تفسير الطبرسى ٧٠/٦-٧١؛ تفسير الكشاف ٦٢٢/١-٦٢٣).

هارون نبيًا﴾(١)، ويقول : ﴿ولقد مننّا على موسى وهارون ونجّيناهما وقومهما من الكرب العظيم، ونصرناهما فكانوا هم الغالبين، وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم، وتركنا عليهما فى الآخرين، سلام على موسى وهارون، إنّا كذلك نجزى المحسنين، إنهما من عبادنا المؤمنين﴾(٢)، ويقول عن موسى: ﴿وألقيتُ عليكَ محبةً منّى ولِتُصنَعَ على عينى﴾(٣)، ويقول : ﴿واصطنعتُكَ لنفسى﴾(٤)، ويقول: ﴿يا موسى إنّى اصطفيتُكَ على النّاسِ برسالاتى وبكلامى، فخُذْ ما آتيتك بقوةٍ وكُنْ مِن الشّاكرين﴾(٥)

وهكذا يرفع القرآن الكريم هذين النبيين الكريمين إلى الدرجة التى يستحقانها، ثم يطلب إلى المؤمنين به أن يرتفعوا إلى مستوى دينهم القويم، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بنى إسرائيل فى حكمهم على موسى عليه السلام(٦)، فيقول: ﴿يا أيّها الّذينَ آمنوا لا تكونوا كالّذينَ آذوا موسى فبرأه الله ممّا قالوا، وكان عِندَ الله وجيهًا﴾(٧)

انتقل موسى، عليه السلام، راضيًا مرضيًا عنه، وقد أكمل الرسالة،

---

(١) سورة مريم، آية: ٥١-٥٣؛ وانظر: تفسير البيضاوى، ٣٦/٢؛ تفسير الألوسى ١٠٣/١٦-١٩٤؛ تفسير الفخر الرازى ٢٢١/٢١؛ تفسير الطبرى ٩٤/١٦، تفسير الطبرسى ٤٤/١٦-٤٦؛ تفسير القاسمى ٤١٤٠/١١؛ تفسير القرطبى، ص ٤١٥٢-٤١٥٣.

(٢) سورة الصافات، آية: ١١٤-١٢٢؛ وانظر: تفسير البيضاوى، ٣٩٨/٣-٢٩٩؛ تفسير الفخر الرازى ١٥٩/٢٦-١٦٠؛ تفسير الطبرى ٩٠/٢٢-٩٢؛ تفسير روح المعانى ١٣٨/٢٣-١٣٩؛ تفسير ابن كثير ٣١/٧-٣٢؛ تفسير القرطبى ١١٤/١٥-١١٥.

(٣) سورة طه، آية : ٣٩. (٤) سورة طه، آية : ٤١.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٤٤؛ وانظر: الجواهر فى تفسير القرآن الكريم، ٢٧/٤؛ تفسير الطبرى ١٣/ ١٠٦-١٠٧؛ تفسير الطبرى ١٨/١٩-٢٠؛ تفسير القاسمى ٢٨٥٤/٧؛ تفسير المنار ١٠٤/٩-١١٢؛ تفسير القرطبى، ص ٢٧١٦؛ تفسير وجدى، ص ٢١٤؛ تفسير ابن كثير ٤٧١/٣.

(٦) عبد الرحيم فوده، المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٧) سورة الأحزاب، آية : ٦٩؛ وانظر : تفسير الفخر الرازى، ٢٣٣/٢٥؛ تفسير القرطبى ٢٥٠/١٤-٢٥٢ (القاهرة ١٩٦٧)؛ تفسير وجدى ص ٥٦١؛ تفسير الطبرى، ٥٠/٢٢-٥٣.

وبلغ الدعوة، ونقرأ فى التوراة (١) : «وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات»(٢) ، وليست هناك أية دلائل فى التوراة تشير إلى أن موسى لقى ميتة عنيفة، غير طبيعية، غير أننا نرى فى عام ١٩٢٢م «أرنست سيللين» يزعم أنه قد وجد فى بعض فقرات من سفر «هوشع» (٣) بقايا تقاليد مختلفة، ترى أن موسى قد مات شهيداً، فقد ذبحه الكهنة الذين أطاحوا تماماً بالدين الذى أسسه(٤) .

وفى عام ١٩٣٨م، أصدر «سيجموند فرويد» كتابه الشهير «موسى والتوحيد» ، زعم فيه أن هذه التقاليد ـ الآنفة الذكر ـ لم تكن مقصورة على هوشع، وإنما هى تتكرر فى كتابات معظم الأنبياء اللاحقين، بل إنها ـ فيما يرى سيللين ـ أساس التوقعات القادمة بمقدم المسيا (المسيح) . وقرب نهاية الأسر البابلى (٥٨٧-٥٣٩ق.م) انبثق الأمل بين الشعب اليهودى فى أن الرجل الذى اغتالوه بكل قسوة، سوف يعود من مملكة الموتى، ليقود شعبه النادم ـ وربما غير شعبه أيضاً ـ إلى أرض النعيم الخالد.

ثم يعترض «فرويد» على ما ذهب إليه «سيللين» من أن الحادث العنيف، قد وقع عند «شيتيم» Shittim بشرق الأردن، وإنما يفترض أن ذلك الحادث إنما وقع قبل اتحاد القبائل الخارجة من مصر، مع ذوى قرباها، فى الأرض الواقعة بين مصر وكنعان ـ وفى قادش، فيما يرى ماير وجرسمان وآخرون ـ ثم استبدل بعد ذلك موسى المصرى فى التقاليد، بموسى آخر، هو الذى أسس فيما بعد ديانة «يهوه»، وهو زوج ابنة «يثرون» كاهن مدين،

---

(١) تثنية ٧/٣٤.

(٢) ترى التقاليد اليهودية والنصرانية أن موسى أقام فى مدين أربعين عاماً ، وأنه حين خرج من مصر لاجئًا إلى مدين كان فى الأربعين من عمره، ثم بعث نبياً وهو فى الثمانين، وأنه مات وهو ابن مائة وعشرون سنة (أعمال الرسل ٧ : ٧، ٢٣ ، ٣٠؛ قاموس الكتاب المقدس ٩٣١/٢؛ شاهين مكاريوس، المرجع السابق، ص ٤٠؛ عدد ١٤ : ٣٣؛ تثنية ٣٤ : ٧).

(٣) هوشع ٤ : ٤-٩، ٥ : ١-٤؛ ٨ : ٣-٧، ٩ : ٧-١١.

(٤) Ernst sellin, Mose und seine bedeutung fur die israelitisch judische religions-geschichte, Leipzig, 1922.

والذى أطلقوا عليه اسم «موسى» كذلك[١].

ونحن لا نعرف، على أى حال، شخصية موسى الآخر، الذى يحجبه تماماً موسى الأول أو المصرى، فيما عدا بعض مفاتيح شخصيته التى تقدمها التناقضات التى يمكن العثور عليها فى التوراة لشخصية موسى، ففى الوقت الذى يوصف فيه بأنه قوى حاد المزاج، بل عنيف أحياناً، يقال عنه فى مواضع أخرى، أنه كان أكثر الرجال صبراً وتواضعاً، ومن الواضح أن مثل هذه الصفات الأخيرة، لا يمكن أن تكون ذات فائدة لموسى المصرى الذى قام بمثل هذه المشروعات الشاقة العظيمة، ولربما تعزى هذه الصفات إلى موسى الآخر، موسى مدين.

ولعل لنا الحق بعد ـ ذلك ـ فيما يرى فرويد ـ أن نفصل بين الشخصيتين إحداهما عن الأخرى، ونفترض أن موسى المصرى لم يذهب مطلقاً إلى «قادش» كما أن موسى مدين لم يضع قدمه فى مصر، ولم يعرف شيئاً عن «آتون» ولكن من أجل أن يصبح الاثنان واحداً جعلت التقاليد ـ أو الأساطير ـ موسى المصرى يذهب إلى مدين، وهكذا نرى أن أكثر من تفسير يمكن أن يقدم[٢].

والرأى عندى أن ذلك أمر غير مقبول، وأنه تحميل للنصوص أكثر مما تحتمل، صحيح أن التوراة تروى أن هناك ثورات عنيفة قامت أثناء فترة التيه فى صحراوات سيناء ضد موسى[٣]. وأن واحدة من هذه الثورات كانت من اللاويين، رهط موسى الأدنيين[٤]، بل إن أخرى إنما كانت من بيت موسى نفسه، من أخويه هارون ومريم[٥]، وصحيح أن واحدة من هذه الثورات إنما

---

(١) S. Freud, op.cit., p. 42-46.

(٢) S. Freud, op.cit., p. 46-49; A. Led, op.cit., p. 308.

(٣) خروج ١٥ : ٢٢-٢٥، ١٦ : ٢-٣، ١٧ : ١-٧.

(٤) عدد ١٦ : ١-٤١. (٥) عدد ١٢ : ١-١٥.

قد طالبت علانية بخلع موسى والعودة إلى مصر[١]، وصحيح أن رواية التوراة عن موت موسى وهارون إنما هى جد غامضة، وأنها تجعل خيانتهما للربّ ـ والعياذ بالله ـ سبباً فى هذا الموت[٢].

كل تلك أمور حدثتنا عنها التوراة، بل وصحيح كذلك أن قتل النبيِّين عند اليهود أمر مألوف، وصدق عزّ من قال: ﴿أفكلما جاءكُم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكُم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون﴾[٣]، وقد قتلت يهود يحيى عليه السلام[٤]، كما حاولت نفس الأمر مع المسيح عيسى بن مريم، ولكن الله جلت قدرته نجّاه من كيد الفاسقين، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وقولهم إنّا قتلنا المسيحَ عيسى بن مريمَ رسولَ الله، وما قتلوه، وما صلبوه، ولكنْ شبّهَ لهم، وإنّ الّذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظنّ، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وكانَ الله عزيزاً حكيماً﴾[٥].

---

(١) عدد ١٤: ٢-٤.
(٢) تثنية ٣٢: ٤٨-٥٢.

(٣) سورة البقرة، آية : ٨٧؛ وانظر: سورة البقرة ، آية : ٦١ ، ٩١؛ سورة آل عمران، آية : ١١٢؛ سورة المائدة، آية : ١١٢؛ سورة المائدة، آية: ٧٠؛ وكذا: تفسير الطبرى ٢/١٣٩-١٤٢، ٣٢٣- ٣٢٤، ٣٥٠-٣٥٤، ٧/١١٦-١١٨، ١٠٠/٤٧٧ (دار المعارف)، تفسير ابن كثير ١/٤٥- ١٤٧؛ ١٧٥-١٧٩، ٢/٧٧-٨٦؛ ٣/١٤٨؛ تفسير المنار ١/٢٧٣-٢٧٦، ٣١١-٣١٣، ٣١٧-٣١٨، ٥٧٤-٥٨، ٣٩٧-٣٩٨.

(٤) متى ١٤: ٢-١١؛ مرقس ٦ ٦: ١٧-٢٨؛ تاريخ يوسفيوس ص ٢١٤؛ فيليب حتى ، المرجع السابق، ص ٤٢٠، ٤٢٢؛ ثم قارن : ابن الأثير ١/٣٠١-٣٠٢؛ تاريخ الطبرى، ١/٥٨٥-٥٩٣؛ تاريخ ابن خلدون ٢/١٤٤؛ ابن كثير، قصص الأنبياء، ٢/٣٦٢-٣٦٦؛ الثعلبى، قصص الأنبياء، ص ٣٤٠-٣٤١؛ عبد الرازق نوفل، يوحنا المعمدان، ص ٥٩-٨٦؛ كتابنا «دراسات فى تاريخ العرب القديم»، ص ٥١٦-٥١٨ (الرياض ١٩٧٧ ـ أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت رقم ١ من المكتبة التاريخية).

(٥) سورة النساء، آية : ١٥٧-١٥٨؛ وانظر: تفسير الطبرسى، ٦/٢٧٩-٢٨٤؛ تافسير الطبرى، ٨/٣٧٦-٣٧٩؛ فى ظلال القرآن ٦/١٩-٢١؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٣/١٠٨-١٠٩؛ تفسير النسفى ١/٣٨٦-٣٧٧؛ تفسير الكشاف ١/٥٨٤-٥٨٩؛ تفسير روح المعانى ٤/١٠-١٢؛ تفسير أبى السعود ١/٨٠٨-٨١٠؛ تفسير الفخر الرازى ١٠/٩٩-١٠٢؛ تفسير القرطبى ، ص ٢٠٠٥-٢٠٠٦، تفسير ابن كثير ٢/٣٩٩-٤١٩؛ تفسير المنار ٦/١٠-٢٠.

كل ذلك وغيره صحيح، ولكن قتل موسى لم يقل به واحد من الكتب المقدسة ـ التوراة والإنجيل والقرآن العظيم ـ وهى دون شك مصدرنا الأساسى عن الأنبياء، عليهم السلام، ولم يقدم لنا «سيللين» أو «فرويد» نصًا واحدًا صريحًا من نصوص التوراة، التى زعما أنها تشير إلى ذلك كما أن الدليل التاريخى على هذا الحادث المؤلم مفقود تمامًا، ومن هنا فالأمر ـ فيما أعتقد ـ مجرد ظن، وإن بعض الظن إثم.

٧ ـ مكانة موسى فى التاريخ اليهودى:

وأما مكانة موسى، عليه السلام فى التاريخ اليهودى، فهى مكانة لا يسمو إليها واحد من معاصريه، أو من اللاحقين به من بنى قومه، ولهذا فهو يعدّ حقًا شيخًا للأمة الإسرائيلية، بل هو الذى كان سببًا فى وجود اليهود كأمة، صحيح أن القبائل الإسرائيلية كانت تدرك ـ حتى قبل ظهور موسى ـ أنها تنتمى إلى أرومة واحدة، ولكنها مع ذلك لم تؤلف شعبًا واحدًا، حتى حدث الاستعباد المصرى، ونجح موسى أن يوحد بين هذه العشائر التى تراخت أواصر القربى بينها ويجعلها أمة واحدة، وذلك بفضل نبوته ومعجزته الكبرى، فقد كان موسى يؤمن ـ الإيمان كل الإيمان ـ أن معه إلهًا أكبر من كل آلهة مصر، معه «يهوه» الذى لا يريد تحرير القبائل العبرية فحسب، بل يريد كذلك أن يكونوا أمة واحدة، وأن شعب موسى لابد أن يعتقد أن معه قوة أكبر من قوة فرعون وكل جنده، وقد نجح موسى بفضل عميق إيمانه بدينه الجديد فى إقناع اليهود بذلك، رغم كل المتاعب التى وقفت عقبة كؤود فى طريقه، والتى لم تخفها أسفار التوراة[1].

وهكذا استطاع موسى أن ينشئ من الأسباط الاثنى عشر، اتحادًا فيدراليًا منذ أول خطوة من رحلة الخروج، محددًا لكل سبط مهمته ومسئوليته فى المجموعة، وكان لعشيرة موسى ـ أى سبط اللاويين ـ الزعامة

(١) تيودور روبنسون، المرجع السابق، ص ١٠٥.

الدينية والاجتماعية على سائر الأسباط، وكان لهذا المجتمع مجلس تشريعى، يقابل ما يسمى أحياناً بـ «مجلس الشيوخ»، ويتكون من السبعين رجلا الذين اختارهم موسى ـ والذين يرى فيهم فرويد السحرة المصريين الذين آمنوا به ـ وكان هو نفسه رئيس المجلس، وهذا التنظيم ما يزال يحاكى فى المجتمعات اليهودية، ويوكل إليه ـ كما كان قديماً ـ أمر تطبيق الشريعة الموسوية وتنفيذها وتفسيرها والإفتاء بمقتضاها فى الحالات المشكلة[1].

ومع هذا فإن هذا العمل السياسى الضخم الذى بدأه موسى عليه السلام، لا يكاد يذكر، إلى جانب دعوته الدينية، والتغيير الاجتماعى الذى سببته هذه الدعوة بين العبرانيين، ذلك لأن موسى لم يؤسس أمة فحسب، وإنما أرسى كذلك قواعد دين، وكان الكليم كحامل لوحى دينى ـ على مثال مولانا وسيدنا محمد رسول الله، ﷺ ، بعد ذلك بحوالى ألفى سنة ـ استطاع أن ينهض بتحويل بعيد المدى فى عادات البدو الساميين للقبيلة، التى لولا ذلك لظلت باقية على ما هى عليه، وقد ثبتت عبادة «يهوه» لتكون عبادة شعب، وبهذا أتى إلى حيز الوجود بأمة جديدة، ومنذ ذلك الحين، صار «يهوه» إله العبرانيين، الذى أطلق سراح ابائهم من العبودية، وقادهم خلال أخطار البرية، إلى أرض الموعد[2].

ومن هنا نرى «جيمس هوسمر» يقرر أن مكانة موسى، إنما جاءت من كفاءته، التى استطاع بها أن يقود بنى إسرائيل ويخرجهم من مصر، ثم من مقدرته على إملاء التوراة، التى كانت قانون هذه الجماعة، بعد أن لم يكن لها قانون، كما كانت القاعدة التى قام عليها بناء الدولة من الناحية السياسية[3].

(١) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم ، الإسكندرية ١٩٧١ ، ص ٧٦-٧٧، وكذا:
A. Lods, op.cit., p. 175, 310.

(٢) و.ح. دى بورج، تراث العالم القديم، ترجمة زكى سوسن، ج١ ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص٦٦.

(٣) أحمد شلبى، اليهودية، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٤٦ ؛ وكذا:
Jams Hosmer, The Jews, p. 14.

وهكذا تجمع الآراء على أنه لولا موسى - عليه السلام - لما كان لبنى إسرائيل، أو لعقيدتهم وجود، حتى أنه ليقال فى الأساطير اليهودية نفسها، أنه لو لم يوجد موسى، لاضطروا إلى ابتداع شخصيته بخيال، فإن ذكراه الحية هى التى تتأممهم إلى وجود[١]، ومن ثم تستطيع تفسير وجود الشعب اليهودى، بآرائه وشريعته وفلسفته ودينه[٢].

(١) حسين ذو الفقار صبرى، المجلة، العدد ١٥١، يوليه ١٩٦٩، ص ١٨؛ وكذا:

A.L. Sachar, A History of the Jews, N.Y. 1945, p. 16-17.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 7.

الفصل الثانى
الخروج : أسبابه وتاريخه

أولا ـ أسباب الخروج:

يختلف العلماء فى الأسباب التى دعت اليهود إلى الخروج من مصر، أو طردهم منها، ولعل السبب فى ذلك تناقض نصوص التوراة بشأنها، فهى تصوره، وكأنه إضراب عن العمل، ومن ثم فإنها تتحدث فى سفر الخروج عن تمرد العمال العبرانيين على رؤسائهم من المصريين، بل إنها لتتحدث عن تكاسل هؤلاء العمال عن القيام بما كان قد ألقى على عاتقهم من أعمال، وذلك لأنهم كانوا يرغبون فى الخروج إلى البرية ليذبحوا للربّ إلههم، ولكن فرعون يرفض ذلك، ويقول «لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب عن أعماله»[1]، ولعل هذا هو السبب الذى دفع «وارد» إلى القول، بأن الخروج لم يكن إلا إضراباً عن العمل[2].

ويذهب «كيلر» إلى أن الإسرائيليين إنما كانوا يكوّنون رصيداً هائلا من الأيدى العاملة الرخيصة ـ والأجنبية كذلك ـ وما كان المصريون براغبين فى تركهم يخرجون من البلاد[3]، فى فترة البناء النشطة فى عهد رعمسيس الثانى (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م)، والذى كان اهتمامه مركزاً فى الدلتا الشرقية، ومن هنا حاول الإسرائيليون الهروب ضد رغبة المصريين[4].

على أن هناك فريقًا من الباحثين إنما يذهب إلى أن مصر عندما قررت التوسع شرقًا إلى بابل، رأت من ضروريات السياسة الجديدة إقرار البدو، نشراً

---

(١) خروج ٥: ٣-٤.

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ٣١٦/٢، وكذا : Ward, Ancient Lowly, II, P. 76

(٣) Werner Keller, op. cit, p. 123

(٤) Martin Noth, op. cit, p. 114

للأمن والاستقرار، فشق هذا الوضع الجديد على بنى إسرائيل الذين كانوا قد نزلوا فى «وادى جوشن» كبدو يرحون ويغدون، وهم بحكم هذا الضرب من الحياة تغلب عليهم النزعة الفردية، وينفرون من الاشتراكية الجماعية، ومن ثم فقد تمردوا مفضلين البداوة والترحال على الحضارة والاستقرار(١) .

وهناك من يتجه اتجاهاً مضاداً لذلك تماما، إذ يذهب إلى أن الخروج إنما قد تم برغبة المصريين ذلك لأن الطاعون إنما كان قد انتشر بين الإسرائيليين، مما اضطر المصريون إلى أن يتركونهم يخرجون، حتى لا ينتشر الوباء بين المصريين أنفسهم، ولعل هذا الرأى إنما يتفق وما رواه «يوسف بن متى» نقلاً عن مانيتو ـ من أن سبب خروج بنى إسرائيل من مصر، إنما كان برغبة من المصريين فى أن يتقوا وباء فشا بين اليهود المستعبدين المملقين، وأن موسى نفسه إنما كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين اليهود المجذومين، وأنه علمهم قواعد النظافة على نسق القواعد المتبعة عند الكهنة المصريين، هذا فضلا عن أن المؤرخين من الأغارقة والرومان، إنما يفسرون قصة الخروج على هذا النحو(٢) .

ولعل والوصول إلى رأى فى المشكلة يقرب من الصواب ـ أو يكاد ـ إنما يتطلب منا ـ فيما أظن ـ الرجوع إلى نصوص التوراة نفسها، وبخاصة فيما يتصل منها بدعوة «موسى» عليه السلام، وهل كانت هذه الدعوة لهداية المصريين والإسرائيليين سواء بسواء؟ أم أنها إنما كانت تهدف إلى إخراج الإسرائيليين من مصر فحسب؟ ومن هنا لعلنا نعرف ـ قدر الطاقة ـ هل خرج الإسرائيليون من مصر راغبين أم مكرهين ؟

إن التوراة تزخر بالنصوص التى تدل على أن دعوة موسى إنما كانت بهدف إطلاق سراح بنى إسرائيل فحسب، ومن ثم فإننا نقرأ فى سفر

(١) فؤاد حسنين : إسرائيل عبر التاريخ ـ الجزء الأول ـ ص٥٤-٥٥.

(٢) ول ديورانت : المرجع السابق ص٣٢٦. وكذا : A. Lods, op.cit, p. 167-168

الخروج (١) ـ مصدرنا التوراتى الأساسى لهذه القصة ـ أن الربّ عند ما تجلى لموسى ـ أول ما تجلى ـ فإنه يقول له : « قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر، وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم، إن علمت أوجاعهم، فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض... والآن هوذا صراخ بنى إسرائيل قد أتى إلى، ورأيت أيضاً الضيقة التى يضايقهم بها المصريون، فالآن هلم، فأرسلك إلى فرعون، وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر» (٢).

ويتخوف موسى من المهمة الخطيرة التى ألقيت على عاتقه، وهاله أن يذهب إلى فرعون ويطالبه بإطلاق سراح بنى إسرائيل، « فقال موسى لله : من أنا حتى أذهب إلى فرعون، وحتى أخرج بنى إسرائيل من مصر» (٣)، ويطمئنه ربه إلى أنه سيكون معه، ثم تتوالى الآيات بعد ذلك، وكلها تطالب فرعون بإطلاق سراح بنى إسرائيل، ولنقرأ بعضًا من هذه الآيات: « وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون : هكذا يقول الرب إله إسرائيل، أطلق شعبى ليعيدو لى فى البرية»، « ثم كلم الرب موسى قائلاً : أدخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بنى إسرائيل من أرضه». «فكلم الربُّ موسى وهارون وأوصى معهما إلى بنى إسرائيل وإلى فرعون ملك مصر فى إخراج بنى إسرائيل من أرض مصر»، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى وردت فى الإصحاحات من السادس إلى العاشر من سفر الخروج، وتتحدث عن إخراج بنى إسرائيل فى مصر.

وهكذا يبدو واضحًا أن الهدف من دعوة موسى ـ كما تصورها التوراة ـ إنما هو إخراج بنى إسرائيل من مصر، وأن يقيهم شر العذاب المهين الذى كانوا يتعرضون له فى أرض الكنانة.

(١) خروج ٣ : ٧-١١ ، ٥ : ١-٤ ، ٦ : ١٠-١٣.

(٢) قارن : سورة طه، آية : ٤٢-٤٧.   (٣) قارن : سورة القصص، آية: ٢٩-٣٥.

وسرعان ما يتغير بعد ذلك اتجاه النصوص، عندما يعلن الفرعون موافقته على رغبة موسى بإطلاق الرجال من بنى إسرائيل ليعيدوا للربّ إلههم فى البرية، غير أن موسى لا يرضى إلا أن يخرج الإسرائيليون جميعًا - الفتيان والشيوخ، البنون والبنات - بل حتى الغنم والبقر، وهنا يرفض الفرعون، وإن كان لا يمضى طويل وقت حتى نراه يوافق على خروج الإسرائيليين كافة، وإن استثنى من ذلك الأغنام والأبقار، فلا يقبل موسى إلا بخروج أغنامهم وأبقارهم معهم، لأن الإسرائيليين - فى رأى التوراة - ما كانوا بقادرن على عبادة ربّهم بدون مواشيهم، «لأننا منها نأخذ لعبادة الربّ إلهنا، ونحن لا نعرف بماذا نعبد الرب حتى نأتى إلى هناك»[١].

وهنا يفرض الفرعون بإصرار، بل ومن هنا، تبدأ التوراة لا تتحدث عن إطلاق الإسرائيليين أو خروجهم من أرض الكنانة، وإنما تتحدث عن طردهم[٢]، كما تبدأ النصوص التوراتية تخطط كذلك لسرقة المصريين، فتقول: «وعندما يطلقكم يطردكم طرداً من هنا بالتمام، تكلم فى مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه، وكل امرأة من صاحبتها، أمتعة فضة وأمتعة ذهب»[٣] ثم تمضى نصوص التوراة، فتتحدث فى سفر الخروج عن البلايا التى نزلت بالمصريين من جراء الإسرائيليين، حتى اضطر فرعون آخر الأمر، أن يوافق على خروج بنى إسرائيل من مصر، ومعهم أغنامهم وأبقارهم[٤].

وهنا لا يتورع مؤلفو التوراة أن يذكروا فى نصوصها أن مشروع سرقة المصريين الذى كان قد دبر بليل، إنما قد نفذ الآن، إذ خرج الإسرائيليون من مصر، دون أن يحس المصريون بذلك، بل وحتى دون أن ينتظروا أن يختمر عجينهم، ومن ثم فقد «حمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر،

---

(١) خروج ١٠: ٩-١١، ٢٤، ١١: ١، ٢.
(٢) خروج ٦: ١
(٣) خروج ١٢: ١-٣
(٤) خروج ١٢: ٣٠-٣٢

ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم، وأعطى الربُّ نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين»[١]، وهكذا لم يعترف كتبة التوراة بجريمة قومهم فحسب، بل جعلوها تتم برضى من موسى وبأمر منه، وفى الحقيقة أن الإساءة إلى أنبياء الله الكرام من بنى إسرائيل أمر معروف فى التوراة، ونظائره كثيرة.

وأيًا ما كان الأمر، فإن نصوص التوراة إنما تشير إلى أن الخروج قد تم بأمر من فرعون وموافقته، بل إنها لتقرر صراحة أن الإسرائيليين، إنما قد أكرهوا على أن يخرجوا من مصر، يقول سفر الخروج: «وخبزوا العجين الذى أخرجوه من مصر، خبز ملة فطيراً، إذ كان لم يختمر، لأنهم طردوا من مصر ولم يقدروا أن يتأخروا، فلم يصنعوا لأنفسهم زاداً»[٢]، أو على الأقل، فإن الإسرائيليين لم يكونوا جميعًا راضين عن الخروج من مصر، إذ وافق على ذلك فريق، وأنكره فريق آخر، إلا أن الغلبة إنما كانت للأولين على الآخرين، ومن هنا فإن الله لم يهدهم إلى أقرب الطرق إلى كنعان : «لأن الله قال: لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر، فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف»[٣].

بل إن التوراة إنما تقرر فى سفر الخروج أن الإسرائيليين إنما كانوا يعارضون فكرة الخروج من مصر، منذ أن عرضها عليهم موسى ـ بادئ ذى بدء ـ وأنهم حين خرجوا منها، سواء أكان ذلك بأمر من فرعون، أو بتحريض من موسى، فقد كانوا لذلك من الكارهين، ومن هنا نراهم يثورون على موسى فى صحراوات سيناء المقفرة، قائلين: «ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر، قائلين: كف عنا فنخدم المصريين»[٤]، بل إننا نراهم ـ وهم على أبواب كنعان ـ

(١) خروج ١٢: ٣٤-٣٦

(٢) خروج ١٢: ٣٩.

(٣) خروج ١٣: ٧

(٤) خروج ١٤: ١١-١٢

يثورون على موسى ثورة عنيفة، وصلوا فيها إلى حد المطالبة بخلعه، والمناداة برئيس جديد، يستطيع أن يعود بهم ثانية إلى أرض النيل. تقول التوراة فى سفر العدد: «أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر، فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر»[١].

ثانياً ـ تاريخ الخروج والآراء التى دارت حوله:

اختلف المؤرخون ـ القدامى منهم والمحدثون ـ فى تاريخ الخروج، وبالتالى فى الاستقرار الذى تلاه فى كنعان، ومن ثم فقد قدموا لنا نظريات مختلفة، حتى لنرى البعض يجعل من طرد الهكسوس (حوالى عام ١٥٧٥ق.م) تاريخًا للخروج، بينما يتأخر به آخرون، إلى ما بعد عصر رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ق.م)، والفرق بينهما كبير، يصل إلى قرابة قرون أربعة، وفى نفس الوقت إنما يلقى شيئاً من الضوء على الغموض الذى يرين على خروج اليهود من مصر، بقيادة موسى، عليه السلام.

ولعل صعوبة الوصول إلى رأى محدد بشأن تاريخ الخروج، إنما يرجع ـ فيما أظن ـ إلى أسباب ثلاثة، أولها : أن الآثار المصرية ـ وكذا الفلسطينية ـ لم تقدم لنا تاريخًا محدداً عن هذا الحدث، الذى أصبح له تأثير ضخم على التاريخ الدينى، وما برح حتى الآن يؤثر فى نفسية اليهود، بل إنه هو الذى أثمر بصفة عامة ذاتيتهم الخاصة، وأما السبب الثانى، فإنه إنما يرجع إلى الاضطراب الواضح بين نصوص التوراة، حتى استطاع العلماء أن يستخرجوا منها تاريخين للخروج فى وقتين مختلفين، يكاد الواحد منهما يبعد عن الآخر بأكثر من قرنين من الزمان.

وأما ثالث الأسباب، فيرجع إلى أن القرآن الكريم ـ وكذا التوراة ـ لم يذكر أى منهما اسم الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام، وذلك على

---

(١) عدد ٣ : ٤.

الرغم من أن أبرز قصص الأنبياء فى القرآن الكريم قصتان مسهبتان فى أجزائه لأنهما ترويان نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارة الإنسانية، وهما أمة وادى النهرين وأمة وادى النيل، ومن أجل ذلك كانت قصة إبراهيم وموسى، عليهما السلام، أو فى القصص بين جميع قصص الأنبياء، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل فى العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة فى الزمن القديم، ولعل السبب فى عدم ذكر القرآن لاسم فرعون موسى أن الاسم لا أهمية له فى موضوع القرآن أو فى صميم رسالته، فإنه كتاب هداية وإرشاد، ومن ثم فهو يكتفى بسرد القصة والوقائع التاريخية الصحيحة بالقدر الذى يستخلص منه العبرة، ويقتضيه المقام.

وعلى أى حال، فإن أهم الآراء التى دارت حول تاريخ الخروج خمسة، منها من يذهب أصحابه إلى أن الخروج إنما تم أثناء طرد الهكسوس من مصر، ومنها من يراه على أيام «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) أو ولده «أمنحتب الثانى» (١٤٣٦-١٤٠٥ق.م)، هذا إلى أن هناك من يراه فى أعقاب أيام إخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ق.م) أو بعده بفترة وجيزة، وهناك من يراه على أيام «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م)، أو ولده «مرنبتاح» (١٢٢٤-١٢١٤ق.م)، على أن هناك قلة من الباحثين تتأخر به إلى أيام فترة الضعف التى كتب على البلاد أن تعيشها فى أخريات أيام الأسرة التاسعة عشرة، بل إن هناك من ذهب إلى أن الخروج إنما كان على أيام الأسرة العشرين (١١٨٤-١٠٨٧ق.م).

ولعل من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الوصول إلى تاريخ محدد، على وجه اليقين ـ أو حتى على وجه التقريب ـ أمر فى غاية الأهمية من الناحيتين التاريخية والدينية، فأما عن الأولى، فلعلنا نستطيع ـ عن طريق معرفتنا لتاريخ الخروج ـ أن نعرف وقت دخول الإسرائيليين فلسطين، وبالتالى بداية التاريخ الإسرائيلى، ذلك لأن تاريخ بنى إسرائيل كشعب، لا يبدأ إلا بالخروج من مصر.

وأما من الناحية الدينية، فإننا نستطيع أن نعرف بداية ظهور الديانة اليهودية، ذلك أننا إذا عرفنا فرعون مصر الذى طرد اليهود من أرض الكنانة، فإننا نستطيع أن نحدد بالتالى - اعتماداً على وضوح التاريخ المصرى على أيام الفراعين - عصر موسى عليه السلام، ذلك العصر الذى يعتبر واحداً من أهم الأعصر فى تاريخ البشرية الدينى، لأنه العصر الذى ظهرت فيه أولى الديانات السماوية الثلاثة الكبرى - اليهودية والنصرانية والإسلام.

ولعل مما يزيد الأمر أهمية أننا نعرف البداية المؤكدة للمسيحية والإسلام، عن طريق معرفتنا لتاريخ نبيّيهما الكريمين، سيدنا عيسى وسيدنا محمد، صلوات الله وسلامه عليهما - فأما المسيح فقد ولد على أيام أول قياصرة روما «أغسطس» (٢٧ق.م -١٤م)، ويذهب بعض الباحثين إلى أنه قد ولد فيما بين عامى ٦، ٢ق.م، بينما يرى آخرون أن مولد المسيح إنما كان فى عام ٤م، وأنه رفع إلى السماء فى عام ٢٧م، وربما فى ٢٣ مارس ٢٩م، على أن هناك من يذهب إلى أن المسيح قد بدأ دعوته فى يهوذا - وقد ناهز الثلاثين من عمره - فى عهد الإمبراطور «تيبيروس» (١٤-٢٤م)[١].

وأما المولد النبوىّ الشريف لمولانا وسيدنا وجدنا محمد رسول الله - ﷺ - فقد كان - طبقاً للمصادر الإسلامية - فى عام الفيل [٢]، غير أن عام الفيل هذا، إنما هو غير معروف على وجه التحديد[٣]، والأمر كذلك

(١) هـ.ج. ويلز : موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦٧، ص١٧٢، ٤١٦، فيلب حتى : تاريه سوريج ولبنان وفلسطين، ٣١١/١-٣١٢، ٣٦٢.

(٢) تاريخ الطبرى ١٥٥/٢-١٥٧؛ ابن كثير : البداية والنهاية ٣٥٩/١، ٢٦٢؛ ياقوت معجم البلدان ٢٩٣/٤-٢٩٤؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريه ٤٥٨/١-٤٥٩؛ ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١٥٨/١-١٥٩؛ محمد محمد أبوشهبة : السيرة النبوية ١٧٦/١؛ البيهقى : دلائل النبوة ٥٤/١؛ ملانا محمد علىّ : حياة محمد ورسالته ص٥٣-١٥٧؛ عماد الدين خليل : دراسة فى السيرة ص٣٧؛ أيتين دينية وسليمان ابراهيم : محمد رسول الله، ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم ص٧١.

(٣) تتراوح تقديرات العلماء عن هذا التاريخ، فيما بين زعوام : ٥٥٢م أو ٥٦٣م أو ٥٧٠ أو ٥٧١م

بالنسبة إلى من يرونه يتفق وموقعة «ذى قار» [١]، ومن ثم فقد اعتمد العلماء فى تحقيق المولد النبوىّ الشريف على تاريخين محققين من سيرة النبىّ ﷺ وهما : تاريخ الهجرة فى عام ٦٢٢م، وتاريخ الانتقال إلى الرفيق الأعلى فى عام ٦٣٢م، ومع ذلك لم يصل العلماء إلى نتيجة مؤكدة.

وعلى أى حال، فهناك من يحدد المولد النبوىّ الشريف بيوم ٢٧ أغسطس من عام ٥٧٠م، أو ٢٩ أغسطس عام ٥٧٠م، وأما محمود باشا الفلكي فقد رآه في يوم ٩ ربيع الأول (٢٠ أبريل ٥٧١م)، على أن المؤرخين إنما يكادون يجمعون على أن جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله - ﷺ - إنما ولد في يوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول من عام الفيل (والموافق العام الثالث والخمسين قبل الهجرة = ٥٧١م) وأما الانتقال إلى الرفيق الأعلى فقد كان في يوم ١٢ أو ١٣ من ربيع الأول عام ١١هـ (٧ أو ٨ يونيو عام ٦٣٢م) بعد أن بلغ - ﷺ - ٦٣ عامًا قمريًا بالكامل (أكثر من ٦١ عامًا شمسيًا)[٢].

وانطلاقًا من هذا كله، فإننى أجد لزامًا علىّ أن أناقش نظريات الخروج المختلفة بشيء من التفصيل، علنا نستطيع أن نصل إلى رأى قد يقرب - قليلا أو كثيرًا - من الصواب، عن هذا الفرعون الذى كان يعذب بنى

(١) انظر عن موقعة ذى قار، والآراء التى دارت حولها : (محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ص٥٩٤-٥٩٧، أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت رقم ١ من المكتبة التاريخية، الرياض ١٩٧٧)؛ وانظر التفصيلات عن تاريخ المولد النبوىّ الشريف: محمد بيومى مهران، السيرة النبويّة الشريفة، الجزء الأول، العهد المكى، بيروت ١٩٩٠، ص ٩١-١٠٠.

(٢) محمود الفلكى، التقويم العربى قبل الإسلام، ص ٣٨؛ محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٢٢؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، ٩٨/١-٩٦؛ عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص ٣٧؛ ايتين دينيه وسليمان إبراهيم، المرجع السابق، ص ٧١؛ وكذا:
R. Blachere, Le Problem de Mahomet, p. 15; P. Lammens, Age de Mohammad, p. 209F; Cuassin de Perceval, Easai sur l' Histoire des Arabes avant l' Islamisme, I, p. 283.

إسرائيل، فيذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، عن هذا الذى رفض ملة موسى، وكان صاحب خروجهم من مصر، ومع ذلك فمازال اليقين عند صاحب اليقين، ومازال العلم عند ربِّ العلم، يؤتيه من عباده من يشاء، وهو علام الغيوب.

١ - الرأى الأول : الخروج فى عهد «أحمس الأول» (١٥٧٥ق.م):

يزعم المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» أن «مانيتو» - المؤرخ المصرى - إنما يرجع بالهكسوس إلى أصول يهودية [١]، وانطلاقًا من هذا، فالخروج - فى نظر المؤرخ اليهودى - ليس إلا طرد الهكسوس من مصر، بقيادة «أحمس الأول» (حوالى عام ١٥٧٥ق.م)، هذا وقد تابع يوسف اليهودى بعض المؤرخين، ومنهم الدكتور هول، الذى رأى توحيد الخابيرو بالعابيرو (العبرانيين) ثم دعمَّ وجهة نظره بأن هناك قبائل بدوية تسمى «الخابيرو» قدمت إلى الجنوب الشرقى لفلسطين، فاكتسحت كنعان فى فترة يمكن تحديدها فيما بين عامى ١٣٩٠ ، ١٣٦٠ق.م، وأن رسائل العمارنة تظهر لنا كيف أشاعت هذه القبائل الذعر بين الكنعانيين وأنهم قد نجحوا فى السيطرة على البلاد جميعها، بعد انسحاب السلطة المصرية منها على أيام إخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ق.م) ومن ثم فيجب أن يكون الخروج قبل أيام أبى إخناتون (أمنحتب الثالث) (١٤٠٥-١٣٦٧ق.م).

ثم يقترح «هول» بعد ذلك، أن تكون لحظة الخروج من مصر، هى لحظة بداية الأسرة الثامنة عشرة، وأن يوسف اليهودى إنما كان على حق فى رأيه - الذى أشرنا إليه آنفًا - وأن التقرير التوراتى عن الخروج، ما هو إلا ترجمة عبرية لطرد الهكسوس، وأن الملك «أحمس الأول» إنما هو الفرعون «الذى لم يكن يعرف يوسف» [٢].

(١) W.G. Waddel, Manetho (The Loeb Classical Library), Cambridge, 1940, p. 77F.

(٢) H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, p. 406-9; The People and the Book, p. 10.

ولعل مما يعضد نظرية «هول» هذه، ما يؤكده «إرنست سيللين» ـ طبقاً لبقايا فخارية وجدها في موقع أريحا ـ من أن المدينة قد دمرت حوالي عام ١٥٠٠ق.م، أو حتى بعد فترة وجيزة من عام ١٦٠٠ق.م ـ فيما يرى كارل فتزينجر، وهو مكتشب آخر لموقع أريحا[١] ـ ولكن «سيللين» نفسه، يرى أن الإسرائيليين ليسوا هم الذين دمروا المدينة[٢]، كما أن «روبنسون» يرى أنه ليس من الميسور أن نضع قصص التوراة في هذا الإطار[٣].

ويأتي بعد ذلك الدكتور «باهور لبيب»، فيذهب إلى أن الأبحاث الحديثة قد أسفرت عن أن الهكسوس من أصل سامي وموطنهم فلسطين، وأنهم من طائفة اليهود الذين ورد ذكرهم في التوراة والقرآن الكريم[٤]، مستنداً في ذلك إلى أن «مانيتو» رأى أنهم قوم شرقيون أتوا إلى مصر من الشرق، وأنهم من بني إسرائيل، وأن أسماءهم من أصل سامي، وأن لهم علاقة بفلسطين ـ وهي الجهة التي كان يقطنها اليهود ـ وأن أغلب أسمائهم التي جمعت لهم في وقت وجودهم بمصر، إنما ترجع إلى أصل سامي كنعاني، مما يدل على أنهم كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة إلى العبرانيين، وأن هناك آلهة سامية كانت تعبد أصلا في فلسطين، وقد ظهرت في مصر على أثر غزوة الهكسوس لها، فلو لم يكن الهكسوس ساميين لما نقلوا معهم آلهتهم السامية إلى مصر، هذا فضلا عن أن استخدام الجواد والعربة في مصر، إنما يرجع إلى عهد الهكسوس، وإذا ما تتبعنا تسمية المصريين لهما ـ أي الجواد والعربة ـ لوجدنا أنها أسماء سامية كنعانية[٥].

---

(١) انظر: Ernst Sellin and Carl Watzinger, Jericho, London, 1913.

(٢) J. Garsting, The Story of Jericho, London, 1940; A. Lods, op.cit., p. 182.

(٣) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٢٧٤/٣؛ وكذا:
H.W. Robinson, The History of Israel, p. 29.

(٤) انظر: Pahour Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten, 1934, p. 8F

(٥) باهور لبيب، لمحات من الدراسات المصرية القديمة، القاهرة ١٩٤٧، ص ٤١-٤٣.

هذا وقد أظهرت الحفريات فى فلسطين عدة مقابر ترجع إلى أيام الهكسوس ومؤرخة بأسماء ملوكهم، وهذا دليل مادى على وجود صلة بينهم وبين اليهود فى فلسطين، أضف إلى ذلك أن العبرانيين إنما كانوا يعبدون «الحمار» ، فإذا توصلنا إلى التحقيق من عبادة الهكسوس له، استطعنا أن نقيم الدليل على أنهم من أصل سامى، ثم هناك ما يؤيد أن الهكسوس ساميون، ومن فلسطين، أن القوم الذين دعتهم «رسائل العمارنة» خابيرو، هم قوم ساميون وقد استولوا على فلسطين وظلوا مقيمين بها إلى عهد إخناتون، وأن كلمة «خابيرو» ترادف الكلمة المصرية القديمة «عابيرو» ، وهى «عبرى» الحالية[1].

هذه هى كل حجج الباحثين الذين رأوا فى الهكسوس يهوداً، أو فى اليهود هكسوساً، وقبل مناقشتنا لهذا الاتجاه، لعل من الأفضل أن نصحح ـ بادئ ذى بدء ـ زعماً طالما ردده «يوسف اليهودى» فى تاريخه ـ وكذا من تابعه من المؤرخين فى هذا المجال ـ وهو أنهم ينقلون عن «مانيتو» ، فالثابت الصحيح أن تاريخ مانيتو الأصلى ـ والذى كتب حوالى عام ٢٨٠ق.م، على أيام بطليموس الثانى (٢٨٤-٢٤٦ق.م) ـ إنما قد فقد فى حريق الإسكندرية فى عام ٤٨ق.م، ولم يعثر حتى الآن على النص الذى كتبه مانيتو كاملا، وإنما وصلت إلينا منه مقتطفات مختصرة أحياناً، ومبتورة أحياناً أخرى، ذلك لأن الأغارقة من الكتاب لم يهتموا كثيراً ـ فيما يبدو ـ بكتاب مانيتو، نظراً للروح القومية التى تميز بها.

ومن هنا، فإن كل ما وصلنا منه أجزاء، نقلها المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» حين أراد الرد على كاتب إغريقى متمصر، يدعى «إيبون السكندرى» فى كتابه الذى دعاه «الرد على إيبون» Against Apion والذى رمى اليهود بالرجس والتشرد، ووضاعة الأصل، وبكل شائنة ونقيصة، زعم

---

(١) باهور لبيب، المرجع السابق، ص ٤٣-٤٥ ؛ وكذا: P. Labib, op.cit., p. 25.

يوسف اليهودى أنه وجد فى مخطوطات مانيتو ما يربط بين قومه اليهود والهكسوس، ومن ثم فقد ادعى بأن الهكسوس إنما كانوا يهوداً، ومن ثم فإن قومه كانوا ملوكًا ذوى سلطة وجاه وحضارة، وتاريخ مجيد، ولم يبق الزمن على نسخة من تاريخ مانيتو حتى يمكننا الحكم على ما ذكره يوسف اليهودى، وهل كان ينقل بأمانة عن المؤرخ المصرى القديم؟ أم أن نقله هذا إنما داخله التحريف، وإلى أى مدى كان هذا التحريف[1]؟

وانطلاقًا من هذا كله، فلعلنا نستطيع القول أننا لا نطمئن أبداً على رواية يوسف اليهود، ومن دعوا بدعوته، من أنهم ينقلون عن «مانيتو»، ما دمنا لا نملك النص الكامل لما كتب مانيتو، ومادمنا ـ فى الوقت نفسه لا نملك من الأدلة التاريخية ما يقوم دليلا على صحة ما نقله الناقلون عن مانيتو، بل إن رواية يوسف اليهودى نفسه، ـ والتى نقلها عن مانيتو ـ من أن اليهود هم الهكسوس، إنما تناقضها تماما، روايته ـ التى أشرنا إليها من قبل ـ من أن سبب خروج الإسرائيليين من مصر، إنما كان رغبة المصريين فى اتقاء وباء تفشى بين اليهود المستعبدين.

هذا فضلا عن أن يوسف اليهودى لم يقبل تفسير «مانيتو» لكلمة «الهكسوس» من أنها تعنى «الملوك الرعاة» على أساس أن «هك» تعنى فى اللغة المقدسة «ملك» وأن «سوس» تعنى فى اللغة الدارجة «راعى» فيتابع هذا الاشتقاق باشتقاق آخر لاسم الهكسوس من مصدر آخر، بمعنى «الأسرى الرعاة» ، لأن كلمة «هك» تعنى «أسير» ، وهو يفضل هذا الاشتقاق، لأنه يعتقد أن قصة التوراة عن دخول الإسرائيليين مصر، ثم الخروج بعد ذلك، لهما أصول فى احتلال الهكسوس ثم طردهما فيما بعد، والواقع ـ فيما يرى سير ألن جاردنر ـ أنه على الرغم من وجود أسس لغوية للاشتقاق، فإنه قد جانبه الصواب، وأن كلمة «هكسوس» مشتقة من غير شك من اصطلاح

(١) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١، ص٦٥، ٢٤٤؛ وانظر:

Thackery, Contra A Pionem, London, 1926.

«حقا خست» أى «رئيس البلد الأجنبية الجبلية»، التى كانت تعنى منذ عهد الدولة الوسطى «مشايخ البدو»[1].

وأما أن قصة دخول الإسرائيليين مصر، ثم الخروج منها، لها صلة بدخول الهكسوس مصر ثم طردهم منها ـ كما روج ذلك يوسف اليهودى ـ فقد كان يوسف يهدف منها إلى رفع شأن قومه اليهود، الذين كان يحتقرهم الإغريق ويحطون من قدرهم، وليبرهن للملأ أن اليهود والهكسوس من عنصر واحد وأنهم قد خرجوا من مصر منذ حوالى ألف سنة، قبل حرب طروادة، التى كانت ـ فى نظر الإغريق ـ تاريخاً سحيقاً فى القدم.

غير أن كثيراً من المؤرخين إنما ينكرون الصلة بين اليهود والهكسوس، فالمؤرخ الإنجليزى الكبير، سير ألن جاردنر، يرى أنه ليست هناك صلة بين الاثنين، بدليل أن الهكسوس لم يتركوا أى أثر فى قصص العبرانيين، هذا فضلا عن أن مجىء يوسف إلى مصر ـ حسب التقديرات المقبولة، وكما أشرنا من قبل ـ إنما قد حدث على أيام الهكسوس، وإن كانت أحداث الملوك الرعاة ـ دون شك ـ لم تصور بأى شكل فى قصة خروج بنى إسرائيل من مصر، بل إن مدينة «بى رعمسيس» (بر ـ رعمسيس)، التى أنشأها رعمسيس الثانى (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) بعد طرد الهكسوس بحوالى ثلاثة قرون، إنما تدخل فى قصة الخروج كعنصر أساسى.

ومن ثم فليس من المستحيل أن تكون الاقتباسات التى اقتبسها يوسف اليهودى من مانيتو، إنما توحى بأن حوادث قد وقعت فيما بعد، فى أوائل عهد الأسرة التاسعة عشرة، وأنها قد اختلطت بذكر حوادث الهكسوس، وهناك ما يشير إلى مثل هذه العلاقات الموجودة فى أغلب الأحايين بين مصر وأولئك البدو الذين يعيشون على تخومها، جاء ذكرها فى «بردية أنسطاسى» السادسة، ولكن ليس هناك ما يشير إلى وجود احتلال جدى لأى

(١) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 154.

بقعة فى مصر، تكون من نتائجه حدوث مأساة كالتى مثلت فى سفر الخروج من التوراة[١].

وأما ما ذهب إليه الدكتور «هول» فيناقضه أنه يتعارض تمامًا مع التقاليد الإسرائيلية الخاصة بالدخول والخروج من مصر ـ كما روته التوراة ـ أضف إلى ذلك أن حملات تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) تكون ـ طبقًا لهذا الرأى ـ إنما قد حدثت بعد استقرار بنى إسرائيل النهائى فى فلسطين، ومن هنا فمن الصعب جداً أن نجد تفسيراً لصمت التقاليد الإسرائيلية فيما يختص بالنزاع الذى لا يمكن تجنبه مع الفاتحين المصريين، وخاصة فيما يتعلق بإدارة البلاد بموظفين مصريين، تلك الحقيقة التى كانت أهميتها تظهر أكثر فأكثر[٢].

هذا فضلا عن أن التقاليد الإسرائيلية ـ كما جاءت فى التوراة ـ إنما تجعل مدة إقامتهم بمصر ٤٣٠ سنة[٣]، بينما يتفق العلماء الآن على أن مدة إقامة الهكسوس فى مصر، لا تتجاوز القرن ونصف القرن من الزمان[٤]، أضف إلى ذلك أن التقاليد الإسرائيلية ـ وكذا الإسلامية[٥] ـ إنما تجعل فترة التيه فى الصحراء أربعين عاماً[٦]، بينما فترة التيه هنا تتجاوز القرنين من الزمان، وهى فترة أطول بكثير مما يجب، ومما افترضته التقاليد العبرانية، كما يرى «هول» نفسه[٧].

---

(١) A.H. Gardiner, The Geography of the Exodus, JEA, IO 1924, p. 87-88.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 182-183.

(٣) خروج ١٢: ٤٠.

(٤) انظر: عن عصر الهكسوس فى مصر: محمد بيومى مهران، «حركات التحرير فى مصر القديمة»، ص١٣٧-١٣٨، ٢١١، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦.

(٥) انظر: سورة المائدة، آية: ٢٦ ﴿قالَ إنَّها مُحرَّمةٌ عليهم أربعينَ سنةً يتيهونَ فى الأرضِ فلا تأسَ على القومِ الفاسقينَ﴾

(٦) عدد ١٤: ٣٣؛ أعمال الرسل ٧: ٣٦، ٤٠؛ قاموس الكتاب المقدس ٢/٩٣١.

(٧) H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, p. 408.

وأما أدلة الدكتور «باهور لبيب» ـ غير اعتماده على رواية مانيتو، كما نقلها يوسف اليهودى ـ فإنها تقوم أساسًا على ما ذهب إليه من أن الهكسوس ساميون، ومن فلسطين، وبالتالى فهم يهود.

ولست أرى كيف قبل الدكتور باهور بأن كل من فى فلسطين من الساميين يمكن أن يكونوا يهوداً، بل إنه ليناقض نفسه حين يكرر كثيراً أن أدلته ترجع إلى وجود أسماء سامية كنعانية بين الهكسوس، فهل يقصد بذلك أن الكنعانيين هم اليهود؟ بالطبع لا، وإن كان كل منهما ينتمى إلى نفس المجموعة البشرية السامية، وإن كانت التوراة ترفض أن يكون الكنعانيون ساميين، حيث تقول: «بنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان»[1]، وهكذا تعمد العبرانيون فى توراتهم ـ كما يقول كارل بروكلمان ـ إقصاء الكنعانيين عن الانتساب إلى «سام بن نوح» لأسباب سياسية ودينية، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية[2].

هذا فضلا عن أن العبرانيين لم تكن لهم لغة خاصة بهم قبل عام ١١٠٠ق.م، إذ كان القوم يتكلمون الآرامية قبل دخولهم فلسطين، والكنعانية بعد ذلك، هذا إلى أن لغة العبرانيين ذاتها، ليست إلا خليطاً من الأرامية الكنعانية وكثير من اللغات السامية وغير السامية[3]، ومن هنا فإن الاعتماد على اللغة كأساس للعلاقة بين اليهود والهكسوس، اعتماد مضلل لا يثبت تلك العلاقة.

وأما اشتراك اليهود والهكسوس فى عبادة الحمار، وأنه دليل على أن الهكسوس هم اليهود، فهو أمر قد يراه البعض بالنسبة إلى الهكسوس مقبولا،

(١) تكوين ١٠: ٦.

(٢) انظر: مقالنا «الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلى، ص ٢٤٧-٢٤٨ (مجلة كلية اللغة العربية، العدد الرابع، الرياض ١٩٧٤)؛ جواد علي، المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٣) فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، ص٤؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٢.

أما بالنسبة إلى اليهود، فمبلغ علمى أن الأمر لم يكن كذلك، وإن كان الحمار هو الدابة التى كان يعتمد عليها اليهود فى الرحلة وحمل الأثقال.

وأما استخدام العربة والحصان فى عصر الهكسوس، فلا يدل أبداً على أن اليهود هم الهكسوس، وإن كانت الأسماء كنعانية، وليس الكنعانيون هم اليهود على أى حال، ومع ذلك فهناك من يرى أن الحصان ـ وربما العربة التى تجرها الخيل كذلك ـ قد عرف فى وادى النيل ـ وفى ميزوبوتاميا ـ قبل عصر الهكسوس[١]، ويرى «والتر إمرى» أن ذلك إنما كان منذ أيام الدولة الوسطى، وقد خرج بهذا الرأى بعد قيامه بحفريات فى منطقة «بوهن» فى عام ١٩٦٢م، وعثوره فيها على هياكل لخيول دفنت فى مستويات قديمة من أحد الحصون المصرية هناك، وقد حدد هذا المستوى بأيام الدولة الوسطى[٢]، ومع ذلك فلم يعرفوا العربة[٣]، هذا فضلا عن آراء أخرى ـ ومنها رأى لأستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو بكر (١٩٠٧-١٩٧٦م) ـ تعارض هذا الاتجاه، وترد هذا المستوى إلى أوائل عهد الدولة الحديثة[٤].

ومن ناحية أخرى، فإن «سيف سودر برج» يرى أن الهكسوس لم يستخدموا الحصان حتى فترة متأخرة جداً من حكمهم فى مصر، وأن أقدم نص يشير إلى ذلك إنما كان فى نص يتحدث عن طرد الهكسوس، وأما أن «فلندرز بترى» قد وجد فى «تل العجول» فى جنوب فلسطين مقابر غنية دفنت فيها الحمير مع الخيول، مع الموتى من الآدميين، وأنه قدرأى فى ذلك دليلا على استخدام الهكسوس للحصان، فعلينا أن نلاحظ أن هذه المقابر

---

(١) W.C. Hayes, Egypt from the Death of Ammenemes III, to Seqenenre II, Cambridge, 1965, p. 18.

(٢) عبد العزيز صالح، مصر والعراق ، ص ١٩٠.

(٣) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٤٠٧/١.

(٤) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٩٠.

إنما ترجع إلى فترة متأخرة من أخريات أيام الهكسوس[١] ـ وربما ترجع إلى بداية الدولة الحديثة [٢] ـ أما في مصر نفسها، فليست هناك أية دفنة لحصان واحد ـ أو حتى لعظام من حصان ـ قد وجدت في واحدة من المقابر العديدة التي ترجع إلى عصر الهكسوس، والأمر كذلك بالنسبة إلى النقوش، فلا يوجد نقش واحد لحصان ما، على الرغم من أن كل الحيوانات قد نقشت على جعارين ترجع إلى ذلك العصر[٣].

وأما توحيده لكلمة «خابيرو» بكلمة «عابيرو»، وأنها هي نفس الكلمة الحالية «عبرى»، فذلك أمر سبق أن ناقشناه، وارتضينا فيه ما ذهب إليه «جون ويلسون»[٤] ـ وغيره من العلماء كالدكتور الحاخام أبشتين[٥] وجاك فنجان[٦] وتيودو روبنسون[٧] والكسندر شارف[٨] وجورج روكس[٩] وغيرهم ـ من أن هؤلاء «العابيرو» لم يكونوا من نسل بني إسرائيل.

بقي أن نضيف إلى ذلك أن اليهود قوم ساميون، بينما الأمر بالنسبة إلى الهكسوس جد مختلفة، فـ «يونكر» يؤكد أنهم من سلالة آرية، كان موطنها في آسيا الصغرى[١٠]، و«كنج» يرى أنهم من أعراب شبه الجزيرة العربية[١١] ـ الأمر الذي سبقه إليه كثير من المؤرخين الإسلاميين، فدعوهم

(١) T. Save - Soderbergh, The Hyksos Rule in Egypt, JEA, 37, 1951, p. 59.

(٢) E, Otto, ZDPV, 61, p. 259; F. W. Von Bissing, AFOF, II, p. 333, No. 61.

(٣) T. Save - Soderbergh, JEA, 37, p. 59-60.

(٤) J. Wilson, op.cit., p. 201.

(٥) I. Epstein, op.cit., p. 13-14.

(٦) J. Finegan, op.cit., p. 118.

(٧) تيودور روبنسون، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٨) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ١٤٤.

(٩) G. Roux, op.cit., p. 216.

(١٠) H. Junker, Geschichte der Aegypter, 1933, p. 105.

(١١) L. W. King, Studies in Eastern History, Egypt and Western Asia., London, 1907, p. 134F.

العمالقة والرعاة (الهكسوس) أو من العرب البائدة[١]، وأما «شارف» فالرأى عنده أنهم مجموعة من الشعوب التى سكنت آسيا القريبة[٢].

ويرى «جاردنر» أن اصطلاح «حيق خاسى» (حقا خست) أى «رئيس البلد الجبلية الأجنبية» يشير إلى الحكام، وليس ـ كما كان يظن يوسف اليهودى ـ إلى الجنس كله، وطالما أخطأ الباحثون فيما يتصل بهذا الأمر، بل إن بعضهم ليرى أن الهكسوس جنس معين من الغزاة، شقوا طريقهم إلى مصر بعد أن تم لهم غزو سورية وفلسطين، وليس هناك ما يؤكد وجهة النظر هذه، وإن بدا أن كلمات «مانيتو» قد تشير إلى ذلك[٣].

ومن هنا، فإن العلماء، يكادون يجمعون على أن الهكسوس ليسوا شعباً معيناً، وإنما خليط من شعوب متعددة، اختلطت بعضها بالبعض الآخر، وهى فى طريقها إلى أرض النيل، ذلك أنه قبل هبوط الهكسوس ببضعة قرون، كان الضغط يزداد من شعوب أجنبية نازلة على سورية، وكان الحوريون من إقليم قزوين من أوائلهم، وهم ممن مهدوا الطريق للحيثيين الذين جاءوا بعدهم من الشمال الغربى فى نهاية القرن السادس عشر ق.م، ولكن هذه التحركات لم ينتج عنها أكثر من انعكاس بعيد على الحدود المصرية[٤]، وما أن يمضى حين من الدهر، حتى تبدأ الهجرات نحو الجنوب بطيئة فى أول الأمر، كثيفة بعد ذلك، وربما كرد فعل لضغط آرى جديد، فليس من شك فى أن الموجات المتتالية للحيثيين والكاشيين والحوريين التى تدفقت على

---

(١) تاريخ الطبرى ٣٣٥/١-٣٣٦؛ تفسير القرطبى، ص ٤٢٧؛ ابن كثير، قصص الأنبياء، ٣٠٦/١؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ١٠١/١، ١٠٤، ١٦٩؛ محمد رشيد رضا، تفسير سورة يوسف، ٦٨؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر ٢٧/٢؛ جرجى زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٦٠-٦١؛ وانظر: Flavius Josephus, Wars of the Jews, I, p. 19.

(٢) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر، ص ١٠٧، (القاهرة ١٩٦٠).

(٣) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 156.

(٤) A.H. Gardiner, op.cit., p 157.

ميزوبوتاميا وسورية الشمالية قد دفعت إلى ارتحال السكان، وسببت هجرة نحو مصر، أوقفها ملوك الأسرة الثانية عشرة والثالثة عشرة، ثم أصبحت لا تقاوم فى مبدأ القرن التاسع عشر قبل الميلاد[١].

وهكذا استطاعت كتلة مختلفة من الأجناس والطباع قدمت من الأناضول ومن الفرات ـ بالإضافة إلى من انضم إليهم من سورية وفلسطين ـ من اختراق للحدود المصرية والسيطرة على شرق الدلتا تمامًا، وكانت النتيجة التى ترتبت على ذلك، هى أن أسماءهم ـ التى وصلت إلينا ونقول عنها أنها أسماء الهكسوس ـ تنبئ عن خليط من أجناس مختلفة[٢]، حتى وإن غلبت فيها الأسماء السامية، ففيها كذلك عناصر غير سامية، لاشك أن بعضها «كاسى» والبعض الآخر «حرى»، وكلا الجنسين من أصل «هندو ـ أوروبى» نزل من أواسط آسيا [٣]، وعلى أى حال، فإن الساميين لا يكاد يتألف منهم العامل الرئيسى المسئول عن الزحف الجديد وقد تغرى غلبة الأسماء السامية المعروفة لنا الآن لتفوق الساميين فى العدد، ولكن يمكن أن يرجع سببها لعدم كفاية الأدلة التى فى متناولنا، أو لأن العناصر غير السامية قد هضمت بسرعة[٤].

أضاف إلى ذلك كله، أن هذا الرأى ـ الذى يرى فى طرد الهكسوس قصة خروج الإسرائيليين من مصر ـ إنما يتعارض تمامًا مع نصوص التوراة، التى لم تحدثنا أبدًا أن اليهود قد دخلوا أرض الكنانة غزاة فاتحين، ولم تشر إطلاقًا إلى أن ملوك مصر كانوا يومًا ما ينتمون إلى أورمة إسرائيلية، وإنما ـ على العكس من ذلك ـ تتحدث نصوص سفر التكوين عن دخول بنى

---

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٠٢.

(٢) J.A. Wilson, op.cit., p. 164.

(٣) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٨٧، (القاهرة ١٩٧١).

(٤) سليم حسن، مصر القديمة، ١٨٧/٤، (القاهرة ١٩٤٨).

إسرائيل، الذين عضهم الجوع فى أرض كنعان، فأتوا إلى النيل يلتمسون المأوى والغذاء[١].

هذا فضلا عن أن سفر التكوين - مرة أخرى - إنما يحدثنا بأن الربّ قد نبأ إبراهيم الخليل من قبل، بأن الإسرائيليين سوف تكتب عليهم الذلة والمسكنة فى مصر فترة قوامها قروناً أربعة[٢]، زادها سفر الخروج ثلاثين عاماً[٣]، أضف إلى ذلك أن التوراة إنما تحدثنا أن الإسرائيليين عندما خرجوا من مصر، إنما كان ذلك برغبة من موسى، وبموافقة من فرعون، بل إنهم حين طردوا منها إنما كانوا فى عجلة من أمرهم، حتى أنهم ما كانوا بقادرين على أن ينتظروا حتى يختمر عجينهم، مما اضطرهم إلى أن يخرجوا من مصر، دون أن يصنعوا لأنفسهم زاداً[٤].

ونقرأ فى سفر الخروج أن مدينة «بى رعمسيس» (قنتير)، إنما كانت نقطة التجمع التى بدأ منها خروج الإسرائيليين من مصر[٥] وهذه لم تنشأ إلا على أيام رعمسيس الثانى - من الأسرة التاسعة عشرة - كما أشرنا من قبل، وأخيراً فإن الروايات الإسرائيلية نفسها، إنما تذكر حياة الإسرائيليين بكل مرارة، وتصف الذل والهوان الذى كان يعيش فيه الإسرائيليون فى مصر، يقول سفر الخروج: «فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وكل عمل فى الحقل، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفاً»[٦].

ويبدو أن الهدف من ذلك - فيما يرى جيمس فريزر - [٧] أن المصريين أرادوا أن يحولوا دون تكاثرهم عن طريق تشغيلهم فى الأعمال الشاقة التى

(١) تكوين ٣٩: ٥٠.
(٢) تكوين ١٥: ١٣.
(٣) خروج ١٢: ٤٠.
(٤) خروج ١٢: ٣١-٣٩.
(٥) خروج ١٢: ٣٧.
(٦) خروج ١: ١٣-١٤، ٣٢.
(٧) جيمس فريزر، الفولكلور فى العهد القديم، ترجمة: نبيلة إبراهيم، ومراجعة: حسن ظاظا، ص٥، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤).

ربما قضت عليهم، ولكن لما فشلت هذه المعاملة فى تحقيق النتيجة المرغوبة، أمر الملك بقتل أطفالهم الذكور إثر ولادتهم، ولكن لما كانت القابلات اللاتى كلفن بذلك الأمر القاسى يتهربن من تنفيذه[١]، فقد أمر فرعون شعبه جميعًا بأن «كل ابن يولد تطرحونه فى النهر، لكن البنت تستحيونها»[٢]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وإذْ نجَّيناكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يسومونَكُم سوءَ العذابِ يُذَبِّحُونَ أبناءَكُم ويستحيونَ نساءَكُم وفى ذَلِكُم بلاءٌ مِنْ ربِّكُم عظيم﴾[٣]

وكان من نتائج ذلك كله، أن غدا العرف الشائع بين العبرانيين أنهم يتشاءمون تشاؤماً تقليدياً بالأيام التى قضوها فى مصر، ويحسبونها بلية البلايا ومحنة المحن فى تاريخهم كله ـ من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد النازية الهتلرية ـ أى منذ القرن العشرين قبل الميلاد إلى القرن العشرين بعد الميلاد ـ وقد مرت بهم محنة السبىّ إلى وادى النهرين، ولكنهم لا يتشاءمون بها كما تشاءموا بالمقام فى مصر، ولا يجعلون الخروج من بابل (فى عام ٥٣٩ق.م) عيداً باقيًا متجدداً، كعيد الخروج من أرض وادى النيل[٤] ـ فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ـ

وهكذا نستطيع أن نقول ـ دونما أن يخالجنا ريب فيما نقول ـ إن دعوى «يوسف بن متى» اليهودى فى الربط بن الهكسوس وأجداده

---

(١) خروج ١: ١٥-٢١.

(٢) خروج ١: ٢٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٤٩؛ وانظر: تفسير الكشاف ١/١٣٧-١٣٨؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ١/٥٩-٦١؛ تفسير الطبرى ٢/٣٦-٣٩؛ تفسير الألوسى ٣١/٢٣١-٢٣٥؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١/٦٨-٦٩؛ تفسير المنار ١/٣٠٨-٣١٣؛ تفسير البحر المحيط ١/١٨٧-١٨٨؛ فى ظلال القرآن ١/٧٠-٧٢؛ تفسير النسفى ١/٤٩؛ التفسير الكاشف ١/٩٨-١٠٠؛ تفسير روح المعانى ١/٢٥٢-٢٥٤؛ تفسير ابن كثير ١/٩٠-٩١.

(٤) عباس العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٥٨.

العبرانيين لم تكن إلا من نوع تلك الدعاية الكذوب التى لا يزال يحذقها أحفادهم الصهاينة المحدثون، وأنه ليست هناك صلة بين اليهود والهكسوس، وذلك لأن اليهود لم يكونوا وقت ذاك قد استوطنوا فلسطين كقوم لهم كيان يستطيعون أن يحتلوا دولة كبرى من دول الشرق الأدنى القديم، الأمر الذى لم يكتب لهم أبداً، فضلا عن أن تكون هذه الدولة مصر بالذات، بل إنهم لم يكونوا حتى هذه المرحلة، إلا مجموعة من الرحل الذين يستقرون على أطراف إقليم زراعى بموافقة أصحابه، وهم فى مركز الرعايا الخاضعين، إن لم يكونوا العبيد المستذلين، وما حدثنا التاريخ من قبل عن مستعمر يستذل فى أرض يستعمرها.

ومن هنا فإننا نستبعد هذا الرأى تماماً، ولا نرى أن خروج بنى إسرائيل من مصر، قد تمّ أثناء تحرير أرض الكنانة المقدسة من دنس الهكسوس، تحت ظلال فرسان الصعيد المغاوير، من أمثال سقنن رع وكاموزا وأحمس الأول.

٢ - الرأى الثانى: الخروج فى عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م)

هناك رأى ثان يذهب إلى أن الخروج إنما تمّ فى عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠- ١٤٣٦ق.م) - أو فى عهد ولده أمنحتب الثانى (١٤٣٦-١٤١٣ق.م) على الأقل [١] - ويعتمد أصحابه على نص التوراة فى سفر الملوك الأول، والذى جاء فيه : «وكان فى سنه الأربع مئة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى السنة الرابعة للملك سليمان على بنى إسرائيل فى شهر زيو، وهو الشهر الثانى، أنه بنى البيت للربّ[٢]»، ولما كان حكم سليمان، عليه السلام، يقع فيما بين عامى ٩٧٢، ٩٣٦ ق.م، فالعام الرابع إذن هو عام ٩٦٧ق.م[٣] (أو عام ٩٦٦/٩٦٧ق.م)، وبالتالى فالخروج عام ١٤٤٦ق.م أو عام ١٤٤٧ق.م [٤].

ومن هنا فإن الخروج إنما قد تم فى حوالى عام ١٤٤٧ق.م، إذا ما عدنا إلى الوراء ٤٨٠ سنة من إقامة معبد سليمان، وبهذا فالخروج - طبقًا لهذا الرأى - إنما يقع فى عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م)، أو بالأحرى فى السنوات الأخيرة منه، فإذا قبلنا هذا الرأى، فإن تحوتمس الثالث

(١) قاموس الكتاب المقدس، ٩٣٣/٢.

(٢) ملوك أول ٦ : ١.

(٣) يختلف المؤرخون فى فترة حكم سليمان، فبينما يرى «فضلو حورانى» أنها فى الفترة (٩٧٤-٩٣٢ق م)، يرى حسن ظاظا أنها فى الفترة (٩٧٣-٩٣٦ق.م) ويرى «أبشتين» أنها فى الفترة (٩٧٢-٩٢٢ق.م)، ويرى «شموكل» أنها فى الفترة (٩٧٠-٩٣٢ق م) ويرى «فيليب حتى» أنها فى الفترة (٩٦٣-٩٢٣ق.م)، ويرى «هيتون» أنها فى الفترة (٩٦١-٩٢٢ق م) ويرى «أولبرايت» أنها فى الفترة (٩٦٠-٩٢٢ق.م).. وهكذا.

(٤) انظر: J. Liver, IEJ, 3, 1953, p 113-122.

وكذا: J. Finegan, op.cit., p. 117.

وكذا: E.R. Thiele, JNES, 3, 1944, p. 147-184.

وكذا: W.F. Albright, BASOR, 100, 1945, p. 16-22.

يصبح حينئذ هو «فرعون الخروج»، والصورة التى تقدم له كفرعون الخروج مقبولة تمامًا، ذلك لأننا نعرف أنه كان بناءً عظيمًا، وأنه استخدم الأسرى الأسيويين فى مشروعاته البنائية، هذا فضلا عن أن مدة الأربعين سنة التى قدرت لفترة التيه التقليدية[١]، تجعل الإسرائيليين يصلون إلى كنعان حوالى عام ١٤٠٠ق.م، ومن هنا يمكن توحيدهم بالخابيرو، الذين كانوا يضغطون على البلاد وقت ذاك[٢].

ويعضد أصحاب هذه النظرية رأيهم هذا بما يقوله «جون جارستانج»، من أنه قد كشف فى مقابر أريحا الملكية ما يشير إلى أن موسى قد انتشلته من الماء الأميرة المصرية «حتشبسوت» فى عام ١٥٢٧ق.م على وجه التحقيق، وأنه قد تربى فى بلاطها بين حاشيتها، ثم فرَّ من مصر حين جلس على العرش المصرى عدوها «تحوتمس الثالث»، ويعتقد «جارستانج» كذلك أن المخلفات التى وجدت فى قبور أريحا، تؤيد ما جاء فى الإصحاح السادس من سفر يشوع، وأن هذه البقايا إنما ترجع إلى حوالى عام ١٤٠٠ق.م وأن الخروج قد تم فى عام ١٤٤٧ق.م[٣].

ويؤيد العالمان Hommel و Orr، هذا الاتجاه، مع بعض التعديلات، فهما يريان أن دخول العبريين مصر وغزو الهكسوس لها، إنما كان فى عام ١٨٧٧ق.م، وأن الخروج - طبقًا لرواية التوراة - إنما كان فى عام ١٤٤٧ق.م، فى عهد الملك «أمنحتب الثانى»، وأن غزو فلسطين إنما تم بعد ذلك بأربعين عامًا، وهذا بالضبط عصر رسائل العمارنة، ثم بدأ سليمان

(١) خروج ١٦ : ٣٥؛ عدد ١٤ : ٢٣؛ تثنية ٢ : ٧؛ يشوع ٥ : ٦.

(٢) J. Finegan, op.cit., p. 117-118.

وكذا: J. W. Jack, The Date of the Exodus, Edinburgh, 1925.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثانى، ترجمة: محمد بدران، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٢٩ (جامعة الدول العربية).

فى بناء معبده بعد خروج أسلافه من مصر بـ ٤٨٠ سنة أى عام ٩٦٧ق.م[١].

ولعل قريبًا من هذا ما يراه «أوبحر»، من أن موسى إنما قد ولد فى عام ١٥٢٠ق.م، على أيام الملك «تحوتمس الأول» (١٥٢٨-١٥١٠ق.م)، وأن ابنة فرعون التى أنجته إنما هى الأميرة «حتشبسوت»، وأن اضطهاد بنى إسرائيل فى مصر، إنما قد بدأ بعد أن نشب النزاع بين حتشبسوت وتحوتمس الثالث، ثم وصول الأخير إلى العرش المصرى، ومن ثم فإن «أوبحر» إنما يحدد تاريخ الخروج بعام ١٤٤١ق.م، على أيام «أمنحتب الثانى» الذى يرى أنه قد حكم فى الفترة (١٤٥٠-١٤٣٥ق.م)، وأن أباه «تحوتمس الثالث» إنما قد حكم فى الفترة (١٤٨٢-١٤٥٠ق.م)[٢].

ورغم جاذبية هذه النظرية، إلا أن هناك عقبات كؤود إنما تقف فى طريق قبولنا إياها، والتى منها (أولا) أن توحيد عابيرو رسائل العمارنة بعبرانى التوراة أمر بعيد الاحتمال - كما أشرنا آنفًا، ومنها (ثانيًا) أن رسائل «عبد خيبا» إنما تفيد أن مدينة «أورشليم» إنما كانت عرضة لهجوم كبير[٣]، هذا مع أن رواية التوراة يفهم منها أن أورشليم لم تكن هدفًا رئيسيًا بالنسبة إلى يشوع، بل إن احتلالها لم يتم - كما فى سفر صموئيل الثانى - إلا على أيام داود عليه السلام[٤].

---

(١) Orr, The Problem of the Old Testament, Geneva, 1908, p. 422-424.

وكذا: A. Lods, op.cit., p. 182.

(٢) Merrill F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chciago, 1970, p. 332-333.

(٣) W. F. Albright, The Amrna Letters in ANET, p, 487-489.

وكذا: A. Knudizon, op.cit., p. 877.

وكذا: S.A.B. Mercer, op.cit., H., P. 727.

(٤) صموئيل ثان ٥/٦-٩؛ وكذا:

J. Finegan, op.cit., p. 118; R.A.S. MaCalister, in CAH, 1965, p. 342-346.

ومنها (ثالثًا) أن التفاصيل الموجودة فى التوراة - كما يقدمها سفرا يشوع والقضاة - عن الاستيطان الإسرائيلى النهائى فى فلسطين، لا يتفق بصفة عامة مع المعلومات الواردة فى رسائل العمارنة، وعلى سبيل المثال، فإن أسماء الملوك الكنعانيين الواردة فى سفرى يشوع والقضاة، إنما تختلف عن أسماء الأمراء الذين حكموا نفس المدن أثناء عهد أمنحتب الثالث (١٤٠٥-١٣٦٧ق.م) وولده إخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ق.م)، فمثلا «عبدى خيبا» فى رسائل العمارنة [١]، هو «أدونى صادق» فى يشوع[٢]، أو «أدونى بازاق» فى القضاة[٣]، والأمر كذلك بالنسبة إلى حاكم «جازر»، فهو «يباخى» أو يباخو» فى رسائل العمارنة[٤]، وهو «هوارام» فى سفر يشوع[٥]، وحاكم صور هو «عبد تيرش» فى رسائل العمارنة[٦]، وهو «يابين» فى سفر يشوع[٧] والقضاة[٨]... وهكذا.

ومنها (رابعًا) أن نص سفر الملوك الأول، والذى يحدد الفترة من الخروج وحتى بناء المعبد فى العام الرابع من حكم سليمان بـ ٤٨٠ سنة، يناقضه أن هناك من يجعل هذه الفترة نفسها ٤٤٠ سنة، فضلا عن أن نفس المدة طبقًا لنصوص من التوراة إنما تصل إلى ٥٨٠ سنة[٩]، ومن ثم فقد رأى البعض أن هذه الفترة (أى الـ ٤٨٠ سنة) إنما هى عنصر متأخر فى النص وأن الترجمة السبعينية للتوراة قد وضعته فى مكان آخر، وأنه ربما كان تخمينًا لأحد المؤلفين المتأخرين نسبيًا، والذى ربما قد استخلصها من السجلات التوراتية، ذلك لأن هناك فترة اثنى عشر جيلا تقع فيما بين

---

(١) ANET, p. 487-89.
(٢) يشوع ١٠: ١.
(٣) قضاة ١: ٥-٧.
(٤) ANET, p. 490.
(٥) يشوع ١٠: ٣٣.
(٦) A. Lods, op.cit., p. 182-4; S. A. Cook, op.cit., p. 356-357.
(٧) يشوع ١١: ١.
(٨) قضاة ٤: ٢.
(٩) باروخ سبينوزا، رسالة فى اللاهوت والسياسة، ص ٢٩٠-٢٩٦.

الحادثين (أى الخروج وبناء المعبد) ، وأنه قد أعطى لكل جيل كتقدير أعلى أربعين عامًا، فكانت النتيجة ٤٨٠ عامًا (٤٠ × ١٢ = ٤٨٠ سنة)، ومن ثم فنفس الشيء يكون صحيحًا فى حالة التقويمات المتصلة فى أسفار يشوع والقضاة وصموئيل، والتى تقوم على نفس التقدير: أى ٤٠ عامًا لكل جيل[١].

وهناك افتراض آخر، هو أن الـ ٤٨٠ سنة، ربما تشير إلى الوقت الذى دخلت فيه مجموعة مبكرة ـ ربما يهوذا أو قبائل أخرى ـ إلى فلسطين من الجنوب، وهذا يفصلها عن قبائل «بيت يوسف»، التى خرجت من مصر، تحت قيادة موسى ويشوع، كما يجعلها سابقة لها، ولو أن التقاليد إنما تجعل الحادثين مرتبطين معًا فى النهاية[٢].

ومنها (خامسًا) أن الخروج كان ـ طبقًا لهذه النظرية ـ قد تم فى عام ١٤٤٧ق.م، وإذا سمحنا بفترة ٤٣٠ سنة للإقامة فى مصر ـ طبقًا لرواية التوراة[٣] ـ فإننا سوف نصل إلى حوالى عام ١٨٧٧ق.م ـ كما رأى هوهل ـ وهذا يصل بنا إلى قرابة قرن ونصف القرن قبل دخول الهكسوس مصر، وأنه لأمر غير مقبول تمامًا، أن يدخل الإسرائيليون مصر قبل عصر الهكسوس، لأسباب سبق لنا مناقشتها من قبل، هذا فضلا عن أن دخول بنى إسرائيل مصر ـ طبقًا لعام ١٨٧٧ق.م فإنه سوف يكن على أيام الأسرة الثانية عشرة، وفى عصر «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨-١٨٤٣ق.م) على وجه التحديد، إلا إذا اعتمدا على النص السبتاجونى للتوراة، الذى يختزل مدة الإقامة فى مصر إلى النصف.

---

(١) J. Finegan, op.cit., p. 120-121.

وكذا: H.H. Rowley, From Joseph to Joshua, London, 1950, p. 139F, 147F.

(٢) J. Finegan, op.cit., p. 118.

(٣) خروج ١٢: ٤٠.

ومنها (سادسًا) أن نص سفر الملوك الأول (٦ : ١) ـ الآنف الذكر، وعماد هذه النظرية ـ يناقضه نص توراتى آخر، يجعل من رعمسيس الثانى فرعونًا للتسخير، ذلك لأن الإسرائيليين إنما قد سخروا فى بناء مدينتى «بى رعمسيس» و«فيثوم»[1]، ومنها (سابعًا) أن تحوتمس الثالث كان بناءً عظيماً، كما يقول أصحاب هذه النظرية، ولكن مشاريع الفرعون العظيمة هذه إنما كانت فى الصعيد، وبخاصة فى العاصمة طيبة[2]، هذا فضلا عن أن عاصمة الفراعين المصريين لم تكن أبداً فى الدلتا، فيما قبل أيام الأسرة التاسعة عشرة، كما أنه لم يكن هناك اهتمامات رئيسية بمشروعات بنائية فى الدلتا، وبخاصة فى شرقها، حيث كان يقيم العبرانيون هناك[3]، بل إنه بالكاد يفهم أن التحامسة قد كرهوا هذا المكان لاتصاله بالغزاة الأجانب المكروهين، وربما كان هذا هو السبب فى عدم وجود آثار الأسرة الثامنة عشرة فى تانيس، وأما فى الأسرة التاسعة عشرة ـ والتى ربما كان ملوكها من هذه المنطقة ـ فقد وجد لدى رعمسيس الثانى الباعث لاختيار عاصمة ملكه فى الدلتا، فبنى «فيثوم» ثم «بى رعمسيس» التى حملت اسمه[4].

ومنها (ثامنًا) أن الفترة فيما بين عامى ١٥٠٠، ١٢٠٠ق.م، إنما كانت فترة التقدم الذى أظهره الصناع الكنعانيون فى وسائلهم الفنية تحت التأثير الإيجى، ومن ثم فقد كان هذا العصر هو العصر الذهبى لصناعة الفخار الكنعانى، ثم أليس من الغريب أن يتطابق ازدهار الفن، مع غزو البلاد بواسطة هؤلاء البدو، الذين كانوا بالتأكيد أقل مدنية من السكان الأصليين، ولهذا فمن الطبيعى جداً أن يتفق دخول هولاء البرابرة أرض كنعان، مع فترة التدهور التى نملك عليها الكثير من الأدلة، فيما بعد عام ١٢٠٠ق.م.

(١) خروج ١: ١١.

(٢) انظر: سليم حسن، مصر القديمة ٤/٤٥٥-٤٩٦.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 183.

(٤) A. Gardiner, JEA, 19, 1933, p. 126-127.

ومنها (تاسعًا) أن النتائج التى توصل إليها «جون جارستانج» من أن أريحا ـ وكذا حاصور ـ قد دمرت حوالى عام ١٤٠٠ق.م[١]، وهناك من يتقدم بهذا الحادث إلى عام ١٥٠٠ق.م، بل إن هناك من يذهب به إلى ما بعد عام ١٦٠٠ق.م، بفترة وجيزة[٢]، وفى نفس الوقت فإن «الأب فنسان» يتأخر بها إلى ما بين عامى ١٢٥٠، ١٢٠٠ق.م[٣]، هذا فضلا عن أن تخريب مدن كنعان، ليس بالضرورة أن يكون قد تمَّ على أيدى الإسرائيليين الخارجين من مصر، ومن المرجح أنه قد حدث فى فترة الفوضى التى صحبت عهد إخناتون (١٣٦٧–١٣٥٠ق.م)، والتى انتهت بانسحاب السيادة المصرية من فلسطين إلى حين.

وأما عن «أريحا» بالذات فإن حفائر «إرنست سيللين» و«جون جارستانج» و«مس كنيون»، دلت على أنها كانت دائمًا معرضة للبدو المشاغبين، وأنهم كانوا دائمًا يهاجمونها حتى يفتحوا طريقهم إلى فلسطين، وأن الحائط القديم ـ والذى كان قد بنى من الآجر الطينى المسطح ـ قد وجدت «مس كنيون» أنه قد هدم وأعيد بناؤه أكثر من ١٧ مرة، وأن الآجر المتبقى من انهياره الأول يشير إلى أنه قد هدم بفعل الزلازل، وأن الأخير ربما كان بفعل الغزاة الأراميين حوالى عام ٢١٠٠ق.م[٤].

---

(١) J. Finegan, op.cit., p. 164.

وكذا:

J. Garstiang, Joshua, Judges, The Foundations of Bible History, p. 184F, 382F.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 182.

(٣) W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 160.

(٤) K.M. Kenyon, in PEQ, 1952, p. 64; 1953, p. 88F; 1954, p. 55F; 1955, p. 114F.

J. and J.B.E. Gar Stang, The Story of Jericho, 1940.

وكذا: J. Finegan, op.cit., p. 156-157.

وعلى أى حال فإنه لا يوجد حتى الآن دليل فى الموقع يمكن عن طريقه أن نحاول تحديد التاريخ الذى احتل فيه يشوع أريحا، وقد كانت مدينة فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولكنها اختفت تماماً فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وإذا كانت جدران هذه المدينة قد انهارت أمام قوات يشوع، فهناك احتمال على أن الزلازل، ربما كانت هى السبب، ذلك لأن الموقع الجيولوجى للمدينة يبعث على مثال تلك الأحداث، هذا فضلا عن أن الجدار الأول - والذى يرجع إلى عصر البرونز المبكر - كان، فيما يبدو، قد انهار بسبب الزلازل كذلك[1].

ومنها (عاشراً) أن الدليل الأثرى من «عبر النهر» - وكذا فى لاخيش ودبير - لا يتفق مع الخروج المبكر، ذلك أن «نلسون جلوك» قام بمسح أثرى لمنطقة عبر الأردن، وتوصل إلى أن الفترة، فيما بين عامى ١٩٠٠، ١٣٠٠ق.م، تمثل ثغرة فى السكان المقيمين فى المنطقة، فإذا خرج الإسرائيليون من مصر حتى حوالى عام ١٤٠٠ق.م فالمفروض - والأمر كذلك - ألا يلتقوا بالملوك الآدوميين والعمونيين والمؤابيين الذين عاقوا تقدمهم - كما تقول التوراة - وإنما كان هناك بدو متفرقون هنا وهناك، والأمر كذلك بالنسبة إلى الدليل الأثرى من «لاخيش» و«دبير»[2].

ومنها (حادى عشر) أن الحفريات التى أجريت فى «دبير»[3] - ويظن أنها تقع فى موقع قرية الظهيرية، على مبعدة ١٢ ميلا جنوبى غربى حبرون، ومثل هذه المسافة جنوب شرق لاخيش، ويرجح مكانها الآن مكان تل بيت

(١) J. garstang, Joshu, Judges, The Foundations of Bible History, p. 144F.

وكذا: J. FInegan, op.cit., p. 159.

(٢) M.F. Unger, op.cit., p. 334.

(٣) W.F. Albright, AASOR, 13, p. 55-128, 17, p. 21-22.

وكذا: MG. Kyle, Excavations Kirjath Sepher's Ten Cities, 1934.

مرسيم على مبعدة ١٣ ميلا جنوبي غربي حبرون[١] ـ اكتشفت طريق أمنحتب الثالث، والذى كان مايزال يستعمله الموظفون المصريون فى دبر، مما يدل على أن مصر على أيام أمنحتب الثالث، كانت ماتزال صاحبة السيطرة هناك، وأن الإسرائيليين لم يكونوا قد قدموا بعد، وبالتالى لم يسيطروا على هذه المنطقة، وفى نهاية عصر البرونز المتأخر وجدت آثار حريق هائل، وفوقه بقايا إسرائيلية، مما يدل على وصول الإسرائيليين[٢].

ومنها (ثانى عشر) أن حفائر جامعة بنسلفانيا (متحف الجامعة) ـ التى تمت تحت إشراف كلاريس س فيشر، وألن رو، وج م فيتزجرالد[٣] ـ أثبتت أن المنطقة ظلت تحت سيطرة الحامية المصرية[٤]، كما كانت كذلك على أيام أمنحتب الثالث ورعمسيس الثانى اللذين وجدت أسماؤهما على معبد المدينة[٥]، مع أنها ذكرت من بين المدن التى استولى عليها يشوع[٦].

ومنها (ثالث عشر) أننا إذا رجعنا إلى التاريخ المصرى القديم، لرأينا «حتشبسوت» تحكم مع أخيها «تحوتمس الثانى» (١٥١٠–١٤٩٠ق.م) ـ كزوجة ـ وليست كملكة ـ ثم حكمت بعد ذلك مع ابن أخيها «تحوتمس الثالث» كوصية على العرش، وإن ظلت المراسيم تصدر باسمه قرابة سبع سنوات على رأى وأربع سنوات على رأى آخر، بل إن «سير آلن جاردنر» ليرى أن هناك نصًا لم ينشر بعد، يحدد تتويج حتشبسوت، كملك بالسنة

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ٣٦٨/١ وكذا: J. Finegan, op.cit., p. 163.

وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 255.

(٢) W.F. Albright, AASOR, 17, p. 79.

وكذا: M.G.Kyle, op.cit., p. 192.

(٣) Alan Rowe, The Topography and History of Beth-Shan, Pennsylvania, 1930.

(٤) W.F. Albright, op.cit., p. 125, p. 24F.

(٥) M.F. Unger, op.cit., p. 142.

(٦) يشوع ١٧ : ١١.

الثانية[١]، واستمرت كذلك حتى عام ١٤٦٨ق.م، وحين مات تحوتمس الثالث خلفه على عرشه ولده «أمنحتب الثانى».

وإذا ما طبقنا ذلك على ما ارتأه «جارستانج» من أن موسى قد هرب من مصر حين ماتت «حتشبسوت»، وجلس على العرش عدوها تحوتمس الثالث، ثم حدث خروج بنى إسرائيل من مصر فى أخريات أيام عهده لرأينا أن ذلك يتناقض مع التقاليد الإسرائيلية فى أمور عدة، منها : أن موسى قد فرّ من مصر لا بسبب موت حتشبسوت واستيلاء تحوتمس الثالث على العرش وإنما لأن موسى ـ طبقًا لرواية التوراة [٢]، وكذا القرآن الكريم[٣] ـ قتل مصريًا، بسبب اقتتال هذا المصرى مع واحد من العبرانيين، وكما تقول التوراة، فلما «سمع فرعون هذا الأمر، طلب أن يقتل موسى، فهرب موسى من وجه فرعون وسكن فى أرض مديان».

هذا فضلا عن أننا لو صدقنا «جارستانج» ـ ومن تابعه فى ذلك ـ من أن هروب موسى من مصر إنما كان بسبب استيلاء تحوتمس الثالث ـ عدو حتشبسوت على العرش، لكان على موسى أن ينتظر وفاة تحوتمس الثالث حتى يعود إلى مصر لأنه عدوه الذى فرّ من مصر بسببه أولا، ولأن التوراة إنما تروى (ثانيًا) «أنه حينما مات ملك مصر تنهد بنو إسرائيل من العبودية، فسمع الله أنينهم وتذكر ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأرسل موسى ليطلق سراحهم من أيدى المصريين»[٤].

بل إن هناك نصًا صريحًا فى التوراة إنما يجعل عودة موسى إلى مصر مرتبطة بوفاة من كان يطالبه بالقصاص، وحين تم ذلك عاد موسى إلى

---

(١) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford 1946, p. 184.

(٢) خروج ٢ : ١٥.

(٣) سورة القصص، آية : ١٥ : ٢٢.

(٤) خروج ٢ : ٢٣-٢٥.

مصر، وقال الربُّ لموسى فى مديان، اذهب إرجع إلى مصر، لأنه قد مات جميع القوم الذين يطلبون نفسك[١]، هذا إلى أن التقايد الإسرائيلية إنما تحدد إقامة موسى فى أرض مدين بأربعين عاماً[٢]، وهى فترة تتجاوز الفترة ما بين وفاة حتشبسوت وحكم تحوتمس الثالث منفرداً بعد وفاة حتشبسوت (١٤٦٨-١٤٣٦ق.م) ـ بثمانية أعوام، وهذا يعنى أن تحوتمس الثالث قد انتقل إلى الدار الأخرة قبل عودة موسى إل مصر بثمانى أعوام، وبهذا ـ وطبقًا لنظرية جارستانج ـ فإن تحوتمس الثالث لا يمكن أن يكون فرعون الخروج.

أضف إلى ذلك، أن تدمير أريحا إن كان قد حدث فى عام ١٤٠٧ق.م[٣]، فسوف يكون ذلك فى عهد «تحوتمس الرابع» (١٤١٣-١٤٠٥ق.م)[٤]، وأما إن كان قد حدث فى عام ١٤٠٠ق.م، فإن ذلك إنما يكون فى عهد «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥-١٣٦٧ق.م) [٥] وهذا يعنى أن تدمير أريحا ودخول الإسرائيليين أرض كنعان، إنما كان إما فى أخريات عهد تحوتمس الرابع، وإما فى أوائل عهد أمنحتب الثالث، وفى كلا العهدين إنما كانت مصر، دون شك، ماتزال تحتفظ بإمبراطوريتها الواسعة فى آسيا الغربية، بل إن «تحوتمس الرابع»، إنما يعتبر واحداً من الفراعين العظام، وأنه قام عن جدارة بواجبه الحربى فى الحفاظ على الإمبراطورية المصرية، هذا فضلا عن أن «أمنحتب الثالث»، كان ـ على الأقل فى النصف الأول من حكمه ـ سيد الشرق دون منازع.

---

(١) خروج ٤: ١٩.

(٢) عدد ١٤: ٣٣؛ أعمال الرسل ٧: ٣٦، ٤٢؛ قاموس الكتاب المقدس ٢/٩٣١.

(٣) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٣/٢٨٠.

(٤) A.H. Gardiner, op.cit., p. 443.

(٥) Ibid., p. 443.

ولعل سؤال البداهة الآن: كيف استطاع الإسرائيليون دخول كنعان - وهي ولاية مصرية - ثم تدمير أريحا وعاى وبيت إيل وغيرها من مدن فلسطين، دون أن يحرك الفرعون ساكناً؟ في الحقيقة أن هذا أمراً لا يمكن قبوله بسهولة، ما لم تعضده أدلة قوية، وهذا ما لم يثبت حتى الآن، فضلا عن أنه أمر تحيط به عوامل الشك والريبة من كل مكان، ومن ثم فإنني - على الأقل - أتردد كثيراً في الأخذ بهذا الرأى.

ومنها (ثاني عشر) أن بعثة جامعة «ستراسبرج» قد كشفت في عام ١٩٦٥م، عن نص في معبد لأمنحتب الثالث بمنطقة «صولب» في النوبة السودانية، وفيه ذكر لقبائل من بدو الصحراء، ومنهم قبيلة «يهوه» في عصر أمنحتب الثالث[١]، ومن المعروف أن أمنحتب الثالث قد شيد معبداً في صولب ليعبد فيه هو - وكذا الإله آمون - وهذه هي المرة الأولى التي تعرف مصر فيها عبادة الملك الحي على الأرض، حتى أننا نرى أن أمنحتب الثالث لم يغامر بذلك في مصر، بل بدأها في السودان[٢].

ولعلنا نستنتج من هذا أن قبيلة «يهوه» البدوية، كانت حتى هذه الفترة - أي عهد أمنحتب الثالث - مازال في مصر، وإن كنا لا نستطيع التأكد من أن اسم «يهوه» هنا له صلة بإسرائيل أو بقبيلة إسرائيل، أم لا، ومع ذلك، فهو - على الأقل - يشير ظلالا من شك حول نظرية الخروج في عهد تحوتمس الثالث أو ولده أمنحتب الثاني.

---

(١) مراد كامل، الكتب التاريخية في العهد القديم، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٩.

(٢) سليم حسن، مصر القديمة ١٠٦/٥.

٣ ـ الرأى الثالث: الخروج فيما بين وفاة إخناتون وتولية حور محب العرش

هناك رأى ثالث يرى أن خروج بنى إسرائيل من مصر، إنما تم على أثر موت إخناتون (١٣٦٧–١٣٥٠ق.م)، وربما كان ذلك نتيجة لآراء العالم اليهودى «سيجموند فرويد» فى موسى وفى ديانة إخناتون، ذلك لأن «فرويد» ـ كما أشرنا من قبل ـ يرى أن موسى كان مصرياً ـ ولم يكن عبرانياً ـ

هذا وقد قام «فرويد» بعقد مقارنة بين الديانتين الموسوية والمصرية، وخلص من ذلك إلى أنهما على طرفى نقيض، فبينما ترى فى الموسوية وحدانية متشددة، نرى فى المصرية وثنية مغرقة فى التعدد، هذا فضلا عن أننا لا نكاد نعرف شعباً آخر فى تاريخ العالم القديم وصل إلى الدرجة التى وصل إليها المصريون من تجاهل للموت، ولا بذل ما بذلوا لتأمين معيشتهم فى الآخرة، ومن ثم فإننا نجد «أوزير» إله الموتى وربّ هذه الآخرة، أكثر المعبودات شعبية وأقلهم معارضين، يحدث هذا فى الوقت الذى أغفلت فيه الديانة الموسوية الحياة الأبدية تمامًا، إذ لم يرد فى أى موضع من التوراة ذكر لإمكان حياة بعد الموت، وهو أمر تزيد غرابته، إذا ما تبين لنا أن الإيمان بالآخرة يمكن أن يتفق تماماً مع عقيدة التوحيد[١].

وهنا يبدأ «فرويد» يتجه فى نظريته اتجاهاً آخر، فيتحدث عن ديانة إخناتون، ثم يعقد مقابلة بينها وبين ديانة العبرانيين، فيقدم لنا صورة عن عقيدة الشمس منذ نشأتها حتى أيام إخناتون[٢]، ثم عن اعتناق الفرعون لعقيدة التوحيد، وتمجيده لها فى أناشيده، وعلى أن إله الشمس هو الخالق والحافظ لكل الكائنات، سواء أكان ذلك فى مصر أم فى خارجها، وعن الحرارة التى تبدو فى تسبيحاته، والتى تشبه تلك التى تسرى بعد ذلك ببضعة قرون فى المزامير التى تمجد «يهوه» إله اليهود.

(١) S. Freud, op.cit., p. 18-20

(٢) محمد بيومى مهران، إخناتون : عصره ودعوته، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ٢٨٩–٤٨٤.

غير أن إخناتون لم يكتف بهذا السبق المدهش فى ميدان المعرفة العلمية بكشف فوائد الأشعة الشمسية، وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك، وهو أمر مؤكد تمامًا، فالرجل لم يعبد الشمس على أنها شىء مادى، بل على أنها رمز لكائن مقدس تنم هذه الأشعة عن قدرته ـ وهو أمر ذهب إليه من قبل «أدولف إرمان» [١] وإدوارد ماير وجيمس هنرى برستد[٢] وهول[٣] ـ هذا إلى أن إخناتون قد أضاف إلى فكرة عالمية الربّ شيئًا جديدًا أوضح فيه فكرة الوحدانية، وهى الطبيعة الخاصة به، ومن ثم نراه يقول فى إحدى تسبيحاته : «اللهم إنك أنت الإله الواحد الذى ليس معه سواه»[٤].

ومن هنا فقد أغلقت معابد الآلهة فى كل أنحاء الإمبراطورية، وصودرت ممتلكاتها وعطلت شعائرها، وضرب الحجز على خزائن الكهنوت، وذهب إخناتون فى حماسه إلى حد أنه أمر بفحص الآثار المصرية، ومحو كلمة «الآلهة» حيثما وجدت منقوشة عليها فى صيغة الجمع، لأن الله واحد لا يجمع[٥].

وأما مميزات ديانة إخناتون السلبية، فهى تحريم جميع الأساطير وأعمال السحر، وعدم السماح بعمل أى «صنم» لآتون[٦]، لأن الإله الحق لا صورة

---

(١) أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى، ص ١٢٥-١٤٦، (القاهرة ١٩٥٢).

(٢) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, p. 278-80.

(٣) H.R. Hall, op.cit., p. 288-300.

(٤) S. Freud, op.ci., p. 21-22.

(٥) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص ١٣٣، ١٣٨، ١٤٠. وكذا:

J. H. Breasted, op.cit., p. 280.

وكذا: S. Freud, op.cit., p. 22.

(٦) A. Gardiner, Egypt of the Pharaoh, p. 227.

وكذا: J. H. Breasted, op.cit., p. 30.

له، هذا فضلا عن التغيير في التعبير التشكيلي لإله الشمس، فلم يصور بصورة هرم صغير وصقر، وإنما بأسلوب يكاد يكون عقليًا، فيه يبدو قرص الشمس تنبعث منه أشعة نهايتها في شكل الأيدي، وأخيراً فإننا نلاحظ أنه لم يرد أي ذكر للإله «أوزير»، ولمملكة الموتى والحساب في الآخرة[١].

وعند هذه النقطة، يبدأ «فرويد» في عقد مقارنة بين الديانتين الإخناتونية والموسوية، مع علمه بأن ذلك سيكون أمراً صعبًا، ذلك لأن تعطش كهنة آمون للثأر من ديانة آتون، قد حرمنا الكثير من المعلومات عنها، بسبب تحطيم الغالبية العظمى من آثار هذا الملك، كما أننا لا نعرف ديانة موسى إلا في شكلها النهائي، كما تم تثبيتها بعد موسى، عليه السلام، بثمانية قرون، على يد رجال الدين اليهودي، في العصر الذي تلا الأسر البابلي(٥٨٧-٥٣٩ق.م).

ومع ذلك فإن «فرويد» إنما يقدم لنا بعض المقابلات بين الديانتين، لعل أهمها (أولا) أن صيغة إعلان الإيمان (الشهادة اليهودية) إنما تنطق على الوجه التالي: «شمع يسرائيل أدوناى إلوهينو أدوناى أحاد»، وترجمته إلى اللغة الغربية كالآتي: «اسمع يا إسرائيل : الربُّ إلهنا إله واحد»، فإذا لم يكن بالصدفة هذا التشابه في اللفظين بين «آتون»، المصرى، و«أدوناى» العبرى، و«أدونيس» السورى، وإذا كان هذا التشابه بالعكس نتيجة تماثل في الأصل من حيث اللفظ والمعنى، أمكن أن نترجم الجملة العبرية هكذا «إسمع يا إسرائيل: آتون إلهنا إله واحد».

ومنها (ثانيًا) أنه من السهل أن نبين أوجه الشبه والخلاف بين الديانتين، فكلاهما مظهر لوحدانية مطلقة دقيقة، ويميل «فرويد» أن يرد ـ من أول وهلة ـ لهذا الطابع الأساسى فيهما كل نقاط التشابه القائمة

---

(١) S. Freud, op.cit., p. 22-62.

بينهما، ومنها (ثالثًا) أن الدين اليهودى كان يجهل الآخرة والحياة بعد الموت، وهى معتقدات لا تتعارض مع الوحدانية مهما بلغت من الشدة، وإذا انتقلنا إلى ديانة إخناتون لوجدناها تفعل كذلك، وليس من شك فى أن التوافق فى هذه النقطة الهامة بين اليهودية والآتونية، إنما يعتبر أول حجة - غير ما أشرنا إليه عند الحديث عن موسى - وإن كانت ليست بالحجة الوحيدة[١].

ومنها (رابعًا) أن موسى - عليه السلام - لم يعط اليهود دينًا جديدًا فحسب، بل فرض عليهم الختان كذلك، رغم أن التوراة ترجعه إلى عصر الآباء الأولين[٢]، وأن الربَّ قد غضب على موسى عند تركه وكاد أن يقتله، لولا أن أنقذته زوجته صفورة الميدانية، حين أسرعت بالقيام بهذه الجراحة[٣]، ولكن الأمر هنا لا يتعدى تحريفًا يجب ألا يوقعنا فى الخطأ، إذ أن الحقيقة التى لاشبهة فيها، أن الختان جاء إلى اليهود من مصر، وأنه لا يوجد شعب آخر فى حوض البحر المتوسط يتبع هذه السنة غير المصريين، الذين تدل اثارهم على أنهم قد عرفوا الختان[٤] منذ أقدم العصور، حيث كشف عما يدل عليه مما عثر عليه فى جبانات عصور ما قبل التاريخ منذ أربعة آلاف عام قبل مولد المسيح عليه السلام، وذلك من أجسام بلغ من حفظها أن أمكن فحصها، والاستدلال منها على اتباع القوم لسنة الختان، هذا فضلا عن ضرورة تمثل عملية الختان، يقوم بها جراح مصرى فى قبر فى جبانة منف، يرجع إلى عهد الأسرة السادسة من الدولة القديمة، وأخرى من الدولة الحديثة الكرنك[٥]، هذا فضلا عن أن رواية التوراة[٦] يفهم منها

---

(١) S. Fraud, op.cit., p. 27-29. (٢) تكوين ١٧: ١٠-١١.

(٣) خروج ٤: ٢٤-٢٦.

(٤) انظر عن الختان: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية، ١/٤١٤-٤١٩.

(٥) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, p. 303, No. 10.

(٦) تكوين ١٧: ١٠-١١؛ ٢٣-٢٧.

أن إبراهيم، عليه السلام، لم يقم بعملية الختان، إلا بعد عودته من مصر، ثم سار على نهجها فى أرض كنعان[١] ؟

وأيًا ما كان الأمر، فإن أمر الختان فى التوراة إنما يدل على مدى التضارب فى نصوصها، فنص يرجعه إلى إبراهيم عليه السلام، وقد دون هذا النص، أول ما دونه أخبار السبى البابلى، فيما بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد[٢]، أى بعد عهد إبراهيم، عليه السلام، بما يربو عن ألف وخمسمائة عام، ثم إنها رواية لم تتداخل مع بقية النصوص فى صلب أسفار الشريعة فى صورتها الحالية، إلا فى عام ٤٠٠ق.م ـ أو ما يقارب ذلك ـ حين ابتعثت دولة يهوذا فى ظل الحماية الفارسية على يد «عزرا» الذى يعزى إليه إرساء أركان العقيدة اليهودية، كما تطالعنا الآن، فلا غرو أنه يتعارض تعارضًا جذريًا، مع روايات أخرى ـ كما فى سفر التثنية[٣] ـ ربما أن كانت أصداء خافتة لوقائع فى صورة من أساطير، عن نشأة سنة الختان، تلك السنة التى كانت ـ كما أشرنا آنفًا ـ عادة مصرية متأصلة[٤]، فأعجب بها من سة مميزة، إلا أن يكون بنو إسرائيل قد سعوا أصلا ـ أو أجيروا غصبًا ـ على أن يتمثلوا بذلك الشعب الذى انبثقت حضارته سامقة عملاقة على ضفاف وادى النيل، ما أن يكشف ـ حتى فى عصرنا هذا ـ عن أى من أمر آثارها الدارسة، حتى يؤخذ العالم مبهورًا، فكيف بالشعوب التى من حولها، حين كانت فى أوجها، تخطف الأبصار بلألأ من إشعاع وهّاج، فالختان إذن انتحال يهودى واضح، ومع ذلك فبه اليهود يتعلقون، إمارة لتفرد يدعون

---

(١) انظر: محمد بيومى مهران، قصة أرض الميعاد، بين الحقيقة والأسطورة، مجلة الأسطول، العدد ٦٧، السنة ١٩، مايو ١٩٧١م، ص ٥-٦.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 152.

(٣) تثنية ٥: ١-٣ وكذلك: A. Lods, op.cit., p. 1989.

(٤) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ١٦ وكذا:

A. Powell Davies, Ten Commandments, N Y., 1956, p. 59-60.

أنه قد خصهم بها الإله، فترى العجب فى نصوص التوراة. لم تترك حاسة من حواس الإدراك، إلا حاولت تقيمها من حيث تلك السمة، كتابة أو تورية[١].

وهنا يتساءل فرويد : إذا كان موسى، كما يقال يهودياً راغباً فى تحرير بنى جلدته من نير المصريين، فما الذى دعاه إلى فرض سنة أليمة كهذه كل ما يتوقع منها أن تجعل اليهود مصريين ؟ وما الداعى لتخليد ذكرى مصر فيما بينهم ؟ ألم تكن جهود موسى موجهة إلى عكس ذلك ؟ وهذا كله يدل على أن موسى لم يكن يهودياً، بل كان مصرياً، الأمر الذى يترتب عليه أن الديانة الموسوية كانت على الأرجح ديانة مصر، لكن ليست الديانة السائدة بين الشعب، والتى تختلف فيما بينها اختلافًا بينًا، وإنما ديانة إخناتون التى تتفق مع اليهودية فى كثير من النقاط الهامة.

وهنا يتجه «فرويد» إلى هدفه مباشرة، وهو أن موسى كان مصرياً، وكان طموحًا عالى الهمة، وربما راودته فكرة أن يصبح فى يوم ما زعيم شعبه، ورئيس الإمبراطورية المصرية، ولما كان من المقربين من الفرعون، فقد أبدى حماسة شديدة بالعقيدة الجديدة التى فهم أفكارها الرئيسية وتشربها، ولكن عندما زحفت الرجعية على إثر موت إخناتون رأى موسى كل آماله وتدابيره تنهار، فمصر لم يعد عندها ما تعطيه له، اللهم إلا إذا كفرت بمعتقداتها التليدة، وهكذا أصبح موسى رجلا فقد وطنه.

وهنا واتتـه فكرة: إن إخناتون الحـالم قـد بلبل فكر شـعبـه وترك إمبراطوريته تتمزق إربًا، فإذا موسى ـ بما جبل عليه من علو الهمة ـ يتصور خطة ينشئ بها إمبراطورية أخرى يكون دينها هو الدين الجديد الذى نبذته مصر، وهو بذلك يحاول أن يصلح ما أفسده القدر، وتلمس تعويضًا مزدوجًا

---

(١) حسين ذو الفقار صبرى، توراة اليهود، المجلة ، يناير ١٩٧٠، ص ١٦ .

للأضرار التى تعرضت لها الإمبراطورية نتيجة الكارثة الإخناتونية، وربما كان فى هذا الوقت حاكمًا للإقليم المتاخم للحدود الشرقية (جوشن)، حيث تقيم بعض القبائل السامية منذ أيام الهكسوس، فمن هذه القبائل يقرر موسى أن يتخذ له شعبًا جديدًا، وهو قرار على جانب من الأهمية التاريخية.

على أى حال، فقد قام بإنشاء علاقات مع القبائل السامية فى «أرض جوشن» ونصب نفسه زعيمًا عليها، وقادها إلى الخروج «بيد قوية» كما تقول التوراة، ويمكننا ـ خلافًا للتراث العبرانى ـ افتراض أن الخروج تم بسلام، وبدون مطاردة، فإن سلطة موسى جعلت ذلك ممكنًا، ولم تكن هناك حينئذ قوة مركزية يمكنها أن تمنعه، ويرى فرويد أن الخروج من مصر حدث خلال فترة السنوات الثمانى التى تلت وفاة إخناتون، وسبقت استيلاء القائد «حورمحب» على العرش[1]، بل إن «أرثر ويجال» إنما يحدد ذلك بعام ١٣٤٦ق.م، وأن ذلك الحدث الخطير، إنما تم فى أخريات أيام «توت عنخ أمون»[2].

وفى الواقع أن «فرويد» لم يكن أول من نادى بذلك، فقد سبقه إلى ذلك «كارل أبراهام»، الذى اعتبر إخناتون مصلحًا، ونبيًا عظيمًا، ففى عصره لم ترسم الآلهة فى شكل آدمى، وهكذا كان إخناتون رائد التوحيد الموسوى، بل الأبعد من ذلك أنه كان رائد المسيح، ففكرة إخناتون عن الإله أقرب إلى الفكرة المسيحية منها إلى الفكرة الموسوية، وهكذا سبق «أبراهام» فرويد فى هذا التفسير[3].

هذا فضلا عن أن المؤرخ Weech يذهب إلى أن موسى قد دعا بنى

---

(١) S. Freud, op.cit., p. 29-32.

(٢) A. Weigall, Histoire de L' Egypte Ancienne, p. 146.

(٣) إيمانويل فليكو فسكى، أوديب وإخناتون ، ترجمة فاروق فريد، ص ٦٣-٦٤، (القاهرة ١٩٦٨).
وكذا. Abraham (C), in Imago, I, 1912, p. 346-364.

إسرائيل إلى التوحيد، وكانت هذه العقيدة قد ظهرت فى العالم قبل ذلك على يد «إخناتون» ويبدو أن موسى - وقد أمضى طفولته وصباه وشبابه فى مصر - قد عرف هذه الحقيقة، وتأثر بها، ثم دعا إليها[١].

بل إن الدكتور أحمد بدوى إنما يذهب إلى اتجاه آخر، حيث يرى أن موسى لم يتأثر بديانة آتون، وإنما تأثر بديانة أمون، ذلك لأن الذى ينظر فى تاريخ الدعوة الموسوية نظرة صدق، وينظر فى طبيعة «يهوه» إله اليهود، الذى لقيه موسى فى طور سيناء يستطيع أن يتبين أثر «آمون» ومذهبه فى نفس موسى، ويتبين مقدار الشبه العظيم بين طبيعة آمون وطبيعة يهوه، فآمون عند المصريين بمثابة الروح بين عناصر الخلق، كان رمز الهواء، وكذلك كان يهوه عند بنى إسرائيل[٢].

ونحن، وإن كنا نشك فى ربط وحدانية موسى بعبادة آتون، ذلك الربط الذى يصل عند فرويد إلى أن الأولى منقولة عن الثانية، فلا نشك فى وجود صلة بين الديانتين، حتى وإن كانت هذه الصلة غير مباشرة، إن الوحدانية المطلقة كانت من أوضح الصور الدائمة بين الآتونية والموسوية، وعلى سبيل المثال، فإن إله بنى إسرائيل يقول فى سفر الخروج «لا يكن لك آلهة أخرى أمامى»[٣]، وآتون يوصف بأنه «الإله الذى لا إله إلا هو»، ثم التأكيد بعد ذلك فى التعاليم الآتونية، والضغط المستمر على «الإله الواحد، والخالق لكل شىء»، فآتون - مثله فى ذلك مثل يهوه - هو الإله الخالق لكل من يأتى إلى هذه الحياة وما يأتى إليها[٤].

وأيا ما كان الأمر، فهناك من الأسباب ما يجلنا نتردد فى قبول وجهة

---

(١) E.H. Weech, Civilization of the Near East, p. 88.

(٢) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٥٩١.

(٣) خروج ٢٠ : ٣.

(٤) W.F. Albright, The Biblical Period from Abraham to EZRA, N.Y., 1963, p. 15-16.

النظر هذه، منها (أولا) أن هذه النظرية تحتاج إلى دراسة جادة عميقة للديانتين الموسوية والآتونية، وليس هذا مجاله بحال من الأحوال[١]، هذا فضلا عن أن ذلك أمر فى منتهى الصعوبة، وقد تنبّه إليه «فرويد» نفسه، فنحن حتى الآن لا نستطيع الجزم بأننا نملك الصورة الصحيحة للديانة الآتونية أو الموسوية، فالأولى قد أضاع حقد كهان آمون الكثير منها، والثانية لعبت فيها أيدى اليهود بما شاءت لهم أهواؤهم، هذا فضلا عن أن معلوماتنا عنها إنما ترجع إلى نصوص كتبت بعد الأسر البابلى، أو أثناءً فى القرن السادس قبل الميلاد، وموسى عليه السلام قد عاش فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ـ إن لم يكن فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، فيما يرى البعض ـ والفرق بين نزول الرسالة على موسى وبين تدوينها ـ كما أشرنا ـ فرق كبير، ما فى ذلك من ريب.

ومنها (ثانيًا) أننا لا نعرف شيئًا عن «إخناتون»، إلا أنه الملك الفرعون، الذى جلس على عرش الكنانة سبعة عشر عامًا (١٣٦٧–١٣٥٠ق.م)[٢]، وأنه نادى بعبادة الإله الواحد الأحد، ومن هنا فقد أغلقت معابد الكهنة فى كل أنحاء الإمبراطورية المصرية، وصودرت ممتلكاتها وعطلت شعائرها، مما آثار عليه سخط تجّار الدين من كهان آمون، بخاصة وأنه قد ضرب الحجز على خزائنهم، ومن ثم فقد هاجر من طيبة إلى بقعة عذراء لم تشبه عبادة أى إله مصرى من قبل، فأقام عليها مدينته الجديد «أخت آتون»[٣]، وبقى هناك

(١) انظر عن «الآتونية» كتابنا «إخناتون: عصر ودعوته»، وعن «الموسوية» كتابنا «إسرائيل ـ الكتاب الثانى ـ الحضارة».

(٢) يكاد يتفق الباحثون على أن فترة حكم إخناتون إنما كانت سبعة عشر عاماً، وإن كان هناك من يذهب إلى أنها كانت إحدى وعشرين سنة، كما أن هناك خلافًا على توقيت فترة حكم إخناتون (انظر: التفصيلات فى كتابنا «إخناتون: عصره ودعوته»).

(٣) «آخت آتون» (إخناتون) تقع على مبعدة ١٩٠ ميلا جنوبيالقاهرة ٢٦٠ ميلا شمالى الأقصر، فيما بين ملوى وديروط فى مقابل «دير مواس» عبر النهر، وكانت تمتد عل مسافة تقرب من

=

حيناً من الدهر، يتعبد إلى ربّه ويتزعم مجالس الدعوة إليه، وأخيراً تجمعت قوى الشر ضده حتى انتهى أمره[١]، فصب كهّان آمون كل حقدهم عليه وعلى دعوته واصطلموا أتباعه، ونصبوا من بعده على العرش صبياً لما ييفع، فمكن لهم وأطلق أيديهم، فأبادوا ديانة آتون، وأعادوا ديانة آمون[٢].

ولكن ما صلة هذا بأستاذية إخناتون لموسى عليه السلام، وهل كانت دعوة إخناتون إرهاصاً لدعوة موسى عليه السلام؟ أو هي تمهيد لدعوة التوحيد بين قوم ألفوا تعدد الآلهة، دون أن يجدوا في ذلك أمراً إداً؟ أم أن إخناتون كان نبياً، كما يرى بعض المفكرين؟[٣]

=

الميل شمالي قرب «التل»، وحتى قرية «الحوطة» شرقي النيل، وتحمل «أخيتاتون» اسم مليكها، لأن المقطعين «آخت وأخن» مشتقان من نفس الجزع، على حين ألحقت كلمة آتون بكل من اسم الملك وعاصمته، هذا وقد عرفت «أخيتاتون» لدى الباحثين المحدثين باسم «تل العمارنة»، حيث ربطوا خطأ بين قرية التل الحالية في الشمال، وقبيلة «بني عمران» التي تقطن تلك الناحية منذ عام ١٧٣٧م، ولعل الجميع يتقبلون الآن التسمية الأكثر دقة وهي «العمارنة»، ذلك لأن كلمة «تل» توحي بوجود تل هناك، غير أن المكان يخلو تماماً من التلال أو الربى التي كانت تتراكم ببطء عبر القرون إثر تراكم البلدان الأثرية (انظر: كريستيان نوبلكور، توت عنخ آمون، ترجمة أحمد رضا ومحمود النحاس، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٢٦؛ وكذا: محمد بيومي مهران، إخناتون، عصره ودعوته، ص ١٨٥-٢٣٢؛ وكذا:

A. Weight, op.cit., p. 136-137.; CAH, XIX, p. 9; A. Gardiner, op.cit., p. 220.

وكذا: (E.Bill-De Mot, The Age of Akhenaton, London, 1965, p. 60).

(١) هناك من يرى أن ثورة قامت ضد إخناتون في العام السابع عشر من الحكم، وأنها انتهت بعزله، غير أن هناك من يرجح أنه قد مات بعدها، ومن يرجح أنه نجا منها (انظر: الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ١٤١). وكذا:

N.de. G Davies, The Rock Tombs of El Amarna, IV, London, 1908, p 21-26.

وكذا: J. H. Breasted, A History of Egypt, p. 392.

(٢) انظر: الفصل الرابع من الباب الثالث، من كتابنا «إخناتون: عصره ودعوته»، ص ٣٨٣-٤٢١.

(٣) انظر: محمد مبروك نافع، عصر ما قبل الإسلام، القاهرة، ص ١٢٩؛ وكذا:

C. Abraham, op.cit., p. 346-364.

إن الإجابة على واحد من هذه الأسئلة، لا يستطيع صاحب هذا الكتاب أن يتحمل مسئوليتها أمام الله، أو لنقل، لا يستطيع أن يتحمل وزر الخطأ فيها رجل صحب القرآن الكريم، وهو لما يعدو السادسة من عمره، وما يزال وسيظل - إن شاء الله - فى صحبته الكريمة، مادام حيًا يرزق فى هذه الدنيا، حيث الصحبة الأبدية - إن شاء الله - فى عالم الآخرة، ذلك لأننا نحن المسلمين علينا أن نلتزم بما جاء فى محكم التنزيل عن الأنبياء - عليهم السلام - وليس إخناتون - بالتأكيد - واحداً ممن جاء ذكرهم فى القرآن الكريم.

نحن نعلم - كمسلمين - أن موسى نبىّ الله ورسوله، كما نص على ذلك الذكر الحكيم[1]، بل ونعلم كذلك أسماء خمسة وعشرين من هؤلاء المصطفين الأخيار[2]، غير أننا فى الوقت نفسه، لا نستطيع القول - ونحن مطمئنون، إلى أن ما نقول عن إخناتون، إنما هو الحق كل الحق - ذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا فى كتابه الكريم، أنه ما من أمة إلا وجاءها رسول من عند الله الكريم، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وإنْ مِنْ أمةٍ إلا خَلاَ فيها نذيرٌ﴾[3] ويقول : ﴿وكَمْ أرسلنا من نبىٍّ فى الأولين﴾[4]، ثم يخبر نبيّه الكريم

---

(١) انظر: عن نبوة موسى مثلا: سورة البقرة، آية : ٧٨؛ آل عمران (٨٤)؛ آل عمران (٨٤)؛ الأنعام (٩١، ١٥٤)؛ الأعراف (١٠٣-١٠٤، ١٤٤)؛ يونس (٧٥)؛ هود (٩٦)؛ إبراهيم (٥)؛ مريم (٥١): المؤمنون (٤٥)؛ الفرقان (٣٥)؛ الشعراء (١٠)؛ النمل (١٠)؛ الأحزاب (٧)؛ غافر (٢٣)؛ الزخرف (٤٦)؛ الذاريات (٣٨).

(٢) هم آدم وإدريس، ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف، وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ.

(٣) سورة فاطر، آية : ٢٤؛ وانظر: تفسير الفخر الرازى ١٨/٢٦؛ تفسير البيضاوى ٣٧٢/٢؛ تفسير روح المعانى ١٨٨/٢٢؛ تفسير مجمع البيان ٢٣٥/٢٢-٢٣٨؛ تفسير وجدى ، ص ٥٧٤-٥٧٥؛ تفسير الطبرى ١٣٠/٢٢.

(٤) سورة الزخرف، آية : ٦. وانظر: تفسير القرطبى ٦٣/١٦-٦٤؛ تفسير الطبرى ٥١/٢٥؛ تفسير البيضاوى ٣٦٣/٢؛ تفسير روح المعانى ٦٥/٢٥-٦٦؛ تفسير الفخر الرازى ١٠٢/٢٧-١٩٣؛ تفسير الكشاف ٤٧٨/٣؛ تفسير القاسمى ٥٢٥٩/١٤؛ تفسير مجمع البيان ٧١/٢٥-٧٢؛ تفسير وجدى ص ٦٤٧؛ تفسير ابن كثير ٢٠٥/٨.

بعد ذلك، ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾[(١)] و﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾[(٢)]

ومن هنا كان الخلاف على عدد الأنبياء - عليهم السلام - فمن قائل أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، ومن قائل أنهم ثمانية آلاف نبيّ، منهم أربعة آلاف نبيّ من بنى إسرائيل، ومن قائل أنهم أربعة آلاف، ومن قائل أنهم ثلاثة آلاف[(٣)]، وأن الرسل من الأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم آدم، وآخرهم محمد ﷺ[(٤)]، وعلى أى حال، فليس من المستحب الخوض فى إحصاء الرسل والأنبياء، فإنه لا يعلم إلا بوحى من الله تعالى، ولم يبين الله ذلك فى كتابه الكريم، ولا رسوله فيما صح عنه من الخبر[(٥)].

غير أن حديث أبى ذر المشهور، والذى جاء فيه أنه دخل المسجد النبوىّ الشريف، فإذا رسول الله - ﷺ - جالس وحده، فسأله عن أشياء كثيرة، منها الصلاة والهجرة والجهاد والصيام والصدقة، ثم سأله: كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، قال: قلت يا رسول الله: كم

(١) سورة غافر، آية : ٧٨؛ وانظر: تفسير ابن كثير ١٤٧/٧-١٤٨؛ تفسير القاسمى ٥١٨٢/١٤؛ تفسير الكشاف ٤٣٨/٣؛ تفسير روح المعانى ٨٨/٢٤؛ تفسير الطبرى ٨٦/٢٤-٨٧؛ تفسير الفخر الرازى ٨٨/٢٧؛ تفسير مجمع البيان ٢١٦/٢٤-٢١٨؛ تفسير القرطبى ٣٣١/١٥-٣٣٤؛ تفسير البيضاوى ٣٤٢/٢.

(٢) سورة النساء، آية : ١٦٤؛ وانظر: تفسير الطبرى، ٤٠٢/٩-٤٠٧؛ تفسير القرطبى ، ص ٢٠١٣-٢٠١٤؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ١١٦/٣-١١٧ (طبعة ثالثة ١٩٧٤)؛ تفسير أبى السعود ٨١٦/١-٨١٧؛ تفسير روح المعانى ١٧/٦-١٨؛ تفسير الفخر الرازى ١٠٧-١٠٨؛ تفسير المنار ٥٥/٦-٦٣؛ تفسير الطبرسى ٢٩٣/٥-٢٩٥؛ تفسى الكشاف ١-٥٨٢.

(٣) ابن قتيبة ، كتاب المعارف، ص ٢٦؛ الماوردى ، أعلام النبوة، ص ٥٣؛ مجمع الزوائد ٢١٠/٨؛ تفسير ابن كثير ٤٢٢/٢-٤٢٨؛ تفسير الكشاف ١٨/٣-١٩؛ تفسير القرطبى ، ص ٢٠١٤-٢٠١٥؛ تفسير روح المعانى ٨٨/٤.

(٤) انظر: تفسير القرطبى ، ص ٤٤٧٢ (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠).

(٥) محمود الشرقاوى، الأنبياء فى القرآن الكريم، ص ٣٤، (القاهرة ١٩٧٠).

الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير كثير طيب، قال: قلت: فمن كان أولهم، قال: آدم، قلت: أنبيٌّ مرسل، قال: نعم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسواه قبيلا»[١]، غير أن هناك رواية أخرى، عن أنس بن مالك، تذهب إلى أن رسول الله - ﷺ - بعث بعد ثمانية آلاف نبيٍّ، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل[٢].

وليس في كل هذه إشارة من قريب أو بعيد، تفيد أن إخناتون كان واحداً من أنبياء الله الكرام، وإن كانت آيات الكتاب الحكيم لا تمنع من أن يكون كذلك، وهذا يعني أن سؤالنا ما يزال بغير جواب: هل كان إخناتون واحداً من أنبياء الله الأطهار، أم أنه لا يعدو أن يكون مجرد ملك ثار على دين قومه وأتى بدين جديد انتهى بانتهاء حياته؟ في الواقع، أنه لا توجد لدى صاحب هذا الكتاب إجابة، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله.

ومنها (ثالثًا) أن هذه النظرية لا يمكن أن تكون مقبولة أصلا، إلا إذا افترضنا أن موسى عليه السلام كان فعلا على أيام إخناتون - الأمر الذي سوف نناقشه حالا - وأنه انتهز فرصة الضعف التي سادت أخريات أيام إخناتون وعهد خليفتيه الضعيفين، ثم نجح مع فريق صغير من الإسرائيليين في الخروج من مصر، وذلك بأن خادعوا فرعونًا من الفراعين، وهربوا إلى صحراء سيناء، وكان ذلك الفريق أكثر العبرانيين تمصراً[٣].

وحتى لو صدقنا ذلك كله، فكيف يمكننا أن نفسر عدم ذكر إسرائيل في عهد حور محب وسيتي الأول ورعمسيس الثاني، و«سيتي» كان أول من عمل على استرداد الإمبراطورية المصرية بعد أزمة العمارنة، فقام بأربع

---

(١) تفسير ابن كثير، ٤٢٢/٢-٤٢٦. ثم قارن: مسند الإمام أحمد ٢٦٥/٥-٢٦٦؛ الألوسي، تفسير روح المعاني، ٨٨/٢٤.

(٢) تفسير ابن كثير، ٤٢٤/٢؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢١٠/٨.

(٣) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 256.

حملات إلى سورية وفلسطين، هذا فضلا عن عهد رعمسيس الثانى بالذات وهو الذى نجح فى استرداد الإمبراطورية المصرية فى أسيا الغربية، وبخاصة فى حملة العام الثامن، والتى أخضع فيها كل فلسطين وسوريا، بل وصل إلى أطراف بلاد ما بين النهرين وبلاد الحيثين[١].

فإذا تذكرنا أن دخول الإسرائيليين فلسطين - طبقًا لهذه النظرية - سوف يكون على أيام «سيتى الأول» (١٣٠٩-١٢٩١ق.م) على أساس أن إخناتون مات فى عام ١٣٥٠ق.م، وبذا يكون الخروج من مصر فى عام ١٣٤٢قم (أو ما بين عامى ١٣٥٠-١٣٤٢ق.م)، ودخول فلسطين فى عام ١٣٠٣ق.م[٢]، على أساس أن فترة التيه إنما كانت أربعين عامًا، فهل استطاع الإسرائيليون حقا دخول فلسطين فى عهد سيتى الأول؟ وهل استطاعوا حقًا أن ينزلوا بفلسطين كل هذا الدمار والخراب الذى روته التوراة فى سفر يشوع، ورعمسيس الثانى حى يرزق، بل ما يزال جالسًا على عرش الكنانة، ولمدة تقارب ثلاثة أرباع القرن (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م)، دون أن ينجح فى القضاء على هولآء البدو الرحل - والذين كانوا إلى عهد قريب عبيد أجداده وأجداد أجداده - وهو الرجل الذى كتب له نجحًا بعيد المدى فى أن يهزم أكبر قوة فى عصر - بعد مصر - وهى قوة الحيثين، ثم يصبح بعد ذلك سيد الشرق كله.

---

(١) محمد بيومى مهران، حركات التحرير فى مصر القديمة، ص ٢٣٠-٢٣٢. وكذا:

CAH, II, Part 2, 1975, p. 218-219.

وكذا: R.O. Faulkner, JEA, 33, p. 37-3g.

وكذا: H. Goedicke, JEA, 57, p. 72-80.

وكذا: JEA, 7, p. 194-195

وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 247-263.

وكذا:

A.H. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, Oxford, 1960, p. 8-10.

(٢) قارن. A.Weigall, Histoire de L'Egypte Anceinne, p. 146.

وهل من المنطق أن نتصور أنه لم يلتق بهم فى حملة السنة الرابعة أو الخامسة أو الثامنة أو حتى فى حملة عامه الحادى والعشرين؟ ثم كيف استطاع أن يخضع فلسطين كلها، ويحارب الحيثيين فى شمال سورية، والإسرائيليون يعيثون فى فلسطين فساداً، وينشرون فى ربوعها الخراب والدمار، بل ويستولون على مدنها الواحدة تلو الأخرى، كما يحلو لمن كتبوا التوراة ووصفوا أعمالهم، بعد دخولهم فلسطين بقيادة يشوع بن نون؟ كل هذه أسئلة لا نجد لها جواباً يتفق وخروج الإسرائيليين من مصر بعد موت إخناتون بسنوات ثمان.

ومن هنا، فإننا نرى «فرويد» نفسه إنما يفترض أن موسى ربما عاش فى عصر لاحق لإخناتون، وأن هذا سوف يتأخر بتاريخ الخروج بعض الوقت، ويجعله إلى الزمن المفترض أكثر قرباً - أى إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد - وإن كان يعود ثانية ليفضل خروج اليهود فى أعقاب موت إخناتون[١].

وأخيراً - فليس لهذه النظرية من أساس من الآثار والتاريخ نعتمد عليه فضلا عن معارضتها لكل ما جاء فى الكتب المقدسة بشأن قصة خروج بنى إسرائيل من مصر، مثل محاجة فرعون[٢]، وتنكيل «يهوه» بالمصريين[٣]، وأنه فرّق البحر فاتخذ الإسرائيليون لهم فيه سبيلا إلى النجاة[٤]، وأن موسى تلقى رسالة ربّه على طور سيناء[٥]، وإنما الذى يقبله فرويد أن الخروج تم بسهولة لمكانة موسى في مصر - سوا أكانت هذه المكانة دينية أو سياسية أو عسكرية

(١) S. Freud, op.cit., p. 35-36.

(٢) انظر: سورة الأعراف، آية : ١٠٩-١١٦؛ سورة طه، آية : ٤٩-٦٩؛ سورة الشعراء، آية: ٣٣-٣٥؛ سورة القصص، آية : ٣٦-٣٨.

(٣) خروج ٧: ١٩-٢٤؛ ١١٨-٢٢؛ ١٠٩-٣٥؛ ١٠: ١-٢٩؛ وانظر: سورة الأعراف، آية : ١٣٠-١٣٦.

(٤) خروج ١٤-٥-٣١. وانظر: سورة طه، آية : ٧٧-٧٨.

(٥) خروج ٣: ١-١٨؛ وانظر: سورة القصص، آية : ٢٩-٣٥.

- وأن التفاصيل التى ذكرتها التوراة عن موسى والخروج ليست أكثر من أسطورة دينية تسجل تراثًا انحدر من زمن سحيق على نحو يخدم ميولها[١].

وانطلاقًا من هذا كله، فإننا لا نتقبل آراء «فرويد» قبولا حسنًا، وإن كانت آراؤه - فيما يتعلق بالمقابلة بين الديانتين الآتونية واليهودية - إنما هى جد جديرة بالاهتمام والدراسة.

---

(١) S. Freud, op.cit., p. 38.

الرأى الرابع: الخروج على أيام رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ق.م)

وهناك رأى رابع يذهب إلى أن الخروج إنما قد حدث على أيام «رعمسيس الثانى»[١]، ومن ثم فقد ذهب فريق من الباحثين إلى أن الرجل إنما قد وجد جالية من العبرانيين كبيرة، سخرها فيما اختط له وزراؤه ومهندسوه من العمائر والمنشآت، وكان على كل حال، فيما أثبتت وثائق التاريخ، يسخر الأسرى ومن فى حكمهم فى إقامة ما يريد، فلقد حفظ لنا من النصوص فى معبد السبوع بالنوبة ما يتحدث فيه «ستاو» - نائبه هناك - عما كان من استخدامه إسرى من قبائل «التمحو»[٢] - غربى مصر - فى بناء هذا المعبد[٣]، وعند معبديه بأبى سنبل ما يتحدث فيه «رعمسيس عشاحب» عن مليكه من أنه أتى بأفواج العمال من أسرى سيفه - أو ذراعه - من كل البلاد، وأنه ملأ بيوت الأرباب بأبناء رتنو[٤].

(١) W.F. Albright, From the Stone Age to Christianty, p. 194F.

وكذا:

O. Eisfeldt, The Exodus and Wanderings; in CAH, II, Part 2, 1975, p. 319-323.

وكذا: G. Roux, op.cit., p. 242.

وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 331.

(٢) يختلف المؤرخون فى أصل التمحو، فيذهب فريق إلى أن التمحو ذوى البشرة البيضاء ينتسبون إلى قبائل البربر القاطنين فى شمال أفريقية، ثم تحولوا على طول الشاطئ، ثم توغلوا إلى الجنوب، وأنهم لا صلة لهم بالتحنو ذوى البشرة السمراء، وأنهم ينحدرون من قبائل الوندال، أو أى جنس شمالى آخر، على أن هناك من يربط بين التمحو ومجموعة C النوبية، وأما عن مواطن استقرارهم، فهناك من يجعلها فى غرب مريوط، ومن يجعلها تمتد على الحدود المصرية الغربية حتى طرابلس (انظر: A. Gardiner, Onomastica I, p. 115-116

وكذا: A. Fakhry, Bahria Oasis I, 1942, p. 7-8.

وكذا: W. Holscher, Libyen Und Agypter, p. 25F.

وكذا:

Barsanti et Gauthier, Steles Trouvees a Ouadi E. Seboua, ASAE, XI, 1911, p. 84.

(٣) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص٨٥.

(٤) J.H. Breasted, ARE III, No. 498.

وهكذا بدأ فريق من المؤرخين يربطون بين الجهود التى بذلت فى إنشاء مدينة «بر - رعمسيس»، وبين ما روته التوراة فى قصة الخروج من تسخير فرعون للعبرانيين فى إنشاء مدينة ضخمة فى أرض «جوشن» بشرق الدلتا، تقول التوراة «فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس»[١]، واعتماداً على هذا النص رأى بعض المؤرخين أن العبرانيين قد بنوا لفرعون التسخير مدينتين، الواحدة «فيثوم» (بيثوم = دار آتوم)، والأخرى «رعمسيس».

وقد دلت الحفائر التى أجريت فى «تل الرطابة» [٢] (فيثوم)، و«قنتير» (رعمسيس)، على أن الأولى قد أعيد بناؤها، وأن الثانية قد أنشئت فى عهد رعمسيس الثانى، وأن الإشارة إلى المدينتين فى سفر الخروج[٣]، لا يمكن أن تكون مصادفة، إذ أن ذلك إنما يتطابق مع كل ما نعرفه من المصادر الأخرى عن الإقامة فى مصر، لدرجة أنها يمكن أن تعتبر تقاليد يمكن الاعتماد عليها، فإذا كان ذلك كذلك، فإن هذه المعلومات يجب أن تكون لها وزن أكثر من الافتراض المبهم حول الظروف التاريخية، وتاريخ دخول الإسرائيليين مصر.

وانطلاقًا من هذا كله، فقد نظر بعض الباحثين إلى رعمسيس الثانى، على أنه الملك المصرى الذى أطلق عليه «فرعون التسخير»[٤]، وهو أمر يتفق تمامًا مع نشاطه البنائى الكبير، بخاصة وأنه قد استقر فى شرقى الدلتا، وأن الانطباع العام الذى يعطيه لنا سفر الخروج أن الإسرائيليين إنما كانوا

---

(١) خروج ١ : ١٠.

(٢) إن الرأى الذى كان يوحد فيثوم بتل المسخوطة (على مبعدة ثمانية أميال ونصف إلى الشرق) قد هجر الآن، (انظر: W.F. Albright, op.cit., p. 194.

وكذا: J. Finepan, op.cit., p. 116.

(٣) خروج ١ : ١١.

(٤) M. Noih, op.cit., p. 120.

يقيمون في مكان ما ليس ببعيد عن البلاط الملكي، هذا فضلا عن أن المزمور (٧٨) إنما يعطينا تأكيداً بأنهم قد عاشوا في «أرض مصر في حقول صوعن»[١] وصوعن هو الاسم العبرى لمدينة «تانيس» في وقت كان بلاط الفرعون في هذه المنطقة، وهو كما نعلم كان في عهد رعمسيس الثاني في «قنتير» ـ على مبعدة ١٩ كيلو متراً إلى الجنوب من تانيس (صان الحجر) ـ وليس في فترة مبكرة على أيام تحوتمس الثالث[٢].

ويقترح «جاك فنجان» أن الإسرائيليين قد استخدموا ـ بادئ ذى بدء ـ على أيام «سيتى الأول»، ولكنهم لم يحملوا أثقالهم إلا في أيام رعمسيس الثاني مما دفعهم إلى محاولة الهروب، وفي هذا الوقت ولد موسى وتربى ثم عاش في البرية وأخيراً عاد إلى مصر ـ كما روى سفر الخروج[٣] ـ وهكذا فإن عصر رعمسيس الثاني يجب أن يكون هو عصر رحيل القوم المستعبدين، ومن ثم فيجب أن يكون وصول الإسرائيليين إلى فلسطين وتوغلهم في البلاد والتقاء «مرنبتاح» بهم في حوالى عام ١٢٢٠ق.م، وهذا بالكاد يعطيهم الوقت للتيه في البرية مدة الأربعين سنة، وربما كان هذا الرقم عدداً تقليدياً، لأن التيه في الواقع كان أقصر من ذلك[٤].

ويحدد «وليم فوكسويل أو ليرايت» عام ١٢٩٠ق.م، تاريخًا للخروج، على أساس أن حكم رعمسيس الثاني ـ في رأيه ـ إنما يقع في الفترة (١٣٠١ ـ ١٢٣٤ق.م)، وأن السنين الأولى منه قد شغلت بالنشاط العمراني الكبير في المدينة التي حملته اسمه[٥]، ويرى «كيلر» أن المطابقة

(١) مزمور ٧٨: ١٢، ٤١.

(٢) J. Finegan, op. cit., p. 119.

(٣) خروج ٢–٣

(٤) J. Finegan, op.cit., p. 120, 134.

(٥) W.E.F. Albright, op.cit., p. 194F.

وكذا: M.E. Unger, op.cit., p. 332.

المدهشة بين هذا التاريخ (أى عام ١٢٩٠ق.م)، وبين طول مدة إقامتهم فى مصر التى يحددها سفر الخروج بـ ٤٣٠ سنة [١]، تكاد تكون تامة، وهى فى نفس الوقت جديرة بالاعتبار، وانطلاقًا من هذا فإن الهجرة الإسرائيلية إلى مصر يجب أن تكون قد حدثت فى عام ١٧٣٠ ق.م [٢].

غير أن هناك بعض العقبات التى تقف فى وجه قبولنا لوجهة النظر هذه، منها (أولا) أنها تجعل من رعمسيس الثانى فرعونًا للخروج والتسخير فى آن واحد، وهذا يتعارض تمامًا مع بعض نصوص التوراة [٣]، ومنها (ثانيًا) أن الفترة الأولى من حكم رعمسيس الثانى ـ والتى شغلت ببناء المدينة ـ لا تتناسب ومدة بقاء موسى فى مدين، والتى قدرتها التقاليد بأربعين عامًا [٤]، فضلا عن أن يكون موسى عليه السلام، قد ولد كذلك فى عهد رعمسيس الثانى نفسه.

ومنها (ثالثًا) أننا لا نستطيع حتى الآن أن نحدد تاريخًا معينًا لبناء مدينة «بر ـ رعمسيس» بالنسبة إلى عهد الفرعون، فضلا عن أن يكون ذلك فى العقد الأول منه بالذات، وهو الذى حدثت فيه كل حروبه تقريبًا، بل ربما كان النصف الثانى من عهد رعمسيس الثانى أكثر ملاءمة لبناء المدينة من النصف الأول، وأن لزواجه ببنت ملك الحيثيين ـ إلى جانب الأسباب

---

(١) خروج ١٢ : ٤٠.

(٢) جون الدر، الأحجار تتكلم ، علم الآثار يؤيد الكتاب المقدس، ترجمة: عزت زكى، ص ٥٥ ، (دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة).

وكذا: W.Keller, The Bible as History, 1967, p. 121-122.

(٣) خروج ٢ : ٢٣-٢٤.

(٤) قاموس الكتاب المقدس، ٩٣١/٢؛ أعمال الرسل ٧ :٣٠؛ شاهين مكاريوس، المرجع السابق، ص ٤٠؛ خروج ٧ : ٧. على أن هذه النقطة ليست ذات أهمية كبيرة، لأن الله سبحانه وتعالى يخبرنا فى محكم التنزيل أنها سنون ثمان ـ وربما كانت عشراً ـ (انظر: سورة القصص، آية : ٢٧؛ تفسير القرطبى، ص ٤٩٩٦).

الأخرى ـ أثر فى بناء المدينة، مما يجعل بناءها فى فترة متأخرة نسبيًا من عهده، ربما أقرب من أن يكون فى العقد الأول من هذا العهد.

ومنها (رابعًا) أن فترة التيه ـ وهى أربعون سنة ـ ليست رقمًا تقليديًا ـ كما يرى أصحاب هذا الرأى ـ وإنما هى أمر مؤكد، كل التأكيد، ذلك لأن الكتب السماوية الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن العظيم) إنما قد أجمعت عليه[1] وبدهى أنه ليس من العلم، فضلا عن الإيمان بكتب السماء، أن نشك فى أمرٍ أجمعت عليه هذه الكتب المقدسة.

---

(١) عدد ١٤ : ٢٣-٢٤؛ أعمال الرسل ٧ : ٣٦، ٤٢؛ سورة المائدة، آية : ٢٦.

٥ ـ الرأى الخامس: الخروج فى عهد مرنبتاح (١٢٢٤-١٢١٤ق.م).

كان من الممكن أن نناقش هذا الرأى مع سابقه، إذ أن كلا منهما، إنما يجعل من «رعمسيس الثانى» فرعونًا للتسخير، ولكن اختلافهما فى فرعون الخروج، هو الذى دعانا إلى أن نفصل بينهما، إذ أنه فى الرأى الرابع «عمسيس الثانى»، بينما هو الآن ولده وخليفته «مرنبتاح» (١٢٢٤- ١٢١٤ق.م) ويعتمد أصحاب هذا الرأى على نص التوراة الخاص ببناء مدينتى «فيثوم» و«رعمسيس»، وعلى ما جاء فى «لوح إسرائيل»[١]، والذى ذكر فيه اسم «إسرائيل» لأول مرة فى النصوص المصرية.

وهكذا رأت جمهرة كبيرة من المؤرخين أن «مرنبتاح» إنما هو فرعون الخروج، وأن أباه رعمسيس الثانى، هو فرعون التسخير، وتتفق آراء «إدوارد نافيل» (١٨٧٥-١٩٢٤م) و«سير فلندرز بترى» (١٨٥٣-١٩٤٢م) و«أ.هـ. سايس»، على أن خروج بنى إسرائيل إنما قد حدث على أيام «مرنبتاح»، وذلك لأن «نافيل» إنما ظل متمسكًا بوجهة النظر التى أدلى بها «ريتشارد لبسيوس» (١٨١٠-١٨٨٤م) من أن رعمسيس الثانى هو مضطهد اليهود، وأن الفرعون الذى ينسب إليه خروج بنى إسرائيل من مصر هو ولده مرنبتاح[٢]، وأما «سايس» فإنه يرى أن الآثار المصرية إنما تحصر هذا الحادث فى عصر مرنبتاح[٣].

ويرى «بترى» فى كتابه «تاريخ مصر» أن الخروج إنما تمّ فى عصر

---

(١) لوح إسرائيل، محفوظ فى المتحف المصرى بالقاهرة تحت رقم ٣٤٠٢٥، وقد عثر عليه «فلندرز بترى» عام ١٨٩٦ فى خرائب معبد مرنبتاح الجنزى فى طيبة (الأقصر)، وقد نشره كثير من العلماء منهم بترى وبرستد وكوتنز وإرمان وويلسون وغيرهم.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٩٣٣/٢، وكذا:

E. Naville, Archaeology of the Old Testament, 1913, p. 93.

(٣) A.H. Sayee, The Egypt of the Hebrews and Herodotus, London, 1896.

مرنبتاح وفى عام ١٢١٣ق.م بالذات[١]، ثم يقدم لنا فى كتاب آخر له «مصر وإسرائيل» التقويم التالى: دخول الإسرائيليين مصر عام ١٦٥٠ق.م، وبداية الاضطهاد فى عام ١٥٨٠ق.م ثم الخروج من مصر فى عام ١٢٢٠ق.م، وبناء معبد سليمان فى عام ٩٧٣ق.م، وأن الاضطهاد إنما استمر قرونًا أربعة[٢]، كما جاء ذلك فى التقاليد اليهودية فى سفر التكوين[٣] والمسيحية فى أعمال الرسل[٤].

ويرى الدكتور عبد الحميد زايد[٥] أن حفائر «بيير مونتيه» فى «تانيس» (أو فى «بر ـ رعمسيس») إنما تثبت صحة الرأى القائل بخروج اليهود فى عهد مرنتباح، وأنه لا يوجد أى أثر لنشاط الملوك وقع فى أيام الأسرة الثامنة عشرة، ولقد كانت «بى ـ رعمسيس» على ما يظهر من إنشاء رعمسيس الثانى، وليست من عمل ملك آخر، لقد جاء فى المزامير [٦] ما يفيد أن الحوادث التى سبقت خروج اليهود قد وقعت فى تانيس (قنتير، فيما نرى)، وتميل جمهرة العلماء إلى ترجيح خروج بنى إسرائيل من مصر فى الأيام الأولى لعهد «مرنبتاح».

يرى «فيلب حتى» أن الفرعون الذى لم يكن يعرف يوسف، إنما هو «رعمسيس الثانى» وأن الخروج إنما قد حدث فى عهد ولده «مرنبتاح» [٧] وأما «وولى» فالرأى عنده أن الخروج إنما كان فى عام ١٢٢٥ق.م[٨].

---

(١) W. M.F. Petrie, A History of Egypt, III, London, 1927, p. 115.

(٢) W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p. 38.

(٣) تكوين ١٥ : ١٣. (٤) أعمال الرسل ٧ : ٦.

(٥) عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٧٨.

(٦) مزمور ١٢، ٤٣، ١٣٨. (٧) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٩٣.

(٨) M.F. Unger , op.cit., p. 332.

وكذا: H.H. Rowley, from Joseph to Joshua, London, 1950, p. 550.

ولكن هناك ما يقف عقبة فى طريق هذه النظرية منها (أولا) أن أستاذنا الدكتور أحمد فخرى (١٩٠٥-١٩٧٣م) - طيّبَ الله ثراه - يرى أن تحقيق هذا الموضوع من تاريخ العبرانيين واحتساب الزمن، ثم ما جاء بنتائج التنقيبات الأثرية فى فلسطين جعل خروج بنى إسرائيل فى عهد مرنبتاح أمراً غير مؤكد(١). ويجب أن يكون فى عهد الأسرة الثامنة عشرة، إلا أنه حتى الآن لم توجد أدلة أثرية تؤيد هذا الرأى(٢).

ومنها (ثانياً) ما عرف بتقرير موظف الحدود، والذى يذكر صاحبه أنه : سمح لقبائل البدو من «أدوم» بالعبور من قلعة مرنبتاح، لرعى ماشيتهم بالقرب من «بيشوم»، ومن البدهى أن هذا لا يمكن أن يحدث إن كان الإسرائيليون لا يزالون بمصر، حتى تاريخ التقرير فى السنة الثامنة من عهد مرنبتاح(٣).

ومنها (ثالثًا) ما يراه البعض من أن هذه النظرية إنما تضعف بحقيقة أن جسد الفرعون قد وجد فى طيبة، وبذلك فلا يمكن أن يكون قد غرق فى البحر الأحمر، طبقصا للتقاليد الإسرائيلية(٤)، ومنها (رابعًا) أن مرنبتاح قد اعتبرهم من نزلاء فلسطين، ولم يذكر أنهم إنما كانوا من رعايا الكنانة، وهذا يعنى أن بنى إسرائيل إنما نزلوا فلسطين قبل عهد مرنبتاح، وبالتالى فقد خرجوا من مصر قبل عهده(٥).

---

(١) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ٣٥٩، (القاهرة ١٩٧١).

(٢) محمد عبد القادر محمد ، الساميون فى العصور القديمة، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٩٧.

(٣) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 274.

وكذا: A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, p. 76-77.

وكذا: J.H. Breasted, ARE, III, No. 636-638.

وكذا: J.A. Wilson, ANET, p. 258-259.

(٤) W.O.E. Oesterley, Egypt and Israel, in the Legacy of Egypt, Oxford, 1947, p. 223.

(٥) عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٢٣٦.

وإذا ما أردنا مناقشة هذا الرأى، فعلينا أن نناقش ـ بادئ ذى بدء ـ معارضيه، قبل مؤيديه، ومن ذلك أن «لوح إسرائيل» قد اعتبر الإسرائيليين من نزلاء فلسطين، وبالتالى فقد خرجوا قبل عهده، ولعل ذلك يدعونا إلى إلقاء نظرة على النص نفسه، فهو يبدأ كالآتى:

«السنة الخامسة، الشهر الثالث، الفصل الثالث، اليوم الثالث، من عهد حور، الثور القوى، المسرور فى الحق، ملك مصر العليا والسفلى، با إن رع، مرى آمون، ابن رع، مرنبتاح: حوتب حر ماعت»، وفى نهاية النص تأتى الفقرة المقصودة: «الأمراء منبطحون يصرخون طالبين الرحمة، وليس من بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، الخراب للتحنو، بلاد خاتى هادئة، وكنعان قد استلبت فى قسوة، وأخذت عسقلان، وقبض على جازر،، وصارت ينو عام كأن لم يكن لها وجود، وإسرائيل قد خربت وزالت بذرتها، وأصبحت خارو أرملة لمصر»(١).

فالنص إذن يتحدث عن جهود الفرعون الحربية ضد الأقواس التسعة ـ أى الشعوب المختلفة فى وعلى حدود مصر، فيما يرى جاردنر(٣) ـ وضد التحنو وخاتى (الحيثيين) وكنعان، ثم ضد عسقلان وجازر وينو عام وإسرائيل وخارو، وليس فى هذا من دليل على أن الإسرائيليين كانوا فى فلسطين فحسب، وإنما عن حروبه ضد «الحيثيين» أى خاتى، وهى دولة، وعن «تحنو وإسرائيل» ، وهما أقوام، وعن «عسقلان وجازر وينوعام»، وهى مدن، وبعبارة أخرى عن جهود مرنبتاح ضد أعدائه فى مصر وفى خارج مصر، على الحدود الشرقية والغربية، بل وقد تجاوز ذلك حتى بلاد الحيثيين.

(١) R.O. Faulkner, in CAH II, part 2, 1975, p. 234.

(٢) A.H. Gardiner, op.cit., p. 273; J.A. Wilson, ANET, p. 376-378.

وكذا:

B. Porter and R.L.B. Moss, Topographical Biblography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, II, p. 150.

(٣) A. Gardiner, op.cit., p. 303.

هذا فضلا عن اسم «إسرائيل» إنما كان مصحوباً بالمخصص الذى يُشار به إلى «قوم»، وليس إلى «منطقة»، مثل ليبيا وعسقلان وجازر وينوعام، ومن هنا يمكن أن نستنتج أن إسرائيل ماتزال قبيلة، أو مجموعة قبائل، ولم تصبح بعد مثل الليبيين والحيثيين، تسكن منطقة مأهولة بالسكان منذ فترة طويلة[١].

ويفسر الدكتور عبد الحميد زايد[٢] ذلك بأن المخصص الذى كتب به الإسرائيليون يختلف عن المخصصات التى كتبت بها بقية الجماعات التى هزمت، أو الأقطار التى قضى عليها مرنبتاح، فجميع تلك البلاد قد وضع لها المخصص الخاص بالبلاد الأجنبية، أما اسم «إسرائيل» فقد خصص برجل وامرأة وثلاثة خطوط رأسية خاصة بالجمع، ليس غير، ولا سبيل فى هذه القصيدة إلى التشكيك بما قد يقال من احتمال خطأ الكاتب المصرى القديم وسهوه، كما ذهب إلى ذلك «جون ويلسون»[٣].

ومن ثم فهذا المخصص على هذه الصورة، إنما يشير إلى أقوام أجانب، أو قبائل أجنبية، وليس إلى أرض أجنبية[٤]، وفى الواقع أننا لو نظرنا إلى ترتيب المناطق ـ كما جاء على لوح إسرائيل هذا ـ فإننا نجد أنها إنما قد كتبت من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال فى داخل كل قطاع، ولاشك فى أن الكاتب المصرى إنما كان موفقًا واعيًا، فلقد وردت أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية فى ذلك النص تسع عشرة مرة، لم يغفل رسم الأرض الأجنبية فى واحدة منها مما سبق اسم إسرائيل أو لحق به، بل كان من دقته أنه فى ذكره اسم الشرطة المصرية ـ وقد كان رجالها يتخذون

---

(١) A. Lods, op.cit., p. 187-188.

(٢) عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، ص ٧٤٦.

(٣) J. A. Wilson, ANET, p. 378, No. 18.

(٤) O. Eissfeld, The Cambridge Ancient History, II, part 2, Cambridge, 1975, p. 544.

من بجاة النوبة ـ قد اقتصر مع رسم رمز الناس على رمز يدل على الأجنبى دون رسم الأرض، لأنهم فى غير أرض لهم[١].

وانطلاقاً من هذا كله، يمكننا القول أن إسرائيل إنما ذكرت على أنهم أقوام عاشوا على الحدود المصرية، وأنهم كانوا لا وطن لهم دائمًا طوال تاريخهم، ومن ثم فقد كانت التوراة تسميهم «أبناء إسرائيل»، وأنهم ليسوا سكان هذه الأرض أو تلك، ومن ذلك نعلم أن عناصر النقش نفسه، إنما تعارض الرأى القائل بأن الإسرائيليين إنما كانوا يسكنون فلسطين، بل على العكس، فإنها تميل إلى أن الأرض التى كانت تفيض بالمن والسلوى لم تكن قد احتلت بعد، إذ كانت كنعان ما تزال الأرض الموعودة، ولم تصبح بعد الأرض المملوكة.

وإذا اعترفنا بذلك، فضلا عن أهمية الرموز المختلفة المخصصة، التى استعملت للأقوام المختلفين الذين جاء ذكرهم فى النقش، وإذا قبلنا ترجمة «إدوارد نافيل» ورأيه فى كلمة «بذرة»، فمن البدهى إذن القول، بأن النقش يشير هنا إلى خروج بنى إسرائيل من مصر، وفى الوقت نفسه، فإنه يعنى أن جنساً أجنبياً من البدو، يدعى «إسرائيل» قد طرد من مصر، ومن ثم يصبح لا وجود لهم بالنسبة إلى مصر، والواقع أن ما جاء فى متن هذا اللوح ـ على ما يظن ـ إنما يعد سجلا معاصراً لخروج بنى إسرائيل ـ مع حوادث أخرى ـ كما يدل على أنه قد وقع فى السنة الخامسة من عهد مرنبتاح ـ فيما يعتقد «نافيل»[٢].

وأما تقرير موظف الحدود الذى سمح لبدو «أدوم» بالعبور من قلعة مرنباح، وتناقض ذلك مع وجود الإسرائيليين بمصر، حتى كتابة هذا التقرير فى السنة الثامنة من عهد مرنبتاح، فيمكن الرد عليه بأن بدو أدوم لم يحققوا

(١) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٢) سليم حسن، مصر القديمة، ١١٢/٧ (القاهرة ١٩٥٠)، انظر: JEA, 21, p. 3-6.

بصفة نهائية بالإسرائيليين، بل إنهم ليسوا إسرائيليين أصلا، فالإسرائيليون إنما هم أبناء يعقوب، والذى لقب بإسرائيل، وأما الآدوميون فهم أبناء شقيقه التوأم «عيسو»، والذى دعى أدوم، وبدهى أن الذين لجأو إلى مصر من قحط كنعان إنما هم الإسرائيليون أبناء يعقوب، وليسوا الآدوميين أبناء عيسو، وقد كان الأدوميون وقت خروج الإسرائيليين، وتجوالهم فى التيه ـ فيما تروى التوراة[١] ـ يسكنون فى شرق الأردن، مكونين هناك مملكة قوية، ذات حضارة مزدهرة[٢]، كما كان لهم موقف معارض من الإسرائيليين، حتى أنهم قد منعوهم من أن يمروا فى طرقهم[٣]، هذا فضلا عن أن كلمة «بدو» إنما تعادل الكلمة المصرية «شاسو»، وهم يمثلون القبائل الآسيوية المحيطة بمصر بصفةعامة، أضف إلى ذلك أن لنا رأيًا خاصًا، فيما يختص بتاريخ الخروج فى عهد مرنبتاح، وهو ليس فى السنة الخامسة، على أية حال.

وأما عن تحقيق تاريخ الخروج، واحتساب الزمن، ونتائج الحفريات الأثرية فى فلسطين، فإن ذلك إنما يؤيد هذا الرأى ولا يعارضه، فلو أننا افترضنا أن الخروج كان فى السنة الخامسة من عهد مرنبتاح، كما يقول العلماء ـ أى فى عام ١٢٢٠ق.م ـ ثم عدنا إلى الوراء ٤٣٠سنة، وهى المدة التى أقامها الإسرائيليون فى مصر، طبقًا لنصوص التوراة[٤]، لكننا فى عام ١٦٥٠ق.م، وهو تاريخ دخولهم مصر، والذى يتفق تمامًا مع عصر الهكسوس، إلا إذا قبلنا وجهة نظر النص السبتاجونى، الذى يضيف كلمة واحدة تختزل هذه المرحلة إلى النصف.

وأما عن التنقيبات الأثرية، فذلك أمر سبق لنا مناقشته فى حينه، وتبين لنا أنه لا يوجد حتى الآن دليل أثرى نستطيع به أن نحدد وقت دخول الإسرآئيليين إلى أرض كنعان، أضف إلى ذلك أن حفائر الدكتور «فيشر» فى بيسان (بيت شان القديمة)، قد كشفت عن قلعة مصرية عثر فيها على

---

(١) عدد ٢٠ : ١٤-١٧.

(٢) J. Finegan, op.cit., p. 152.

(٣) عدد ٢٠ : ٢٣-٢٩.

(٤) خروج ١٢ : ٤٠-٤١.

لوحات من عهد سيتى الأول ورعمسيس الثانى، وأهم من ذلك تمثال لرعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ق.م) ـ من الأسرة العشرين ـ ويقول فيشر : إن هذه الآثار تقدم لنا برهاناً كافياً على أن المدينة قد ظلت فى أيدى المصريين فعلا، من عام ١٢١٣ إلى ١١٦٧ق.م، وقد أثبتت الحفائر المتوالية أن أيدى الرعامسة ظلت قوية باستمرار على الأرض الموعودة[١].

وأما عن اكتشاف جثة مرنبتاح فى طيبة، وتناقض ذلك مع التقاليد الإسرائيلية التى ترى أن فرعون الخروج قد غرق فى البحر الأحمر، فلعل وجهة النظر هذه قد اعتمدت على رواية التوراة، كما جاءت فى سفر الخروج، ولكننا نحن المسلمين لدينا ما يناقض ذلك تمامًا، ذلك أن الله سبحانه وتعالى إنما يخبرنا فى كتابه الكريم أن الفرعون قد أنجى ببدنه ليكون لمن خلفه آية، وصدق عزّ من قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً، وإنَّ كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾[٢].

ومن ثم فإن وجود جثة مرنبتاح بين جثث الفراعين لا تحل المشكلة، كما أنها لا تعقدها كذلك، هذا فضلا عن أننا إن كنا قد عثرنا على جثة مرنبتاح، فإن كل الفراعين الذين دارت حولهم روايات الخروج ـ من أمثال أحمس الأول وتحوتمس الثالث وأمنحتب الثانى ورعمسيس الثانى وغيرهم ـ قد اكتشفت جثثهم[٣]، وفى هذا إعجاز للقرآن ما بعده إعجاز.

(١) The Museum Journal, Philadelphia, 1923, p. 236; A. Gardiner, JEA 10 1924, p. 88.

(٢) سورة يونس، آية : ٩٢؛ وانظر: تفسير الطبرى ١٥/١٩٤-١٩٨، (دارالمعارف، القاهرة ١٩٦٠)؛ تفسير القرطبى، ص ٣٢١٨-٣٢٢٠، (دارالشعب، القاهرة ١٩٧٠)؛ تفسير ابن كثير ، ٤/٢٢٦-٢٢٩، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧١)؛ تفسير المنار، ١١/٣٨٧-٣٩٠، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥)؛ تفسير الجلالين، ص ١٩٤، (القاهرة ١٩٧٠)؛ تفسير وجدى ، ص ٢٨٠، (القاهرة ١٩٧١).

(٣) سليم حسن، مصر القديمة، ٤/٢١٧، ٥٠١، ٦٩٢-٦٩٣، ٦/٢٥٧-٣٥٩، ٨/٦٧٣-٦٩٨؛ أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ٣٩٠-٣٩٢؛ ألن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة: نجيب ميخائيل ومراجعة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٧٣، ص ٣٥٠-٣٥١.

بقيت نقطة أخيرة توجه كاعتراض ضد هذه النظرية، وهى تتصل بما جاء فى سفر الملوك الأول بشأن إقامة سليمان، عليه السلام، لهيكله بعد خروج بنى إسرائيل من مصر بـ ٤٨٠ سنة[١]، وهو التقرير الواضح الذى يحس بعض العلماء بأنه يمدنا بالمادة الأساسية فى المشكلة[٢]، فذلك أمر سبق أن ناقشناه من قبل، وتبين لنا مدى الصعوبات التى تقف فى وجه قبولنا إياه، بخاصة وأن هذا الرأى الذى يرجح الخروج فى عهد مرنبتاح إنما يعتمد كذلك على نص من التوراة مشهور، وأعنى به نص سفر الخروج والذى يتحدث عن تسخير الإسرائيليين فى مدينتى «فيثوم» و«رعمسيس»[٣]، وهكذا استطاع العلماء أن يستخرجوا من التوراة تاريخين للخروج فى وقتين مختلفين، يكاد الواحد منهما يبعد عن الآخر بأكثر من قرنين من الزمان.

أضف إلى ذلك أن القائمة القديمة، «للملوك الذين ملكوا فى أرض أدوم، قبلما ملك ملك لبنى إسرائيل»[٤]، لا تذكر إلا ثمانية ملوك بين «بالع بن بعور» والذى وخد بيلعام بن بعور، طبقًا لتقاليد جاءت فى التوراة[٥] ـ فإذا سمحنا بفترة من ٣٥ إلى ٣٠ سنة، كحد وسط لكل عهد، فسوف نحصل على مجموع من السنوات ما بين مائتين إلى مائتين وأربعين عامًا.

هذا فضلا عن أن هذه النظرية إنما يمكن أن تعطينا تفسيراً لما حدث فى فلسطين، فى الفترة فيما بين عامى ١٤٠٠، ١٣٠٠ق.م (أى القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، فيما يتصل بوجود أسماء «شمعون» و«أشير» إذ ربما كانا اسمين لمجموعتين عبريتين لم تهاجر إلى مصر، وربما كانت

---

(١) ملوك أول ٦ : ١.

(٢) Merill F. Unger, Archaeology and the Old Testament, Michigan, 1954, p. 141.

(٣) خروج ١ : ١١.

(٤) تكوين ٣٦ : ٢١.

(٥) عدد ٢٢ : ٢٤.

أسماء لأماكن أو مدن كنعانية، أطلقها الإسرائيليون فيما بعد ـ وهذا ما نميل إليه ونرجحه ـ وربما كان نفس الشيء صحيحًا بالنسبة إلى «يعقوب إل» و«يوسف إل»[١].

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن الآراء التي عارضت وجه النظر الذى يرجح الخروج على أيام «مرنبتاح» لم تكن بكافية لإسقاطه، أو حتى صرف النظر عنه، بل إننا نستطيع أن نعضده، بحجج أخرى ـ غير ما ذكرنا ـ منها (أولا) أن التوراة [٢] إنما تذكر لنا أن مدينة «بى رعمسيس» إنما كانت هى المدينة التى بدأت منها مسيرة الإسرائيليين نحو سيناء، حيث التيه أربعين عاماً، ومن المعروف أن مدينة «بر ـ رعمسيس» كانت من إنشاء «رعمسيس الثانى» وحده، وليس من عمل ملك آخر، بل إننا لنعلم تمامًا أنه ابتداء من عصر هذا الفرعون إنما قد انتقل مركز الثقل من الصعيد إلى شرق الدلتا، حيث المدينة التى حملت اسمه، وغدت عاصمة البلاد على أيام الرعامسة[٣].

منها (ثانيًا) أنه من المعروف تاريخيًا أن «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠-١٢٣٤ق.م)، إنما قدّر له أن يجلس على عرش الكنانة ٦٧ عامًا ـ وهى أطول فترة عرفها التاريخ المصرى لملك من الملوك، إذ استثنينا ببى الثانى من الأسرة السادسة ـ ومن ثم فهو قد حكم الفترة التى تتناسب والتقاليد الإسرائيلية بشأن هروب موسى إلى مدين ثم بقائه هناك أربعين عامًا، حتى إذا ما علم بوفاة الفرعون عاد إلى مصر لإطلاق سراح بنى إسرائيل[٤].

ومنها (ثالثًا) أن الفترة الأولى من عهد مرنبتاح، إنما تميزت

---

(١) A. Lods, op.cit., p. 188.

(٢) خروج ١٢ : ٣٧.

(٣) انظر: محمد بيومى مهران، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، ص ٤٦-٦٢، (رسالة دكتوراه، الإسكندرية، ١٩٦٩)

(٤) خروج ٢ : ٢٣، ٤ ، ١٩. مع إيماننا أن هذه الفترة لا تعدو ثمانى سنوات أو عشرة.

بالاضطرابات والحروب، مما اضطره إلى الخروج إلى اسيا لإخماد ثورة شبت فيها فى السنة الثالثة من حكمه، أو لأن شعوب البحر كانت قد وصلت إلى حدوده الشرقية فى تلك السنة، سواء أكان هذا أو ذاك، فإن مرنبتاح إنما قد زحف إلى فلسطين وسورية، ثم وجّه إلى العصاة ضربة قاسية انتهت بإذلالهم[١]، ورغم أن هناك من الباحثين من يرى أن مرنبتاح الذى كان مهدداً فى دولته بالليبيين، لا يمكن أن يقوم بفتوحات فى فلسطين وسورية فى السنتين الأولى والثانية من حكمه، فإن العلماء يكادون يجمعون على قيامه بهذا النشاط الحربى فى فلسطين[٢]، ولعل مما يؤكد ذلك نعت «قاهر جازر» الذى نلتقى به فى نقش عمدا[٣].

وأيّا ما كان الأمر، ففى السنة الخامسة من عهد مرنبتاح، تتعرض حدود مصر الغربية للخطر، ذلك أن الليبيين ـ فضلا عن شعوب البحر ـ إنما أخذوا يتدفقون نحو غرب الدلتا، فخرج إليهم الفرعون بقواته حيث دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس، انتهت بهزيمة ساحقة للغزاة المعتدين[٤]، وإن كنا لا ندرى أين دارت رحى الحرب، حيث يقدم لنا المؤرخون أماكن تتفاوت بين حافة وادى النطرون[٥]، وقرب «بلبيس» فى

---

(١) عبد المنعم أبو بكر، كفاحنا ضد الغزاة، ص ٤٣-٤٤، (القاهرة ١٩٥٧)؛ دريوتون وفانديه، مصر، ترجمة : عباس بيومى، ص ٤٨٠، (القاهرة ١٩٥٠)؛ جيمس هنرى برستد، تاريخ مصر، ترجمة: حسن كمال، ص ٣١٤، (القاهرة ١٩٢٩).

(٢) J.A. Wilson, op.cit., p. 255.

وكذا: E. Naville, JEA 2, 1915, p. 196.

(٣) A.H. Gardiner, op.cit., p. 273.

(٤) J.A. Wilson, op.cit., p. 254-255, AJSL, LI, 1935, p. 75-76, ANET, p.376-378.

وكذا: W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, II, Harvard, 1959, p. 353.

وكذا: J.H. Breasted, ARE, III, p. 241-245.

(٥) ايتين دريوتون وجاك فانديه، مصر، ترجمة: عباس بيومى، القاهرة ١٩٥٠، ص ٤٧٩.

الدلتا الشرقية[١] وإن كنا نميل إلى ما ذهب إليه «فلندرز بترى» من أنها إنما كانت فى مكان ما، فيما بين الضهرية والنجيلة جنوب كفر الزيات[٢].

وعلى أى حال، فأكبر الظن أنه فى هذه الأوقات العصيبة، بدأت حركة الإسرائيليين، ومن ثم فقد بدأوا فى التفكير فى الهروب من مصر، بعد أن رفض الفرعون السماح لهم بالخروج من أرض الكنانة، بل إن «جان يويوت» إنما يرى أن الهروب إنما كان أثناء الزحف الليبى نفسه[٣]، وإن كنت أميل إلى أنه إنما كان بعد فترة قصيرة من هذا الزحف، ولعلنا بهذا إنما نفسر قول التوراة _ على لسان فرعون _ «فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا، ويصعدون من الأرض»[٤].

ومنها (رابعًا) أن الحفريات والأبحاث قد أثبتت أن ممالك أدوم ومؤاب وعمون، لم تكن قد تكونت حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مع أن سفر يشوع يذكر هذه الممالك بالاسم، بل ويذهب إلى أنها إنما كانت نامية ومزدهرة إبان فتوحات يشوع هذا، وحملاته الحربية[٥].

ومنها (خامسًا) استمرار السلطة المصرية فى فلسطين على أيام أمنحتب الثالث (١٤٠٥-١٣٦٧ق.م)، بدليل اكتشاف جعول صيد الأسود، التى وجدت فى «لاخيش» تخليداً لمهارة الفرعون فيقتل ١٠٢ أسداً، خلال السنوات العشر الأولى من حكمه[٦]، وفى الواقع أن مصر إنما كانت

(١) C. Steindorff and K. C. Seele, When Egypt Ruled the East, Chicago, 1963, p. 252.

(٢) W.M.F. Petrie, A History of Egypt III, London, 1927, p. 109.

(٣) جان يويوت، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٤٠.

(٤) خروج ١: ١٠.

(٥) جون الدر، المرجع السابق، ص ٥٤. وكذا:

Merill F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago , 1970, p. 334.

(٦) J.H. Breasted, ARE, II, p. 34g-347.

وكذا: A. Gardiner, op.cit., p. 206.

على أيام أمنحتب الثالث مركز الدنيا وقلبها النابض، وكان ملوك مصر هم حكام العالم دون منازع ـ على الأقل في النصف الأول من حكم هذا الفرعون ـ ومن ثم فقد سعت الدنيا إلى بلاط الإمبراطور العظيم تحمل جزيتها، وتثبت لنا الاحتجاجات المتذللة التي نقرؤها في رسائل العمارنة، والتي كان يرسلها أصحابها يؤكدون فيها ولاءهم وخضوعهم، وتسلط مصر على العالم[١].

واستمرت السيادة المصرية كذلك، حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلا على أيام أزمة العمارنة ـ بدليل وجود جعارين من عهد رعمسيس الثاني[٢]، وكما تدلنا كذلك حروبه وحروب أبيه من قبل.

ومنها (سادسًا) وجود إناء مكسور عليه كتابة مصرية لأحد جباة الضرائب في «لاخيش»[٣]، وقد سجل فيه تسلمه لشحنة من القمح، ومن ثم فالسنة الرابعة من عهد فرعون معين، تشير الدلائل جميعها على أنه «مرنبتاح» ومن ثم فالسنة الرابعة هنا إنما تعني عام ١٢٢٠ق.م[٤]، مما يؤكد أن السيادة المصرية على فلسطين كانت ماتزال قائمة حتى السنة الرابعة من عهد مرنبتاح، وأن الإسرائيليين لم يكونوا قد استولوا على المدينة بعد.

---

(١) J.A. Wilson, op.cit., p. 204.

(٢) J. Finegan, op.cit., p. 162.

(٣) لاخيش: كانت توجد سابقًا بتل الحصى التي تبعد ١٦ ميلا إلى الشمال الشرقي من غزة، ١١ ميلا إلى الجنوب الغربي من مدينة جبرين، واستقر الأمر الآن على أنها تقع في «تل الدوير» على مبعدة خمسة أميال إلى الجنوب الغربي من بيت جبرين» (قاموس الكتاب المقدس ٨٣١/٢)؛ وكذا:

F. Finegan, op.cit., p. 161; W.M.F. Petrie, Tell el -Hesy (Lachish), 1891; W.F. Albright, In ZAW, 6, 1929, p. 3F.

(٤) جون الدر، المرجع السابق، ص٧٠. وكذا:

W.F. Albright, , BASOR, 68, 1937, p.23F, 74, 1939, p. 20-22, 132, 1953, p. 46.

وكذا: J. Finegan, op.cit., p. 162.

ومنها (سابعًا) أن تقارير التوراة في سفر القضاة - وكذا سلسلة الأنساب الكهنوتية - إنما تتفق مع هذا التاريخ المتأخر[١]، ومنها (ثامنًا) أن إسرائيل لم تظهر في حملات رعمسيس الثالث على فلسطين، سواء أكان ذلك قبل هزيمته لشعوب البحر في عامه الثامن[٢] أو بعده، وإنما ظل الفرعون محتفظًا بإمبراطوريته الأسيوية في فلسطين وجنوب سورية، وقد عثر له على تمثال في بيسان، كما عثر على آخر في مجدو، فضلا عن بنائه معبداً للإله آمون في فلسطين، وكان خط الحدود المصرية عند «زاهي» في مكان ما عند الشاطئ في فينيقيا الجنوبية[٣]، ومن هنا فإن حملة الفرعون الثانية على آمور، إنما كان الهدف منها، الحفاظ على أملاك مصر في فلسطين بصفة خاصة، وفي سورية بصفة عامة[٤]، وبدهي أن هذا كله إنما يدل على عدم وجود إسرائيل ككيان مستقر في فلسطين حتى أيام رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ق.م).

ومنها (تاسعًا) أن حالة الاضطراب التي كتب على الكنانة أن تعيشها، في الفترة ما بين وفاة مرنبتاح، وبداية عهد رعمسيس الثالث (أي فيما بين عامي ١٢١٤-١١٨٢ق.م) ، إنما كانت أكثر الفترات ملاءمة أن يعيش الإسرائيليون في التيه، وهم في مأمن من أن تهاجمهم القوات المصرية فتقضي عليهم، أو تعيدهم إلى مصر ثانية، ذلك لأنه قد أعقب موت مرنبتاح فترة من الاضطرابات، حدثت فيها مؤامرات شتى حول العرش المصري،

---

(١) W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p. 38.

(٢) H. Nelson, The Naval Battle Pictures at Medinet Habu, JNES, 4, 1943, p. 40-55.

(٣) W.F. Edgerton and J.A. Wilson, Historical Records of Ramesses III, Chica-go, 1936, pls. 27-46, p. 31-55.

وكذا: J.A. Wilson, op.cit., p. 259.

(٤) J. H. Breasted, ARE, III, p. 82F.

وكذا: W.F. Edgerton and J.A. Wilson, op.cit , pls. 88-101, p. 95-105.

فتعاقب عليه عدد من الملوك لم يحكموا سوى فترات قصيرة، كما كانوا فى الوقت نفسه ملوكًا ضعافًا، مما أدى فى نهاية الأمر إلى اضطراب الأمور وتعقيدها، وزادت الحالة سوءًا بالتدريج، حتى آلت آخر الأمر إلى فوض شاملة، وصفتها «بردية هاريس» بأن «أرض مصر قد اضطربت، وأصبح كل رجل يضع شريعته الخاصة، ولم يكن هناك قائد مدى بضع سنين سابقة، حتى كانت مصر فى أوقات أخرى تضم أمراء وحكام قرى... ثم جاء وقت بعد سنين فارغة، و.... سورى معهم أصبح أميرًا، وجعل البلاد كلها تدفع له الضرائب»[١]، ومن هذا النص استنتج المؤرخون أن «إرسو» السورى هذا، هو «باى» رئيس الديوان، الذى أرغم «تا أوسرت» على أن تجلس «سبتاح» على العرش تحت وصايتها[٢]، ثم بقى الحال هكذا، حتى نجح «ست نخت» فى أن ينقذ البلاد من وهدتها، وأن يجلس على عرش الكنانة قرابة العامين (١١٨٤-١١٨٢ق.م)، ليخلفه عليه ولده «رعمسيس الثالث» (١١٨٢-١١٥١ق.م).

ومنها (عاشرًا) أن فترة دخول الإسرائيليين كنعان ـ طبقًا لهذه النظرية ـ إنما تتفق وغزوات شعوب البحر على سورية، واشتباك رعمسيس الثالث معهم فى حرب ضروس، دارت رحاها على الأرض الآسيوية مرة، وعلى الأرض الإفريقية مرتين، بل إن انتهاء فترة التيه، وبداية دخول الإسرائيليين أرض كنعان، إنما تتفق وحملة رعمسيس الثالث على سورية ـ فى عام حكمه الثامن، حوالى عام ١١٧٤ق.م ـ للاشتباك مع شعوب البحر عند «زاهى»، ثم انشغاله بعد ذلك فى حروبه ضد شعوب البحر على حدوده

(١) J.A. Wilson, in ANET, p. 160.

(٢) انظر: دريوتون وفاندييه، مصر، ص ٣٩٦؛ الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ١٥٩؛ جان يويوت، مصر الفرعونية، ص، الجدول؛ وكذا: V. Beckreath, JEA, 49, 1963, p. 71-74, 1963. وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 279-281.

الغربية، فإذا كان ذلك كذلك، فلقد مكنت هذه الظروف الإسرائيليين من دخول كنعان، وأعطتهم الفرصة ليعيثوا فى الأرض فساداً.

ومنها (حادى عشر) أن اضطراب الأمور فى سورية وفلسطين بسبب غزوات شعوب البحر، التى أدت إلى القضاء على الدولة الحيثية[١]، ومن ثم فقد هرب الحيثيون - مع شعوب أخرى - إلى سورية وفلسطين، الأمر الذى يبدو واضحًا فى التقاليد الإسرائيلية، التى تحدثنا عن تجمعات حيثية كبيرة، استقرت فى أرض كنعان، وقد وجدها رسل موسى الذين ذهبوا يستطلعون أرض الميعاد، ومن هنا نقرأ فى التوراة : «أن الحيثيين قد احتلوا الإقليم الجبلى»[٢].

ومنها (ثانى عشر) أن خلفاء رعمسيس الثالث ما كانوا بقادرين على الحفاظ على الإمبراطورية المصرية فى اسيا، ربما لأنهم كانوا أضعف من ذلك، وربما لأن الأحوال الداخلية والخارجية لم تكن تساعدهم على ذلك، وربما كان تغير ميزان الاقتصاد العالمى - بظهور معدن الحديد - قد اضطر مصر إلى التخلى عن سلطانها فى آسيا الغربية، وربما كانت هذه الأسباب مجتمعة - فيما أظن - هى السبب، وأيًا ما كان الأمر، فليس هناك من دليل واضح على أن مصر - بعد وفاة رعمسيس الثالث - قد احتفظت بإمبراطوريتها فى فلسطين وسورية، رغم العثور على بعض الآثار لبعض الفراعين فى تل الصافى وتل زكريا وتل جازر وتل أسانة ومجدو[٣]، ومن هنا كانت فرصة بنى إسرائيل فى الاستيلاء على جزء من أرض فلسطين.

ومنها (ثالث عشر) ما جاء فى القرآن الكريم من أن فرعون قد طلب

---

(١) O.R. Gurney, The Hittiles, (Penguin Books), 1969), p. 36-39.

(٢) عدد ١٣ : ٢٩.

(٣) J. Cerny, Egypt of the Death of Ramesses III, to the End of the Twenty First Dynasty, Cambridge, 1965, p. 11-12.

من هامان، أن يوقد له على الطين، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وقال فرعونُ يا أيُّها الملأُ ما علمتُ لكُمْ مِنْ إلهٍ غيرى فأوْقدْ لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطَّلِعُ إلى إلهِ موسى، وإنّى لأظنُّه من الكاذبين﴾(١)

على أن ما عرف عن فراعين مصر، وما تشهد به اليوم آثارهم، أنهم إنما كانوا ينشئون - ما شاءوا - من الحجر - وهو كثير وافر يغنيهم عما سواه - إن أرادوا لما ينشئون الدوام والخلود، فكانوا يتخذون منه المعابد والمسلات، والقبور، ولم يصطنعوا الطوب المحروق، ولغير ذلك كانوا يتخذون اللبن من طين غير محروق، فكانوا يتخذون منه بيوتهم، سواء كانت للعلية من القوم والملوك، أم للعامة وغمار الناس، وربما تردد القارئ فيما يسمع من قول الله فى أمر فرعون أن يوقد له على الطين، وقد عرف أن المصريين فيما خلفوا من آثارهم لم يتخذوا الآجر المحروق فى البناء قبل عصر الرومان(٢).

ويروى الإمامان القرطبى والنسفى فى تفسيريهما - عن حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما - أن فرعون موسى إنما كان أول من صنع الآجر، وبنى به(٣)، وأكبر الظن أن المفسرين - كما بدا لنا من قبل - قد كانوا يستندون إلى طائفة كانت بين أيديهم من الخبر الصحيح، وإن اختلط كذلك بما لا قيمة له من الأوهام.

ومهما يكن من أمر، فلقد أعثرتنا الأحافير على ما يوافق أقوال المفسرين من حيث البناء بالآجر، فقد عثر «السير فلندرز بترى» على طائفة من غير مألوف المصريين من الآجر المحروق، بنيت به قبور، كما أقيمت به بعض من أسس المنشئات، ترجع إلى عصور الفراعين، رعمسيس الثانى

---

(١) سورة القصص، آية ٣٨؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٥٠٠٤-٥٠٠٥، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠)؛ تفسير النسفى، ٢٣٧/٣؛ تفسير ابن كثير، ٦٢٢/٣، (بيروت ١٩٨٦)؛ فى ظلال القرآن، ٢٦٩٤/٥، (بيروت ١٩٨١)

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ١٣٧ -١٣٨

(٣) الإمام القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة ١٩٧٠، ص ٥٠٠٤؛ تفسير النسفى، ٢٣٧/٣

ومرنبتاح وسيتى الثانى - من الأسرة التاسعة عشرة - وكان عثوره عليها فى «نبيشة» و«دفنة» غير بعيد من عاصمة هؤلاء الفراعين فى شرق الدلتا، وقال عالم الآثار الإنجليزى (أى بترى) فى ذلك: إن حرق اللبن قد ظل نادراً إلى عصر الرومان، وهو قول لا يكاد يخالف قول المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى، وهو كذلك من قرائن القرآن الكريم التى نتخذها مطمئنين فى تحديد عصر الخروج، وبأنه إنما كان على عصر الأسرة التاسعة عشرة التى بدأت - كما أثبتت الحفائر وألمح القرآن العظيم - تصطنع فى بنائها الآجر المحروق[١].

ومنها (رابع عشر) ذلك الحديث النبوىّ الشريف، حيث يروى أنس بن مالك، عن جدنا ومولانا وسيدنا رسول الله، ﷺ، أنه قال: خير نساء العالمين أربع، مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله[٢]»، وإذا ما تذكرنا أن «أست نفرت» (آيسة نفرة)، كانت الزوجة الثانية لرعمسيس الثانى، بعد «نفرتارى»، بل إن الأثرية «مس مرى» [٣] لترى أنها الزوجة الرئيسية، كما أن بعض الباحثين إنما يعتبرها أم الأمراء، الذين لهم حق وراثة العرش.

وهناك فى متحف «بروكسل» جزء من تمثال صغير لهذه الملكة، مازالت عليه بعض نعوت لهذه الملكة تكاد تكون فريدة فى بابها، فعلى

(١) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٣٨؛ وكذا:
W.M.F. Petrie, Nebesheh and Defenneh, London 1890, p. 18-19, 47.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ، ١٦٠/٢؛ قصص الأنبياء ٣٧٦/٢-٣٨٠؛ تفسير القرآن العظيم ٣٢/٢-٣٤؛ توفيق أبو علم، فاطمة الزهراء، ص ٤٦؛ عائشة عبد الرحمن، بنات النبىّ، ص١٦٦؛ وانظر: روايات أخرى للحديث فى: تفسير الطبرى ٣٩٣/٦-٣٩٨؛ صحيح البخارى ١٩٣/٤، ٣٣٩/٦؛ صحيح مسلم ٢٤٣/٢؛ سنن الترمذى ٣٦٥/٤-٣٦٦؛ مسند الإمام أحمد ١٣٦/٣؛ تحفة الأحوذى، كتاب المناقب، ٣٨٩/١٠؛ رواية الحاكم فى المستدرك ، ١٨٤/٣؛ تفسير ابن كثير ٣٢/٢-٣٤؛ محمد بيومى مهران، السيدة فاطمة الزهراء، بيروت ١٩٩٠، ص١٧٢.

(٣) سليم حسن، مصر القديمة، ٤٣٤/٦؛ وكذا: Ancient Egypt, 1925, p. 100-104.

الجهة اليمنى نقرأ : «وعندما تدخل فى المقر المزدوج، فإن قاعة الاستقبال فى القصر تضوع بشذى عبيرها، وإنها لحلوة الرائحة، بجانب والدها الذى يبتهج عند رؤيتها، الزوجة الملكية....» وعلى الجهة اليسرى نقرأ: «التى تملأ قاعة الجلسة بعبيرها، وهى المنقطعة النظير بعطورها، إذ تعادل بلاد بونت بشذى أعضائها، الزوجة الملكية»، وفى الواقع أن هذه النعوت النسوية الدالة على طيب العبير، وما يضوع منها من شذى العطور لم توصف به ملكة من قبل[١].

ولعل كل هذا إنما يدل على شدة حب الفرعون لها، وبالتالى على دالتها عليه، إذا تذكرنا ذلك، وتذكرنا قصة موسى ـ كما جاءت فى التوراة والقرآن العظيم ـ وكيف ألقته أمه فى اليم، فالتقطه آل فرعون لينشأ فى قصر فرعون نفسه، وذلك عندما ﴿قالت امرأةُ فرعونَ قرةُ عينٍ لى ولَكَ لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾[٢]، إذا تذكرنا ذلك كله، وقارنا بين اسم امرأة فرعون، كما ورد فى الحديث النبوىّ الشريف، وفى الآثار المصرية، لما وجدنا صعوبة كبيرة فى تقريب «آيسة» (أو إيسى، أو حتى إست) إلى «آسية» (أو آسيا).

وهكذا نستطيع القول أن الفرعون الذى التقطت امرأته موسى، هو «رعمسيس الثانى»، وهو فرعون التسخير، وأن الفرعون الذى جابهه موسى، هو «مرنبتاح» ولعل مرنبتاح نفسه، هو الذى ذكر موسى بتربيتهم له وتنشئتهم إياه على فراشهم، ثم قتله واحداً من رعاياهم وهروبه إلى مدين، ثم إذا به آخر الأمر يعود فيدعوهم إلى إطلاق سراح بنى إسرائيل، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿قال ألم نُربِّكَ فينَا وليداً، ولَبِثْتَ فينَا مِنْ عُمُرِكَ سنين، وفعلتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فعلتَ وأنتَ مِنَ الكافرينَ، قَالَ فعلتُها إذًا

---

(١) سليم حسن، مصر القديمة، ٤٣٧/٦؛ وكذا: Chronique d'Egypte, p. 79.

(٢) سورة القصص، آية : ٩.

وأنا من الضّالين، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربّى حكمًا وجعلنى من المرسلين، وتلك نعمة تَمنُّها علىَّ أنْ عبّدْت بنى إسرائيل﴾[١]

وهكذا يبدو لى أن هذا الرأى الذى يجعل الخروج فى عهد مرنبتاح، إنما هو أقرب الآراء إلى الصواب، ونستطيع أن نضيف إليه ـ بحذر ـ أن الخروج إنما تم فى العام الأخير من حكم مرنبتاح، وليس فى العام الخامس، كما هو المفترض، سواء أكان هذا العام الأخير، هو العام العاشر (عام ١٢١٤ق.م) كما ترى جمهرة المؤرخين ـ أم كان ذلك العام، هو العام الثامن (عام ١٢١٦ق.م) على رأى آخر.

وأما السبب فى تحديدنا للعام الأخير من حكم مرنبتاح للخروج، فهو أن التوراة إنما تروى أن الفرعون قد مات فى البحر، عند محاولته اللحاق بالإسرائيليين[٢] والأمر كذلك بالنسبة للقرآن الكريم، وإن أضاف الذكر الحكيم أن جثة الفرعون قد انتشلت، لتكون آية لمن خلفه[٣]، ولم تكن الآية لمن خلفه جيلا أو جيلين، بل آية للعشرات الكثيرة من الأجيال والمئات الكثيرة من السنين، وهى إنما صارت كذلك بما مكّن رب العرش لأهل هذا المصر من سلطان العلم وأسرار التحنيط [٤].

وهكذا نستطيع ـ عن طريق تحديدنا للخروج بالعام الأخير من حكم

---

(١) سورة الشعراء، آية : ١٨-٢٢.

(٢) خروج ١٤ : ٢٦-٣١، ١٥ : ١-٥؛ وانظر: الرسالة إلى العبرانيين ١٥ : ٢٩.

(٣) انظر: سورة البقرة، آية : ٥٠؛ يونس، آية : ٩٠-٩٢؛ وانظر: تفسير الطبرى ٢/٥١-٥٨، ٢٠/١٤-٢١، ١٥/١٨٨-١٩٨؛ تفسير المنار ٢٦٠/١، ١٠-٤١، ١١/٣٨٧-٣٩٠؛ تفسير ابن كثير ١/١٢٨-١٣٠ : ٤/٢١-٢٢، ٢٢٦-٢٢٩ تحفة الأحوذى، تفسير سورة يونس، الحديث ٥١٠٨، ٨/٥٢٥-٥٢٦؛ تفسى القرطبى ص ٣٢١٥-٣٠٢٠؛ تفسير روح المعانى ١١/١٨٠-١٩٠؛ تفسير البيضاوى ١/٤٥٦-٤٥٧؛ تفسير البحر المحيط ٥/١٨٩-١٩٠؛ صحيح البخارى ٦/٩١؛ مجمع الزوائد ٧/٢٦

(٤) أحمد عد المحميد، المرحع السابق، ص١٢٣

مرنبتاح ـ أن نوفق، إلى حد كبير، بين أحداث التاريخ القديم، وبين نصوص الكتب المقدسة، كما يمكننا إيجاد تفسير لتسجيل انتصارمرنبتاح على لوحة ليست له، وإنما لسلفه البعيد «أمنحتب الثالث»، وذلك بسبب موته المفاجئ.

وأما أن اللوحة قد حددت هذا الحادث بالعام الخامس من حكم مرنبتاح، فذلك يتناقض تناقضًا تاما مع الكتب المقدسة، إذ أن ذلك إنما يعنى أن الفرعون إنما بقى على قيد الحياة بعد خروج الإسرائيليين من مصر، وإن كان هناك من يتجه إلى ذلك [1]،هذا فضلاً عن أن حملته إلى سورية، والتى ذكرت فى اللوح، إنما كانت فى العام الثالث، وأما تحديد العام الخامس بالذات، فذلك تخليد لذكرى انتصاره العظيم على الليبيين، وحلفائهم من القهق والمشوش، إلى جانب خمسة من شعوب البحر،

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الآراء الخمسة ـ الآنفة الذكر ـ ليست هى كل ما ذهبت إليه أفكار الباحثين بالنسبة إلى تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر، وإنما هناك آراء أخرى، لعل أهمها ثلاثة آراء.

أولها: ماذهب إليه الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف من أن فرعون الخروج، إنما كان «سيتى الثانى» (سيتى مرنبتاح)، وليس مرنبتاح نفسه، معتمداً فى ذلك على تقرير موظف الحدود، الآنف الذكر، والذى رأى فيه دليلاً على سواد الهدوء والنظام على التخوم الشرقية، وعلى ما كان لسلطات الأمن فى عهد مرنبتاح من سيطرة على حركات الناس والبدو فى تلك البقاع، وعلى أن مومياء مرنبتاح إنما تثبت أنه كان قد طعن فى السن

(١) يذهب الدكتور سليم حسن إلى أن الفرعون لم يمت، إذ أنه لا يتصور أن يغرق الفرعون وعربته ومن معه فى ماء ضحضاح لا يزيد عمقه عن قدمين أو ثلاث ، ويرى أن خيل الفرعون وعرباته قد ساخت فى الأوحال فسقط مغشيًا عليه وأن ما جاء فى القرآن عن الحادث لا يشعر بأن الفرعون قد غرق ومات (مصر القديمة ١٣٥/٧). وهذا فى الواقع تعسف فى تفسير النصوص المقدسة، وخطأ فى الاستنتاج.

وتقدمت به الأيام ـ كما يظهر ذلك من فحص موميائه ـ مما يقعد به عن الخروج فى حملات الحرب والقتال (١).

ومن ثم ففرعون الخروج ـ على ما يرجح ـ إنما كان شابا، أو رجلا مكتمل الصحة موفور النشاط، وهو ما يتبين من جثة سيتى الثانى بمتحف القاهرة، حيث الموت المفاجئ بغرق أدنى إلى العقل والاقتناع (٢).

وأما الرأى الثانى، فهو الذى يذهب أصحابه إلى أن الخروج إنما تم بعد نهاية الأسرة التاسعة عشرة (٣)، وأما ثالث الآراء، فيذهب إلى أن الخروج إنما كان بعد عهد رعمسيس الثالث (٤)، بل أن صاحب هذا الرأى ليرى أن هناك خروجين الواحد: عند نهاية حكم تحوتمس الثالث، والآخر : بعد أيام رعمسيس الثالث؛ وإن كان من البدهى أن ذلك أمرا غير مقبول.

على أننا ـ فى نفس الوقت ـ لا نستطيع القول أن هناك ما يمنع طوائف من بنى إسرائيل، من أن تخرج من مصر عن طريق الهجرة أو التسلل فى أوقات الضعف والاضطرابات التى رأت مصر شيئا منها فى تلك القرون الأربعة التى عاشها بنو إسرائيل فى مصر، فيما بين عصرى يوسف وموسى، عليهما السلام.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن كل ما ذكرناه عن تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر وإقامتهم فى الدلتا الشرقية، لا يرتكز على حقائق تاريخية ثابتة، حتى أن بعض العلماء إنما ينظر إلى الموضوع كحقيقة تاريخية، بعين الحذر، ويرى «جاردنر» أن قصة الخروج يجب أن تبقى

---

(١) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٣٩-١٤٧؛ وكذا:
Elliot Smith, Royal Mummies, Cairo, 1912, p. 69.

(٢) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٤٦-١٤٧؛ وكذا: G.E. Smith, op.cit., p. 73.

(٣) W.O.E. OEsterly, op.cit., p. 223.

(٤) H.R. Hall, op.cit., p. 408.

تفاصيلها، حتى تظهر فى الأفق براهين جديدة، تختلف فى شكلها عن التى فى متناول أيدينا الآن، وكأنها اسطورة، مثلها فى ذلك مثل قصة الخلق المذكورة فى سفر التكوين منْ التوراة، وعلينا أن نسعى فى تفسير هذه القصص على فرض أنها أساطير.

ثم يرى بعد ذلك أنه بعيد عن القول أن كل قصة الخروج خرافية، إذ أنها تعكس فى مجموعها صورة حادثة تاريخية معينة، وهى طرد الهكسوس من مصر، ثم يضيف بأن نظريته هذه ليست جديدة، فقد دافع عنها الدكتور «هول» فى كتابه «تاريخ الشرق الأدنى القديم» (١).

ومن الغريب المدهش أن الآثار المصرية سكتت تمامًا عن موضوع الإسرائيليين بمصر، وبالتالى عن قصة الخروج هذه، ويعلل «سمث» (٢) ذلك بأنه ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة بأن الآثار الفرعونية لم تحفل بحادث خروج بنى إسرائيل، ولم تسجل خطواته، ذلك لأن فرار مجموعة من العبيد من سادتهم، لا يمثل حدثا يثير الاهتمام الفكرى لدى المصريين، وبخاصة أن بنى إسرائيل قد عاصروا بمصر عهوداً حافلة بجلائل الأعمال، استنفدت ـ فيما يبدو ـ نشاط المثالين ومدونى التاريخ، وليس ببعيد أن تكشف أعمال التنقيب، فيما تكشف، بعض الآثار التى تعين على مزيد من الإيضاح.

ثالثا : الخروج :

إلتف بنو إسرائيل حول موسى عليه السلام فى مصر، لا كنبىّ، وإنما كقائد يرجى على يديه الخلاص من استعباد المصريين، وبدأ موسى مسيرة الخروج، ومعه بطانة من كهنوت مصرى، فضلا عن الإسرائيليين ومن لاذ

---

(١) A.H. Gardiner, The Geography of Exodus, in JEA, 10 1924, p. 88.

(٢) J.W.D. Smith, God and Man in Early Israel, p, 38.

بهم من متذمرين [١]، وكانت بداية المسيوة من مدينة «بى رعمسيس»، مقر الفرعون، وعاصمة الامبراطورية المصرية وقت ذاك.

ولكن : أين تقع «بى رعمسيس» هذه ؟

لقد قام جدل طويل بين علماء المصريات حول موقع مدينة «بى رعمسيس» هذه، فذهب فريق ـ ومنهم لبسيوس وشاباس[٢] وجاردنر[٣] ـ إلى أنها عند أو على مقربة من بلوزيوم»، بينما ذهب فريق آخر ـ ومنهم جاردنر، بعد أن هجر الفكرة الأولى[٤]، وفى[٥] وجون ويلسون[٦] والكسندر شارف[٧] وجيمس هنرى برستد[٨] وهرمان يونكر[٩] ـ إلى أنها «تانيس»، على أن هناك فريقا ثالثا ـ ومنهم محمود حمزة[١٠] ووليم هيز[١١] وشتياندورف وسيلى[١٢] ولبيب حبشى[١٣] ـ إنما يذهب إلى أنها «قنتير»[١٤]، بل إن «السير فلندرز بترى» وغيره، إنما يقترحون، «تل الرطابة»، وعلى أى حال، فإن العلماء إنما يجمعون الآن على استبعاد

(١) جوستاف لوبون، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ص ٣٣.

(٢) R. Weil, JEA, 21, 1935, p. 100-11.

(٣) A.H. Gardiner, JEA, 5, 1918, p. 127. F.

(٤) A.H. Gardiner, JEA, 19, 1939, p. 122-128.

(٥) R. Weil, JEA, 21, 1935, p. 17.

(٦) J.H. Wilson, ANET, 1966, p. 252.

(٧) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ١٥٤.

(٨) J.H. Breasted, A History of Egypt, p. 443.

(٩) A. Gardiner, Onom II, 1947, p. 172.

(١٠) M. Hamza, ASAE, 30, 1930, p. 31-68.

(١١) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, II, p. 338-9.

(١٢) G. Steindroff and K.C. Seele, op.cit., p. 256.

(١٣) L. Habchi, ASAE, LII, 1952, p. 433-559.

(١٤) قنتير: قرية صغيرة الآن، تقع على مبعدة ١٩ كيلو متراً إلى الجنوب من صان الحجر (تانيس)، وعلى مبعدة تسعة كيلو مترات إلى الشمال الشرقى من فاقوس.

بلوزيوم وتل الرطابة، ومن ثم فالمفاضلة إنما تدور بين تانيس [١] وقنتير.

وقدم الفريق الذى يرى أن «تانيس» هى «بى - رعمسيس» أدلة، منها (أولا) اكتشاف «مونتيه» أن آلهة «بى رعمسيس» هى نفس آلهة تانيس، ومنها (ثانيا) اتساع وأهمية مبانى الرعامسة فى تانيس، وأنه ليست هناك مدينة مصرية - حتى طيبة نفسها - تستطيع أن تفاخر بأعداد التماثيل واللوحات والبقايا الثمينة التى تحمل خراطيش رعمسيس الثانى وخلفائه [٢]، ومنها (رابعا) وجود نقش على قطعة حجر من معبد تانيس الكبير، جاء فيه : «أمون صاحب بررعمسيس، مى أمون، ذو الانتصارات العظيمة»، وهو نعت يذكر دائما مع اسم «بى رعمسيس»، على الآثار المعاصرة لمؤسس المدينة [٣].

وقدم أصحاب الإتجاه الذى يرى أن «بى رعمسيس» هى «قنتير» الحالية أدلة كثيرة، منها (أولا) وجود بقايا أثرية كبيرة فى الحقول والمنازل نقش عليها اسم «رعمسيس الثانى»، بجانب أجزاء لقصر جميل النقش للفرعون، ومنها (ثانيا) وجود مئات من قوالب الفخار، عليهما أسماء بعض ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، مما يدل على أن هؤلاء الملوك إنما كانوا يقيمون فى هذه المنطقة، ومنها (ثالثا) وجود معابد للإله أمون وبتاح وست وغيرهم من الآلهة الأقل شأنا، ومنها (رابعا) آثار تحمل أسماء بعض أبناء رعمسيس الثانى وكبار موظفيه، مما يدل على أن الإدارات الحكومية كانت هنا.

---

(١) تانيس: هو الاسم اليونانى للمدينة المصرية «زعنت» والتى أطلق عليها فى فترة متأخرة «جعن» أو «زعنتى» ، وهى «صوعن» فى التوراة، وتقع الآن فى مكان «صان الحجر» على مبعدة ٢٠ كيلو متراً إلى الجنوب من مدينة المنزلة الحالية، وعلى مبعدة ١٤ كيلو متراً إلى الشمال الشرقى من نبيشة» (تل فرعون) ، وقد قام بعمل حفائر فى الموقع على التوالى كل من : «أوجست ماريت» (١٨٢١-١٨٨١م) ووالسير فلندرز بترى» (١٨٥٣-١٩٤٢م)، «وبيير مونتيه» (انظر:

A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, II, Oxford, 1947, p. 199-200.

(٢) A.H. Gardiner, JEA, 19, 1933, p. 122-6.

(٣) A.H. Gardiner, Onom, II, p. 172.

ومنها (خامسا) أن كثيرا من قوالب الفخار المطلى تحمل خرطوش رعمسيس الثانى، مصحوبا باللقب « بانثر» (أى الإله)، فضلا عن خرطوش آخر لنفس الملك، مصحوبا بالصفتين «شمس الأمراء» و «أمير الأمراء» (حاكم الحكام) ومثل هذه النقوش إنما تدل على أن «رعمسيس الثانى» لم يكن ينظر إليه فى «قنتير» كإله فقط، وإنما كان يحمل كذلك الصفات «شمس الأمراء»، و «أمير الأمراء»، ومنها (سادسا) أن فى بردية «انسطاسى الرابعة» فقرات هامة تتصل بمدينة «بى رعمسيس» وصف فيها الفرعون رعمسيس الثانى، على أنه إله للمدينة [١].

ومنها (سابعا) أن الألقاب التى حملها أصحاب فى لوحات «هربيط»، إنما تدل على أنهم كانوا مرتبطين بأقليم «الختاعنة - قنتير»، وأن معظمهم، إن لم يكونوا جميعاً، كانوا يعيشون هنا، ومنها (ثامناً) أن عبادة تماثيل رعمسيس الثانى[٢] - وقد شاعت فى عهده - كانت موجودة فى معابد هذا الإقليم وقصوره، وفى منازل الأمراء والموظفين والمصانع والمخازن وثكنات الجنود[٣].

---

(١) M. Hamza, Excavation of the Department of Antiquities at Qantir, ASAE, 30, p. 64-68.

(٢) لم تعرف مصر عبادة الملك الحي على الأرض إلا منذ أيام أمنحتب الثالث، الذى شيد معبداً فى «صولب» ليعبد فيه هو والإله آمون، ثم شيد معبداً آخر فى «سدنجا» رفع فيه زوجته «تى» إلى مرتبة التقديس، ثم اتبع رعمسيس الثانى هذه البدعة فأدخل عبادة شخصه بين الآلهة التى كانت تعبد فى معابده فى النوبة، ثم أقام مدينة عسكرية فى «هربيط» عبد فيها وهو حى، ثم فعل كذلك رعمسيس الثالث إذ أدخل عبادة شخصه وهو حى فى مدينة منف (محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ١٩٥؛ سليم حسن، مصر القديمة ، ١٠٥/٥؛ وكذا:

A.R. Schulman, A Cult. of Ramessess III at Memphis, JNES, 32, 1963, p. 177-184.

(٣) L. Habachi, ASAE, LH, 1952, p. 555-57.

ومنها (تاسعًا) أن المدينتين ـ «بى رعمسيس وتانيس» ـ قد ذكرتا منفصلتين فى قاموس «جولينشف» مما يدل على أن المصرى القديم نفسه قد فرّق بينهما، ومنها (عاشراً) أنه قد عثر على خنجر، جاء فيه: «وسر ما عت رع، ستين رع، محبوب حور، رب زعتت (تانيس)»، مما يدل على وجود مدينة «تانيس» على أيام رعمسيس الثانى[١].

وانطلاقًا من هذا كله، فإننى أميل إلى أن «بى رعمسيس» إنما هى قنتير» الحالية وأن «الختاعنة» ربما كانت أفاريس، وأن آثار رعمسيس الثانى التى وجدت فى تانيس ربما نقلها إلى هناك ملوك الأسرة الحادية والعشرين، الذين اختاروا هذه المدينة عاصمة لهم[٢].

وأيًا ما كان الأمر، فلقد «ارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت[٣] نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد[٤]، وأما هذا الرقم (٦٠٠ ألف) الذى تقدمه التوراة للرجال الخارجين من مصر، فقد أثار جدلا طويلا بين العلماء حول صحته، فقبله البعض، ورفضه اخرون، بينما حاول فريق ثالث إيجاد تفسير آخر لهذه الأرقام، ومن ثم فقد ذهب «بيترى» إلى القول بأن الألف تعنى الأسرة أو الجماعة أو العشيرة أو الخيمة، وعلى ذلك فإن ٥٤,٤٠٠ مثلا، لا تعنى أن هناك ٥٤,٤٠٠ شخصًا، وإنما تعنى ٥٤ عشيرة عدتها ٤٠٠ فرداً، ثم يقترح بعد ذلك أن المجموع الكلى

---

(١) A.H. Gardiner, Onom, II, p. 279.

(٢) محمد بيومى مهران، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، ص ٤٦-٦٧.

(٣) سكوت: مكان غير معروف بالضبط، ومن ثم فقد ظن البعض أنها «تل المسخوطة» ، وظن آخرون أنها المدينة المحيطة بفيثوم، ورأى فريق ثالث أنها «ثكو» عند المصريين ، على مسافة لا تزيد عن سبعة أميال من قنتير، وإن رأى فريق رابع أن ذلك أمر يحتمل الكثير من الشك (انظر: قاموس الكتاب المقدس ٤٧٢/١، نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، ٢٩٤/٣-٢٩٧). وكذا: A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, p. 274.

(٤) خروج ١٢: ٢٧.

للخارجين من مصر، إنما كان ٥٥٥٠ شخصًا، وبذا يستطيع موسى أن يحكم في الخصومات التي يمكن أن تنشب بين حوالى ٦٠٠ خيمة أو مجموعة، ولكن ذلك محال بين ٦٠٠ ألف رجل[١].

وتروى التوراة بعد ذلك أن الربَّ كان يعلم ما فى الإسرائيليين «من صغر النفس ومن العبودية القاسية»، وأنهم لم يصبحوا بعد أكفاء لدفع ثمن الحرية، أو حتى جادين فى الخروج من مصر، حرصًا منهم على حياة، وتقاعسًا عن جهاد، وخوفًا من موت، ومن ثم تروى التوراة أنه «لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين، مع أنها قريبة، لأن الله قال: لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربًا ويرجعوا إلى مصر، فأدار الله الشعب فى طريق بحر سوف»[٢]، وربما كان السبب فى ذلك ألا يمروا بجوار الحصون المصرية التى كانت تحمى البلاد من غارات البدو، وبخاصة «ثارو»[٣]، وقد علمنا من قبل ـ من نص موظف الحدود ـ كيف كانت

(١) W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p. 41-46.

(٢) خروج ١٣ : ١٧-١٨.

(٣) ثارو : هو الاسم المصرى لموقع «تل أبو صيفة» الحالى، على مبعدة حوالى كيلو مترًا إلى الشرق من مدينة القنطرة شرق، وقد ظهر الاسم على أيام تحوتمس الثالث، وإن رأى «أولبرايت» أنه اسم سامى ـ وليس مصريًا ـ ظهر منذ أيام الهكسوس وأما فى العصر اليونانى والرومانى فقد عرفت ثارو باسم «زل» (زيلو ، سيل، سيلا، سيله)، وأصبحت عاصمة الإقليم الرابع عشر من أقاليم مصر السفلى، الذى تلتها فيه تانيس (صان الحجر).

وقد نالت ثارو أهمية خطيرة فى العصر الفرعونى لموقعها الاستراتيجى الهام. ومن ثم أنشأ الفراعين فيها مجموعة من الحصون لصد غارات البدو. ثم أصبحت على أيام حورمحب أشبه بمعاقل الطور، واستمرت ثارو طوال عصر الإمبراطورية المصرية ذات أهمية خطيرة بكونها آخر مدينة على تخوم الدلتا الشرقية والمحطة المصرية على طريق القوافل إلى سورية، وفى هذا الدور شهدت ثارو مسير الجيوش المصرية إلى اسيا من أجل المجد، أو عائدة بالقناطير المقنطرة من الجزى والأسلاب، لأنها كانت بداية الطريق الحربى الرئيسى إلى فلسطين وسورية (انظر: سليم حسن، أقاليم مصر الجغرافية فى العصر الفرعونى، القاهرة ١٩٤٤، ص ٨٦؛ وكذا:

A.H. Gardiner, Onom, II, p. 203-204; M. Hamza, op.cit., p. 66; W.F. Albright, JEA, Io, p. 6-8; H. Kees, Ancient, London, 1961, p. 195.

سلطات الأمن تسيطر سيطرة كاملة على حركات الناس والبدو فى تلك البقاع من تخوم مصر الشرقية.

وهكذا «ارتحل بنو إسرائيل من سكوت ونزلوا فى إيثام فى طريقة البرية» ثم كلم الربُّ موسى قائلا : «كلم بنى إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر، أمام بعل صفون، مقابله تنزلون عند البحر[1]».

ولعل سؤال البداهة الآن: ما المراد بالبحر هنا؟

لقد قام جدل طويل بين العلماء حول تحديد هذا «البحر»، فهو البحر الأحمر فى رأى شرّاح التوراة، وهو بحيرة المنزلة أو جزء منها، فى رأى آخر، وهو المنطقة التى كان يطلق عليها فى العصور الهلينستية والرومانية «بحر سربونين» Sirbonian Sea ، أى «سبخة البردويل» ، فى رأى ثالث، أو هو النهاية الشمالية لخليج السويس فى رأى رابع، أو إحدى البحيرات المرة ـ دون تحديد واحدة منها بالذات ـ فى رأى خامس، أو حتى هو خليج العقبة فى رأى سادس[2].

على أن الحماس لإثبات أن هذا البحر، إنما هو «البحر الأحمر» وصل بالبعض إلى أن يتعسفوا له الحلول، وأن يتكلفوا النظريات. ومن هنا قامت نظرية تنادى بأن فرعون قد غرق فى البحر الأحمر، مع خلاف على المكان الذى وقع فيه الحادث العظيم.

فهناك ما كان يفكر فيه الحجاج المسيحيون القدامى، وهو الطرف الشمالى من خليج السويس، قرب مدينة السويس الحالية[3]، وهناك من يرون أن البحر الأحمر إنما كان يمتد إلى الشمال بعد خليج السويس الحالى،

---

(١) خروج ١٣ : ٢٠، ١٤ : ١-٢.

(٢) CAH, III, Part 2, p. 323.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ١٦٤/١ . وكذا: M. Noth, The History of Israel, p. 116.

ومن هؤلاء علماء الحملة الفرنسية الذين افترضوا أن خليج السويس كان فى العصور اليونانية يمتد شمالا حتى بحيرة التمساح الحالية، ثم جاء «لينان دى بلفون» ، وقام بدراسة برزخ السويس، والمنطقة التى تليه حتى البحر المتوسط، فى الفترة فيما بين عامى ١٨٢١، ١٨٤٠م، وذهب إلى أن تربة البحيرات المرة قبل أن تملؤها المياه قبل حفر قناة السويس، كانت بها أصداف ونباتات لها مثيل على ساحل البحر الأحمر، ومن ثم فقد رأى أن مياه البحر الأحمر، إنما كانت تغطى هذه الأماكن فى فترة غير بعيدة جداً، لا تمتد إلى أبعد من العصور التاريخية[١]، بل وزاد البعض فرأى أن خليج السويس ربما كان فى الألف الثانية قبل الميلاد ما يزال على اتصال بالبحيرات المرة ، بل ومع بحيرة التمساح كذلك، هذا فضلا عن أن بحيرة البلاح إنما كانت على اتصال بالبحر المتوسط، ومن ثم فقد كان هناك برزخ ضيق نسبياً بين بحيرة التمساح وبحيرة البلاح[٢].

ويتشكك كثير من العلماء ــ ومنهم جاردنر وكوتمان ــ فى ذلك، لعدم وجود أدلة تدعم هذا الرأى[٣]، بل إن «مارتن نوث» إنما يرى أنه ليس هناك شيء مؤكد بالنسبة لهذا الأمر، سوى أن هذا الحادث قد وقع على حدود الدلتا الشرقية، ومن المستحيل التحقق من مكان الحادث بدقة أكثر من ذلك، حتى لو كانت لدينا معلومات صحيحة عن امتداد فروع البحر والبحيرات فى منطقة قناة السويس الحالية فى الفترة التى وقع فيها هذا الحادث[٤].

على أن هناك من الباحثين من يجعل هذا المكان، إنما يقع إلى الجنوب من مدينة السويس، ومنهم «روبرتسون» الذى خفض مستوى البحر

---

(١) E. Naville, JEA, 10 1924, p. 36-38.
(٢) M. Noth, op.cit., p. 116.
(٣) JEA 10 1924, p. 36.
(٤) M. Noth, op.cit., p. 115.

الأحمر بما يتراوح ما بين خمس عشرة وعشرين عقدة، ليجعل عبوره من قبالة الطور ممكناً، وبذلك يقدم لنا اتساعاً معقولا، بين سلسلة الجبال المعروفة باسم «جلال» الشمالية والجنوبية[١].

وربما قريب من هذا، ما يراه البعض من أن هناك مكاناً في خليج السويس يدعى «بركة فرعون» ، يقولون: إن العبور كان بها، وهي بعيدة عن السويس كثيراً، بينما هناك من يرى أن الإسرائيليين قد عبروا في مكان ما، شمالي المكان المعروف باسم «عيون موسى» في البر الآسيوى، وهو لا يبعد كثيراً عن مدينة السويس[٢].

هذا ويرى فريق من الباحثين في نص التوراة (خروج ١٤ :٢) بعض الإشارات الموجزة، والتي تعتبر واضحة بما يكفي القول بأنها تخص منطقة كان يطلق عليها في العصور الهلينستية والرومانية «بحر سربونين» (أي سبخة البردويل) الحالية، ولكن رغم أن الإشارة دقيقة، فإنها موجودة فقط في القانون الكهنوتي، وربما كانت تصور مجهوداً متأخراً، لوضع الحادث العظيم والحاسم في مكان يتفق والوضع التقليدي للأحداث التاريخية، ذلك لأن أقدم رواية في «البنتاتوك» تبدو وكأنها على غير دراية يمثل هذا المكان المحدد بدقة، والذي لم نتوصل إليه حتى الآن، وإن أشير فقط وبغموض إلى مكان «على البحر»[٣].

هذا ويذهب فريق من الباحثين إلى أن المراد بالبحر الأحمر هنا «بحيرة المنزلة» أو جزء منها ـ على أساس أن ترجمة «يم سوف» بالبحر الأحمر، ترجمة خاطئة، والصحيح «بحيرة البوص» أو القصب، ذلك لأن كلمة «يم»

---

(١) سليم حسن، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٢) عبد الوهاب النجار، المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٣) CAH, III, Part 2, 1975, p. 323.

وكذا: Martin Noth, op.cit., p. 115-116.

ماتزال حتى الآن تعيش فى لغتنا العربية، ونفهم أن من معناها «الماء» ، وأما قديماً فكانت تطلق على فروع النيل، وأما كلمة «سوف» فهى كلمة دخلت فى اللغة العبرية من اللغة المصرية ، وتعنى «البوص»، وهذا نبات يكثر وجوده فى المياه الضحضاحة عند مصبات الترع والمصارف عامة، وفى بحيرة المنزلة - قبالة قنتير - بصفة خاصة ، ولما كان هذا النبات الذى تمتد فروعه كالسيوف ينمو بكثرة فى هذه الجهة وبارتفاع عظيم، وكانت بلاد مصر، ولاسيما «بى - رعمسيس» تأخذ منه حاجتها، وكانت كلمة البردى الذى أطلقت عليه من بعد لم تعرف بعد ، لأنها لم تظهر فى اللغة المصرية القديمة إلا فى عهد الدولة الحديثة، فقد عرفت مصر القديمة هذه البحيرة باسم «يم سوف»[1]، وليس هناك من ريب فى أن النصوص المصرية مليئة بالإشارات إلى مستنقعات القصب فى مجاورات صوعن، أو مستنقعات البردى فى شرق الدلتا.

وهكذا يتضح لنا أن المعنى من كلمة «سوف» التى جاءت فى الأصل العربى، وترجمت فى العهد القديم (التوراة) إلى «بحر سوف» ، فإن معناها العبرى هو «بحر القصب»، والذى ترجم خطأ إلى «البحر الأحمر»، وهو لا يعنى شيئاً سوى «بحيرة المنزلة»، إن لم يكن جزء منها، بخاصة وأن مدينة «بى رعمسيس» هى «قنتير» الحالية، وليست «تانيس»، كما كان يعتقد بعض الأثريين من قبل.

رابعاً - انفلاق البحر:

وأياً ما كان الأمر، فإن الفرعون يعلم بعد حين أن الإسرائيليين قد فروا بليل، وأنهم قد أخذوا معهم ما أعاره المصريون لهم من الأمتعة والذهب

---

(١) سليم حسن، المرجع السابق، ص ١٢٩ ؛ أبكار السقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٩٦.

والفضة[١]، هذا فضلا عن تغير قلب فرعون وعبيده على الشعب، فقالوا: ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا[٢]»، وهنا لم يجد الفرعون مناصاً من أن يلحق بالفارين حتى يعيد ما سرقوه، إن لم يردهم إلى ما كانوا عليه من ذل العبودية، أو يفتك بهم ويستأصل شأفتهم من البلاد، «وشدد الربُّ قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بنى إسرائيل، وبنو إسرائيل خارجون بيد رفيعة، فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم، جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه، وهم نازلون عند البحر، عند فم الحيروت، أمام بعل صفون» ورأى بنو إسرائيل الخطر الزاحف من خلفهم وهو يقترب منهم، فتملكهم الذعر والخوف، وأيقنوا أنهم هالكون، وصاحوا بموسى: «ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر، قائلين: كف عنا فنخدم المصريين، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية»[٣].

ويصبح موسى عليه السلام فى مأزق حرج، فلقد كانت بحيرة البوص على يمينه وحصن مجدل ـ بما فيه من حامية أمامه ـ ساداً الطريق من جهة الشمال، وعلى يساره مستنقعات فرع النيل البيلوزى، وخلفه الفرعون وقواته الضاربة، فلم تكن لديه أية وسيلة غير طلب العون والرحمة من الله، ومن هنا نجده يصيح فى وجوه الخائفين الفزعين من قطيعه، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[٤]، وهنا تحدث المعجزة، فينجو بنو إسرائيل من فرعون وجنده، وإن اختلفت الكتب المقدسة فى تفسيرها.

فالتوراة ترجعها إلى ريح شرقية هبّت فأزالت الماء وظهرت اليابسة، وحينئذ عبر بنو إسرائيل وغرق جند فرعون حين تبعوهم[٥]، ويذهب

(١) خروج ١٢ : ٣٥-٣٦.
(٢) خروج ١٤ : ٥.
(٣) خروج ١٤ : ٨-١٢.
(٤) سورة الشعراء، آية : ٦٢.
(٥) خروج ١٣ : ٢١-٣١.

«روبنسون» إلى أن ريحاً شرقية شمالية تهب على هذا الجزء تكفى لطرد الماء من بعض الأماكن، وعلى كل حال، فقد تغيرت المعالم فى الصور الغابرة، بحيث يتعسر معرفة الموضع بالضبط[1] ، وهناك من يرى أن منسوب الماء مايزال حتى الآن متأثراً بدرجة عظيمة بالريح فى بحيرة المنزلة والبرلس، ويلاحظ أن الطريق من بلطيم حتى برج البرلس تغطى بالمياه، عندما يهب الهواء غرباً، ثم تصبح جافة عندما يهب الهواء من الشرق، ويمكن للإنسان أن يسر عليها بالعربة[2]، وفى أنشودة الاحتفال بهذا الخلاص، نرى المؤلف يستغل قدرته الشعرية، ليعلن فى سفر الخروج: «بريح أنفك تراكمت المياه، انتصبت المجارى كرابية»[3]، وقد وضعت هذه التقاليد أخيراً فى الترجمات النثرية، التى ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد[4].

ويقول «جراى» رغم أننا لا نستطيع أن ننكر التدخل الإلهى فى الخلاص العظيم، فإنه لم يتضمن انفلاق البحر، وأن الأمر إنما تم عن طريق عاصفة ممطرة بطريقة فجائية غير مألوفة، فى مكان ووقت يتناسبان مع إرادة الله، ولم تقدم المعجزة بطريقة خارقة للطبيعة - كما جاءت فى التوراة [5] - وإنما بطريقة مطابقة لها تماماً[6].

وأما فى القرآن الكريم، فالمعجزة واضحة لاريب فيها، وذلك حين أوحى الله سبحانه وتعالى إلى كليمه موسى عليه السلام ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾[7]

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، ١٦٤/١. (٢) سليم حسن، المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٣) خروج ١٥ : ٨.

(٤) J. Gray, Israel in Near Eastern Mythology, N.Y., 1969, p. 107.

(٥) خروج ١٢ : ٣٢. (٦) J. Gray, op.cit., p. 107.

(٧) سورة الشعراء، آية : ٦٢-٦٧.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الله ـ جلّت قدرته ـ قد أسند فرق البحر إلى ذاته الكريمة، ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه، وهو معهم بعنايته، وقوله تعالى ﴿فأنجيناهم وأغرقنا آلَ فِرْعَوْن﴾ بيانا للمنّة العظمى التى امتنّ الله بها على بنى إسرائيل، والتى ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر إنما ترتب عليه أمران: أولهما: نجاتهم، وثانيهما : إهلاك عدوهم، وكلاهما نعمة عظيمة.

والإيمان الصحيح يقضى بأن نفهم واقعة انفصال البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية للكليم عليه السلام، وقد زعم البعض أنها كانت ـ كما أشرنا آنفاً ـ حادثة طبيعية ، وهم زعم لا سند له ولا دليل عليه[١].

ومن ثم فإننا نرفض ما يراه البعض من أن الحادثة ـ حادثة فرق البحر ـ ربما كانت نتيجة المد والجزر، وبالتالى فتلك علة طبيعية لنظام جغرافى[٢]، كما نرفض كذلك القول بأن عنصر التهويل قد لعب دوره فى القصة حتى أظهرها بهذه الصورة، وأن هناك رواية مشابهة لها قد رددتها التوراة عن يشوع خادم موسى وفتاه[٣]، وأن خليج العقبة هو فى سفر الملوك الأول «بحر سوف»[٤] (بحر القصب)، هذا فضلا عن أن سفر القضاة[٥] إنما يتحدث عن رحلة إسرائيل البرية من مصر إلى بحر سوف[٦]، كما أننا لن نقارن حادث فرق البحر هذا بما جاء فى «بردية وستكار» عن أساطير تنسب إلى أحد الكنهة من أنه قد استطاع ـ كما أشرنا من قبل ـ فى عهد «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة المصرية (حوالى عام ٢٦٢٠ق.م) بفضل تعاويذ سحرية من أن يشق البحيرة، وأن يضع ماء أحد جانبيها على الجانب الآخر، وأن

(١) محمد سيد طنطاوى، المرجع السابق، ص ٤٥٩.

(٢) C.Roth, op.cit., p. 6.

(٣) يشوع ١: ١٠، ٤: ٢٣.

(٤) ملوك أول ٩: ٢٦.

(٥) قضاء ١١: ١٦.

(٦) S.A. Cook, op.cit., p. 91.

يستخرج حلية كانت قد ضاعت من إحدى المغنيات، ثم أعاد الماء إلى مكانه مرة أخرى[١].

هذا فضلا عن أننا لا نوافق كذلك المؤرخ الأمريكي الكبير «جيمس هنرى برستد» من أن هناك انفجاراً بركانيًا حدث فى سيناء، حينما ضاق الخناق على العبرانيين عند خروجهم من مصر، وأن الزلزال الذى صحب ذلك الانفجار وموجة المد التى نتجت عن ذلك، هما اللذان أفضيا إلى ابتلاع الجنود المصريين الذين كانوا يتعقبون إثر الإسرائيليين الفارين[٢].

وأما سبب رفضنا للآراء الآنفة الذكر، إننا نرى فى حادث انفلاق البحر رأيًا آخر، فهو ـ فيما نعتقد، ونؤمن به الإيمان كل الإيمان ـ معجزة موسى الكبرى، والمعجزة ـ فيما نعلم ـ قوى إلهية يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، والحصول على نظير لها، ولا تأتى إلا فى مقام التحدى والإعجاز، وهى ـ كغيرها من معجزات الأنبياء ـ من عمل الله، ولا فضل لأحد فيها سواء سبحانه وتعالى، فليس لنبىٍّ يد فى هذه الخوارق التى بهرت الناس وقهرت الخلق ، وقامت أدلة صادقة على صدق من ظهرت على أيديهم فى أنهم مبلغون عن الله سبحانه وتعالى ، ومن هنا خاف موسى عليه السلام، حين تحولت عصاه حية تسعى، فولى مدبراً، ولم يعقب لشدة خوفه منها، حتى هدأ الله روعه وآمن خوفه، وعلى هذا الأساس لا يستغرب ولا يستبعد وقوعها ممن لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء[٣]، فإنه جل شأنه ـ كما يقول: ﴿إنما أمره إذَا أَرادَ شيئًا أَنْ يقولَ له كُنْ فيكونَ﴾[٤]

(١) T.E. Peet, A Comparative Study of the Literature, Egypt, Palestine and Mes-opotamia, p. 41; G. Lefehvre, op.cit., p. 70-77; A. Erman, LAE, p. 36-46, G. Maspero, Popular Stories of Ancient Egypt, p. 21F.

(٢) J.H. Breasted A History of Egypt from the Earliest Times to Persian Con-quest, New York, 1946, p. 342.

(٣) عبد الرحيم فوده، من معانى القرآن ، ص ١٠٩ .

(٤) سورة يس، آية : ٨٣.

هذا فضلا عن أن المعجزة إنما هى من البراهين العقلية التى تقرر قيومية الله الخالق عزَّ شأنه، وإطلاق قدرته من قيود القوانين والعادات المعلومة فى حدود مدارك العقول الإنسانية إلى سنن كونية وقوانين للوجود فوق آفاق تلك العقول، تحدث على وفقها تلك الأحداث الكونية والأعاجيب الإعجازية إذا تطلبتها أسبابها وحانت مناسباتها، والله سبحانه وتعالى فعال لما يريد لا يسأل عما يفعل[١].

وهكذا نستطيع أن نصل من ذلك كله إلى نتيجة واحدة هى : أن انفلاق البحر لموسى عليه السلام، لا علاقة له ببنى إسرائيل، فتلك معجزة نبىّ، كما أن غرق فرعون لم يكن تكريماً للإسرائيليين أبداً، فتلك عاقبة من أصرَّ على كفر، ولم يؤمن بالله الواحد الأحد، وأما حساب بنى إسرائيل فعسير عند الله، سبحانه وتعالى، حتى أنه عزَّ وجل، ليكتب على هؤلاء الذين أنجاهم من فرعون أن يتيهوا فى الأرض أربعين عاماً، ثم يحرم عليهم الأرض المقدسة أبداً[٢].

وأيا ما كان الأمر، فلقد أفلت بنو إسرائيل من فرعون وجنوده وانطلقوا إلى سينا، وشغل المصريون عنهم بمصيبتهم فى مليكهم الغريق وتتويج خليفته، ولعل المصريين قد كفوا عن تعقبهم هناك، وقد عرفوا أنهم طائفة هاربة لا تبغى سوى النجاة، ولن يكون منهم على مناجمهم فى سيناء من خطر يحذرون[٣].

---

(١) محمد الصادق عرجون، معجزات الأنبياء بين العقل والعلم، الإسكندرية ١٩٥٥، ص ٢. وكذا: محمد ﷺ ، من نبعته إلى بعثته، ص١٤٨-١٤٩ (مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م) وانظر عن المعجزة وشروطها: الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، ص ٧٠-٧٢ ، (دار الشعب ، القاهرة ١٩٦٩).

(٢) التوراة ، (عدد ١٤ : ٣٣-٣٤)؛ الإنجيل (أعمال الرسل ٧: ٣٦، ٤٢)؛ القرآن الكريم (سورة المائدة، آية : ٢٦).

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ١٢٥.

الفصل الثالث
الإسرائيليون فى التيه

(١) تمرد الإسرائيليين على موسى:

وتنتهى عند هذا الحد قصة بنى إسرائيل مع مصر، وفرعون مصر، لتبدأ - بما فيها من غدر وكفر - مع موسى وهارون، عليهما السلام، ولو كان موسى مجرد زعيم مخلص عرض حياته للخطر أكثر من مرة لإنقاذهم، لكان له عليهم حق السمع والطاعة والإخلاص، وامتثال أمره، واتباع هداه، ولكنه فوق ذلك رسول من الله، مؤيد بالمعجزات الباهرة، ومع ذلك فإن كليم الله لم يجد منهم إلا العناء، فما أن مضت أيام ثلاثة على آية الله الكبرى لموسى وقومه عند «يم سوف»، حتى تذمر الإسرائيليون لأنهم، لم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر»[١].

وما أن يمضى شهر ونصف الشهر، حتى يعود بنو إسرائيل إلى التذمر مرة أخرى، ومن الغريب أن مصدره - كما كان فى المرة الأولى - شهوة رخيصة، وجرى وراء لذة دنيوية، فإذا كانت المرة الأولى بسبب الماء العذب، فإن الثانية إنما كانت بسبب حرمانهم من طعام كانوا يحصلون عليه من فتات الموائد وفضلات المصريين، كانوا يجدون فى سيناء المن أو العسل البرى يشتارونه فى غير مشقة ولا جهد، وكانوا يجدون السلوى - ولعله - السمان - وفيراً، يسيراً صيده، وكانت سيناء - ومازالت - قبلة للأفواج الكثيرة من طيور الهجرة تقبل فى الخريف متعبة مرهقة بعد عبور البحر، فما أن تجد الأرض حتى تحط فلا تكاد حتى تستريح تريم، فإذا لاحت تباشير الربيع عادت إلى اجتياز سيناء فى طريقها إلى البحر تعبره إلى حيث تقيم، ومع ذلك فلم يرض اليهود بما أنزل عليهم من رزق الله[٢].

---

(١) خروج ١٥: ٢٣-٢٥.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف، مصر فى القرآن والسُّنة، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٢٨-١٢٩؛ وكذا:
Meineriztragen, Nicoll's Birds Egypt, p. 41, 468-469

وليس هناك من ريب، فى أن ذلك إن دل على شىء فإنما يدل على أن اليهود إنما كانوا يفضلون الحياة الذليلة تحت سياط الرق والاستعباد، بجوار قدور اللحم على حياة الحرية والكرامة، تقول التوراة : «فتذمر كل جماعةبنى إسرائيل على موسى وهارون فى البرية، وقال لهما بنو إسرائيل: ليتنا متنا بيد الربِّ فى أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر، لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع»[(١)]، ثم طفقوا يعددون ما كانوا يجدون فى مصر من الخير وألوان الطعام، وإلى هذا تشير التوراة فى سفر العدد: «فعاد بنو إسرائيل أيضًا وبكوا وقالوا: من يطعمنا لحمًا، قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجاناً، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم، والآن قد يبست أنفسنا، ليس شىء غير أن أعيننا إلى هذا المن»[(٢)].

وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وإذْ قُلْتُمْ يا موسى لَنْ نَصْبِرَ على طعامٍ واحدٍ فَادْعُوا لَنَا رَبَّكَ يُخرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ من بَقْلِهَا وقِثَّائِهَا وفُومِهَا وعَدَسِهَا وبَصَلِهَا قال أتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هو أدْنَى بالَّذِى هو خير، اهبطوا مصراً فإنَّ لكم ما سألتم، وضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسْكَنَةُ وباءوا بغضبٍ مِنَ اللَّه، ذلك بأنهم كانوا يكفرونَ بآياتِ الله ويقتلون النبيِّين بغيرِ الحقِّ، ذلك بمَا عَصَوْا وكانوا يعتدون﴾[(٣)]

(١) خروج ١٦ : ٢-٣.

(٢) عدد ١١ : ٤-٦.

(٣) سورة البقرة، آية : ٦١؛ وانظر: تفسير الكشاف ١٤٤/١-١٤٦؛ تفسير الطبرى ١٣٠/٢-١٤٢؛ تفسير النسفى ٥٥/١-٥٥؛ تفسير روح المعانى ٢٧٣/١-٢٧٨، تفسير الطبرسى ٢٦٩/١-٢٧٨؛ التفسير الكاشف ١١٤/١-١١٦؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٧٤/١-٧٧؛ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٧٣/١-٧٤؛ تفسير أبى السعود ١٧٢/١-١٨٣؛ فى ظلال القرآن ٧٥/١، تفسير ابن كثير ١٤٥/١-١٧٤؛ تفسير القرطبى ، ص ٣٥٩-٣٧٠؛ تفسير المنار ٢٧٣/١- ٢٧٦؛ تفسير القاسمى ١٣٧/٢-١٤٠؛ تفسير وجدى، ص ١٢٥؛ تفسير الفخر الرازى، ٩٨/٣-١٠٢.

ثم ما أن يمضى حين من الدهر، حتى تقوم تورة أحرى، فهناك فى «رفيديم» «خاصم الشعب موسى، وقالوا: أعطونا ماء لنشرب.... وتذمر الشعب على موسى، وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش» ، ويأمر الربُّ نبيّه الكريم أن «اضرب الصخرة فيخرج منها ماءً ليشرب الشعب ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل، ودعا اسم الموضع مسه ومريبة من أجل مخاصمة بنى إسرائيل ومن أجل تجربتهم للرب قائلين : أفى وسطنا الربُّ أم لا»[١]

ويفسر «جوزيف» اليهودى ذلك بأنهم وصلوا إلى «رفيديم» فى حالة يرثى لها بسبب العطش، ولاشك فى أن الصخرة فى «حوريب» حيث يوجد ماء مغطى، ويرى رواد الصحراء الذين درسوا تربتها وجاسوا خلالها، أمثال «جارفس» و«لورانس» و«وولى» أنه يمكن الحصول على الماء أحياناً من هذه النواحى تحت طبقة رقيقة من الحجر الجيرى على عمق قدمين ويظل مخزوناً طوال العام[٢].

على أن هناك بعض علماء النصرانية ممن يفسرون الحدث كله، على أنه رمز السيد المسيح، عليه السلام، إذ كما ضربت الصخرة لتخرج منها ماءً يحيا به الشعب، كذلك ضرب المسيح بالقصبة على رأسه، وبصلبه على الصليب ليخرج منه الخلاص والحياة الأبدية لكل من آمن به، كذلك يخبرنا الربُّ (يسوع؟) عن أنه الماء الحى المعطى الحياة الأبدية لكل من يشرب منه[٣].

وهنا يلتقى الإسرائيليون بالعماليق، حيث تحدث المعركة الرئيسية بينهما على امتلاك الشريط الخصيب الوحيد فى شبه جزيرة سيناء، وهو

---

(١) حروج ١/١٧-٧

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٠٤

(٣) هانى رزق، يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته، القاهرة ١٩٧١، ص ١٤٨

«وادى فيران» الحالى[1]، تقول التوراة، «وأتى عماليق وحارب إسرائيل فى رفيديم، فقال موسى ليشوع انتخب لنا رجالا وأخرج لنا عماليق، وغدا أقف أنا على رأس التلة وعصا الله فى يدى، ففعل يشوع كما قال له موسى ليحارب عماليق، وأما موسى وهارون وحور، فصعدوا على رأس التلة، وكان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب، فلما صارت يدا موسى ثقيلتين أخذا حجراً ووضعاه تحته فجلس عليه، ودعّم هارون وحور يديه الواحد من هنا والآخر من هناك، فكانت يداه ثابتتين إلى غروب الشمس، فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف»[2].

ويلتقى موسى بحميه «يثرون» كاهن مدين، الذى جاء ومعه «صفورة» امرأة موسى، وولديه منها «جرشوم» و«اليعازر»[3] هذا مع العلم بأن التوراة قد ذكرت من قبل ــ وفى نفس سفر الخروج[4] ــ أن موسى قد هبط مصر ومعه زوجه وولداه، ولكن هذا لا يزعجنا كثيراً، فهو نوع من تناقض نصوص التوراة، ونظائره كثيرة.

وعلى أى حال، فإن سفر الخروج[5] إنما يحدثنا كيف كان يثرون ــ وهو شعيب نبىّ مدين العربى على الأرجح ــ يقرب القرابين إلى الله، ويتبعه موسى وهارون وشيوخ بنى إسرائيل، وأنه قد أسدى إلى موسى النصح باختيار رؤساء الشعب لينظروا فى القضايا الثانوية، ويبقى هو المرجع الأعلى، فاتبع نصيحة شعيب، ومعنى هذا أن شعيباً ــ كما يقول الأستاذ العقاد، طيب الله ثراه ــ تقدم موسى فى عقيدته الإلهية، وعلمه تبليغ الشريعة، وتنظيم القضاء فى قومه، وأن العبريين كانوا متعلمين من النبىّ العربى، ولم يكونوا معلمين[6].

(١) W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p. 4.

(٢) خروج ١٧ : ٨-١٣.

(٣) خروج ١٨ : ١-٧.

(٤) خروج ٤ : ٢٠.

(٥) خروج ١٨ : ١٢-٢٧.

(٦) عباس محمود العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، القاهرة ١٩٦٠، ص ٨٠.

٢ ـ الردة وعبادة العجل فى سيناء:

تتحدث التوراة فى الإصحاحات من التاسع عشر إلى الحادى والثلاثين عن الشريعة الموسوية، وأما الإصحاح الثانى والثلاثون فيتحدث عن ردة بنى إسرائيل وحبر وصايا الربِّ لم يجف، كما يقولون، وفى الواقع فإن التراث الدينى اليهودى ليذخر بأدلة لا تقبل الشك على أن اليهود الذين رافقوا موسى إلى سيناء لم يكونوا أكفاء لحمل عبء التوحيد وفلسفته التجريدية الروحية الرفيعة، ولم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية، بل إنه لا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصًا على عقيدة دينية، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسيم الدينية فى مصر، وودوا لو أنهم يعودون إليها ويعيدونها منسوخة ممسوخة فى الصحراء[1].

كانت سيناء منذ أقدم العصور من أوفر مصادر مصر بالفيروز والنحاس كانت مستودعًا غنيًا بالنحاس، ومن كريم الحجر وبالفيروز بنوع خاص، ومن ثم فقد كانت ميدانًا لنشاط اقتصادى خصيب، حرص ملوك مصر منذ طلائع الأسرة الأولى على رعايته وحمايته، وهكذا كان من الواجبات الملقاة على عاتق الفراعين منذ العهد الثينى أن يكفلوا حماية القوافل وبعثات المناجم والمحاجر التى تجوس خلال الصحراوات فى سيناء، وقد ذكرت قطعة القاهرة لحجر «بالرمو» إشارة إلى ما حدث فى عهد الملك «جر» ـ ثانى ملوك الأسرة الأولى ـ من «ضرب ستيه»[2]، ونحن نطالع من عهد ملك متأخر[3] من هذا العصر عن «ضرب الإيونيتو»[4]، وهو اصطلاح مبهم يشير

(١) عباس العقاد، مطلع النور، أو والع البعثة المحمدية ـ دار الهلال ـ القاهرة ١٩٦٨، ص ١٠٧.

(٢) A.H. Gardiner, op.cit., p. 414.

(٣) يشير الدكتور عبد العزيز صالح إلى أن ذلك الملك هو «عنجاب» ، وأن «الايونيتو»، ربما بمعنى «أصحاب العمد»، وهم من بدو الصحراء الشرقية وسيناء وما وراءهما (عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص٨٩).

(٤) Zas, XXV, p. 7F.

إلى الشعوب القاطنة فى شمال شرق الدلتا[١]، وقد أطلق عليهم «سترابو» (٦٣-٢١ق.م) اسم «سكان الكهوف» الذين كانوا يعيشون على النهب والسلب، أو التجارة فى قوافل تقطع صحراء العرب[٢]، وهناك لوحة رائعة تمثل «دن» (وديمو) يقوم بذبح اسيوى يسكن فى الصحراء الرملية فى سيناء وليس بالنصوص الهيروغليفية بها أية صعوبة فى الترجمة، ففقراتها واضحة وتعنى «أول مرة لضرب الشرقيين»[٣]، وبدهى أن هذا إنما يدل على أن مصر إنما كانت مهتمة بحماية سيناء منذ عصورها المبكرة، الأمر الذى لم تتخل عنه مصر أبداً.

وعلى أى حال، فلقد كانت مناجم الفيروزج تكثر فى وادى مغارة وسرابة الخادم، حيث أقيم معبد للإلهة «حاتحور» ربّة الفيروزج منذ أيام الدولة الوسطى التى عملت على استغلال تلك المنطقة باهتمام كبير، ومازالت تلك البقاع من سيناء تحفظ على صخورها آلافًا من نقوش المصريين ممن كانوا فى تلك البقاع عاملين، وفى الوقت نفسه للإلهة «حاتحور» متعبدين[٤].

هذا وقد حدث اتصال فى سيناء منذ أقدم عصور التاريخ الفرعونى بين الإلهة المصرية «حاتحور» (والتى كانت الصفة القمرية من بينها صفاتها العديدة فى مصر)، وبين الإلهة القمرية السامية التى كانت تعبد فى الكهف المقدس فى معبد سرابيط الخادم فى سيناء قبل مجيء المصريين، والتى حلت «حاتحور» المصرية محلها[٥].

---

(١) A.H. Gardiner, op.cit., p. 414.

(٢) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ١٤٢/١.

(٣) A.H. Gardiner, op.cit., p. 415.

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ١٢٥، ١٧٥.

(٥) A H. Gardiner, A.T., Peet , and J. Cerny, The Inscriptions of Sina, 2, 1955, p. 41.

ومن ثم فلم يكد بنو إسرائيل يمضون مع موسى بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من ال فرعون، حتى رأوا قومًا يعبدون أصنامًا لهم، فنسوا كل ما كانوا يذكرونه من آيات موسى، ونجاتهم مع موسى، وقالوا ما حكاه القرآن حيث يقول: ﴿وجاوزنَا ببَنِي إسرائيلَ البحرَ فأتَوْا على قومٍ يَعكفُونَ على أصنامٍ لهم، قالوا يا موسى اجعلْ لَنَا إلهًا كما لهم آلهة، قال إنَّكم قوم تَجْهلُونَ، إنَّ هؤُلاءِ مُتبَّر ما هُمْ فيه وباطلٌ ما كانوا يعملونَ﴾[1]، والفاء فى قوله تعالى ﴿فأتوا﴾ تفيد ـ كما هو معروف ـ الترتيب والتعقيب، ومعنى ذلك أنه لم يمض وقت بعد خروجهم من البحر ونجاتهم من الهلاك، حتى عادوا إلى الوثنية التى ألفوها وألفوا الذل معها، وهذا يدل على أن الإيمان لم يخالط بشاشة قلوبهم، ولم يتمكن من ضمائرهم ومشاعرهم، ولم يثمر فيهم الثمرة الطبيعية لكل شجرة طيبة، وإنما كان إيمانهم بموسى إيمانًا بإمامته وزعامته، لا إيمانًا بالله الذى خلقه وسوّاه[2].

وهكذا لم يمض طويل وقت، حتى كانت الردة ممثلة فى «قصة العجل» والتى جاءت فى التوراة[3] والقرآن الكريم[4]، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿واتَّخَذَ قومُ موسى مِنْ بعده مِنْ حُليِّهم عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوار، ألم يَرَوْا أنَّه لا يُكلِّمُهم ولا يَهْديهم سَبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين، ولما سُقطَ فى أيديهم ورأوْا أنَّهم قد ضَلُّوا قالوا لئنْ لم يرْحَمنا ربُّنا ويغْفر لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسرين، ولَمَّا رَجعَ موسى إلى قومه غضْبانَ أسفًا قال بئْسمَا خلَفْتموني مِنْ بَعْدِي، أعَجلْتُم أمرَ ربِّكم، وألْقَى الألواحَ وأخذَ برأسِ أخيه يَجرُّه إليه قال

---

(١) سورة الأعراف، آية : ١٣٨-١٣٩؛ وانظر : تفسير الطبرى ١٣/٨٠-٨٤؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٤/٢١٥-٢١٦؛ تفسير المنار ٩/٩١-٩٩؛ تفسير القرطبى ، ص ٢٧٠٩-٢٧١١؛ تفسير وجدى ، ص ٢١٣؛ تفسير الجلالين، ص ١٥٤؛ تفسير ابن كثير ٣/٤٦٤-٤٦٥.

(٢) عبد الرحيم فوده، من معانى القرآن ، ص ١٩٣-١٩٤.

(٣) خروج ٣٢: ١-٢٨.

(٤) سورة البقرة ، آية : ٩٢؛ سورة طه، آية : ٨٣-٩٨.

ابنَ أمِ إنَّ القومَ استَضعَفُونِي وكادوا يقتلونَنِي فلا تُشمِتْ بِيَ الأعداء ولا تجعلني معِ القومِ الظَّالمين، قال ربِّ اغفر لِي ولأخي وأدخلْنا في رحمتكَ وأنت أرحم الرَّاحمين، إنَّ الَّذينَ اتَّخذُوا العجلَ سينالُهم غضبٌ مِن ربِّهم وذلةٌ في الحياةِ الدُّنيَا وكذلكَ نجزى المُفتَرينَ﴾[1]

وليس هناك من ريب فى أن هذا، إنما كان ـ مرة أخرى ـ من تأثير الديانة المصرية على بنى إسرائيل، ذلك أن عبادة العجل فى مصر، إنما هى جد عميقة الجذور، إذ ترجع إلى ما قبل عصر موسى بكثير ـ إلى أيام الأسرة الأولى، حوالى عام ٣٢٠٠ق.م ـ ثم استمرت حتى ظهور المسيحية وغلبتها عليها، ويذهب «والتر . ب إمرى» (١٩٠٣-١٩٧١م) إلى أن العجل إنما كان ـ فى نظر القوم ـ رمزاً للقوة فى الحروب والإخصاب، سواء بسواء، وأن عبادته كانت قائمة على أيام الأسرة الأولى اعتماداً على تصوير ملوك هذه الأسرة على هيئة ثيران[2].

هذا وقد اشتهرت هذه العبادة باسم «مروروحبى» (منفيس وأبيس فى تصحيف اليونان)، حيث عبد الأول فى «عين شمس»، رمزاً لإله الشمس، والثانى فى منف مدينة بتاح رمزاً لبتاح، وقد احتفظ المصريون فى معبد «بتاح» بالعجل المقدس «أبيس» دون أن يكون هناك علاقة ما ـ على الأقل فى العصور القديمة ـ بين الإلهين[3]، كما أن بتاح لم يصور أبداً على

---

(١) سورة الأعراف، آية : ١٨٤-١٥٢ ؛ وانظر: تفسير الطبرى، ١١٧/١٣-١٣٦ ؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم، ٢١٩/٤-٢٢١ تفسير أبى السعود ٤٠٦/٢-٤٠٩ ؛ تفسير روح المعانى ٦٧/٩-٧٠؛ تفسير الكشاف ١١٨/٢-١٢٠ ؛ تفسير الفخر الرازى ٨/١٥-١١١ ؛ تفسير الطبرسى ٢٦/٩-٣٢ ؛ تفسير القاسمى ٢٨٥٩/٧-٢٨٧٦٤ ؛ تفسير القرطبى ، ص ٢٧٢٠-٢٧٢٨ ؛ تفسير المنار ١٧٢/٩-١٨٣ ؛ تفسير ابن كثير ٤٧٣/٣-٤٧٥ ؛ تفسير الجلالين ، ص ١٥٥ ؛ تفسير وجدى، ص ٢١٤-٢١٥.

(٢) Walter B. Emery, Archaic Egypt, (Penguin Book), 1963, p. 124.

(٣) أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة : عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٢، ص ٣١.

هيئة ثور، فلم يعتقد أحد أنه تجسد فى ثور(١)، ولم يعتبر أبيس كروح للإله بتاح، إلا على أيام الدولة الحديثة، وإن كان هناك اعتقاد يجعل من أبيس - وكذا من منفيس عجل هليوبوليس - رسولين يقومان بتبليغ الرسائل إلى إلههما، وهو اعتقاد يرجع كذلك إلى عهد الدولة الحديثة(٢).

وكان بتاح على أيام الأسرة التاسعة عشرة يتمتع بالدرجة الرفيعة والمنزلة السامية، كذلك حرص أمراء تلك الأسرة - من أمثال مرنبتاح الذى خلف والده رعمسيس الثانى على عرش الكنانة - على تولى منصب الكاهن الأكبر للعجل حبى (أبيس) ومن قبل كان أخوه «خع أم واس» كاهنه الأكبر كذلك، هذا فضلا عن عبادات أخرى اتخذت صور العجل فى مصر مثل «مين»(٣) و«منتو»(٤).

هذا وقد عبد المصريون الإلهة «حاتحور» (بمعنى بيت حور، والذى يرجع إلى النظرية القديمة الخاصة بالصقر حور الذى يحلق فى السماء)(٥)، وقد حازت «حاتحور» شهرة واسعة فى عصر التأسيس (عصر الأسرتين الأولى والثانية) كإلهة السماء، هذا وقد صورت حاتحور فى الفن الدينى المصرى بأشكال تكاد لا تحصر، ولكنها غالبًا كانت تصور كبقرة، أو بشكل امرأة

(١) H. Frankfort, Kingship and the Gods, Chicago, 1942, p. 10.

(٢) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص ٣١.

(٣) تتميز عبادة الإله «مين» بحكم موقع عبادته عند نهاية طريق وادى الحمامات ومجاورتهما، بصفته كإله للقمر، ، وكحام للقوافل، واتخاذ الثور كرمز له، وأغلب هذه الصفات تظهر فى عبادة إله القمر الأسيوى، والذى عبد تحت أسماء مختلف، فهو «المقة» فى سبأ، و«ود» فى معين، و«سين» فى حضر موت وفى سيناء كذلك، بل إن الديانة العربية القديمة فى جوهرها ديانة قمرية (انظر: محمد بيومى مهران، العرب وعلاقتهم الدولية فى العصور القديمة ، ص ٣٠١-٣٠٦؛ ديتلف نلسن، الديانة العربية القديمة ، ص ١٨٩، ٢٠٦؛ سبتينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، ص ١٩٤. وكذا: I. Shiahid, CHI, I, 1970, p. 9F.

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٥) انظر عن «حاتحور» : محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثانى، ص ٤٠٤-٤٠٨، الإسكندرية ١٩٨٩.

(٦) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص ٣١.

يزين رأسها قرص الشمس بين قرنى البقرة، وفى كثير من الأحيان كانت تمثل كامرأة لها رأس بقرة تحمل قرص الشمس والقرنين، وقد اختلطت الفكرتان الخاصتان برأس المرأة ورأس البقرة تدريجياً، حتى انتهى الأمر إلى أن تمثل برأس امرأة وأذنى بقرة، وهو مظهر كانت تصور به حاتحور باستمرار فنراه مثلاً كحلية ليد المرأة البدوية أو كعنصر معمارى لتاج عمود، وبهذا الشكل الآخر نرى الإلهة ممثلة فى صالة أعمدة معبد دندرة[١].

وكانت حاتحور فى عقيدة القوم مرضعة «حور ابن إيزة»، ثم ربّة الحب والحنان والموسيقى، ثم صارت ربّة للجبانة ترعى الموتى وترأمهم، وكانت صاحبة ألقاب ونعوت كثيرة منها «الذهبية» أو ربة الذهب، و«صاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها»، كما كانت لها تماثيل مموهة بالذهب حفظت بمتحف القاهرة[٢]، كما سوف نشير فيما بعد.

وقد إعتقد القوم أن الموطن الأصلى لإلهتهم «حاتحور» إنما كان فى صعيد مصر، وأنها قد عبدت فى مواطن كثيرة هناك، مثل «دندرة» ـ فى مقابل قنا عبر النهر ـ حيث المعبد الكبير، والذى يعد الآن من أحسن المعابد المحفوظة وأكثرها تأثيراً، كما عبدت حاتحور فى «هو» (ديوسوليس بارفا) بنجع حمادى، ثم إلى الشمال كثيراً فى إطفيح.

وليس هناك من شك فى أن بنى إسرائيل باتخذاهم العجل من بعد موسى إنما كانوا لما اعتادوا فى مصر من الآلهة مرتدين، وأنهم ربما اتخذوه من حليهم من الذهب فتنة بحاتور الذهبية، وما كان لها من منزلة فى النفوس، وذلك فضلا عما تأثروا به من حب المصريين للذهب وصنع تماثيلهم الثمينة، وما ندرى لعل لله حكمة فيما كان من أمره بنى إسرائيل

(١) جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، ١٩٠/٢، (القاهرة ١٩٦٧). وكذا:
H. Frnakfort, op.cit., p. 12.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ١٢٧.

أن يذبحوا بقرة وأنها ﴿بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونُها تَسُرُّ النَّاظرين﴾، ولقد كان البقر في مصر من أنواع وألوان، حيث كان فيها الأسود، ونوع آخر لا نراه اليوم يجمع بين البياض والسواد ويشبه ما هو معروف في أوربا اليوم، ولعل فيما أبدى بنو إسرائيل من تلكؤ ومراوغة في ذبح البقرة، وما كان من تنطعهم في التساؤل عنها وعن لونها من أثره ما كان قدوقر في نفوسهم من تقديس حاتحور(١).

وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وإذْ قال موسى لقومه إنَّ اللهَ يأمرُكم أنْ تذبَحوا بقرةً، قالوا أتتَّخذُنا هُزُواً، قالَ أعوذُ بالله أنْ أكونَ من الجاهلينَ، قالوا: ادعُ لَنَا ربَّكَ يبيِّنْ لَنَا ما هي قال إنَّه يقولُ إنَّها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكرٌ عوانٌ بينَ ذَلكَ فافعَلُوا مَا تؤمَرونَ، قالوا ادعُ لَنَا ربَّكَ يبيِّنْ لَنَا ما لَونُها قالَ إنَّه يقولُ إنَّها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونُها تَسُرُّ النَّاظرينَ، قالوا ادعُ لَنَا ربَّكَ يبيِّنْ لَنَا ما هي إنَّ البقرَ تشابَهَ علينا وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ لَمهتدونَ، قال إنَّه يقول إنها بقرةٌ لا ذلولٌ تثيرُ الأرضَ ولا تَسقي الحَرْثَ مُسلَّمةٌ لاشيةَ فيها، قالوا الآن جئْتَ بالحقِّ فذبَحوها وما كادوا يفعلون﴾(٢).

وهكذا يبدو واضحًا مدى تأثير الديانة المصرية في بني إسرائيل، تلك الديانة التي تمكنت من نفوسهم إبان إقامتهم الطويلة ـ والتي جاوزت قرونًا أربعة ـ في مصر، لدرجة أنهم ما كانوا بمستطيعين الإيمان بدعوة موسى، إما خوفًا من فرعون، وإما خوفًا من شيوخ بني إسرائيل، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿فما آمنَ لموسى إلا ذريةٌ منْ قومه على خوفٍ منْ فرعَونَ وملأهم أن يفتنهم﴾(٣)، باعتبار أن الضمير في «ملأهم» راجع إلى

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) سورة البقرة، آية : ٦٧-٧١؛ وانظر: تفسير الطبرى، ١٨٢/٢-٢٢٢، (دار المعارف)، تفسير المنار، ٢٨٦/١-٢٩٠؛ تفسير ابن كثير ١٥٤/١-١٦٠؛ تفسير القرطبى، ص ٣٧٨-٣٨٧.

(٣) سورة يونس، آية : ٨٣؛ وانظر: تفسير المنار ٣٨٣/١١-٣٨٤؛ تفسير ابن كثير ٢٢٢/٤-٢٢٣؛ تفسير القرطبى ، ص ٢٢٠٨-٢٢٠٩؛ تفسير الطبرى، ١٦٣/١٥-١٦٧؛ معانى القرآن للفراء، ٤٧٦/١-٤٧٧.

قوم موسى، بل إن القوم برموا بموسى وضجروا به، وقالوا ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِن بَعدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

وهكذا بقيت الوثنية راسخة فى قلوبهم، حتى بعد انفلاق البحر لهم، وحتى بعد أن جاوزوه على يبس، وحتى بعد أن منّ الله عليهم بالمن والسلوى، وحتى بعد أن استسقوا موسى فضرب الحجر بعصاه، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط من الأسباط مشربهم، وحتى بعد أن نزلت عليهم شريعة تحذرهم من اتخاذ آلهة أخرى غير الله، حتى بعد هذا كله فإنهم سرعان ما زاغوا عن الطريق المستقيم وكفروا بالله الواحد الأحد، وصنعوا لهم عجلا مسبوكًا وسجدوا له وذبحوا، وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر»[١]. وهو نفس ما سوف يفعلونه فى دويلة إسرائيل على أيام يربعام الأول (٩٢٢-٩٠١ق.م) وبعد موت سليمان، عليه السلام، مباشرة، ذلك أن «يربعام» ـ خوفًا من أن تعود قلوب القوم تتعلق بأورشليم ـ قد هداه تفكيره إلى أن يعيد المكانين المقدسين القديمين ـ وكان الواحد منهما فى «بيت إيل»، والآخر فى «دان» ـ وأن يزود كل منهما «بالعجل الذهبى»، بل إن السامرة كذلك قد زودت ـ فيما يبدو ـ بعجل ذهبى[٢].

هذا وقد قام جدل طويل حول حقيقة «العجل» الذى عبده بنو إسرائيل أثناء غياب موسى عليه السلام، فمن قائل أنه كان تمثالا أجوف من ذهب صاغه السامرى[٣] من الحلى، وصنعه بحيث إذا استدير الريح دخلت جوفه

---

(١) خروج ٣٢: ٨.

(٢) ملوك أول ١٢: ٢٥-٣٢؛ هوشع ٨: ٥-٦؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 232.

(٣) تذهب التوراة إلى أن الذى صنع العجل وأغوى بنى إسرائيل، إنما هو هارون ـ وليس السامرى ـ حين اتخذ لهم من حليهم عجلا جسداً له خوار فى غيبة موسى (خروج ٣٢: ٢-٦)، ولست أدرى كيف نسى من كتبوا ذلك فى التوراة أن هارون أخو موسى، ونبىٌّ ورسول من الله مع موسى، ونائب وخليفة لموسى، ولكنهم بنو إسرائيل دائماً، مع الفاسد المفسد، ولو كان السامرى.

وخرجت من فمه بصوت جهير يشبه خوار البقر، ومن قائل أن هذا الرجل المحتال خدع بنى إسرائيل وأخذ منهم الحلى، ثم رأى عجلا على هيئة العجول التى رآها تعبد، فاشتراه، وقدّمه لهم على أنه إله، فقال ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ ومن قائل غير هذين الرأيين، ولا يتسع المقام لعرض كل ما قيل، ولكن المتفق عليه فى الكتب السماوية (التوراة والإنجيل والقرآن العظيم) أنهم عبدوا عجلا، أيًا كان هذا العجل[1] .

ويختلف العلماء المحدثون حول عبادة العجل هذه، ففريق ينسبها إلى عبادة الإلهة «حاتحور» ، وفريق ينسبها إلى عبادة العجل «أبيس» ، ذلك أن «سير ليوناردو ولى» إنما يذهب إلى أن الإسرائيليين عندما دخولوا منطقة جنوب سيناء ـ حيث أقام المصريون المشتغلون بالتعدين معبداً لحاتحور ـ ارتدوا عن الوحدانية إلى العقائد التى اكتسبوها فى مصر، وصاغوا العجل الذهبى، تمجيداً للإلهة البقرة، والتى اصطلح على أنها كانت سيدة تلك البلاد[2] .

هذا ويفترض «أوسترلى» ـ طبقًا لما جاء فى التوراة فى سفرى الخروج والملوك الأول[3] ـ أن هذا العجل الذهبى إنما كان معبوداً مصريًا، وأنه الإلهة حاتحور، وأن هناك تمثالا بالمتحف المصرى بالقاهرة لهذه الإلهة البقرة، يرجع إلى أيام «أمنحتب الثانى» (١٤٣٦-١٤١٣ق.م) . وقد غطى الرأس والعنق والقرنان فى الأصل بالذهب ويشير إلى «العجل الذهبى» ، وقد وصف فى مكان آخر وكأنه الإلهة ذات القلادة المضيئة، مثل «السماء بنجومها» ، وهى تدعى «الواحدة الذهبية» أو «ذهب الآلهة» ، وهذه تشير كذلك إلى السبب فى أن العجل قد سمى بـ «الذهبى» وقد وجدت صور هذه الإلهة فى «بيت شان» و«جازر» و«أريحا» وأن الإلهة «عشتار» تمثل

(١) عبد الرحيم فودة، من معانى القرآن، ص ٢٠١

(٢) خروج ٣٢: ٤ (٣) ملوك أول ١٢: ٢٨

أحيانًا بلباس الرأس الخاص بـ «حاتحور»، ولهذا كله نستطيع أن نوحد العجل الذهبى بالإلهة المصرية «حاتحور».

هذا فضلا عن أن من صفات «حاتحور» أنها إنما كانت تدعى إلهة الحب والإلهة المرحة الطروب، ومن ثم فقد كانوا يسموها «الذهبية»، وقد دعاها اليونان «إفروديت»، ومن أجل ذلك نجد النسوة كنّ يخدمنها ويحتفلن بها بإقامة حفلات الرقص والغناء واللعب على الصاجات والشخشخة بقلائدهن، وبالعزف على الدفوف[١].

وإذا ما عدنا إلى سفر الخروج من التوراة[٢]، لرأينا أن الإسرائيليين بعد أن صاغوا عجلهم الذهبى قدموا له القرابين، ثم «جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب»، وأن موسى عندما اقترب من المحلة أبصر العجل والرقص، ثم تستطرد الرواية فتقول ـ طبقًا لترجمة اليسوعيين ـ «ورأى موسى الشعب أنهم عراة، لأن هارون كان قد عراهم أمام أعدائهم، لأجل ما هو عار نجاسة»[٣]، وهكذا تصور لنا التوراة جماعة إسرائيل، وهى ترقص عارية، ويذهب بها المرح من حول العجل الذهبى كل مذهب، مما يتفق ومظاهر الاحتفال بحاتحور.

على أن هناك فريقًا آخر إنما يعارض هذا الاتجاه، فالأستاذ «دياكونوف» L.M. DIAKONOFF يرى أن العجل الذهبى إنما كان فى صورة حيوان ذكر ـ وليس أنثى ـ ومن هنا فإنه يشك كثيراً فى أن الإسرائيليين قد صاغوا هذا العجل الذهبى تمجيداً للإلهة «حاتحور»[٤]، بينما يرى الدكتور ثروت الأسيوطى أن بنى إسرائيل قد قدسوا النجوم،

(١) أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣٦-٣٧؛ سليم حسن، مصر القديمة، ٢٠٨/١؛ جيمس بيكى الآثار المصرية فى وادى النيل، ١٨٩/٢.

(٢) خروج ٣٢: ٨. (٣) خروج ٣٢: ١٩، ٢٥.

(٤) L. Woolley, op.cit., p. 514.

وتقربوا إلى القمر ربيب الرعاة فى الليالى الرطبة، بعد الشمس المحرقة، ومن ثم فقد عبدوا العجل باعتباره رمزاً للقمر[١]، بل إن «جوستاف لوبون» إنما يذهب إلى أن العجل إنما كان من أصل كلدانى، وكان بنو إسرائيل يعبدون العجول المعدنية بعد خروجهم من مصر بطويل زمن، لارتوائهم من مبادئ ما بين النهرين الدينية، وكان هذا هو الوجه المفضل الذى يرمزون به إلى ربهم «يهوه»[٢].

وهناك ما يشير إلى أن هذا الإله العبرى «يهوه»، إنما هو فى الأصل إله قمرى، فقد كان يرسم فى العصور القديمة فى صورة «ثور»، فضلا عن أننا نجد قرنين فى مذبحه[٣]، إلى جانب أننا نفهم من العهد القديم (التوراة) أن الديانة العبرية قبل السبى البابلى فى القرن السادس ق.م، كانت توصف بأنها ديانة قمر وشمس وكواكب[٤].

هذا ويبدو واضحًا، أن الإسرائيليين - على أيام الملكية - إنما تبنى ملوكهم ديانات الشرك - بجانب ديانة يهوه - وأقاموا عجولا من الذهب وضعوها فى مبان كالمعابد، كما فعل يربعام الأول - أول ملوك دويلة إسرائيل بعد الإنقسام - فى دان وبيت إيل [٥]، كما أشرنا من قبل، وكما فعل خليفته البعيد «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ق.م) فى السامرة[٦].

وانطلاقًا من هذا كله فالرأى عندى: أن عجل الذهب الذى عبده بنو إسرائيل فى أوائل مرحلة الخروج - وموسى مايزال بين ظهرانيهم يتلقى الوحى من ربه فى سيناء - إنما كان تقليداً لعبادة العجل المقدس، وليس

---

(١) ثروت أنيس الأسيوطى، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، بنو إسرائيل، ص ١٤٩.

(٢) جوستاف لوبون، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ص ٦١.

(٣) ملوك أول ١٢: ٢٨؛ ملوك ثان ٣٣: ١١؛ خروج ٣٢: ٤؛ هوشع ٨: ٥-٦.

(٤) ملوك ثان ١٧: ١٦، ٢١: ٣، ٥، ٢٣: ٤-١٥؛ إرميا ٨: ٢.

(٥) ملوك أول ١٢: ٢٦-٣٦.

(٦) ملوك أول ١٦: ٣١-٣٣.

تقليداً لعبادة الإلهة حاتحور، وربما كان من أسباب ذلك أن الإلهة حاتحور إنما كانت معبودة فى مصر العليا ـ وبخاصة فى دندرة ـ أكثر منها فى مصر السفلى، أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم يشير إلى أن الإسرائيليين بمجرد عبورهم البحر، فإنهم تطلعوا إلى عبادة إله آخر، غير إله موسى، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة ﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون﴾[1].

وهكذا استطاع موسى بقوة إيمانه، ورسوخ عقيدته، وقوة شخصيته، أن يمنع قطيعه من الردة، إلا أن القطيع سرعان ما يهتبل فرصة ذهاب موسى إلى ميقات ربه لمدة ثلاثين ليلة، فلما أتمها له ربه أربعين، كفر القطيع بموسى، وإله موسى، وعاد إلى ما ألفه من عبادة العجول فى مصر.

ومن ثم فإننا نوافق الرأى الذى يذهب إلى أن معبود إسرائيل الذهبى فى سيناء، إنما كان عجلا، ولم يكن بقرة، صحيح أن بعض العلماء نادى بأن المعبود إنما كان بقرة، ولكن الذى يلزمنا هنا كلام الله عز وجل، سواء أكان ذلك فى التوراة[2]، أو فى الذكر الحكيم[3]، وليس ما درج الباحثون أن يقدموا، فإنما هو اجتهاد، وفوق كل ذى علم عليم، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾[4]، ويقول: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له

(١) سورة الأعراف، آية : ١٣٨.

(٢) خروج ٣٢: ٣-٦.

(٣) انظر: سورة البقرة، آية : ٥١، ٥٤، ٩٢، ٩٣؛ النساء، آية : ١٥٣؛ الأعراف، آية : ١٥٢.

(٤) سورة البقرة، آية : ٩٢؛ وانظر: تفسير الكشاف، ١٦٥/١؛ تفسير الطبرى، ٣٥٤/١-٣٥٨؛ تفسير النسفى ٧١/١-٧٢؛ تفسير روح المعانى ٣٢٥/١-٣٢٧؛ تفسير الطبرسى ٣٦٣/١-٣٦٧؛ التفسير الكاشف ١٥٣/١-١٥٤؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٩٧/١-٩٨؛ تفسير المنار ٣٠٨/١؛ تفسير ابن كثير ١٨٠/١-١٨١.

خُوارٌ، ألم يروْا أنّهُ لا يُكلِّمُهم ولا يَهْديهم سَبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين﴾[١] ويقول: ﴿فأخرجَ لهم عِجْلاً جسداً له خوار، فقال هذا إلهكم وإله موسى﴾[٢]

وأيًا ما كان الأمر، فإن كليم الله موسى سرعان ما يعود إلى قومه غضبان أسفا فيشتد فى اللوم على هارون أخيه، الذى يذكره بأنه «عالم بالشعب أنهم أشرار»، وبأنهم استضعفوه، وكادوا يقتلونه، وهنا يقرر موسى أن هذا الشر، ليس له من شفاء إلا شفار الأسنة يسلونها ليضرب بها اللاويون رقاب الآخرين، ونقرأ فى التوراة أنه وقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل[٣].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أمرين، الواحد أن الإسرائيليين جميعًا - فيما يرى سبينوزا[٤] - قد عبدوا العجل، باستثناء اللاويين، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان اللاويون - كما يرى سيجموند فرويد - هم بطانة موسى من كهنوت مصرى، فإن المصريين وحدهم هم الذين لم يعبدوا العجل، أو قل هم وحدهم الذين عبدوا ربَّ موسى عن عقيدة، لم تضعف حتى أمام وعيد فرعون وتهديده، ولعمرى إن الذين هددهم فرعون بقوله : ﴿فلأُقَطِّعَنَّ أيديَكُم وأرجلَكُم منْ خلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكُم فى جذُوعِ النَّخْلِ﴾ فكان ردهم: ﴿لَنْ نؤْثِرَكَ على ما جاءنا منَ البيِّنات، والذى فطرنا فاقض ما أنتَ قاض، إنما تقضى هذه الحياة الدُّنيا، إنَّا آمنَّا بربِّنا ليغفرَ لنا خطايانا وما أكْرَهْتَنا عليه منَ السِّحْر، واللهُ خيرٌ وأبقى﴾[٥]، هم

---

(١) سورة الأعراف، آية : ١٤٨؛ وانظر : الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٢١٩/٤-٢٢٠؛ تفسير الطبرى ١١٧/١٣-١١٨؛ تفسير ابن كثير ٤٧٣/٣؛ تفسير القرطبى، ص ٣٧٢٠-٢٧٢١؛ تفسير المنار ١٧٢/٩-١٧٥.

(٢) سورة طه، آية : ٨٨.

(٣) خروج ٢٦:٣٢-٢٩.

(٤) باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص ٤١٥.

(٥) سورة طه، آية : ٧١، ٧٣.

أنفسهم الذين بقوا على إيمانهم بالواحد القهار، لأن الذين آمنوا من أبناء شعب مصر، إنما كان إيمانهم أرسخ من الهرم، وكان استخفافهم بوعيد فرعون وتهديده بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم فى جذوع النخل، إن هؤلاء ليسوا هم الذين ينكثون عهدهم، ويرتدون عن دينهم، بمجرد أن يتخلف نبيُّهم فى ميقات ربِّه عشرةَ أيام، فوق الثلاثين المحددة.

وأما الأمر الآخر، فإن عقاب جريمة كفر إسرائيل كانت أشد وبالا ونكالا من المحن الأخرى التى تعرضوا لها، لقد كان فرعون يقتل أبناءَهم ويستحيى نساءهم، وها هم الآن يقتلون أنفسهم بأنفسهم، وهكذا نرى أن ما حلَّ ببنى إسرائيل فى ظل فرعون، كان من جنس ما حلَّ بهم فى ظل موسى، فقد كان ذلك بلاء من الله، وكان هذا بأمر من الله، وكلاهما محنة تنزل بالعصاة[١]، وأخيراً فهناك من يرى فى هذه الأحداث إشارة إلى وقوع فتنة مسلحة أو حرب أهلية من بنى إسرائيل فى سيناء[٢].

---

(١) عبد الرحيم فوده، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٢) محمد الغرب، موسى فى سيناء، الهلال، العدد ٦، القاهرة ١٩٧١، ص ٧٣.

٣ - ظهور فكرة الوطن عند بنى إسرائيل:

ويبدأ الإسرائيليون يفكرون فى وطن يستقرون فيه، وكان هذا الوطن هو أرض كنعان، رغم أنها لم تكن لهم دار قرار، إذ لم يقيموا فيها إلا لفترة وجيزة، لا تتجاوز أيام إسحاق ويعقوب - أو إسرائيل كما يسمونه - هاجروا منها بسبب قحط عمّ وطال، فكانت أرض النيل الوهاب هى الملجأ والمأوى، وفى تلك الآونة التى أقاموا فيها هناك فى الجنوب الفلسطينى لم يمتلكوا حتى مكان خيامهم، وها هم الآن بعد أن خرجوا من مصر - أو على الأصح بعد أن طردوا منها - يهيمون فى صحراوات سيناء المقفرة.

وهنا - وهنا فقط - بدأت فكرة الوطن عندهم، لأن ربّهم «يهوه»، كان - فيما تروى توراتهم - وقد وعدهم بأرض كنعان، ففكرة الوطن عند اليهود جاءت بعد ظهور بنى إسرائيل، وعادة تتطور الشعوب فى ظل أوطانها، ولكن بنى إسرائيل ظهروا إلى الوجود أولا، ثم ادعوا ملكية أرض لا حقّ لهم فيها[1].

وأما لماذا وقع اختيار بنى إسرائيل على فلسطين لتكون وطناً لهم؟ فذلك لأسباب كثيرة، منها (أولا) أن العبرانيين قد اعتادوا العيش فى أرض مصر الغنية، ومن ثم فهم لا يستطيعون البقاء فى الصحراء، ولابد لهم من الاندفاع تجاه وطن أفضل، وماداموا لن يستطيعوا العودة إلى مصر، فليس هناك أمامهم سوى كنعان، لقد كان العبرانيون - مهما قيل عن أسلافهم وأصلهم التاريخى - قبائل رحل، ولما كانوا رحلا فى الشرق الأدنى، فقد عاشوا - لا فى السهول الخضراء التى لا تنتهى - وإنما فى رقعة تقع بين البادية وبين الزرع، بين أخصب البقاع وبين نفى الحياة العام، إذ أنه فى هذه البقعة العجيبة من العالم يتجاور الخصب والبوار، فلابد أنهم اختبروا رفاه الحياة وعنتها فى كلا الحالتين، وقد تاق العبرانيون إلى الاستقرار فى

(١) عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٧٩.

السهول المرعة، ولكنهم كانوا يحلمون بأرض تفيض غلالاً كالتى تخيلها المصريون لآخرتهم[١].

ومنها (ثانيًا) ذلك السبب التقليدى، إذ كانت هذه القبائل الرحل ـ ولعدة أجيال ـ ترنوا بناظريها إلى «أرض الميعاد» حيث كان الأجداد يعيشون قبل رحيلهم إلى مصر[٢]، ومنها (ثالثًا) أن الإسرائيليين حين خرجوا من مصر فراراً من آل فرعون، أصبح عددهم يكفى لأن يقوم عليهم مجتمع، له كيان ونظام ومكان، وقد جاءت التوراة بالنظام، فأين يجدون المكان؟ إن أقرب مكان تطمح إليه أنظارهم ـ بعد مصر ـ إنما هو فلسطين[٣]، أو كنعان كما كنوا يسمونها، فهى كما حدثتهم أسفار موسى الخمسة، تفيض لبناً وعسلاً[٤].

٤ ـ الخوف من دخول كنعان:

وهكذا بدأ موسى يسير نحو كنعان، ولكن كنعان كانت عامرة بالسكان، ومن ثم فإن محاولة دخولها إنما تعنى الحرب بين اليهود وبين هؤلاء السكان، وهنا ـ وفى برية فاران ـ أمر الربُّ موسى أن يرسل بعضًا من رجاله يمثلون الأسباط جميعًا، لكى يتجسسوا أرض كنعان، ويقوم الجواسيس بمهمتهم، ثم يعودون إلى موسى بتفاصيل عما وجدوه فى الأرض من تحصينات، وما فيها من نقاط ضعف وقوة[٥]، غير أن القوم إنما ينقسمون إلى فريقين، الواحد ـ ويضم عشرة رجال ـ يرى أن اليهود أضعف من أن يقاوموا «لأن الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها هى أرض تأكل

---

(١) H. Frnakfort, in Before Philosophy, (Pelican Books), 1949, p. 246.

(٢) A.R. Hall, op.cit., p. 409.

(٣) عبد الرحيم فوده، المرجع السابق، ص ٢١٠.

(٤) خروج ٣: ٨؛ عدد ١٤: ٨؛ تثنية ٦: ١٥.

(٥) عدد ١٣: ١-٢٩.

سكانها، وجميع الشعب الذى رأينا فيها أناس طوال القامة، وقد رأينا هناك الجبابرة، فكنا فى أعيننا كالجراد، وهكذا كنا فى أعينهم»، وأما الفريق الآخر ـ ويضم كالب بن يفنة وهوشع بن نون ـ فقد عارض هذا الاتجاه، بل إن «كالب» ليقول: «إننا نصمد ونمتلكها لأننا قادرون»[١].

وهنا يثور بنو إسرائيل على موسى وهارون، ومع ذلك فإن موسى إنما يبدأ يحرضهم على القتال، ولكنهم كانوا مع كثرتهم ﴿تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتّى﴾[٢]، كانوا يخافون الحرب ويهابون القتال، إذ تمكنت منهم المذلة والصغار، فصاحوا بموسى وهارون قائلين: «ليتنا متنا فى أرض مصر، أو ليتنا متنا فى هذا القفر، ولماذا أتى بنا الربُّ إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف، تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة»[٣]، بل وقد ذهب بهم التمرد ـ طبقًا لرواية التوراة ـ حد الثورة على موسى شخصيًا، والمناداة بخلع رياسته، وقيام سلطة جديدة تعود بهم إلى مصر، يقول سفر العدد: «أليس خيرًا لنا أن نرجع إلى مصر، فقال بعضهم لبعض نقيم رئيسًا ونرجع إلى مصر»[٤].

ويصور القرآن الكريم هذا الحادث تصويرًا صادقًا ـ الصدق كل الصدق ـ مبينًا أن صفة الجبن عند الإسرائيليين، ليست صفة عرضية تزول بزوال أسبابها، وإنما هى جوهر مكوِّن للشخصية الإسرائيلية، يتناسق مع بقية الصفات الجوهرية الأخرى، لأن القرآن الكريم إنما يصفهم بالجبن، وبين ظهرانيهم نبيُّهم والناس يكونون أكثر تشوقًا للاستشهاد تحت قيادته وفى ظل لوائه، ولكن الإسرائيليين شعب لم يؤمن بنبيه[٥]، شعب ليس فى كيانه إلا عواطف ذليلة خانعة، وكيف يستطيع شعب ذليل لا يعرف سوى رائحة الشواء عند قدور اللحم فى مصر ـ وإن استعبد من أجل ذلك وذل ـ كيف

(١) عدد ١٣ : ٣٠-٣٣.
(٢) سورة الحشر، آية : ١٤.
(٣) عدد ١٤ : ١-٤.
(٤) عدد ١٤ : ٤.
(٥) عبده الراجحى، الشخصية الإسرائيلية، الإسكندرية ١٩٦٨، ص ٩٠.

يستطيع شعب كهذا أن يخوض المعارك، حتى وإن كان قائده كليم الله موسى، عليه السلام.

وإلى هذا يشير القرآن الكريم تعالى: ﴿قالوا يا موسى إنَّ فيها قومًا جبَّارين وإنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حتَّى يخرجوا منها فإنْ يخرجوا منها فإنَّا داخلونَ، قال رجلان منَ الَّذين يخافونَ أنعمَ الله عليهما ادخلوا عليهم البابَ فإذا دخلتموه فإنَّكم غالبونَ، وعلى الله فتوكَّلوا إنْ كُنتم مؤمنينَ، قالوا يا موسى إنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أبداً ماداموا فيها، فاذهب أنتَ وربُّكَ فقاتلاَ إنَّا هَا هُنَا قاعدونَ﴾(١)، وهكذا لم يستجب لموسى إلا أخوه هارون، فيشكوا لربِّه هؤلاء القوم الفاسقين الخانعين: ﴿قال ربِّ إنِّي لا أملكُ إلا نفسي وأخي فافْرقْ بيننَا وبينَ القومِ الفاسقين﴾(٢)

ولعل هذا الموقف يذكرنا ـ مع الفارق الكبير ـ بموقف المسلمين من رسول الله ـ ﷺ ـ قبيل بداية القتال في غزوة بدر الكبرى، وكانت القوة الإسلامية تكاد لا تبلغ ثلث القوة القرشية الكافرة، عندما وقف «المقداد بن عمرو» يقول لرسول الله ـ ﷺ ـ «يا رسولَ الله: امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقولُ لكَ، كما قالَ بنو إسرائيلَ لموسى: اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنَّا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا، إنَّا معكما مقاتلونَ».

---

(١) سورة المائدة، آية : ٢٢-٢٤؛ وانظر: تفسير روح المعاني ١٠٦/٤-١٠٨؛ تفسير الطبرسي، ٦٥/٦-٦٨؛ تفسير الطبرى ١٧١/١٠-١٨٧؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١٥٤/٣؛ تفسير النسفي، ٤٠١/١-٤٠٣؛ في ظلال القرآن ١٢٤/٦-١٢٨؛ تفسير الكشاف ٦١٩/١-٦٢١؛ تفسير المنار ٢٦٥/٦-٢٧٦؛ تفسير القرطبي، ص ٢١٢٠-٢٢٥؛ تفسير ابن كثير ٦٧/٣-٧٣.

(٢) سورة المائدة، آية : ٢٥؛ وانظر: تفسير النسفي، ٤٠٣/١؛ في ظلال القرآن ١٢٩/٦؛ تفسير الكشاف ٦٢١/١؛ تفسير ابن كثير ٧٣/٣؛ تفسير القرطبي، ص ٢١٢٥-٢١٢٦؛ تفسير المنار ٢٧٦/٦-٢٧٧؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١٥٤/٣؛ تفسير روح المعاني ١٠٨/٤-١٠٩؛ تفسير الطبرى ١٧٧/١٠-١٨٩؛ تفسير الطبرسي ٦٨/٦-٦٩.

ومن هذا المنطلق كذلك، يقف «سعد بن معاذ» ليرد على رسول الله ـ ﷺ ـ حين أراد أن يعرف رأى الأنصار، «لقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحقّ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنّا لصبر فى الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله»[١]

وهكذا بهذه الروح العالية، وبهدى من الله، وبإرشاد من رسول الله، وباتباع لكتاب الله، وسنّة رسوله، استطاع المسلمون أن يجعلوا راية الإسلام ترفرف عالية على ربوع الشرق، بعد أن طردوا الساسانيين والرومان من شرقنا العربى، ودكوا عروش الأباطرة، ونشروا الإسلام وشادوا الحضارة العربية الإسلامية[٢].

٥ ـ التيه:

وهكذا كان حكم الله العادل على هؤلاء القوم الفاسقين من بنى إسرائيل بالفناء والتشرد، تقول التوراة فى سفر العدد: «إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية، وجربونى الآن عشر مرات، ولم يسمعوا لقولى، لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم، وجميع الذين أهانونى لا يرونها»[٣].

(١) ابن هشام، سيرة النبىّ ١/٦١٤-٦١٥؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ٢/٣٩٢-٣٩٣؛ محمد أبو شهبة، السيرة النبوية فى ضوء النبوّة فى ضوء القرآن والسّنة، ٢/١٠٥-١٠٦؛ عماد الدين خليل، دراسة فى السيرة، ص ١٨٠-١٨١؛ تاريخ الطبرى ٢/٤٣٤-٤٣٥؛ الواقدى، كتاب المغازى ١/-٤٩ (تحقيق مارسدن خواس، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦)؛ ايتين دينيه وسليمان إبراهيم، محمد رسول الله، ص ٢٠٩-٢١٠؛ محمد الغزالى، فقه السيرة، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى ٢/٨؛ تفسير الطبرى، ١٠/١٨٥-١٨٦؛ تفسير ابن كثير، ٣/٧١-٧٢؛ مسند الإمام أحمد ١/٣٨٩-٣٩٠؛ صحيح البخارى ٥/٩٣، ٦/٦٤-٦٥.

(٢) انظر عن «غزوة بدر» : محمد بيومى مهران، السيرة النبوية الشريفة، الجزء الثانى، بيروت ١٩٩٠، ص ٥٩-١٠٧.

(٣) عدد ١٤ : ٢٢-٢٣.

ثم يقول الربُّ لموسى: «حيٌّ أنا يقول الربُّ: لأفعلن بكم كما تكلمتم في أذني، في هذا القفر تسقط جثثكم، جميع المعدودين منكم حسب عددكم، من ابن عشرين سنة فصاعداً، الذين تذمروا عليّ، لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكنكم فيها، ما عدا كالب بن يفنة وهوشع بن نون، وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فإني سأدخلهم فيعرفون الأرض التي احتقرتموها، فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر، وبنوك يكونون رعاة في القفر أربعين سنة، ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر، كعدد الأيام التي تجسستم فيها الأرض أربعين يومًا للسنة، يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة، فتعرفون ابتعادي أنا الربُّ، قد تكلمت لأفعلن هكذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة عليّ، في هذا القفر يفنون وفيه يموتون»[1].

وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

ويقرر بعض العلماء أن «التيه» هو الذي حدّد بأربعين سنة، وليس «التحريم»، فالتحريم مطلق أبدي، ومن أجل هذا يوقف في القراءة بعد قوله تعالى ﴿محرمة عليهم﴾، ثم يبتدأ بقوله تعالى ﴿أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾، ذلك لأن الرجال الصالحين للحرب، الذين عصوا موسى ماتوا في البرية أثناء السنين الأربعين، ولم يدخل أحد منهم إلى أرض الموعد، فكانت محرمة عليهم بإطلاق[3]، ويتفق هذا التفسير للنص القرآني تمامًا مع نص

(١) عدد ١٤: ٢٨-٣٥.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٦؛ وانظر: تفسير الكشاف، ٦٢١/١؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١/٣؛ تفسير الطبرسي ٦٩/٦-٧١؛ تفسير الطبري ١٩٠/١٠-٢٠٠؛ في ظلال القرآن ١٢٩/٦-١٣٠؛ تفسير النسفي ١٢٩/١-١٣٠؛ تفسير المنار ٢٧٧/٦-٢٧٩؛ تفسير القرطبي، ص ٢١٢٦-٢١٣٠؛ تفسير ابن كثير ٧٣/٣-٧٥.

(٣) عبد الوهاب النجار، المرجع السابق، ص ٢٢٨؛ تفسير الكشاف ٦٢٢/١؛ تاريخ الطبري ٤٣٦/١؛ تفسير القرطبي، ص ٢١٢٦-٢١٢٧؛ تفسير مجمع البيان ٧٠/٦؛ تفسير روح المعاني ١٠٩/٦؛ تفسير المنار ٢٧٧/٦؛ تفسير الظلال (في ظلال القرآن)، ١٢٩/٦؛ تفسير ابن كثير ٧٢/٣-٧٥؛ تفسير الطبري، ١٩٠/١٠-٢٠٠.

التوراة الآنف الذكر، ومن ثم يرى بعض العلماء أن جميع الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر، سوف يموتون فى البرية، ولن يروا أرض الميعاد أبداً، ما عدا يوشع بن نون وكالب بن يفنة[١].

وأما سبب فكرة التيه أربعين سنة فى البرية، فهو موضع خلاف بين العلماء، فهناك من يرى أنها إنما كانت بسبب خوف الإسرائيليين من المصريين، وانتظاراً للوقت المناسب الذى تضعف فيه السيادة المصرية على كنعان فيدخلونها آمنين[٢]، ومن ثم فقد مضت أربعون سنة قبل أن يستطيع بنو إسرائيل دخول أرض الميعاد، نجح فيها موسى فى أن يكوّن من هؤلاء العبيد المحررين حديثًا وحدة واحدة وأمة منظمة، وأن يطبعهم بطابع الصفات الخلقية والروحية التى كان يتطلبها قدرهم[٣].

والرأى عند العلامة «ابن خلدون» أن التيه إنما كان لإفناء أبناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة، وإنشاء جيل آخر عزيز، لا يعرف الإحكام والقهر، ولا يسام الذل والهوان، والعلماء يقررون أن حضانة العلم خمس عشرة سنة، فإذا ابتدأت أمة تتعلم فإنها تجنى ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة، وأما حضانة الأخلاق فمدتها أربعون سنة، فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فإنها لا تجنى الثمرة إلا بعد أربعين سنة، لذلك أراد الله تعالى أن يبقى بنو إسرائيل فى البرية أربعين سنة حتى يفنى الجيل الذى نشأ فى الذل والاستعباد وينشأ جيل ألف الحرية ولم تذله العبودية[٤].

على أن هناك فريقًا من العلماء إنما يرى أن فترة التيه هذه «إنما تتصل اتصالا وثيقًا بعقيدة إسرائيل الجديدة، ذلك لأن فترة الأربعين سنة التقليدية للتيه، إنما كانت ملائمة لغرس العقيدة الجديدة فى عقول وقلوب

(١) تفسير ابن كثير ٧٤/٣ (دار الشعب، القاهرة ١٩٧١).

(٢) حسين فوزى النجار، أرض الميعاد، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٥٦.

(٣) I. Epstein, op.cit., p. 32.

(٤) عبد الوهاب النجار، المرجع السابق، ص ٢٢٧-٢٢٨؛ مقدمة ابن خلدون، ص ١٧٠، بيروت ١٩٨١.

القوم الذين اعتادوا رونق الطقوس المصرية، كما أن تلك العقيدة سوف تتعرض لأخطار أعظم فيما بعد فى فلسطين[١]، مما يجعلها فى أشد الحاجة إلى فترة كافية لتثبيت الإيمان بها.

٦ ـ عودة التمرد الإسرائيلى ضد موسى:

وأيًا ما كان الأمر، فإن ثورات بنى إسرائيل ضد موسى، عليه السلام، سرعان ما تعود من جديد، ونقرأ فى سفر العدد من التوراة أن مائتين وخمسين من شيوخ إسرائيل، بقيادة «قورح» اللاوى، قد اتهموا موسى وهارون بأنهما يترفعان على جماعة الربّ، رغم أن كل الجماعة بأسرها مقدسة، وفى وسطها الربّ، ويحاول موسى أن يهدئ من ثائرة القوم، وأن يذكر قورح بأن الربّ إنما قرّب سبطه اللاويين إليه، دون بقية أسباط بنى إسرائيل، غير أن الثورة لا تهدأ، ومن ثم يرسل موسى فى طلب الزعيمين الآخرين«داثان وأبيرام»، لعله ينجح فى تهدئة القوم عن طريقهما، إلا أن الرجلين يرفضان الاجتماع بموسى، قائلين : «أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض عسلا ولبنًا لتميتنا فى البرية، حتى تترأس علينا ترؤسًا، كذلك لم تأت بنا إلى أرض تفيض عسلا ولبنًا، ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم، هل تقلع أعين هؤلاء القوم لا نصعد»[٢].

ولعل هذا هو السبب فى الثورات المتكررة من بنى إسرائيل على موسى وأخيه، ذلك لأن هؤلاء الرحل الشاردين الحائرين الذين كانوا يسعون جاهدين وراء حياة أفضل من الارتحال ويحلمون ـ بعد أن ذاقوا مرارة التنقل واشتد حنينهم إلى أرض كأرض مصر، تفيض لبنا وعسلا، مادامو لا يستطيعون العودة إلى مصر ـ لم يلبثوا أن انحنوا باللائمة على من أثارهم ضد أصحابها[٣].

---

(١) L. Woolley, op.cit., p. 497.

(٢) عدد ١٦: ١-٤١.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٢٢.

وعلى أى حال، فإن الثورة، قد انتهت بإبادة زعمائها، إذ «فتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم»، ثم سرعان ما خرجت نار من عند الربّ، فأكلت المائتين والخمسين رجلا، وأما بقية بنى إسرائيل فقد سلط الله عليهم وباء كاد أن يفنيهم عن بكرة أبيهم، لولا أن موسى قد أمر هارون بالإسراع بإيقاد البخور للتكفير عن جماعة الربّ، ومع ذلك فقد مات بهذا الوباء، أربعة عشر ألفاً وسبع مئة، عدا الذين ماتوا بسبب قورح»[1].

ولم يكتف الإسرائيليون بهذه الثورة، إذ سرعان ما تعاودهم آفتهم القديمة فيعادون للتمرد على موسى، بل إن الثورة هذه المرة إنما تتجاوز كل الحدود، فتصل إلى ذات الله العلية، وذلك «حين تكلم الشعب على الله وعلى موسى، قائلين: لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت فى البرية، لأنه لا خبز ولا ماء، وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف»، فسلط الله عليهم الحيات حتى أماتت منهم الكثيرين، ولم يرفع الله عنهم البلاء، إلا بتضرع إلى الله من موسى، وإلا بعد أن صنع موسى حية من نحاس، رفعها على سارية ليبرأ بها كل من لدغته حية[2].

٧ ـ الإسرائيليون على تخوم كنعان:

ويبدأ موسى، عليه السلام، يستعد لدخول أرض كنعان فيرسل رسلاً من «قادش»[3] إلى ملك أدوم، قائلا: «دعنا نمر فى أرضك، لا نمر فى حقل ولا فى كرم ولا نشرب ماء بئر، لا نميل يميناً ولا يساراً، حتى نتجاوز تخومك»، ولكن الملك الآدومى ـ سليل عيسو شقيق إسرائيل وتوأمه ـ لا

---

(١) عدد ١٦ : ٢٢-٣٥.

(٢) عدد ١٤ : ٥-٩؛ قاموس الكتاب المقدس ٣٣٢/١؛ وانظر: هانى رزق، يسوع المسيح، ص ١٥٣.

(٣) قادش، ربما يمكن تحديدها ـ طبقاً لروايات التوراة المختلفة ـ بأنها عند طرف برية صين غرب وادى العربة، ويرجح أنها «عين قديس» على مبعدة ٥٠ ميلا جنوبى بئر سبع، والأفضل أن تكون «عين قضيرات» على مقربة من عين قديس.

يجيب سؤلهم، ومن ثم يجد الإسرائيليون أنه لا مناص من الذهاب إلى جبل «هور» حيث يموت هارون هناك(١)، وهذا يدل على أنه كانت هناك مملكة قوية فى آدوم فى ذلك الوقت، وأن الأرض إنما كانت تعبر من «طريق الملك العمومى»، كما يدل على أن حضارة مزدهرة إنما كانت هناك فى أدوم فى تلك الفترة(٢).

وعلى أى حال، فإن ملك «عراد»(٣) الكنعانى، عندما يسمع بقدوم الإسرائيليين، سرعان ما يشعل عليهم حرباً، يسبى فيها الكثير منهم، ومن ثم فقد «نذر إسرائيل نذراً للربِّ، وقال: إن دفعت هؤلاء القوم إلى يدى أحرم مدنهم، فسمع الربُّ لقول إسرائيل ودفع الكنعانيين فحرموهم ومدنهم»(٤)، وفى الواقع أننا لم نسمع من قبل، أن ينذر الناس لربِّهم إحراق أعدائهم - وكذا مدنهم - إن كتب الله لهم عليهم نصراً، ولكن ما حيلتنا والتوراة لا تصور إله اليهود هذا، إلا قاسياً مدمراً، متعطشاً للدماء، متعصباً لشعبه، لأنه إله اليهود فحسب، وليس إله العالمين.

وأيًا ما كان الأمر، فإن الملك الآدومى عندما رفض أن يسمح للإسرائيليين فى مملكته، فإنهم اضطروا إلى أن يسلكوا طريقاً شاقًا فى البرية، ونقرأ فى التوراة، أنهم قد ارتحلوا «من جبل هور فى طريق بحر سوف ليدوروا بأرض آدوم»(٥).

وهكذا يضطر الإسرايليون إلى أن يتجولوا هنا وهناك فى شرق الأردن، دون أن يستطيعوا العبور إلى غربه، محتكين بكل القبائل الساكنة هناك، والرافضة أيضاً استقبال أى واحد من بنى إسرائيل، وأخيراً وصل الإسرائيليون

(١) عدد ٢٠: ٢٢-٢٩.

(٢) J. Finegan, Light From the Ancient Past, 1969, p. 152.

(٣) عراد: اسم عبرى معناه «حمار الوحش»، وهى هنا بلد يقع فى الأقسام الجنوبية من اليهودية، على مسافة سبعة عشر ميلا من حبرون (الخليل).

(٤) عدد ٢١: ١-٣.

(٥) عدد ٢١: ٤.

إلى «مؤاب» شمال آدوم، وذلك حين «نزلوا فى عييّ عباريم[١] فى البرية، التى قبالة مؤاب، وإلى شروب الشمس، ومن هناك ارتحلوا ونزلوا فى وادى زارد[٢]، ومن هناك ارتحلوا ونزلوا عبر أرنون[٣] الذى فى البرية، خارجًا عن تخم الآموريين، لأن أرنون هو تخم مواب بين مؤاب والأموريين»[٤].

ويتجه الإسرائيليون بعد ذلك إلى أرض جلعاد ـ منطقة الآموريين ـ وكان «سيحون» ملك الآموريين قد أخذ أرضًا من مؤاب، واتخذ من «حشبون»[٥] عاصمة له، ثم امتدت أملاكه من نهر أرنون إلى نهر يبوق، والتى هى الآن وادى الزرقاء، وبينما كان الإسرائيليون مضطرين إلى الدوران حول آدوم ومؤاب، فقد نجحوا فى تحدى «سيحون» فى «ياهص»[٦]، كما نجحوا كذلك فى تحدى «عوج» ملك باشان فى «أذرعى»[٧]، وبذلك تمكنوا من الوصول إلى الأردن فى مقابل «أريحا»[٨].

---

(١) عباريم، سلسلة جبال الأردن، سميت عباريم لأنها فى عبر النهر، وتمتد من وادى قفرين فى الشمال، إلى وادى الزرقاء ووادى الحسا فى الجنوب، ولها عدة قمم، منها نبو وهوشع وعجلون.

(٢) زارد: اسم عبرى معناه «ازدهار» وهو جدول ماء يخرج من جبل عباريم ويصب فى البحر الميت (بحر لوط) فى الجزء الجنوبى الشرقى منه، وكان يمثل الحد الطبيعى بين أدوم ومؤاب، ويعرف الآن بوادى الحصى (قاموس الكتاب المقدس، ٤٢١/١-٤٢٢-٤٢٢).

(٣) أرنون: وهو نهر يدعى الآن «وادى الموجب» فى المملكة الأردنية الهاشمية، ويتكون من وادى «وله» الذى يأتى من الشمال الشرقى، ووادى «عنقيلة» الآتى من الشرق، و«سيل الصعدة» الآتى من الجنوب، ويجرى نهر أرنون فى غور عميق حتى يصل إلى البحر الميت فى نقطة تقع إلى مسافة قصيرة من منتصف الشاطئ الشرقى (قاموس الكتاب المقدس، ٥٧/١).

(٤) عدد ٢١: ١١-١٣.

(٥) حشبون: وتعرف الآن باسم: «آدينة خربة، قائمة على تل منعزل بين أرنون ويبوق، وتقع على مبعدة سبعة أميال ونصف، شمال «مادبا»

(٦) ياهص: وتقع على مبعدة ميل جنوب زرقاء معين، واثنى عشر ميلا شرقى البحر الميت، وقيل أنها قرية أم المواليد، أو خربة إسكندر (قاموس الكتاب المقدس، ١٠٤٩/١).

(٧) أذرعى: وتسمى الآن «درعة» وتقع فى وادى زيدة، على مبعدة تسعة وعشرين ميلا، شرقى الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية، وعلى الحدود بنى الأردن وسورية (قاموس الكتاب المقدس ٤٢/١).

(٨) عدد ٢١: ٢١-٣٥، ١٢: ١؛ تثنية ٢: ٢٦-٣: ١١.

وهناك من يميل إلى تأريخ هذه الأحداث بنهاية عصر البرونز الأخير، وقرب بداية عصر الحديد، ذلك لأن التوراة إنما تحدثنا في سفر التثنية[١] أن عوج «ملك باشان»، إنما كان له سرير من حديد، وإن كان البعض الآخر، إنما يذهب إلى أن هذه العبارة إنما تشير إلى «ناؤوس» من البازلت الأسود، كان به ٢٠٪ من الحديد[٢].

وأيًا ما كان الأمر، فمن رأس الفسجة، التي يفترض أنها جزء من جبل «نبو» ـ على مبعدة ثمانية أميال إلى الشرق من نهر الأردن ـ نظر موسى إلى أرض الميعاد، ومات ودفن في أرض مؤاب[٣].

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين.

---

(١) تثنية ٣: ١١.

(٢) J. Finegan, op.cit., p. 154.

(٣) تثنية ٣: ٢٧، ٣٤: ١، ٦؛ وانظر:

Sylvester J. Saller, The Memorial of Moses on Mount Nebo, 2 Vols., 1941.

المؤلف فى سطور

دكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

١ ـ ولد فى البصيلية ـ مركز إدفو ـ محافظة أسوان.

٢ ـ حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمدرسة المعلمين بقنا، حيث تخرج فيها عام ١٩٤٩.

٣ ـ عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩-١٩٦٠).

٤ ـ حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠.

٥ ـ عين معيداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١م.

٦ ـ حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف فى التاريخ القديم من كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م.

٧ ـ عين مدرسًا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م.

٨ ـ عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤م.

٩ ـ عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩.

١٠ ـ أعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض فى الفترة ١٩٧٣-١٩٧٧م.

١١ ـ عين عضواً فى مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية فى عام ١٩٨٢م.

١٢ ـ عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٨٢م.

١٣ ـ أعير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣–١٩٨٧م.

١٤ ـ عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية (١٩٨٧–١٩٨٨م).

١٥ ـ اختير مقرراً للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨–١٩٨٩م).

١٦ ـ عين أستاذاً متفرغاً فى كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٨م.

١٧ ـ عضو لجنة التراث الحضارى والأثرى بالمجالس القومية المتخصصة.

١٨ ـ عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار.

١٩ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.

٢٠ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.

٢١ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى التاريخ.

٢٢ ـ أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه وماچستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية.

٢٣ ـ أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢م.

٢٤ ـ شارك فى حفائر كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية فى الوقف ـ مركز دشنا ـ محافظة قنا، (فى عام ١٩٨٠/١٩٨١م)، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق ـ محافظة كفر الشيخ فى عام (١٩٨٣/٨٢م).

٢٥ ـ عضو اتحاد المؤرخين العرب.

مؤلفات

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

أولا ـ التاريخ المصرى القديم:

١ ـ الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية	الإسكندرية ١٩٦٦
٢ ـ مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث	الإسكندرية ١٩٦٩
٣ ـ حركات التحرير فى مصر القديمة	القاهرة ١٩٧٦
٤ ـ إخناتون: عصره ودعوته	القاهرة ١٩٧٩

ثانيا ـ فى تاريخ اليهود القديم:

٥ ـ التوراة (١) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٣.	الإسكندرية ١٩٧٠
٦ ـ التوراة (٢) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٤.	الإسكندرية ١٩٧٠
٧ ـ التوراة (٣) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٥.	الإسكندرية ١٩٧٠
٨ ـ قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٦.	الإسكندرية ١٩٧١
٩ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود ـ مجلة الأسطول، العدد ٦٧.	الإسكندرية ١٩٧١
١٠ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٨.	الإسكندرية ١٩٧١
١١ ـ أخلاقيات الحرب عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٩.	الإسكندرية ١٩٧١
١٢ ـ التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧٠.	الإسكندرية ١٩٧٢
١٣ ـ إسرائيل، الجزء الأول، التاريخ.	الإسكندرية ١٩٧٨
١٤ ـ إسرائيل، الجزء الثانى، التاريخ.	الإسكندرية ١٩٧٨
١٥ ـ إسرائيل، الجزء الثالث، الحضارة.	الإسكندرية ١٩٧٩

١٦ ـ إسرائيل، الجزء الرابع، الحضارة. الإسكندرية ١٩٧٩

١٧ ـ النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل. الإسكندرية ١٩٧٩

ثالثاً ـ فى تاريخ العرب القديم:

١٨ ـ الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلى. الرياض ١٩٧٤

١٩ ـ العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة. الرياض ١٩٧٦

٢٠ ـ مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة. الرياض ١٩٧٧

٢١ ـ الديانة العربية القديمة. الإسكندرية ١٩٧٨

٢٢ ـ العرب والفرس فى العصور القديمة. الإسكندرية ١٩٧٩

٢٣ ـ الفكر الجاهلى. القاهرة ١٩٨٢

رابعاً ـ فى تاريخ العراق القديم:

٢٤ ـ قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة. الرياض ١٩٧٦

٢٥ ـ قانون حمورابى وأثره فى تشريعات التوراة الإسكندرية ١٩٧٩

خامساً ـ سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم:

٢٦ ـ الجزء الأول ـ فى بلاد العرب. بيروت ١٩٨٨

٢٧ ـ الجزء الثانى ـ فى مصر. بيروت ١٩٨٨

٢٨ ـ الجزء الثالث ـ فى بلاد الشام بيروت ١٩٨٨

٢٩ ـ الجزء الرابع ـ فى العراق بيروت ١٩٨٨

سادساً ـ سلسلة مصر والشرق الأدنى القديم:

٣٠ ـ مصر ـ الجزء الأول. الإسكندرية ١٩٨٨

٣١ ـ مصر ـ الجزء الثانى. الإسكندرية ١٩٨٨

٣٢ ـ مصر ـ الجزء الثالث. الإسكندرية ١٩٨٨

٣٣ ـ الحضارة المصرية ـ الجزء الأول. الإسكندرية ١٩٨٩

٣٤ ـ الحضارة المصرية ـ الجزء الثانى. الإسكندرية ١٩٨٩

٣٥ ـ تاريخ العرب القديم (جزءان). الإسكندرية ١٩٩٤

٣٦ ـ الحضارة العربية القديمة — الإسكندرية ١٩٨٨

٣٧ ـ بلاد الشام — الإسكندرية ١٩٩٠

٣٨ ـ تاريخ السودان القديم — الإسكندرية ١٩٩٤

٣٩ ـ المغرب القديم — الإسكندرية ١٩٩٠

٤٠ ـ العراق القديم — الإسكندرية ١٩٩٠

٤١ ـ التاريخ والتأريخ — الإسكندرية ١٩٩١

سابعاً ـ سلسلة : فى رحاب النبىّ وآل بيته الطاهرين:

٤٢ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الأول — بيـــروت ١٩٩٠

٤٣ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثانى — بيـــروت ١٩٩٠

٤٤ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثالث. — بيـــروت ١٩٩٠

٤٥ ـ السيدة فاطمة الزهراء — بيـــروت ١٩٩٠

٤٦ ـ الإمام على بن أبى طالب (الجزء الأول) — بيـــروت ١٩٩٠

٤٧ ـ الإمام علي بن أبى طالب (الجزء الثانى) — بيـــروت ١٩٩٠

٤٨ ـ الإمام الحسن بن علي — بيـــروت ١٩٩٠

٤٩ ـ الإمام الحسين بن علي — بيـــروت ١٩٩٠

٥٠ ـ الإمام علي زين العابدين — بيـــروت ١٩٩٠

٥١ ـ الإمام جعفر الصادق — تحت الطبـــع

ثامناً ـ معجم المدن الكبرى فى مصر والشرق الأدنى القديم:

٥٢ ـ الجزء الأول، مصر ـ الجزيرة العربية ـ بلاد الشام — بيـــروت ١٩٩٧

٥٣ ـ الجزء الثانى: العراق ـ المغرب ـ السودان — بيـــروت ١٩٩٧

٥٤ ـ دراسة حول التأريخ للأنبياء ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية ـ العدد ٣٩ لعام ١٩٩٢

٥٥ ـ الإعجاز فى القرآن ـ دراسة فى الإعجاز التاريخى ـ الإسكندرية ١٩٩٣.

تاسعاً ـ سلسلة الإمامة وأهل البيت:

فهرس الموضوعات

الباب الثالث

الباب الرابع

ملاحظة: المراجع فى الجزء الثانى من القسم الأول ـ التاريخ